

للكبير على الورق

استاذ مترس

بجامعة بغداد

لمحات اجتماعية
من

نايخ العراق الحديث

ملحق الجزء السادس

(قصة الاشراف وابن سعود)

المقدمة

ان هذا البحث قد وضعته ملحقاً للجزء السادس من كتابي « ملحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث » ، ولكنه في الواقع يصلح أن يكون ملحقاً لجميع أجزاء الكتاب - السابقة واللاحقة معا - انه بحث في أحداث وقعت في الحجاز ونجد وسوريا ، وهي كلها ذات صلة وثيقة بالمجتمع العراقي وأحداثه ابتداءً من النزاع الصفوي العثماني حتى ثورة الرابع عشر من تموز . وقد يصح أن أقول ان تلك الاحداث تلقي ضوءاً غير قليل على أحداث العراق وتساعد على فهمها ، كما انها قد تساعد القارئ على فهم بعض خفايا الطبيعة البشرية وعقدها ومشاكلها بوجه عام .

نزاع الحسين وابن سعود :

يضم هذا الملحق تفاصيل مسهبة عن النزاع بين الحسين بن علي وعبدالعزیز بن سعود ، وهو نزاع يمكن اعتباره نموذجاً لما يجري بين البشر من تنازع على البقاء حيث يعتقد كل فريق منهم أن الحق معه وحده ، وان الباطل مع خصمه . ونحن اذ ندرسه الآن دراسة موضوعية حيادية نجد ان كلا من الفريقين انما يأخذ من الحقيقة الجانب الذي يعجبه وينبذ الجانب الآخر .

اني أدركت في صباي الزمن الذي كان فيه الصراع محتدماً بين الحسين وابن سعود ، ورأيت الناس في العراق منقسمين الى فريقين : أحدهما هاشمي الهوى والآخر سعودى . وكنت كثيرى من الناس مندفعاً بما تمليه عليّ بيئتي الاجتماعية ، فكنت أتعصب لما يتعصبون له ، وأنطق كما ينطقون . ولكني بعدما مرت بي تجارب الحياة واطلعت على اسرار

التاريخ أدركت أنني كنت أنظر الى الحقيقة من جانب واحد ، وان هناك جانباً آخر ينبغي النظر اليه أيضاً •

ان نزاع الحسين وابن سعود يمثل صراعاً بين شخصيتين متضادتين - على نحو ما صورّه برنارد شو في مسرحياته • فاحدهما مثالية مليئة بالاحلام والمبادئ ، والثانية واقعية لاتميل الى الاحلام والمثل بل تريد النجاح في الدنيا ولا تبالي بغيره • ومشكلة هذه الدنيا ان الشخصية الاولى كثيراً ما تخفق فيها وتآلم ، وان الثانية كثيراً ما تنجح وتزهو • ومن الممكن القول ان كلاً من هاتين الشخصيتين لها دورها في مسيرة التاريخ، ولا بد للتاريخ من وجود عاملين يتفاعلان عليه أحدهما مثالي والآخر واقعي •

أحداث سوريا :

ان الفصل الخاص بأحداث سوريا هو أكبر الفصول في هذا الملحق ، ولا أكتس القارىء ان هذا الفصل أجهدني كثيراً ، ولعله أكثر الفصول اجهاداً لي في جميع الكتب التي ألقتها •

يبحث هذا الفصل في الفترة التي تولى فيها فيصل بن الحسين الحكم في سوريا ، وهي فترة امتدت نحو سنتين ، فيما بين تشرين الاول ١٩١٨ وتموز ١٩٢٠ ، وكانت فترة صاخبة مليئة بالعبر ، ومن الجدير بكل قارىء عربي أن يطلع على أحداثها ويعتبر بها •

ان سوريا كانت في خلال تلك الفترة القصيرة أول دولة عربية في العصر الحديث تنال استقلالها وتحكم نفسها على الطريقة الديمقراطية الغربية • ولم يكن فيصل آنذاك قد تعلم فن السياسة جيداً ، وقد حاول أن يكون حاكماً شعبياً ، فكان لا يبت في أمر قبل أن يستشير الشعب فيه • ولكن التجارب القاسية التي عاناها في تلك الفترة علمته دروساً لم يستطع

نسيانها طيلة حياته • وتحين أصبح ملكاً في العراق بعدئذٍ كانت الدروس التي تعلمها في سوريا نصب عينيه دائماً • ولهذا رأيناه يتبع في العراق سياسة مزدوجة ، اذ كان يداري الشعب تارة ويداري الانكليز تارة أخرى ، وقد قاسى من جراء ذلك ما قاسى ، وكان ذلك من أسباب موته المبكر •

ان كثيراً من العراقيين قد تولوا المناصب العالية في سوريا خلال تلك الفترة ، ولما عادوا الى العراق بعدئذٍ كان لهم النصيب الاكبر من المناصب العالية فيه • ولكن الدروس التي تعلموها في سوريا كانت متفاوتة الاثر فيهم • فمنهم من تعلم كثيراً ، ومنهم من تعلم قليلاً ، ومنهم من لم يتعلم شيئاً • وحاول فيصل أن يكون فيهم كقائد الاركسترا ينظم عزفهم • وقد نجح في ذلك الى حد غير قليل • ولكنه لم يكد يموت في عام ١٩٣٣ حتى صاروا يتكالبون على الحكم تكالباً عجيباً ، ومرت فترة أمدها ثمانى سنوات كانت أبشع فترة في تاريخ العراق المعاصر • يقول الامير زيد : • بعد فيصل الاول ابتعد حكام العراق عن الشعب • صاروا لا يعرفون ما يريد الشعب • حذرت ونبهت ولكن لم يسمع مني أحد ، (١) •

الاشراف والمجتمع :

حاولت في الفصلين الاول والثاني من هذا الملحق دراسة جانب من تاريخ اشراف مكة • ولعل من النافع أن أتطرق في هذه المقدمة الى دراسة ظاهرة الاشراف بوجه عام لما لها من أهمية اجتماعية وتاريخية ذات صلة وثيقة بالمجتمع العراقي •

ان الاشراف في الواقع يملكون ظاهرة اجتماعية نلاحظها في جميع البلاد الاسلامية ، وهي ظاهرة تقديس الافراد الذين ينتمون بالنسب الى

(١) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) - عمان ١٩٧٦ - ص ٢٠٤

النبي واعتبارهم طبعه عاليه متميزة عن غيرهم من الناس^(٢) .

تُطلق على الفرد من هذه الطبقة ألقاب مختلفة في البلاد المختلفة .
ففي العراق وايران واليمن وحضرموت وماليزيا وأندونيسيا يُطلق عليه لقب « السيد » ، وفي مصر والمغرب لقب « الشريف » ، وفي بعض أنحاء الهند وتركيا لقب « المير » ، وفي أفريقيا الشرقية والجنوبية « مولى » . أما في الحجاز فيُطلق على الحسيني لقب « الشريف » ، وعلى الحسيني لقب « السيد » .

أن بداية ظهور الطبقة المتميزة في المجتمع الاسلامي كانت في العهد الاموي تحت اسم « قريش » ، أما قبل ذلك فكان المسلمون كلهم طبقة واحدة لاتفرق بينهم . وقد ظلت قريش تميز على الناس حتى جاء العهد العباسي ، وعند ذلك تقلص نطاق تلك الطبقة حيث أصبحت مقصورة على الهاشميين وحدهم ، وهم فئتان : العباسيون والطياليون . وكانت لكل فئة منهما نقابة خاصة بها ترعى أفرادها وتنظر في أمورهم ودعاواهم . ولما دالت دولة العباسيين أصبحت الطبقة مقصورة على الطاليين وحدهم ، وقد تقلصت هي أيضا فصارت تشمل العلويين من أولاد فاطمة فقط . وظلت كذلك حتى يومنا هذا .

ومما يلفت النظر ان هذه الطبقة لها أحكام خاصة بها في الفقه الاسلامي . يقول حسن النجار في كتابه « الاشراف » ما نصه :

« ذكر العلامة الاجهوري في مشارق الانوار رواية عن مالك أنه يجوز أن يأخذ الاشراف صدقة الفرض وهي الزكاة السنوية . . . ويمنع أن يأخذوا من صدقة التطوع لأن في الثانية ذلا دون الاولى . ولكن المشهور عند أكثر الحنفية والشافعية وأحمد جواز أخذهم من صدقة

(٢) انظر فيما يخص مكانة « السادة » في المجتمع العراقي كتاب المؤلف « دراسة في طبيعة المجتمع العراقي » - الفصل التاسع .

التطوع دون صدقة الفرض . . . وقال بعض الباحثين في حكمة التشريع ان سبب تحريم الصدقة عليهم أنها أوساخ الناس فهم أرفع قدرا وأعظم منزلة من ان تكون يدهم سفلى . وقال البعض أن سبب التحريم أنه قد كان لهم قديماً خمس الخمس من الغنيمة والفبيء المأخوذين من الاعداء في الجهاد ، فلما منع عنهم هذا الحق الآن جاز لهم أخذ الصدقة سواء كانت فرضاً أو نفلاً . وهذا السبب الاخير وجيه مقبول وعليه الفتوى الآن . غير أنه ينبغي للمتصدق عليهم أن يتأدب معهم حين يعطيهم فلا ينوي بذلك التصدق بل ينوي الهدية والتقرب الى رسول الله بواسطتهم . . . (٣) .

هذه هي وجهة نظر الفقه السني في الاشراف ، أما الفقه الشيعي فهو قد جعل للاشراف مكانة أعلى ونصيياً اكبر من الخمس اذ خصص لهم نصف الخمس بدلا من خمسة . وهناك فرق آخر بين الفقهاء في هذا الشأن هو أن الفقه السني فرض الخمس على الفبيء والغنائم فقط ، بينما الفقه الشيعي فرض الخمس على جميع المكاسب والارباح بالاضافة الى الفبيء والغنائم .

ومن الجدير في الذكر في هذا الصدد أن بعض الفقهاء لم يعترفوا بهذا التمييز الطبقي للاشراف ، وحجبتهم في ذلك ان الاسلام جاء لمحاربة الطبقات والاعتزاز بالنسب ، وليس من المعقول أن تنشأ فيه طبقة جديدة محل الطبقات التي زالت . وهؤلاء الفقهاء يفسرون « آل محمد » بأن المقصود بهم أمة محمد لا عترته ، ولهم في ذلك ادلة كثيرة لامجال هنا لذكرها (٤) . ولكن هذا الرأي لا يقول به الا قلة من المسلمين ، أما الجمهور الغالب منهم فهم يرون خلافه ، ويروون في ذلك أحاديث نبوية

(٣) حسن النجار (الاشراف) - القاهرة ١٩٣٨ - ص ٣٠ - ٣١ .

(٤) انظر في هذا الموضوع كتاب « الاسلام الصحيح » لمحمد اسعاف النشاشيبي . وانظر في الرد عليه كتاب « الايمان الصحيح » لمحمد الكاظمي القزويني .

كثيرة وقد جمع هذه الاحاديث ابن حجر الهيتمي في كتابه « الصواعق
المحرقة في الرد على اهل البدع والزندقة » .

العمامة الخضراء :

أصبحت العمامة الخضراء في العصور المتأخرة هي العلامة التي تميز
الأشراف عن غيرهم . وتنسب بدايتها الى الخليفة العباسي المأمون ، فهو
عندما عين الامام العلوي علي الرضا ولي عهد له في عام ٢٠١ هـ خلع
السواد الذي كان شعار العباسيين ولبس الخضرة بدلا عنه . ولكن ذلك
لم يدم طويلا اذ سرعان ما عاد المأمون الى السواد بعد موت علي الرضا .
وقد نسي اللون الاخضر بعد ذلك الى أن أعاده في مصر الملك الاشرف
شعبان في عام ٧٧٣ هـ ، حيث أمر بأن يضع الاشراف في عمامتهم علامة خضراء
تميزهم . يقول المقرئزي : ان هذا السلطان ألزم الاشراف بأن يتميزوا
بعلامة خضراء في عمامتهم الرجال وأزر النساء ، فعملوا ذلك واستمر .^(٥)

ظل الاشراف يتميزون بعلامة خضراء في عمامتهم حتى عام ١٠٠٤ هـ
عندما أمر حاكم مصر بأن تكون عمامة الاشراف كلها خضراء^(٦) . ومنذ
ذلك الحين انتشرت العمامة الخضراء في كثير من البلاد الاسلامية كعلامة
تميز الاشراف عن غيرهم .

الواقع أن الاشراف لم يلتزموا كلهم بالعمامة الخضراء ، فمنهم من
ظل محافظاً على العمامة البيضاء كما هو الحال في أشراف الحجاز واليمن ،
ومنهم من لم يرغب أن يميز نفسه بأية علامة مهما كانت . والملاحظ بين
شيعة العراق وايران ان السيد فيهم اذا كان من رجال السدين أو كان
موسويا أي من سلالة موسى الكاظم لبس العمامة السوداء . والمظنون ان

(٥) تقي الدين المقرئزي (كتاب السلوك) - القاهرة ١٩٧٠ - ج ٣ ،
ق ١ ، ص ١٩٩ .

(٦) Encyclopaedia of Islam, art Sherif.

هذه العمامة من بقايا العهد العباسي ، ولعل الشريف الرضي أول من بدأ بها . فالمعروف عن الرضي انه عندما تولى نقابة الطالبيين في عام ٤٠٣ هـ اتخذ السواد له شعارا على زي العباسيين^(٧) .

وعلى أي حال فإن بعض الاشراف اتخذوا للعمامة الخضراء وسيلة للاستجداء المقنع ، كما أن بعض الذين هم ليسوا بأشراف اتخذوها وسيلة لرفع مكانتهم الاجتماعية وللاستجداء أيضاً . يحدثنا حسن النجار عن بعض الحيل التي يلجأ اليها المشعوذون في مصر في القرن العشرين فيقول ما نصه :

• يلبس بعض من لا اتصال لهم بآل البيت عمامة خضراء بحجة أنه نقيب أحد الاسياد ، أو ليجلس بجوار مقام أحدهم ، مدعياً أنه الشريف منكود الحظ فقير الحال وأنه يريد كذا وكذا على قبول جده الحسين والسيدة مع أنه لا يمت اليهما بصلة القرابة . وفي نظري ان مثل هذا الدجال الملقوت مع أنه أثم بلبس العمامة الخضراء التي أفتى العلماء بأختصاص الاشراف بها ، هو فوق ذلك خداع غشاش يبتز أموال الناس بالحيل ويأكلها بالباطل . ومن الدجل بالعمامة الخضراء أيضاً ما فعله رجل من أقصى الصعيد ، فلقد خطب بتناً شريفة بالقاهرة مدعياً أنه الشريف ، فلما رأوا على رأسه علامة الشرف صدقوه . ثم لم يكدهم على علم أبوها من أحد أقاربه أنهم بالصراحة ليسوا من الاشراف...^(٨) .

دعامة الاحلام :

ان المكانة العالية التي يتمتع بها الاشراف في المجتمع الاسلامي

(٧) آدم متز (الحضارة الاسلامية) ترجمة أبو رييدة - بيروت ١٩٦٧ - ج ١ ، ص ٢٩٠ .

(٨) حسن النجار (المصدر السابق) - ص ٤٧ - ٤٨ .

وجدت لها دعاءات سداها ، أولاهما كثرة الأحاديث التي تُنسب إلى النبي في الحث على رعاية ذريته واحترامهم ، والثانية رؤية المسلمين للنبي أو أخته فاطمة في المنام وهما يحثانهم على رعاية ذريتهما .

من العقائد التي راجت بين المسلمين أنهم إذا رأوا النبي في منامهم يحسبون أنهم قد رأوه حقاً ، لأن الشيطان حسب اعتقادهم لا يمكن أن يتشبه بالنبي في المنام . وقد أدت هذه العقيدة إلى ظهور كثير من الأساطير والتقاليد غير الصالحة في المجتمع الإسلامي - كما شرحت ذلك بتفصيل في كتاب « الأحلام بين العلم والعقيدة » .

إن كثيراً من الأحلام التي تحت على احترام الأشراف قد رويت في الحجاز . وسبب ذلك أن الأشراف حكموا الحجاز مدة طويلة جداً وكانوا كغيرهم من حكام العصور السالفة يظلمون الناس ويعتدون عليهم ، كما أن بعض الأشراف كانوا بدواً يقطعون الطرق على الحجاج . ولذا كان الناس يذمرون منهم ويلعنونهم طبعاً ، وعند هذا يظهر النبي أو أخته فاطمة لهم في المنام ليوبخاهم على تذرهم ولعنهم .

روى ابن حجر الهيتمي وغيره كثيراً من هذه الأحلام واستدلوا بها على كرامة الأشراف وعلى وجوب رعايتهم والتجاوز عن سيئاتهم بحكم الشرع . وفيما يلي نقتل مجموعة من هذه الأحلام اخترناها من مختلف المصادر :

(١) كان أحد الأشراف في المدينة ، واسمه مطير ، يلعب بالحمام - أي (مطيرجي) حسب تعبيرنا في العراق - ولما مات امتنع أحد الفقهاء من الصلاة عليه ، ولكن هذا الفقيه رأى النبي في منامه ومعه فاطمة الزهراء وقد أعرضت فاطمة عنه ، فأخذ الفقيه يستعطفها حتى أقبلت عليه وعاتبته قائلة : « أما يسع جاهنا مطيراً » . وقد أصبح الفقيه منذ ذلك الحين يبالغ في تعظيم الأشراف (٩) .

(٩) ابن حجر الهيتمي (الصواعق المحرقة) - القاهرة - ص ٢٤٠ .

(٢) كان الشيخ العابد محمد الفارسي يبغض انسراف المدينه من سلالة الحسين لتظاهروهم بالرفض ، ثم نام ذات يوم تجاه قبر النبي فرأى النبي في نومه وهو يقول له : يا فلان مالي أراك تبغض أولادي ؟ • فقال له الشيخ : « حاشا لله ما أكرههم وانما كرهت ما رأيت من تعصبهم على اهل السنة » • فسأله النبي : « أليس الولد العاق يلحق بالنسب ؟ » • فأجابه الشيخ : « بلى يا رسول الله » • فقال النبي : « هذا ولد عاق » • ولما استيقظ الشيخ من نومه صار لايلقى أحدا من بني الحسين الا بالغ في اكرامه (١٠) •

(٣) حج رجل من أهل اليمن مع عياله عن طريق البحر ، ولما وصل الى جدة فتشبه المكاسون كما فتشوا النساء تحت ثيابهن • فتألم الرجل من ذلك وأخذ يدعو الله على شريف مكة الحاكم يومذاك وهو محمد بن بركات • ثم رأى في منامه النبي وهو معرض عنه • فسأله الرجل عن سبب اعراضه فأجابه النبي قائلا : « أما رأيت في الظلمة من هو أظلم من ابني هذا ؟! » • فاتبه الرجل من نومه مرعوباً وتاب الى الله أن يتعرض بعد هذا لاحد من الاشراف وان فعل ما فعل (١١) •

(٤) عندما مات شريف مكة أبو نعي الاول امتنع الشيخ عفيف الدين الدلاصي من الصلاة عليه • ولكن الشيخ رأى في منامه في تلك الليلة فاطمة الزهراء وهي واقفة عند الكعبة والناس يسلمون عليها ، فلما جاء الشيخ للسلام عليها أعرضت عنه ثلاث مرات • وقد تحامل الشيخ فسألها عن سبب اعراضها فأجابته : « يموت ولدي ولم تصل عليه ! » فاعتذر منها وتاب عن مثل ذلك واعترف بالخطأ (١٢) •

(١٠) المصدر السابق - ص ٢٤٠ •

(١١) المصدر السابق - ص ٢٤٣ •

(١٢) عبدالملك العصامي (سبط النجوم العوالي) - القاهرة - ج ٤ ،

ص ٢٢٧ •

(٥) كان الشاعر ابن عنين الدمشقي قد حج الى مكة فقطع الطريق عليه بعض الاشراف ، ونهبوا ما كان معه وجرحوه . فنظم الشاعر قصيدة ذم بها الاشراف ذمًا قبيحاً . ولما تام تلك الليلة رأى في أحلامه فاطمة الزهراء وهي تطوف بالبيت ، فسلم عليها فلم تجبه ، فتضرع اليها وتذلل ، وسألها عن ذنبه ، فأجابته بقصيدة تشبه قصيدته في الوزن والقافية ذكرت فيها أن اولادها حاشا أن يفعلوا الافعال التي وصفها في قصيدته انما هي الايام غدرت بهم وأساءت اليهم ، وهو يجب ان يتوب الى الله . فانتبه الشاعر من نومه مرعوباً فزعاً ، وقد شفاه الله من جراحه ، فنظم قصيدة جديدة تاب فيها الى الله من قصيدته الاولى وتعهد بأنه سيعتبر كل مايفعله الاشراف به حسناً حتى ولو قطعوه بالسيف أو الرمح (١٣) .

(٦) يروي الصوفي المشهور محي الدين بن عربي أن رجلاً من أهل الحجاز حدثه قائلاً : « كنت أكره ما تفعله الشرفاء بمكة في الناس ، فرأيت في النوم فاطمة بنت رسول الله وهي معرضة عني ، فسلمت عليها وسألتها عن اعراضها . فقالت : انك تقع في الشرفاء . فقلت لها : ياستي ، الاترين ما يفعلون في الناس ؟ فقالت : أليس هم بني ؟ فقلت لها : من الآن . وتبت فاقبلت عليّ . واستيقظت » (١٤) .

ان هذه القصص التي ذكرناها آنفاً هي قليل من كثير ، ومن السهل العثور على أمثالها في مختلف البلاد الاسلامية . ولا حاجة بنا الى القول ان اشراف مكة استفادوا منها فائدة كبيرة في تدعيم حكمهم حيث استمروا يحكمون الحجاز نحو عشرة قرون - كما سنأتي اليه .

(١٣) احمد الداودي (عمدة الطالب) - بيروت - ص ١٠٦-١٠٧ .

(١٤) محمد اسعاف النشاشيبي (الاسلام الصحيح) - القدس ١٣٥٤ هـ - ص ١٦٤ .

الفصل الأول

أشراف مكة

ان اشراف الحجاز ، لاسيما في عصورهم المتأخرة ، كانوا كثيرين جدا . ولعل نسبتهم العددية الى مجموع السكان تقرب من نسبة السادة الى مجموع السكان في العراق . وهم كانوا من حيث مكائهم الاجتماعية متفاوتين على درجات شتى . فهناك في الدرجة الاولى كان الاشراف الذين ينتمون الى اسرة الشريف الحاكم ، حيث كانت لهم مكانة تقرب من مكانة الامراء من اقرباء الملك في الدول الملكية ، ولكل واحد منهم قصوره وحشمه وعبيده . أما الباقون من الاشراف فكانوا يتفاوتون في المكانة حسب كفاءاتهم الشخصية أو عصبية أسرهم . ومنهم من كان بدويا وصار يقطع الطرق على الحجاج كغيره من البدو ، كما أن منهم من احترف الحرف الوضيعة . يحدثنا ابن جبير الذي زار الحجاز في القرن السادس الهجري عن الحالة المزرية التي كان بعض الاشراف يعيشون فيها فيقول مانصه :

« واكثر سكان البلدة - يقصد بلدة جدة - مع ما فيها من الصحراء والجبال أشراف وعلويون وحسينيون وحسينيون وجعفريون رضي الله عن سلفهم الكريم . وهم من شظف العيش بحال يتصدع له الجهاد اشفاقاً ، ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن ، من اكراء جمال ان كان لهم ، أو مبيع لبن أو ماء ، أو غير ذلك من ثمر يلتقطونه أو حطب يخطبونه ، وربما تناولوا ذلك نساءهم الشريفات بأنفسهن . فسبحانه المقدر لما يشاء . ولا شك أنهم أهل بيت ارتضى الله لهم الآخرة ولم يرتض لهم الدنيا ، جعلنا الله ممن يدين بحب أهل البيت الذين أذهب الرجس عنهم وظهرهم تطهيرا » (١) .

(١) محمد بن جبير (رحلة ابن جبير) - بغداد ١٩٣٧ - ص ٤٢ .

تأسيس شرافة مكة :

ظل أشراف الحجاز حتى منتصف القرن الرابع الهجري ليس لهم شيء من الحكم ، ولم يكن لديهم ما يميزهم عن بقية السكان سوى مكاتبتهم العالية الناشئة عن اتسابهم الى النبي • وفى عام ٣٥٨ هـ - الموافق لعام ٩٦٩ م - استطاع أحد الاشراف الحسينيين ، وهو جعفر بن الحسن من سلالة موسى الجون ، أن يؤسس له نوعاً من الامارة في مكة أطلق عليها اسم « شرافة مكة » ، وهي الشرافة التي استمرت لهم حتى عام ١٩٢٥ م عندما قضى عليها ابن سعود - كما سنأتي اليه في فصل قادم •

كانت الظروف مساعدة لجعفر بن الحسن في تأسيس الشرافة • فقد كان الحجاز حينذاك تابعاً للدولة الاخشيدية في مصر ، وكانت تلك الدولة في أواخر ايامها ، ولم تلبث أن سقطت في أيدي الفاطميين • وحين أستتب الحكم للمعز الفاطمي في مصر كتب الى جعفر بن الحسن يعينه والياً على الحجاز باسم الدولة الفاطمية • وعند هذا قطع جعفر الدعاء للخلفاء العباسيين - وهو الدعاء الذي كان جارياً في العهد الاخشيدي - وصار يدعو للفاطميين بدلا من العباسيين ، كما أدخل عبارة « حي على خير العمل » في الأذان ، وهي العبارة التي يتميز بها أذان الشيعة عن أذان أهل السنة •

كان الاشراف الحسينيون يسكنون المدينة وحواليها ، ولهم نفوذ فيها • وقد انتهزوا الفرصة بدورهم ، فأعلنوا استقلالهم في المدينة في عام ٣٦٠ هـ - أي بعد سنتين من تأسيس أبناء عمهم الحسينيين لشرافة مكة - وأخذوا يدعون مثلهم للفاطميين ، كما أدخلوا في الأذان عبارة « حي على خير العمل » •

عندما وصل خبر ذلك الى العباسيين في بغداد أرسلوا الى مكة نقيب الطالبين الحسين بن موسى الموسوي والد الشريف الرضي ، حيث عينوه أميراً للحج العراقي • وقد استطاع هذا النقيب ان يقنع جعفر بن الحسن

يقطع الدعاء للفاطميين ، وباعادته للعباسيين . والظاهر أن جعفرا لم يستمر على ذلك طويلا ، بل عاد الى الدعاء للفاطميين ، وربما عاد مرة اخرى للعباسيين . . . (٢) .

ابو الفتوح :

مات المؤسس جعفر بن الحسن في عام ٣٧٠ هـ فخلفه على شرافة مكة ابنه عيسى ، وحين مات عيسى في عام ٣٨٤ هـ خلفه أخوه الحسن وهو المعروف بلقب « أبي الفتوح » ، وكان من أعظم الاشراف شخصة وأقوامهم بدناً ، قيل انه كان يمسك الدرهم فيفركه بيده ويمحو رسمه (٣) ، وكان بالاضافة الى ذلك شاعرا فصيحاً (٤) .

أمضى أبو الفتوح سنوات حكمه الاولى بالحروب ، حيث قاتل أبناء عمه الحسينيين في المدينة ، كما قاتل أبناء عمه الحسينيين في اليمن (٥) . ويبدو انه كان شديد الطموح يريد الخلافة لنفسه ، فهو قد رأى في العالم الاسلامي ثلاثة خلفاء يتنازعون عليها هم : الخليفة العباسي في بغداد ، والخليفة الفاطمي في مصر ، والخليفة الاموي في الاندلس . ولعله وجد نفسه أجدر منهم بها .

كان ابو الفتوح كغيره من الاشراف الحسينيين شيعيا من أتباع المذهب الزيدي . والمعروف عن المذهب الزيدي أنه يتميز عن المذاهب الشيعية الاخرى بكونه يترضى على الشيخين ويعتبرهما امامين عادلين ، بينما المذاهب الاخرى تطعن فيهما وتبترأ منهما . وفي عام ٤٠١ هـ وصل الى أبي الفتوح

(٢) أحمد السباعي (تاريخ مكة) - مكة ١٣٧٢ هـ - ص ٢٩ .

(٣) المصدر السابق - ص ١٣٣ .

(٤) أحمد الداودي (عمدة الطالب) - بيروت - ١٠٩ .

(٥) فؤاد حمزة (قلب / جزيرة العرب) - الرياض ١٩٦٨ - ص ٣١٤ .

من الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله كتاب يأمره فيه بالبراءة من الشيخين
وباعلان ذلك في الخطبة في الكعبة • فاستنكر أبو الفتوح هذا الامر ، وأراد
أن ينتهزها فرصة للانفصال عن الفاطميين واعلان الخلافة لنفسه •

أوعز أبو الفتوح باعلان أمر الحاكم على المنبر في الكعبة ، فأدى ذلك
الى ضجة وهياج لدى الحجاج وسكان الحجاز ، وتجمع الناس يريدون
كسر المنبر على صاحبه • وعند هذا أعلن أبو الفتوح عصيانه على الفاطميين ،
وأعقب ذلك اعلانه الخلافة لنفسه باسم « الراشد بالله » ، وشرع يتلقى
البيعة من أهل مكة والمدينة ، ثم تابعته بعدئذ قبائل البدو كبني سليم وبني
هلال وبني عوف وبني عامر • واستحوذ أبو الفتوح على ما فى الكعبة من
أموال وتحف ، كما استولى على أموال بعض التجار في جدة ، وحمل
سيفاً ادعى أنه سيف ذى الفقار ، كما حمل قضيباً ادعى أنه قضيب رسول
الله (٦) •

وبوجه أبو الفتوح بعدئذ نحو الشام بقوة عظيمة مؤلفة من القبائل
البدوية التى تابعته وغيرها ، وصار كلما مر بموضع يجاء اليه سكانه طائعين
مبايعين - كما هى عادة الناس تجاه من تقبل الدنيا عليه •

لم يقف الحاكم بأمر الله تجاه ذلك ساكناً ، بل أخذ يبذل الاموال
لتفريق الناس عن ابي الفتوح ، وشجع أحد الاشراف من اقرباء أبسى
الفتوح على احتلال مكة واعلان الشرافة لنفسه ، كما قطع الميرة عن الحجاز
مما أدى الى تضاييق الحجازيين وتذمرهم • وأدرك أبو الفتوح ضرورة
المصالحة مع الحاكم • فأرسل اليه يعلن التوبة اليه ، وأعاد الدعاء له في
الكعبة ، فعفا عنه الحاكم وأبقاه على شرافة مكة •

(٦) عبد الملك العصامي (سمط النجوم العوالي) - القاهرة - ج ٤ -
ص ١٩٦ •

ومن الجدير بالذكر أن حادثة غريبة حدثت في عهد أبي الفتوح ،
وذلك في عام ٤١٣ هـ ، خلاصتها أن رجلا من الحجاج المصريين اقترب من
الحجر الاسود وفي يده دبوس ، وضرب الحجر بالدبوس ثلاث ضربات
حتى سقطت منه ثلاث قطع صغيرة وقال وهو يرتعد : « الى متى يُعبد هذا
الحجر الى متى 'يُعبَل'؟! ولا محمد ولا علي فيمنعني من ذلك ، فاني أهدم
اليوم هذا البيت ! » • وكان الرجل طويلا جسيماً وله أعوان قد وقفوا في
باب المسجد للدفاع عنه • فتحاماه الناس وابتعدوا عنه ، ولكن رجلا من
أهل اليمن اندفع نحوه فوجأه بخنجره • وعند هذا تكاثر الناس عليه
فقتلوه وقطعوه اربا وأحرقوه ، ثم تبعوا أعوانه فقتلوا بعضهم وإنثال أهل
مكة على الحجاج المصريين فنهبوه ، وانتشر النهب الى غيرهم • ولما
هدأت الحالة جاء سدة الكعبة من بني شيبه فأخذوا القطع التي سقطت من
الحجر الاسود وعجنوها بالمسك واللاذن والعلك ، وأعادوها الى مواضعها •
ولا تزال الشقوق حولها ظاهرة (٧) •

الهواشم :

مات أبو الفتوح في عام ٤٣٠ هـ ، فخلفه على الشرافة ابنه شكر ، وكان
قويا مثله ، وجرت بينه وبين الحسينيين في المدينة حروب انتهت بتغلبه
عليهم ، واصبحت المدينة منذ ذلك الحين خاضعة لشرافة مكة بعدما كانت
مستقلة •

مات شكر في عام ٤٥٢ هـ ، ولم يخلف ولدا ذكرا ، بل كانت له بنت
واحدة • وكان ذلك سببا للتنازع والحرب بين أسرتين من الاشراف هما :
السليمانيون والهواشم • واستمرت الحروب بينهما مدة طويلة الى أن تمكن
الهواشم من التغلب على خصومهم ، وعند هذا تولى شرافة مكة رئيسهم
محمد وهو الذي اشتهر بكنيته « أبو هاشم » •

(٧) المصدر السابق - ج ٤ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ •

ظلت أسرة الهواشم تحكم مكة حتى عام ٥٩٨ هـ ، والمعروف عنهما انها كانت تقلب في ولائها السياسي بين العباسيين والفاطميين ، فكانت تدعو لهؤلاء تارة ولأولئك تارة أخرى - تبعاً لمن يدفع لها أكثر (٨) .

بدأ بهذا التقلب أبو هاشم نفسه ، فهو كان في السنوات الاولى من حكمه يدعو للفاطميين في الخطبة ويؤذن بأذانهم . ولكن السلطان السلجوقي ألب أرسلان أرسل اليه من العراق نقيب الطالبيين نور الهدى الزيني ، وقد تمكن النقيب في ٤٥٨ هـ من اقناع ابي هاشم بقطع الخطبة للفاطميين والدعاء للعباسيين بدلا عنهم . وحين وصل الخبر الى الفاطميين غضبوا عليه وقطعوا الميرة عن الحجاز نكاية به ، فاضطر أبو هاشم الى رد الخطبة الى الفاطميين . وفي عام ٤٦٣ هـ أرسل ألب أرسلان اليه النقيب مرة أخرى وهو يحمل له خلعاً نفيسة وثلاثين ألف دينار مع تعهد بمرتب سنوي قدره عشرة آلاف دينار . وكان في صحبة النقيب عسكر ضخم . فقطع أبو هاشم الدعاء للفاطميين وأخذ يدعو للعباسيين ، وقال في خطبته : « الحمد لله الذي هدانا أهل بيته الى الرأي المصيب ، وعوض بنيه لبسة الشباب بعد لبسة المشيب ، وأمال قلوبنا الى الطاعة ، ومتابعة امام الجماعة » (٩) .

والغريب أن ابا هاشم ظل محافظاً على اذان الشيعة بالرغم من دعائه للعباسيين ، فأرسل اليه العباسيون الشريف أبا طالب لاقناعه بترك أذان الشيعة . وقد حاوره أبو طالب في ذلك كثيراً ، فقال له أبو هاشم : « هذا أذان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » . فرد عليه أبو طالب قائلاً : « ان ذلك لم يصح عنه وانما فعله ابن عمر في بعض أسفاره ، فما أنت وابن عمر ؟ » . فاقنع أبو هاشم بهذا وأسقط أذان الشيعة وعاد الى أذان أهل السنة (١٠) .

(8) Shorter Encyclopaedia of Islam - art. Mecca.

(٩) عبد الملك العصامي (المصدر السابق) - ج ٤ ، ص ٢٠٠ .

(١٠) أحمد السباعي (المصدر السابق) - ص ١٣٥ .

لم يستمر أبو هاشم على الدعاء للعباسيين طويلاً والواقع انه كان يتحول بين العباسيين والفاطميين تبعاً لضغط الظروف او اغراء النقود • واضطر العباسيون في عام ٤٨٤ أن يعاملوه بسياسة العنف ، حيث وجهوا اليه قوة من الاتراك ، وجرى بينه وبين الاتراك قتال شديد • وكان ذلك بداية الفتن الطائفية في مكة ، اذ أصبحت مواسم الحج في السنوات التالية موضع تنافس وخصام بين أتباع العباسيين والفاطميين ، كل فريق منهم يريد الدعاء والأذان له في الكعبة •

قتادة :

في عام ٥٩٨ هـ انتهت امارة الهواشم على يد خصم لهم من الاشراف اسمه قتادة بن ادريس • فقد كان هذا الرجل في بداية أمره يسكن مع قومه بالقرب من ينبع في حالة شبه بدوية • وكان يطمح للحصول على شرافة مكة • وفي ٢٧ رجب ٥٩٨ هـ بينما كان أهل مكة مشغولين باحتفال لهم فاجأهم قتادة بهجوم صاعق ، واستطاع بسهولة ان يستولى على مكة وان يطرد الهواشم منها •

أخذ قتادة يدعو للخليفة العباسي الناصر لدين الله • وفي عام ٦٠٠ هـ أرسل اليه الخليفة الناصر يستدعيه الى بغداد ، ووعده ومناه • فاستجاب قتادة له ، ورحل متوجها الى العراق • وعندما وصل الى مقربة من النجف ، وكان قد خرج لاستقباله جمع غفير من الناس ، شاهد بينهم درويشا وهو يقود أسدا بسلسلة • فتشاءم قتادة من هذا المنظر وقال : « لا أدخل بلادا تذل فيها الاسود » • ثم عاد من فوره الى الحجاز ، وكتب الى الخليفة الناصر خمسة أبيات تنقل منها البيتين الاول والاخير ، وهما :

بلادي وان جارت عليّ عزيزة ولو أنني أعري بها وأجوع
وما أنا الاّ المسك في غير أرضكم أضوع وأما عندكم فأضيع^(١١)

(١١) أحمد الداودي (المصدر السابق) - ص ١١٥ - ١١٦ •

غضب الناصر من هذه الايات غضبا شديدا ، وكتب الى قتادة يهدده قائلا : « أما بعد ، فاذا نزع الشتاء جلبابه ، ولبس الربيع اثوابه ، قاتلناكم بجنود لا قبل لكم بها ، ولنخرجنكم منها أذلة واثتم صاغرون » . ثم أعد الناصر كتيبة من الجند وأرسلها الى مكة لتأديب قتادة .

استعد قتادة لقتال الكتيبة الناصرية ، وأرسل الى ابناء عمه الحسينيين في المدينة يستنجد بهم وكتب لهم هذه الايات :

بني عمنا من آل موسى وجعفر وآل حسين كيف صبركم عنا
بني عمنا انّا كأفنان دوحه فلا تتركونا يتخذنا الفنا فنا
اذا ما أخ خلّى أخاه لآكل بدا بأخيه الأكل ثم به ثنى

وقد استجاب الحسينيون لاستنجد قتادة ، فجاؤوا بجمعهم الى مكة ، وحين وصلت الكتيبة الناصرية اليها قابلها الحسينيون والحسينيون معاً فهزموها وبددوا شملها (١٢) .

لم يمض على هذه الحادثة سوى سنة واحدة تقريبا حتى نشبت الحرب بين الحسينيين والحسينيين ، ووقع قتال شديد بينهما في موضع يقال له « ذو الحليفة » ، انتصر فيه قتادة ، وقال في ذلك بيتا من الشعر هو :
مصارع آل المصطفى عدت مثلما بدأت ولكن صرت بين الاقارب
وقد اتجه قتادة بعد انتصاره نحو المدينة فحاصرها وكان الحسينيون في المدينة بقيادة رجل منهم اسمه سالم بن قاسم . وقد تمكن هذا الرجل من فك الحصار عن المدينة ، ثم أخذ يطارد قتادة حتى وصل الى مكة وحاصرها ، وأرسل الى قتادة يقول له : « حصر بحصر يا ابن عم » . ولم يستطع سالم الاستمرار في الحصار لان بعض أصحابه تفرقوا عنه باغراء من قتادة ، فعاد الى المدينة (١٣) .

(١٢) عبد الملك العصامي (المصدر السابق) - ج ٤ ، ص ٢٠٩ .

(١٣) المصدر السابق - ج ٤ ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

دام حكم قتادة نحو عشرين سنة ، قضى معظمها في الحروب ، وفي نهب الحجاج . وقد وصفه صاحب كتاب عمدة الطالب بقوله : « كان قتادة جبارا فاتكا فيه قسوة وتشدد وحزم » (١٤) . ووصفه شاهد عيان بقوله : « رأيتَه يطوف بالبيت ويدعو بتضرع وخشوع ، والريس على زمزم يدعو له ، وهو كالاسد شجاعة ، والقطب خشوعا وتضرعا ، والبدر كمالا وبهاء » (١٥) .

كان قتادة يقول : « أنا أحق من الناصر العباسي بالخلافة » . وهو قد أعاد الى الاذان عبارة « حي على خير العمل » . وفي عام ٦١٨ قتل ابنه حسن ، وقيل قتل خنقا ، ثم تولى الشرافة بعده . ويقول عبد الملك العصامي - وهو من أهل مكة - في التعليق على ذلك ما نصه : « ثم زاد ظلم قتادة في الناس وأذاه للحجاج من العراقيين وغيرهم ، وأظهر التعدي حتى ضج الناس ، وفسدت نيته على الخليفة الناصر العباسي ، فارتفعت الايدي بالدعاء عليه ، فقتله الله على يد ابنه حسن بن قتادة ... » (١٦) .

حميضة بن أبي نمي :

في عام ٦٥١ هـ تولى شرافة مكة رجل يُعد من مشاهير الاشراف وصلحائهم هو أبو نمي الاول . وهو من سلالة قتادة ، وطالت مدة شرافته نحو خمسين عاما . ويقول عنه المقرئزي : « كان يقال لولا أنه زيدي لصلح للخلافة لحسن صفاته » (١٧) .

مات أبو نمي في عام ٧٠١ هـ . وقد كان له ثلاثون ولدا ذكرا واثنتا

-
- (١٤) أحمد الداودي (المصدر السابق) - ص ١١٥ .
(١٥) عبد الملك العصامي (المصدر السابق) - ج ٤ ص ٢١٢ .
(١٦) المصدر السابق - ج ٤ ، ص ٢١٣ .
(١٧) تقي الدين المقرئزي (كتاب السلوك) - القاهرة ١٩٧٠ - ج ١ ، ق ٣ ، ص ٩٢٧ .

عشرة بنتا • فحصل تنافس عنيف بين أولاده على شرافة مكة استمر سنوات عديدة ، وجرت من جراء ذلك خطوط وأهوال •

كان التنافس على أشده بين أربعة من الاخوة هم : حميضة وأبو الغيث ورميثة وعطيفة • وكانوا يستمدون العون في تنافسهم من العراق أو مصر • وفي عام ٧١٥ هـ أرسل حميضة أحد عبيده الى أخيه أبي الغيث الذي كان ينافس على الشرافة • فذبحه على مشهد من الناس ، ثم دعسا اخوته الآخرين الى وليمة ، وقدم لهم رأس أخيهم القليل مطبوخا في جفنة ، كما أقام على رأس كل واحد منهم غلامين أسودين شاهرين السيوف ، بغية أخذ البيعة له منهم • فأذعنوا له قهرا (١٨) •

هرب رميثة الى مصر مستغيثا بالملك الناصر بن قلاوون ، وذكر له ان حميضة قطع اسمه من الخطبة في الكعبة وخطب لصاحب اليمن • فجهز الناصر رميثة بقوة كبيرة • وعاد رميثة بتلك القوة الى مكة ، وتغلب على حميضة واسره ، ولكن حميضة تمكن من الهرب والتجأ الى العراق مستنجدا بالسلطان المغولي خدابنده بن أرغون بن أباقا بن هولاكو • فتلقاه خدابنده لقاءً حسناً وأكرمه ، وأقام حميضة عنده مدة غير قصيرة •

ومن الجدير بالذكر ان خدابنده كان قد اعتنق مذهب التشيع الاثنى عشري منذ عهد قريب بتأثير العالم الشيعي المعروف بـ « العلامة الحلي » • فتمكن حميضة من التأثير في خدابنده عن طريق تعصبه المذهبي الجديد ، وحرضه على أن يرسل معه جيشا من المغول لاحتلال مكة والخطبة له على منابرها (١٩) • ويقال ان حميضة زين لخدابنده أيضا أن يذهب بالجيش

(١٨) عبد الملك العصامي (المصدر السابق) - ج ٤ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ •

(١٩) تقي الدين المقرئزي (المصدر السابق) - القاهرة ١٩٧١ - ج ٢ ، ق ١ ص ١٤٧ - ١٤٨ •

الى المدينة عقب احتلال مكة لنش قبر الشيخين ونقل رفاتهما الى خارج الحرم النبوي (٢٠) .

استجاب خدابنده لتحريض حميضة وجهازه بجيش كبير من المغول . وسار حميضة بهذا الجيش نحو الحجاز عن طريق الصحراء ، وانضم اليه في الطريق كثير من القبائل ، وخاصة قبيلة خفاجة برئاسة محمد بن عيسى بن مهنا . وحين وصل حميضة بجموعه الى موضع في الصحراء بين البصرة والقطيف ، بالقرب من موقع الكويت الحالية ، وصلهم نبأ موت خدابنده بالهيضة . فادى هذا النبأ الى تفرق الجيش . وانتهزت القبائل الفرصة ، ولا سيما قبيلة خفاجة ، فالتفت على الجيش نهبا وتقتيلا ، وكان رئيس خفاجة يهتف باسم الملك الناصر سلطان مصر (٢١) . وقد أبدى حميضة في تلك الواقعة شجاعة نادرة حيث قاتل قتالا لم يُسمع بمثله . وصفه احد الذين شاهدوه في القتال فقال : « مازلت أسمع بحملات علي بن أبي طالب حتى رأيتها من السيد حميضة معاينة » (٢٢) .

كانت تلك الواقعة قد وقعت في أواخر ذي الحجة من عام ٧١٦ هـ . وقد تكبد فيها حميضة خسائر فادحة اذ فقد معظم رجاله ، كما نُهب كل ما كان لديه من حريم وأموال وخيول . ولما وصل خبر الواقعة الى الملك الناصر في مصر سُرَّ به سرورا عظيما ، وأرسل يستدعي اليه رئيس خفاجة محمد بن عيسى ، ومنحه مكافأة جسيمة (٢٣) .

يقول النويري في التعليق على تلك الواقعة ما نصه : « وكان خربندا - يقصد خدابنده احتقارا له - قبل موته بسبعة أيام قد أمر بأشهار النداء أن لا يذكر أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، وعزم على تجريد ثلاثة آلاف

(٢٠) عباس العزاوي (العراق بين احتلالين) - بغداد ١٩٣٥ ، ج ١ ص ٤٤١ - ٤٤٢ ، ٤٤٥ .

(٢١) تقي الدين المقرئ (المصدر السابق) - ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٤٨ .

(٢٢) أحمد الداودي (المصدر السابق) - ص ١١٨ .

(٢٣) تقي الدين المقرئ (المصدر السابق) - ج ٢ ، ق ١ ، ص ١٤٨ .

فارس الى المدينة النبوية لينقل أبو بكر وعمر رضي الله عنهما من مدفئهما ،
فعجل الله بهلاكه « (٢٤) » .

استطاع حميضة أن يصل بسن نجا معه الى مكة ، وتمكن بعد جهود
ومحاولات شتى أن يستعيد الشرافة له وأن يطرد منها أخاه رميثة * وقطع
الخطبة للملك الناصر ، وصار يدعو للسلطان أبي سعيد بن خدابنده *
فذهب رميثة الى مصر ، وجهزه الملك الناصر بقوة عاد بها الى مكة * ولم
يكذ حميضة بسمع بسجى أخيه رميثة حتى فر من مكة ، والتجأ الى
اليمن ، ثم عاد منها بجيش لاستعادة مكة ، ولكن القدر لم يمهلها اذ وثب
عليه أحد غلمانه فقتله وهو نائم (٢٥) ، وكان ذلك في عام ٧٢٠ هـ ، فاستراح
وأراح !

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان حميضة عندما كان في العراق
تزوج من امرأة عراقية فأنجبت له ولدا اسمه « محمد » * وقد بقي هذا
الولد في العراق لدى أخواله ، وصارت له ذرية كبيرة ، واشتهر من نسله
عطيفة الذي توفي في عام ٩٣٤ هـ الموافق لعام ١٥٢٨ م * فقد نال هذا الرجل
حظوة كبيرة لدى الشاه اسماعيل الصفوي عند فتحه بغداد في عام ٩١٤ هـ ،
حيث أقطعه الشاه الاراضي المعروفة باسمه على شاطيء دجلة الايمن بين
بغداد والكاظمية ، كما عينه أميرا للحج ونقيا للروضة الكاظمية وسادتها .
ويتمي الى عطيفة هذا كثير من الاسر المعروفة في العراق الآن ، كآل
الجبوبي وآل زيني في النجف ، وآل بو نيسان في سامراء ، وآل الحسنسي
وآل حمندي وآل العطار وآل الراضي وآل الهادي في بغداد ، وآل عطيفة
وآل سر كشيك وآل الحيدري في الكاظمية * ويتمي الى عطيفة أيضا كثير
من خدام الروضة الكاظمية .

(٢٤) نقلا عن عباس العزاوي (المصدر السابق) - ج ١ ، ص ٤٤٥ .
(٢٥) عبدالملك العصامي (المصدر السابق) - ج ٤ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ .

أبو نمي الثاني :

في عام ٩٣١ هـ تولى شرافة مكة رجل يدعى « أبو نمي » ويلقب بـ « الثاني » تميزا له عن أبي نمي الاول * وقد نال هذا الرجل حظوة كبيرة لدى السلطان العثماني سليمان القانوني اذ أرسل اليه في اسطنبول ابنه أحمد وهو يحمل كثيرا من هدايا جزيرة العرب كالخيول والصقور والاقمشة والاطياب * وكان أحمد جميل الوجه ، وحين دخل على السلطان وهو لابس الملابس الخاصة بالاشراف الحسنية قام السلطان له تعظيما ، وهو أمر لم يقع لاحد سواه ، وخلع عليه الخلع الكثيرة * وكذلك فعلت زوجة السلطان وأعلنت للناس أنها تعتبر الشريف أحمد في مقام ولدها (٢٦) * .

نال أبو نمي الثاني على أثر ذلك غاية المجد والنفوذ ، ودانت له الدنيا في الحجاز ، ومدحه الشعراء بقصائد « عصماء » * وقد دامت شرافة أبي نمي مدة تزيد على الستين عاما ، اذ هو مات في عام ٩٩٢ هـ * ولعله كان أطول الاشراف حكما *

يُعتبر أبو نمي الثاني المؤسس الحقيقي للشرافة ، وهو جد الاسرة التي ظلت محتفظة بالشرافة الى أن قضى عليها ابن سعود في عام ١٩٢٥ * والمعروف عن أبي نمي انه كان شديد الاعتزاز بالنسب وقد اعتاد في حياته على التمييز بين الناس حسب أنسابهم وبيوتاتهم ، مستندا في ذلك على حديث للنبي هو : « أُمِرْتُ أَنْ أَنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ » * وكان رأيُه أن العرق دساس فمن كان رفيع النسب كان رفيع الخلق أيضا ، أما الصعاليك من الناس فهم في نظر أبي نمي لئام واذا نالوا المنازل العالية في المجتمع فربما يصل من ذلك الضرر (٢٧) *

يبدو أن الدولة العثمانية كانت تؤيد أبا نمي في هذا الرأي ، وهو في

(٢٦) المصدر السابق - ج ٤ ، ص ٣٢٦ *

(٢٧) المصدر السابق - ج ٤ ص ٣٣٤ - ٣٣٥ *

الواقع رأي كان شائعا بين الناس يؤمن به الكثيرون - وما زال البعض منهم مؤمنا به حتى يومنا هذا • وقد حدا هذا الرأي بأبي نمي الى وضع قواعد عرفت باسم « قانون أبي نمي » قصد بها تمييز الاشراف عن غيرهم رسميا • ومن الجدير بالذكر ان هذه القواعد ظلت مكتومة عن الناس لا يعرفها سوى عدد محدود من الاشراف ، وهم يتداولونها بينهم ولا يسمحون لاحد غيرهم بالاطلاع عليها • ويدعي صاحب كتاب « تاريخ الحجاز » انه أطلع على بعض تلك القواعد وقد ذكرها في كتابه على النحو التالي :

- (١) الشرافة وراثية في الاسرة الهاشمية •
- (٢) لايجوز لاي شريف أن يشتغل في أية مهنة او صنعة ما عدا القراشة - اي الحطب والفحم - والجمال والزرع •
- (٣) اذا قُتل الشريف أُخذ من أهل القاتل أو قريته أربعة حيث يُقتلون قصاصا له •
- (٤) صافع الشريف تُقطع يده •
- (٥) شاتم الشريف يُقطع لسانه •
- (٦) الشريف لا يُحاكم في مجلس خصمه •
- (٧) اذا هم الشريف بقتل شريف أو رفع عليه السلاح يُنفى من البلاد •
- (٨) لا يُقتل الشريف اذا قتل غير الشريف •
- (٩) للشريف الحاكم ثلث دية القتل (٢٨) •

يبدو ان هذا القانون لم ينفذ بحرفيا لما فيه من شدة بالغة ومخالفة للشرع ، ولكنه على أي حال قد ساعد على صيانة مكانة الاشراف وجعلهم نوعا من الطبقة المغلقة في الحجاز •

(٢٨) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) - القاهرة ١٣٤٩ هـ - ج ١ ، ص ١٧ - ١٨ •

الطائفية في الحجاز :

ان النزاع الصفوي العثماني الذي حدث في العراق منذ القرن العاشر الهجري كان له أثره في الحجاز . ففي موسم الحج من عام ١٠٤٢ هـ ورد الى مكة أمر من السلطان العثماني في اسطنبول بمنع العجم من الحج والزيارة ، وقد نودي بهذا الامر في أسواق مكة لتبليغ العجم بذلك وهم يبلغونه اخوانهم اذا عادوا الى بلادهم (٢٩) .

كان يتولى شرافة مكة في ذلك الحين رجل اسمه زيد بن محسن ، وقد أعلن هذا الرجل تحوله من المذهب الزيدي الى المذهب الحنفي - وهو المذهب الذي كانت الدولة العثمانية تعتقه . يقول صاحب كتاب « تاريخ مكة » عن هذا الرجل ما نصه : « كان يعتقد اعتقاد أهل بيته من الزيدية ، ثم باينهم ورجع الى معتقد أهل السنة ، وتمذهب بمذهب الامام أبي حنيفة . وكف أهل بيته عن كثير مما كانوا ينالون من أهل السنة ومنهم من اظهر معتقداتهم » (٣٠) .

وانتشرت بين سكان مكة في ذلك الحين اشاعة مفادها ان الشيعة لا يتم حُجهم في مذهبهم الا اذا لوثوا الكعبة بالنجاسة . وقد صدق الكثير من الناس بهذه الاشاعة كما هي عادة الناس عند استفحال التعصب الطائفي لديهم . وفي ٨ شوال ١٠٨٨ هـ - وهو يوافق ٤ كانون الاول ١٦٧٧ م - وقعت فتنة طائفية في مكة من جراء تلك الاشاعة . ننقل فيما يلي وصفا لتلك الحادثة كما رواها رجل من أهل مكة شاهدها بنفسه ، حيث قال ما نصه :

« وفي سنة ثمان وثمانين وألف يوم الخميس ثامن شوال منها وقع حادث غريب ، وكارث عجيب ، هو أنه وقع في ليلته أن لُوثَ الحجر

(٢٩) أحمد السباعي (المصدر السابق) - ص ٢٥٧ .

(٣٠) المصدر السابق - ص ٢٥٨ .

الاسود وباب الكعبة ومصلى الجسعة وأستار البيت الشريف بشيء يشبه العذرة في التثنية والخبت ، فصار كل من يريد تقيل الحجر يتلوث وجهه ويداه ، ففرغت الناس من ذلك ، وضجت الأتراك واجتمعت ، وغسل الحجر والباب والاستار بالماء ، وبقي الأتراك والحجاج والمجاورون في أمر عظيم . وكان اذ ذاك رجل من فضلاء الأروام يلقب درس عام ، فكان يرى حساعة من الأرفاض بالمسجد الحرام ، وينظر صلاتهم وسجودهم وحركاتهم عند البيت والمقام ، فيتحرف لذلك ويتأوه . فلما وقع هذا الواقع قال : ليس هذا إلا فعل هؤلاء الأرفاض اللئام ، الذين يلزمون المسجد الحرام . وكان حينئذ مع قضاء الملك العلام ، السيد محمد مؤمن الرضوي قاعدا خلف المقام ، يتلو كتاب الله ذي الجلال والإكرام ، فأتوا اليه ، وأخذت الحتمة من يديه ، وضرب على رأسه ، وسحب حتى أخرج من باب المسجد المعروف باب الزيادة ، فطرح خارج الباب ، وضرب بالحجارة والكسارات حتى زهق ودات . وفي حال مسكهم إياه من المسجد كلمهم فيه شخص شريف من السادة الرفاعية يُسمى السيد شمس الدين ، فعدوا عليه وألحقوه به ، فضرب حتى مات وجُرح . ثم أصابوا آخر فضربوه وأخرجوه وقتلوه ، وعلى من قبله طرحوه . ثم فعلوا ذلك برابع ، ثم بخامس . ولقد رأيتهم مطروحين ، وبقي بعضهم على بعض ، الآتسي والذاهب يوسعهم السب والركل . ولقد رأيت ذلك الشيء . وتأملته فاذا هو ليس من القاذورات ، وإنما هو من أنواع الخضروات ، عجيب بعدس ممختخ وادهان معففات ، فصار ريحه ريح النجاسات . وكان هذا الفعل عند مغيب القمر من تلك الليلة ليلة الخميس ثامن الشهر المذكور ، ولم يُعلم الفاعل لذلك . وغلب على بعض الظنون ان ذلك جعل عمدا وسيلة الى قتل أولئك . والله اعلم بالسرائر ، وهو متولي الباطن والظاهر ، (٣١) .

(٣١) عبد الملك العصامي (المصدر السابق) - ج ٤ ، ص ٥٢٩ .

ومما يلفت النظر ان حادثة أخرى تشبه هذه الحادثة وقعت في عام ١١٤٣ هـ ، خلاصتها ان قافلة من حجاج الشيعة وصلت الى مكة متأخرة عن موسم الحج ، فاقام الشيعة في مكة بغية اداء الحج في الموسم القادم . وعند هذا انطلقت في مكة اساعة بين العامة مفادها ان الشيعة وضعوا نجاسة في الكعبة . وثار الجمهور ، كما ثار العسكر معهم ، وذهبوا جميعا الى القاضي ، ولكن القاضي هرب منهم خوفا من قستهم . فتوجهوا الى المفتي وأخرجوه من بيته كما أخرجوا معه عددا من الفقهاء ، وذهبوا بهم الى وزير الشريف وتمكنوا ان ينتزعوا من الوزير أمرا بإبعاد الشيعة عن مكة ، ثم خرجوا الى الاسواق ينادون بطرد الشيعة من مكة ونهب بيوتهم .

كان شريف مكة يومذاك اسمه محمد بن عبدالله ، ولم يكن راضيا عما وقع . فذهب الجمهور في اليوم التالي الى القاضي يطلبون منه التوسط لدى الشريف للتصديق على قرار الوزير بطرد الشيعة . فامتنع الشريف عن تصديق القرار أول الامر ، ثم اضطر أخيراً الى مجازاة الجمهور درءاً للفتنة العامة . فخرج الشيعة من مكة ، حيث ذهب بعضهم الى الطائف ، والبعض الآخر الى جدة . وعندما هدأت الفتنة تمكن الشريف من القبض على دعاةها ، ثم ارسل الى الشيعة يطلب منهم العودة الى مكة فعادوا (٣٢) .

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان تهمة تلويث الكعبة بالنجاسة أثرت مرة أخرى حديثا في عام ١٩٤٢ حيث اتهم بها رجل إيراني اسمه « سيد أبو طالب اليزدي » ، وقد صدر الحكم عليه بالاعدام ، ونفذ الحكم فيه على مشهد من الناس بين الصفا والمروة . وأحدث اعدامه ضجة كبرى في ايران ، وقيل ان الملك عبدالعزيز بن سعود دفع تعويضا لعائلة الرجل قدره مائة الف ريال .

(٣٢) أحمد السباعي (المصدر السابق) - ص ٢٩٦ .

من ذبول مؤتمر النجف :

في عام ١١٥٦ هـ - الموافق لعام ١٧٤٣ م - عقد نادر شاه مؤتمره المشهور في النجف بنية التوحيد بين الشيعة وأهل السنة ، وكان قد أحضر اليه عددا كبيرا من علماء الفريقين ، من ايران وافغانستان وتركستان ، كما حضره من بغداد الشيخ عبدالله السويدي الذي كان كبير علماء السنة في العراق ، وحضره من كربلاء السيد نصر الله الحائري الذي كان كبير علماء الشيعة فيه . وبعد مناقشات طويلة بين الفريقين تم الاتفاق بينهما على شروط كان أهمها اثنان : اولهما أن يترك الشيعة سب الصحابة ، والثاني أن يعترف السنيون بالتشيع مذهباً خامساً يسمى بـ « المذهب الجعفري » نسبة الى الامام جعفر الصادق . وكان من جملة الشروط أيضا أن يُسمح للشيعة بالصلاة والخطبة في الركن الشامي من الكعبة عند موسم الحج ، وذلك بعد فراغ الامام المختص به من صلاته (٣٣) .

وبعد انتهاء المؤتمر أرسل نادر شاه السيد نصرالله الحائري الى مكة لكي يقوم بالصلاة في الركن الشامي حسب قرار المؤتمر ، وأرسل معه نسخة من محضر المؤتمر ، كما أرسل كتباً الى شريف مكة مسعود بن سعيد ، والى قاضيه ومفتيه ، يخبرهم بأنه مرسل اليهم امام المذهب الجعفري لتنفيذ قرارات المؤتمر .

حين وصل الحائري الى مكة استقبله الشريف مسعود باللطف والترحاب ، وسمح له بالصلاة والخطبة في الركن الشامي . ولكن العامة لم يهن عليهم ذلك ، فهاجوا وهاجوا ، علما بأن قصة تلويث الكعبة الثانية لم يكن قد مر عليها سوى ثلاثة عشر عاما . وتدل بعض القرائن على ان

(٣٣) انظر تفاصيل المؤتمر وقراراته في الجزء الاول من هذا الكتاب - الفصل الخامس .

الشيخ عبدالله السويدي..الذي جاء الى الحج في تلك السنة كانت له يد في اثاره العامة .

أرسل الوزير التركي في جدة الى الشريف مسعود يطلب منه تسليم الحائري اليه ليقتله . فامتنع الشريف عن تسليمه وقال : « اني سأحافظ عليه الى أن اكتب الى دار الخلافة وأتلقى جوابها فيما تأمر » (٣٤) . فلم يرض الوزير التركي عن هذا الجواب ، واتهم الشريف بالميل الى المذهب الجعفري .

أسرع الشريف فكتب الى السلطان في اسطنبول يخبره بالامر ، ويطلب منه الرأي . فوصله الجواب من السلطان خلال مدة قصيرة يأمره بالقاء القبض على الحائري وتسليمه الى أمير الحج الشامي أسعد باشا العظم . ففعل الشريف ما أمره السلطان به . وحمل الحائري مخفورا مع أسعد باشا الى الشام ، وسُجن هناك في قلعة دمشق . وبعد مدة يسيرة طلب الحائري الى اسطنبول فحمل مخفورا اليها . ويسرّو انّه مات مسموما ، غير ان جنازته شيعت تشييعا رسميا ودُفن في قبر لائق به ، وما زال قبره قائما (٣٥) .

يبدو ان الشريف مسعود شعر بحراجة مركزه عقب هذه الحادثة ، وربما بلغه ما أشيع عنه من الميل الى المذهب الجعفري ، فأمر بلعن الرافضة على المنابر (٣٦) . درءاً للتهمة عنه .

الحرب مع الوهابيين :

في أواسط القرن الثامن عشر الميلادي بدأت الدعوة الوهابية بالظهور في نجد . وبعد سنوات قليلة من ظهورها أرسل الوهابيون ثلاثين من علمائهم

(٣٤) أحمد السباعي (المصدر السابق) - ص ٣٠٠ .

(٣٥) علي الوردي (لمحات اجتماعية) - بغداد ١٩٦٩ - ج ١ ، ص ١٤١ .

(٣٦) أحمد السباعي (المصدر السابق) - ص ٣٠٠ .

الى مكة لمناظرة علمائها • يقول دحلان صاحب كتاب « خلاصة الكلام في أمراء البلد الحرام » : ان الشريف مسعود أمر علماء الحرمين أن يناظروا علماء الوهابية ، فناظروهم ، فوجدوا عقائدهم فاسدة ، وكتب قاضي الشرع حجة بكفرهم وجسهم • فسجن الشريف مسعود بعضهم وفر الباقيون (٣٧) •

أمر الشريف مسعود بمنع الوهابيين من الحج ، وظل المنع ساريا في عهد خلفائه • وفي عام ١٧٨٨ م تولى شرافة مكة غالب بن مساعد ، وكان داهية جبارا • وكانت الدعوة الوهابية قد تنامت في زمانه وانضمت اليها قبائل كثيرة • فصمم الشريف غالب على محاربتها والقضاء عليها •

وجه غالب حملات عديدة الى نجد لم ينجح فيها ، واضطر في عام ١٧٩٨ م الى عقد الصلح مع الوهابيين وسمح لهم بالحج • وقد انتهز الوهابيون فرصة توقف القتال مع غالب ، فصاروا يوجهون غاراتهم على العراق • وفي عام ١٨٠٢ م قاموا بفعلتهم المشهورة في كربلاء حيث اقتحموها بغتة وقتلوا كثيرا من سكانها ونهبوها كما نهبوا خزانة المرقد الحسيني - على نحو ما ذكرناه بتفصيل في الجزء الاول من هذا الكتاب •

انقض الصلح بين الوهابيين والشريف غالب في عام ١٨٠٢ • وقد اتحق بالوهابيين عثمان المضائفي وكان وزير الشريف غالب وزوج اخته ، فتقوى الوهابيون به • وعاد المضائفي على رأس جيش كبير من القبائل الوهابية ، فحاصر الطائف وفتحها • وقام الوهابيون في الطائف بمذبحة فظيعة ، ونهبوها نهباً ، على عاداتهم في كل بلدة يفتحونها ، اذ هم يعتبرون سكانها مشركين يجوز سفك دمائهم ونهب أموالهم •

كان الامير سعود بن عبدالعزيز عند فتح الطائف متوجها نحو غزو

(٣٧) محسن الامين (كشف الارتياح) - ط ٣ - ص ٧ •

العراق ، فلما وصل اليه خبر فتح الطائف على يد قوات عثمان المضائفي سرّ به سرورا عظيما وترك غزو العراق وتوجه نحو الحجاز . وقد تمكن الامير سعود من فتح مكة بلا قتال ، ذلك لان الشريف كان قد انسحب منها قبيل ذلك وذهب الى جدة فتحصن فيها .

في ٨ محرم عام ١٢١٨ هـ - وهو يوافق ٣٠ نيسان ١٨٠٣ م - دخل الامير سعود مكة محرماً ، فطاف وسعى ونحر نحو مائة بعير . وفي اليوم التالي نادى مناديه يأمر الناس بالاجتماع ضحى الغد . وعندما تم اجتماع الناس في الوقت المحدد صعد الامير سعود على درج الصفا ، وكان المفتي عن يمينه والقاضي عن يساره ، وخطب تقليدا للنبي عند فتحه مكة ، حيث قال ما نصه :

« الله اكبر ، الله اكبر ، لا آله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأنجز وعده ، وأعز جنده ، لا اله الا الله ، ولا نعبد الا اياه ، مخلصين له الدين ، ولو كره الكافرون ، الحمد الذي صدقنا وعده . يا أهل مكة اتم جيران بيته آمنون بأمنه وسكنى حرمة ، واتم في خير بقعة . اعلموا ان مكة حرام ما فيها ، لا يخلّى خلاها ، ولا ينفر صيدها ، ولا يعصد شجرها ، وانما أحلت ساعة من نهار . انا كنا أضعف العرب ، ولما أراد الله ظهور هذا الدين دعونا اليه وكل يهزأ بنا ويقاثلنا عليه وينهب مواشينا ونشترها منه . ولم نزل ندعو الناس للاسلام وجميع من تراه عيونكم ومن تسمعون به من القبائل انما أسلموا بهذا السيف - ورفع سيفه تجاه الكعبة - وقد كنت في هذا العام غازيا نحو العراق فلما سمعت ما وقع من المسلمين بغزوة الطائف ، وأقبلوا عليكم يغزونكم ، خفت عليكم من العربان والبادية . فاحمدوا الله الذي هداكم للاسلام وانقذكم من الشرك ، وانا أدعوكم أن تعبدوا الله وحده وتقلعوا عن الشرك الذي كنتم عليه ، وأطلب منكم أن تبايعوني على دين الله ورسوله ، وتوالون من والاه ، وتعادون من عاداه ، في السراء والضراء ، والسمع والطاعة » .

وبعد أن انتهى الامير سعود من خطبته جلس ، وتهافت الناس عليه
يابيعونه وكان في مقدمتهم المفتى والقاضي والشريف عبدالمعين أخو الشريف
غالب . ثم أمر الامير سعود أهل مكة بهدم جميع القبب والقبور التي
فيها حتى لا يكون هناك معبود غير الله .

وفي الصباح التالي بادر الوهابيون ومعهم الكثيرون من أهل مكة ،
ومعهم المساحي ، فهدموا القبب القائمة في المصلى ، ثم هدموا قبة مولد
النبي ومولد ابي بكر ومولد علي بن ابي طالب وقبة السيدة خديجة ،
وظلوا كذلك حتى لم يبق في مكة أثر من قبة . وكانوا في أثناء الهدم
يرتجزون ويضربون الطبول ويشتمون القبور ويقولون : « ما هي الا
أسماء سميتوها » . ويقال ان أحدهم بال على قبر السيد المحجوب (٣٨) .
وأمر الامير سعود باحراق النارجيلات وآلات اللهو ، ومنع من
تدخين التبن والتبناك ، كما منع الاستغاثة بالمخلوقين وبناء القبب على القبور
وتقيل الاعتاب . وكذلك منع كل عبارة تضاف الى الاذان كالصلاة على
النبي ، أو قول المؤذن « يا أرحم الراحمين » ، أو الترضي عن الصحابة ،
فقد اعتبرها من قيل.الشرك . ثم أمر بتسديس كتاب محمد بن
عبد الوهاب المسمى بـ « كشف الشبهات » في المسجد في حلقة عامة
يحضرها العلماء والاهالي ، ففعلوا ذلك .

وبعد أن مكث الامير سعود في مكة نحو أربعة وعشرين يوما توجه
بجيوشه نحو جدة بغية فتحها . وكان الشريف غالب قد تحصن وراء
أسوار جدة مستعدا لقتاله . فدام القتال بين الفريقين ثمانية ايام دون ان
يفتح سعود في فتح جدة . وقد اضطر سعود الى العودة الى نجد على أثر
خبر مقلق وصله منه . وتمكن الشريف غالب من العودة الى مكة .

(٣٨) المصدر السابق - ص ٢١ - ٢٣ .

ظلت الحروب متصلة بين الشريف غالب والوهابيين • واستطاع الوهابيون في عام ١٨٠٤ أن يشددوا الحصار على مكة وقطع المؤن عنها • فاستفحلت المجاعة فيها واستمرت حتى السنة التالية ، واضطر بعض الناس الى أكل الجلود والنوى وبزر الخشخاش ، والمهرة والكلاب^(٣٩) وكل حيوان ، وشربوا الدم ، وأكلوا نباتا يسمى « الاخريط » كان يسبب فيهم ورما ، وشوهد الاطفال موتى في الازقة^(٤٠) •

اضطر الشريف غالب في شباط ١٨٠٦ الى عقد الصلح مع الوهابيين ، وتم الصلح بينهما على أن يكون الحجاز خاضعا للوهابيين وان يبقى الشريف غالب على امارته تابعا لهم •

وحين حل موسم الحج في السنة التالية قال الامير سعود لاميري الحج الشامي والمصري : « ما هذه العويدات التى تأتون بها وتعظمونها ؟ » مشعرا الى المحامل ، فأجاباه بأن هذه المحامل اشارة لاجتماع الناس وهي عادة قديمة • فقال لهم : « لا تفعلوا ذلك بعد هذا العام ، وان أتيتم بها فاني أكسرها » • وكذلك اشترط عليهما أن لا يأتيا بطبول وزمور •

وفي موسم الحج التالي حين وصل أمير الحج الشامي الى مقربة من المدينة أرسل اليه الامير سعود يقول : « لاتدخل الحجاز الا على الشرط الذى شرطناه عليك في العام الماضي » • فعاد أمير الحج مع من كان معه من الحجاج الى بلادهم • ويروى أن سعود أمر باحراق المحمل المصري في تلك السنة • كما أمر مناديه بأن ينادي في الناس : « لا يأتى الحرمين بعد هذا العام من يكون حليق الذقن » • ومنذ ذلك الحين انقطع المصريون

(٣٩) احمد السباعي (المصدر السابق) - ص ٣٥١ •

(٤٠) محسن الامين (المصدر السابق) - ص ٣٢ •

والشاميون عن الحج^(٤١) ، كما انقطع العراقيون^(٤٢) .

وأمر سعود بهدم جميع القبب التي كانت في البقيع وفي المدينة ،
ما عدا قبة المسجد النبوي ، كما استحوذ على جميع التحف والجواهر
المخزونة في الحجرة النبوية كان من بينها أربع شمعدانات من الزمرد في
كل واحد منها قطعة من الماس تضيء بدلا من الشمعة^(٤٣) .

الحملة المصرية :

أوعز السلطان العثماني محمود الثاني الى محمد علي باشا والي مصر
بارسال الجيوش الى الحجاز لطرد الوهابيين منه . فجهز محمد علي
حملة قوية بقيادة ابنه الأكبر طوسون باشا ، وفي عام ١٨١١ عبرت الحملة
البحر الاحمر بالسفن الى ينبع فاحتلت البلدة بعد قتال شديد ، ونهب
الجنود البلدة كما سبوا نساءها على رواية الجبرتي^(٤٤) . ولكن الحملة
حين تقدمت نحو المدينة ووصلت الى مقربة من بدر باغتها الوهابيون
وهزموها شر هزيمة ، مما اضطرها الى الانسحاب الى ينبع .

جهز محمد علي باشا حملة أخرى ، واستطاعت هذه الحملة أن
تستميل اليها القبائل بما اغدقت عليها من الاموال الطائلة . وتمكنت أخيرا
من فتح المدينة وجدة ومكة . وقد أيدھا الشريف غالب وتعاون معها .
ونوجه الشريف على رأس قوة كبيرة نحو الطائف وفتحها . وقد وقع
عثمان المضائفي في أسره ، فأمر الشريف بوضع سلسلة من الحديد في
عنقه وارساله الى مصر .

(٤١) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) - القاهرة ١٩٦٧ ،
ص ٢٢٦ .

(٤٢) محسن الامين (المصدر السابق) - ص ٣٥ .

(٤٣) المصدر السابق - ص ٣٥ .

(٤٤) نقلا عن المصدر السابق - ص ٣٧ .

حين وصل الى محمد علي باشا خبر الانتصارات التي نالتها جيوشه في الحجاز جاء بنفسه اليه وعند وصوله الى جدة حضر الشريف غالب لمقابلته فيها ، ثم جاء اليه أيضا وفد من الامير سعود يطلب الصلح كما يطلب الافراج عن عثمان المضائفي ، وقدم فدية عنه قدرها مائة ألف ريال فرنسي ، فقال محمد علي للوفد : « أما المضائفي فأرسل الى اسلامبول ، وأما الصلح فلا نأباه بشرط دفع كل ما صرفناه على العساكر من ابتداء الحرب الى اليوم وارجاع ما أخذناه من ذخائر الحجرة النبوية » . فعاد الوفد خائباً ، كما ان المضايقي أرسل الى اسطنبول فطيف به في أسواقها مع زميل له اسمه ابن مضيان ، ثم قُتلا (٤٥) .

غادر محمد علي باشا جدة متوجها الى مكة ، وعند وصوله اليها احتفى به الشريف غالب احتفاءً عظيماً وبالغ في ضيافته . وكان محمد علي من جانبه يبالي في احترام الشريف ويقبل يده أمام الناس . وقد تعاهد الرجلان في جوف الكعبة على الوفاء وعدم الخيانة .

كان السلطان العثماني غاضباً على الشريف غالب لما سبق له مسن سلاح مع الوهابيين ، فكتب الى محمد علي يأمره باعتقال الشريف وإرساله الى اسطنبول . وقد شعر محمد علي بالحيرة لتنفيذ هذا الامر السلطاني بعد ما تعاهد مع الشريف في جوف الكعبة على الوفاء وعدم الخيانة . وقد وجد محمد علي أخيراً حيلة شرعية تمكنه من تنفيذ الامر حيث كلف ابنه طوسون باشا به ، ولم يقيم هو به بنفسه تخلصاً من نكث العهد بزعمه . وقد قام طوسون باشا بالامر ، فأمر باعتقال الشريف غالب بعد تقبيل يده .

أرسل الشريف غالب الى مصر مع ولديه عبدالله وحسين وأربعة من عبيده . ثم صودرت أمواله وأملاكه واستولي على جميع ما في داره ، وأخرج حرمه وجواريه من الدار بعد تقشيشهن تقشيشاً فاحشاً . ولكنه عند

(٤٥) المصدر السابق - ص ٤١ .

وصوله مصر استقبال باحتماء كبير وأطلقت له المدافع ، وسمح لحريمه بالالتحاق به . ثم أُرسل بعد ذلك الى سالونيك مع حريمه وولديه وعبيده . وأمر السلطان باعادة كل ما صودر منه ، ومنحه المرتبات الكافية له . وقضى الشريف غالب بنية عمره في سالونيك ، وقد توفي بمرض الطاعون في عام ١٨١٦ (٤٦) .

ظلت الحروب مستمرة بين الحملة المصرية والوهابيين . وقد اضطر محمد علي باشا الى العودة الى مصر في عام ١٨١٥ تاركا قيادة الحملة الى ابنه طوسون . وفي أواخر ١٨١٦ مات طوسون من جراء حمى اصابته ، فعين محمد علي ابنه الثاني ابراهيم باشا قائدا للحملة . وقد استطاع ابراهيم أن يغلب الوهابيين وان يطاردهم حتى وصل في عام ١٨١٨ الى عاصمتهم الدرعية . وبعد أن حاصر الدرعية طيلة ستة أشهر استسلمت له . فقتل ابراهيم علماءها ثم أرسل عبدالله بن سعود ، الذي كان قد خلف أباه في امارة الوهابيين ، الى اسطنبول حيث نُفذ فيه حكم الاعدام بأمر من السلطان . وفي حزيران ١٨١٩ وصل الى ابراهيم باشا أمر من أبيه محمد علي بتدمير الدرعية تدميرا تاما ، فقام ابراهيم بما أُمِر به ، واصبحت الدرعية مجموعة من الاطلال (٤٧) .

بين عون وزيد :

دام الحكم المصري في الحجاز نحو ثلاثين سنة اذ لم ينسحب الجيش المصري من الحجاز الا في عام ١٨٤٠ م . وكانت تلك الفترة ذات أثر كبير في منصب الشرافة ، فقد كان شريف مكة قبل ذلك يحكم الحجاز

(٤٦) عبدالله فيليبى (تاريخ نجد) - ترجمة عمر الديراوى - بيروت - ص ١٣٩ .

(٤٧) المصدر السابق - ص ١٦١ .

حكما مطلقا وتكاد سيادة الدولة العثمانية عليه تكون اسمية (٤٨) * أما بعد ذلك فقد أصبح الشريف يشاركه في الحكم والي تركي ومعه قنات نظامية تخضع لامره * وقد بدأ منذ ذلك الحين صراع بين والي والشريف يشتد تارة ويخف تارة أخرى * فالوالي يريد أن يفرض سيادة الدولة في الحجاز ، بينما الشريف يريد أن يستعيد مجد اجداده في الحكم المطلق *

ومن الممكن القول ان الصراع بين الاشراف أنفسهم قد دخل فيه من جراء ذلك عامل جديد لم يكن موجودا من قبل ، هو نفوذ الدولة وأمر السلطان * فبعد ما كان الصراع بين الاسر المتنافسة محصورا في داخل الحجاز ويعتمد على القوة وحدها ، أصبح الآن يدور بالإضافة الى ذلك في أروقة أسطنبول حيث تحاول كل أسرة نيل الخطوة لدى السلطان وتشويه سمعة غريماتها لديه *

شهدت فترة الحكم المصري في الحجاز بداية الصراع المشهور بين أسرتين من الاشراف هما : اسرة ذوي زيد واسرة ذوي عون * وهو الصراع الذي استمر حتى عهد ما بعد الحرب العالمية الاولى وكان له أثره في تاريخ الاشراف القريب *

كان عبدالمطلب بن غالب هو زعيم ذوي زيد ، وقد تولى الشرافة في عام ١٨٢٧ ، ولكن عهده لم يدم طويلا اذ كان يناقسه على الشرافة محمد بن عبدالمعين زعيم ذوي عون * ويدعي ذوو زيد أن محمد بن عبدالمعين لم يكن شريفا بل هو مجهول النسب كان يعمل خادما عند الشريفنة حزيمة أخت عبدالمطلب ولكن محمد علي باشا أراد أن يجعل منه ندا لعبدالمطلب نكاية به ولكي يشق الاشراف ويضعفهم *

(٤٨) سليمان موسى (الحركة العربية) - بيروت ١٩٧٠ - ص ٤٤ *

وفي أوائل عام ١٨٢٨ م حدثت معركة شديدة في الطائف بين قوات عبدالمطلب وقوات محمد بن عبدالمعين ، وقد ساعدت القوات المصرية محمدا ، فانتصر على خصمه . فطلب عبدالمطلب منه الامان ، وغادر الحجاز ذاهبا الى اسطنبول . وقد احتفى به السلطان محمود عند وصوله وأكرمه وأبقاه عنده في اسطنبول .

استمرت شرافة محمد حتى عام ١٨٥١ عندما صدر أمر السلطان بعزله لسبب غير معروف ، وقد عينت الدولة عبدالمطلب في الشرافة مكانه . وقد ذهب محمد الى اسطنبول فعاش هو واولاده في كنف السلطان مكرما على نحو ما عاش خصمه عبدالمطلب من قبل .

لم تدم شرافة عبدالمطلب في هذه المرة سوى اربع سنوات تقريبا ، ففي عام ١٨٥٤ حدث حادث أدى الى عزله . وخلاصة الحادث ان الوالي التركي كامل باشا قد وصله أمر من السلطان بمنع بيع الرقيق علنا في الاسواق تنفيذا لمعاهدة عُنِدت بين الدولة العثمانية وبريطانيا . وقد استدعى كامل باشا دلالي الرقيق وأبلغهم الامر ، ولم يكذ ينشر الخبر في مكة حتى هاج الناس وتنادوا بالجهاد ، واجتمع طلبة العلم في بيت رئيس العلماء وطلبوا منه أن لايرضخ لهذا الامر الذي هو مخالف للشرع في نظرهم ، كما طلبوا منه أن يذهب معهم الى دار القاضي ليمنع من صدور الامر . فاستجاب رئيس العلماء لطلبهم وسار معهم متجها الى دار القاضي ، وانضم الجمهور اليهم في الطريق وهم ينادون بالثورة ، واشتبكوا مع الحامية التركية في قتال عنيف امتد الى المسجد الحرام ، وسقط فيه عدة قتلى من الفريقين .

كان الشريف عبدالمطلب يومذاك في الطائف ، ولما علم بالامر قرر أن يقف الى جانب الاهالي ضد الحامية التركية ، وجمع اتباعه وتوجه بهم نحو مكة . وأسرعت الحامية التركية بالانسحاب الى جدة ، ف تحصنت فيها . وأعلن الوالي ان أمر السلطان قد وصله بعزل عبدالمطلب من الشرافة واعادة محمد بن عبدالمعين اليها .

وفي ٢٦ نيسان ١٨٥٥ وصلت باخرة الى جدة وهي تحمل محمد بن عبدالمعين ، فأقيمت الزينات في جدة احتفاء بمقدمه . وسار محمد على رأس قوات كبيرة نحو الطائف التي كان عبدالمطلب متحصنا فيها . ثم هاجم الطائف هجوما شديدا واقتحمها وأسر عبدالمطلب ، وأرسله مخفورا الى اسطنبول ، فعفا عنه السلطان وأقامه في أحد القصور مكرما (٤٩) .

في ٢٩ آذار ١٨٥٨ مات محمد بن عبدالمعين على أثر مرض لم يسهله الا اياما ، فتولى الشرافة من بعده ابنه عبدالله . وظل عبدالله في منصب الشرافة الى أن حل عهد الدستور الاول في الدولة العثمانية على يد مدحت باشا في عام ١٨٧٧ ، فعزل عبدالله وعُين مكانه اخوه الحسين بن محمد الذي كان من المؤيدين لمدحت باشا والدستور .

دامت شرافة الحسين بن محمد سنتين وبضعة أشهر ، ففي عام ١٨٨٠ قتل الحسين في جدة على يد درويش افغاني اذ طعنه بخنجر مسموم . وقد اختلفت الاقاويل في سبب قتله ، وقيل ان السلطان عبدالحميد هو الذي دبر أمر اغتياله بعد إلغاء الدستور ونفي مدحت باشا .

أعيد عبدالمطلب الى منصب الشرافة وقد نقلته من اسطنبول الى الحجاز باخرة سلطانية خاصة . فوصل الى مكة في ٢٨ أيار ١٨٨٠ م ، فاستقبل فيها استقبالا عظيما ، وكان حينذاك كبير السن ، وأخذ يقسو على اتباع ذوي عون وعلى أنصار الدستور . وفي عام ١٨٨١ م عندما جيء بمدحت باشا وأصحابه الى مكة في طريقهم الى سجن الطائف كان عبدالمطلب يطل عليهم من نافذة قصره وهو يقول : « نصحت لك بامدحت فلم تقبل » (٥٠) .

لم تبق أسرة ذوي عون ساكنة نجاه حكم عبدالملك ، فقد دهم

(٤٩) أحمد السباعي (المصدر السابق) - ص ٣٧٥ - ٣٧٦ .

(٥٠) المصدر السابق - ص ٣٨٤ .

وفد منهم الى اسطنبول وبرزوا للسلطان عبدالحميد وثائق تثبت اتصال
عبدالمطلب بالانكليز . ويدعي ذوو زيد أن الوثائق كانت مزورة (٥١) .
والظاهر انها أثرت على السلطان فأصدر أمـره في عام ١٨٨٢ بعزل
عبدالمطلب من الشرافة ، وعين مكانه رجلا من ذوي عون هو عون بن محمد
ابن عبدالمعين - وهو المشهور باسم « عون الرفيق » . وقد اعتقل عبدالمطلب
على أثر ذلك وظل رهن الاعتقال حتى مات في أوائل عام ١٨٨٦ م عن
عمر يناهز المائة .

عون الرفيق :

تولى عون الرفيق شرافة مكة ثلاثا وعشرين سنة من عام ١٨٨٢ الى
١٩٠٥ والواقع أنه يستحق أن يكتب عنه كتاب قائم بذاته لما اشتهر به
من غرابة الاطوار وما دار حوله من أقاويل مختلفة وأساطير .

وصفه أحد المؤرخين بقوله ان شرافة مكة بلغت في عهده « منتهى
ضعفها وغاية هبوطها » (٥٢) ، بينما وصفه مؤرخ آخر بأنه « مأمون عصره
ورشيد مصره » (٥٣) . وقد أعطانا مؤلف « تاريخ مكة » صورة عنه لعلها
أقرب الى الواقع من غيرها ، فهو يقول فيه ما نصه :

« ويبدو أن الشريف عون كان ... غريب الاطوار متناقض الاعمال ،
يقدر بعض معاصريه فيه غزارته العلمية ومحفته للخير العام وتبسطه في
مجالسه الخاصة وتودده للمسلمين . وينمى عليه غيرهم تبذله بين ندمائه ،
وقسوته في معاملة الحجاج ، وامعانه في عقوبة مخالفيه ، واصطناعه

(٥١) انيس صايغ (الهاشميون والثورة العربية الكبرى) ، بيروت
١٩٦٦ - ص ٣٥ .

(٥٢) فؤاد سحمة (المصدر السابق) - ص ٣٢٣ .

(٥٣) نقلا عن كتاب مخطوط للسيد هبة الدين الشهرستاني عنوانه
« ذكرى جلاله الحسين » . واني أشكر السيد جواد الشهرستاني
على اعارته اياي هذا الكتاب .

(الخزناوية) الذين كانوا يضطهدون الشعب * • ويضيف مؤلف « تاريخ مكة » الخزناوية بأنهم رجال اتخذهم الشريف عون كحرس خاص لخدمته فصاروا يتسلطون على الاهالي ويستغلون نفوذهم فسي اضطهاد من يضطهدونه أو يطمعون في أمواله فكان لايجراً أحد على الشكوى منهم * وقيل ان الشريف عون كان يختارهم من طبقات العامة ويخولهم من النفوذ ما يستطيعون به اذلال الخاصة نكاية بهم^(٥٤) .

من الامور التي اشتهر بها الشريف عون الرفيق تقريبه لرجل من المجاذيب اسمه « علي بو » ، فقد كان هذا الرجل قبلئذ يذرع الشوارع بجسمه العاري وهو مطرق لا يكلم الناس ، فاذا حادثه أحد المارة وألح عليه في الحديث أجابه بعبارة واحدة اعتاد عليها ولا يجيب بغيرها ، وهي : « مقضية ، مقضية ، ان شاء الله » • ويقال في سبب تقريب الشريف عون له أنه تنبأ له نبوءة صحت فيما بعد ، فأمن عون بقدسيته ، وبنى له قصرا فخما وألبسه الملابس الفاخرة ، واتخذة أنيسا له ، وجعل أعيان مكة يقبلون يده ، ويحترمونه • وقد ظل هذا الرجل على هذه المنزلة العالية الى ان مات عون الرفيق في عام ١٩٠٥ ، فعاد الى الشوارع يذرعها من جديد^(٥٥) .

ومما اشتهر به الشريف عون أيضا انه كان يحب العدل ، أو كان يريد الاشتهار به ، الى درجة عجيبة • قيل أنه كان أحيانا يأمر بحبس الحيوانات والجملادات اذا كانت سببا في وقوع جناية على أحد ، فاذا وقعت صخرة على انسان فجرحته أمر بضرب تلك الصخرة او اعدامها لكي يفهم الناس أنه لايفوته قصاص مجرم ولو كان جنادا لا تكلف عليه • وحدث مرة أن سقط ديك على أخشاب تعود لامرأة شامية ، وسببت

(٥٤) - أحمد السباعي (المصدر السابق) - ص ٣٩٠ •

(٥٥) المصدر السابق - ص ٣٩٠ - ٣٩١ •

الاخشاب له جرحاً ، فأمر الشريف بحبس الاخشاب ، ولم يطلق سراحها الا بعد أن قدمت له المرأة عريضة بذلك (٥٦) .

من التهم التي اتهم بها الشريف عون أنه كان يميل الى العقيدة الوهابية ، وسبب هذه التهمة أنه أمر بهدم بعض القبور المقدسة كقبر عبد الله بن الزبير في مكة ، وقبر حواء في جدة . ويروي أمين الريحاني أن قناصل الدول الاجنبية اعترضوا على الشريف عون عندما أمر بهدم قبر حواء ، وقالوا له : « لك ماتشاء في الاولياء ، ولكن حواء أم الناس أجمعين ، ونحن نحتج على هدم مقامها » . فاقنع الشريف عون بما قالوا وترك هدم ذلك القبر (٥٧) .

والغريب أنه في الوقت الذي كان فيه خصومه يتهمونه بالوهابية كان الشيعة يظنون انه منهم . فقد كان الشيخ باقر التستري ، وهو من علماء الشيعة ، مقرباً الى الشريف عون يفد عليه ويقضي الاعوام عنده ، وكان هذا الشيخ واثقاً من تشيع الشريف عون .

ويستدل الشيعة على تشيع الشريف عون بعدة أمور منها : انه أبطل مظاهر الفرح الذي اعتاد عليها اهل الحجاز في يوم عاشوراء اعتقاداً منهم أنه اليوم الذي استوت فيه سفينة نوح على الجودي ، فقال الشريف عون لهم : « انا أمة محمد ، وسفينة آل الرسول صادفت هذا اليوم بلاءها المشهور - يقصد مقتل الحسين في كربلاء - فلا بد أن يحزن فيه الرسول وتحزن أمة » (٥٨) .

ومنها أنه نظم قصيدة طويلة في رثاء فاطمة الزهراء وذم من آذاها ، وألقاها بنفسه على الحجاج في الكعبة عام ١٩٠٤ . والواقع ان هذه القصيدة

(٥٦) نقلا عن الكتاب المخطوط للشهرستاني .

(٥٧) أمين الريحاني (ملوك العرب) - بيروت ١٩٥١ - ج ١ ، ص ٦٣ .

(٥٨) نقلا عن الكتاب المخطوط للشهرستاني .

اشتهرت لدى الشيعة في العراق ، ومازال قراء التعزية يتلونها في مجالسهم الحسينية ، وهم يرددون منها البيت التالي بوجه خاص :
بنت من ؟ أم من ؟ حليّة من ؟ ويل لمن سن ظلمها وأذاها
يمكن القول على أي حال ان الشريف عون لم يكن وهايبا ولا شيعيا ، بل كان مذهبا قائما بذاته • يصفه أحد الذين خالطوه وعرفوه بقوله : « انه كان يجاري كل طائفة باكمل ما عندهم حتى يستطلع ما في خواطرهم ، وينفذ فيهم سياسته وارادته ، ويستجمع من كل ذلك قلوب الطوائف الاسلامية قريبا والبعيد ... وكان الشريف عون عالما بارعا في الفنون متضلعا في أكثر العلوم لا يدخل عليه عالم الا ويخرج معتقدا ان علمه دون علم الشريف ... وكانت كل طائفة من المسلمين تحب وتعتقد ان امير الحرمين أحد أفراد طائفتها ... » (٥٩) •

ان هذه السياسة الغريبة التي سار عليها الشريف عون لا بد أن يرضى عنها قوم ويفضّب منها آخرون • والظاهر ان العامة كانوا في الغالب راضين عنها ومعجبين بها ، أما الخاصة فكانوا ناقلين عليها • فقد كان في مقدمة الناقمين على الشريف عون الوالي نوري باشا وأعيان مكة وعلمائها ، وكتبوا عليه المضايقات الى السلطان عبدالحميد يشكونه ويدمونه • فأرسل السلطان الى مكة لجنة للتحقيق برئاسة راتب باشا • وحين وصلت اللجنة الى جدة كان في استقبالها رسول من الشريف عون وهو يحمل صرة فيها ستة آلاف ليرة ذهب هدية الى راتب باشا (٦٠) ولما حققت اللجنة في الشكاوي بعدئذ وجدت أنها لا صحة لها وبرأت الشريف عون من التهم التي ألصقت به « زورا وبهتانا » • وبعد مدة قصيرة أمر السلطان بعزل نوري باشا من الولاية وتعيين راتب باشا مكانه •

(٥٩) نقلا عن الكتاب المخطوط للشهرستاني •
(٦٠) سليمان موسى (المصدر السابق) ص ٤٥ •

وفي عام ١٩٠٤ نظم الشاعر المعروف أحمد شوقي قصيدة طويلة ذم فيها الشريف عون ذماً مقذعاً وحث السلطان على عزله • وقد رفع القصيدة الى السلطان • وفيما يلي ننقل أبياتاً نموذجية منها :

ضج الحجاز وضج البيت والحرم	واستصرخت ربها في مكة الامم
قد مسها في حماك القمر فاقض لها	خليفة الله أنت السيد الحكم
لك الربوع التي ريع الحجاج بها	ألشريف عليها أم لك العلم
أهين فيها ضيوف الله واضطهدوا	إن أنت لم تتقم فالله متقم
أفي الضحى وعيون الجند ناظرة	تسبى النساء ويؤذي الاهل والحشم
ويُسفك الدم في أرض مقدسة	وتُستباح بها الاعراض والحرم
يد الشريف على أيدي الولاة علت	ونعله دون ركن البيت تُستلم
نيرون ان قيس في باب الطغاة به	مبالغ فيه والحجاج متهم
أدبه أدب أمير المؤمنين فما	في العفو عن فاسق فضل ولا كرم
لا ترج فيه وقاراً للرسول فما	بين البغاة وبين المصطفى رحم
ابن الرسول فتى فيه شمائله	وفيه نخوته والعهد والشمم
ماكان طه لرهط الفاسقين أباً	آل النبي بأعلام الهدى ختموا
محمد رُوِّعت في القبر أعظمه	وبات مستأمناً في قومه الصنم
وخان عون الرفيق العهد في بلد	منه اليهود أدت للناس والذمم (٦١)

لم تؤثر هذه القصيدة على بلاغتها في السلطان شيئاً • ولعل الصرر التي كان الوالي يتسلمها من الشريف عون كانت أكثر بلاغة من القصيدة • وعلى أي حال فقد مات عون في السنة التالية ، فتولى الشرافة من بعده ابن اخيه علي بن عبدالله ولكنه عزل في عام ١٩٠٨ ، وتولى الشرافة من بعده الحسين بن علي •

(٦١) أحمد شوقي (الشوقيات) - بيروت - ج ١ - ص ٢١١ - ٢١٣ •

الفصل الثاني

الحسين بن علي

ان الحسين بن علي هو اشهر من تولي شرافة مكة في جميع العصور . فهو قد وصل بالشرافه الى القمة ولكنها سرعان ما انهارت على يده . وهو فوق ذلك ذو أهمية كبرى في تاريخ العرب المعاصر وتاريخ القومية العربية . وسنحاول في هذا الفصل ذكر شيء من حياته حتى قيامه بالثورة على الاتراك ، على أن نعود لدراسة بقية حياته في فصول تالية .

بداية حياته :

هو الحسين بن علي بن محمد بن عبدالمعين من ذوي عون . ولد في اسطنبول في عام ١٨٥٣ من أم شركسية اسمها « وسيلة خانم » . وكان جده وابوه واعمامه يعيشون يومذاك في اسطنبول عندما كانت الشرافة في يد خصمهم عبدالمطلب من ذوي زيد .

وفي عام ١٨٥٥ عندما تولي الشرافة محمد بن عبدالمعين - على أثر عزل عبدالمطلب منها - غادر اسطنبول الى مكة مع أولاده وأهل بيته ، وكان من بينهم حفيده الصغير الحسين . وفي عام ١٨٥٨ حين مات محمد تولى الشرافة من بعده ابنه عبدالله . وقد عاد علي والد الحسين الى اسطنبول حيث توفي فيها عام ١٨٧٠ . أما ولده الحسين فقد بقي في كنف عمه عبدالله في مكة . وفي عام ١٨٧٥ تزوج الحسين عابدية خانم ، وهي ابنة عمه عبدالله ، فولدت له اربعة أولاد هم : الحسن وعلي وعبدالله وفيصل . وقد مات الاول منهم في صباه ، ثم ماتت الام أيضا في عام ١٨٨٩ .

ظهرت أولى بوادر نشاطه السياسي في عام ١٨٨٠ حين تولي الشرافة

عبدالمطلب من ذوي زيد للمرة الثانية • فقد كان الحسين من جملة اعضاء الوفد العوني الذي ذهب الى اسطنبول لتحريض السلطان على عزل عبدالمطلب • ويدعي ذوو زيد أن الحسين كان من انشط اعضاء الوفد ، وأنه هو الذي قام بتزوير الوثائق ضد عبدالمطلب ، كما اتهموه بأنه اتصل بالسفير البريطاني في اسطنبول طالبا منه مساعدته ضد ذوي زيد ، وحثه على الاعتماد على ذوي عون دون غيرهم (١) •

ولما تم عزل عبدالمطلب من الشرافة في عام ١٨٨٢ ، وتولى عون الرفيق الشرافة من بعده ، كانت العلاقة بين الحسين وعمه عون حسنة جدا . فقد كان عون يكثر من زيارة الحسين في بيته ويلطف أهله ويلاعب اولاده حتى أنه كان يضع اللجام في فم عبدالله بن الحسين ويأمره بالجري كالفرس ليأنس به (٢) •

ويروي عبدالله في مذكراته حادثة طريفة جرت له في تلك الايام ، خلاصتها أنه واخوته كان لهم معلم يعلمهم الخط اسمه الشيخ عثمان اليمني ، وكان هذا المعلم ذا لثة دامية وفم كريه ، وقد اعتاد أن يضع القلم في فمه ثم يغمسه في الدواة فيختلط فيها الجبر بالدم • واراد عبدالله أن يعمل له مقلبا فجاء بشيء من الفلفل القوي ووضع في محبرة أخيه فيصل • ولما وضع الشيخ القلم في فمه بعد غمسه في المحبرة ، أحسّ بلذع الفلفل ، ثم اشتد به الألم وتورم فمه ، وقرر معاقبة فيصل ظلماً منه أنه الفاعل ، ووضع قدمي فيصل في الفلقة ، وصار فيصل يصرخ ويقسم أنه برى • وانتهى الحادث بصرف المعلم بعد الاعتذار اليه ومنحه نقودا وكسوة • ولما وصل الخبر الى الشريف عون الرفيق استدعى اليه عبدالله ، وصار يضحك

(١) انيس صائغ (الهاشميون والثورة العربية الكبرى) - بيروت ١٩٦٦ - ص ٣٤ - ٣٥ •

(٢) نقلا عن الكتاب المخطوط للسيد هبة الدين الشهرستاني •

ويتعجب من عمله ويقول : « فطنة عجيبة غريبة » • ثم أمر باحضار المعلم كما أمر باحضار طيب الاسنان ، وقال للمعلم : « يا عثمان ، تريد ان تعلم ابناءنا الخط وهم علموك كيف تكون النظافة » ، ثم نادى طيب الاسنان وأمره بأن يخلع أسنان المعلم ، فأخذ المعلم يصيح ويستغيث • فأمر الشريف عون بالكف عنه وباعطائه ألفا وخمسمائة ريال وأوصاه بأن يتداوى^(٣) •

لم تبق العلاقة الحسنة بين الحسين وعمه الشريف عون طويلا ، بل صارت تسوء شيئا فشيئا بمرور الايام • فقد أخذ الشريف عون يتهم الحسين بأنه يؤلب الناس عليه ويحرضهم على التذمر منه ، وطلب من السلطان عبدالحميد استدعاءه الى اسطنبول ليتخلص منه • فورد الامر من السلطان بأن يأتي الحسين اليه • فرحل الحسين الى اسطنبول في عام ١٨٩٣ واستقبله السلطان بلطف ، وعينه عضوا في مجلس شورى الدولة • وأمر بأن تُعد له دار مؤتة على البوسفور •

عندما استقر الحسين في داره في اسطنبول استدعى اليه اولاده وأهل بيته ، فوصل هؤلاء اليها في أوائل آذار ١٨٩٤ • وبعد وصولهم بخمسة عشر يوما صدرت الارادة السلطانية بتعيين صفوت أفندي العوا - وهو ضابط شامي - لتعليم اولاد الحسين بعض الدروس كالحساب والتاريخ والجغرافية واللغة التركية • ويروي أمين الريحاني ان عبدالله كان دؤوبا على الدرس بينما كان فيصل كسولا متأخرا في دروسه دائما ، وقد ذهب صفوت العوا الى الحسين يشكو اليه من كسل فيصل وتأخره ، فقال له الحسين : « اضربه يا ابني ولا تخف » ،^(٤) •

تزوج الحسين في اسطنبول فتاة شركسية ولدت له ابنته صالحة ، وقد ماتت الزوجة بعد فترة قصيرة ، فتزوج الحسين بعدها عادلة هانم وهي

(٣) عبدالله بن الحسين (مذكراتي) - القدس ١٩٤٥ - ص ١١ - ١٣ •

(٤) أمين الريحاني (فيصل الاول) - بيروت ١٩٥٨ - ص ١٢ •

حفيدة رشيد باشا السياسي التركي المشهور ، فولدت له ولده زيد وبنتين هما : فاطمة وسارة^(٥) .

تروي المس بيل في احدى رسائلها نقلا عن نوري السعيد : ان عبدالله كان الولد المفضل لآبيه ، بينما كان فيصل غير مقرب اليه . أما علي فكثيرا ما كان الخصام يحصل بينه وبين زوجة أبيه عادلة هانم على ادارة البيت ، ولهذا كان علي يكره ابنها زيد ، بينما كان فيصل يحبه^(٦) .

طال بقاء الحسين في اسطنبول نحو سبعة عشر عاما . ولم تكن حياته فيها مرفهة بالدرجة المناسبة لمركزه . تروي المسز أرسكين عن فيصل انه قال في وصف حياتهم في اسطنبول : « انها كانت ضيقة شاقة ، فلم يكن يتوفر لنا اللحم فيها الا مرة واحدة في الاسبوع الواحد »^(٧) . ويقول عبدالله في مذكراته : « اما اقامتنا في اسطنبول فكانت اقامة جبر واكرام ، واقامة تعلم وعبر »^(٨) .

تعيين الحسين شريفا :

عند اعلان الدستور العثماني في ٢٤ تموز ١٩٠٨ كانت شرافة مكة في يد علي بن عبدالله ، وهو ابن عم الحسين وأخو زوجته الاولى . وقد تباطأ في تأييد الدستور فصدر الامر بعزله وتعيين عمه عبد الآله بن محمد بدلا عنه . وكان عبد الآله مقيما في اسطنبول ، وكان كبير السن مريضا . وقد

(٥) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) - عمان ١٩٧٦ - ص ١٤ ، ٢١٣ .

(6) Burgoyne (Gertrude Bell) London 1961 - vol. 2, P. 245.

(٧) ارسكين (فيصل ملك العراق) - ترجمة عمر أبو النصر - بيروت - ١٩٣٤ - ص ٣٣ .

(٨) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) - ص ١٧ .

مات فجأة بعد يومين من صدور أمر تعيينه • وقيل انه مات من شدة
الفرح (٩) ، كما قيل انه مات مسموما (١٠) •

قدم الحسين الى السلطان عبدالحميد - وكان لا يزال في الحكم -
عريضة طلب فيها تعيينه للشرافة لكونه « أسن العائلة الهاشمية وأحقها
بمقام الآباء » • وحمل العريضة ابنه عبدالله حيث ذهب بها الى الصدر
الاعظم كامل باشا • وفي ١ تشرين الثاني استدعى السلطان عبدالحميد اليه
الحسين وعينه شريفا مكة كما منحه رتبة الوزارة •

اختلفت الاقوال في السبب الذي حدا بالحكومة العثمانية الى تعيين
الحسين لشرافة مكة • فمنهم من يقول : ان الاتحاديين هم الذين اختاروا
الحسين للشرافة بينما كان السلطان معارضا لهذا الاختيار (١١) • ومنهم من
يقول : ان الاتحاديين كانوا يرغبون في تعيين علي حيدر ، وهو حفيد
عبدالمطلب من ذوي زيد ، ولكن السفير البريطاني ضغط عليهم من أجل
تعيين الحسين (١٢) • ويقال أيضا أن السفير البريطاني كان له نفوذ لدى الصدر
الاعظم كامل باشا ، وقد أصر هذا الرجل على تعيين الحسين بخلاف رأي
السلطان اذ كان السلطان يعتقد أن الحسين رجل خطر ، وانه سوف لا
يكتفي بالشرافة بل سيطمح الى اكثر منها ، وربما هدد عرش السلطنة
العثمانية (١٣) •

ان عبدالله يروي في مذكراته رواية تدل على النقيض ، مما ذكرنا ،
حيث يقول ان أباه الحسين عندما أراد مغادرة اسطنبول للتوجه الى مكة

-
- (٩) أنيس صائغ (المصدر السابق) - ص ٣٦ - ٣٧ •
(١٠) أحمد السباعي (تاريخ مكة) - القاهرة ١٣٧٢ هـ - ص ٣٩٦ •
(١١) جورج انطونيوس (يقظة العرب) - ترجمة ناصر الدين الاسد
واحسان عباس - بيروت ١٩٦٢ - ص ١٧٨ •
(١٢) أنيس صائغ (المصدر السابق) - ص ٣٧ •
(١٣) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) - بغداد ١٩٢٥
- ج ١ ، ص ١٧٧ •

قابل السلطان عبدالحميد لتوديعه ، واختلى به أكثر من ساعة ونصف ، فقال له السلطان : « أسأل الله أن يجازي من حال بني وبين الاستفادة من مواهبك الهاشمية » واني لست بالأمين على الدولة من هذه الفئة المتغلبة ، فقال له الحسين : اذا ضاقت بك الدنيا فالجأ إلينا وسوف نجبي لك الاموال ونخضع لك رقاب العصاة • فاغرورقت عينا السلطان بالدموع وقال : أشكرك ، أشكرك ، بارك الله فيك ، ولكن الوقت لم يحن بعد ... (١٤) .

وصوله الى مكة :

غادر الحسين وأهله اسطنبول في تشرين الثاني ١٩٠٨ في باخرة من بواخر الشركة الخديوية • وكان في توديعه كثيرون ، في مقدمتهم كامل باشا . وفي ٣ كانون الاول وصلت الباخرة الى جدة ، وكان استقباله فيها فخما يحدثنا عنه رجل من أهلها حيث يقول ما نصه :

« ... كان رصيف الميناء مكتظا بالمستقبلين وعلى رأسهم عدد كبير من الاشراف ، فحيوه أحسن تحية ، واظهروا له عظيم السرور بتوليته امانة مكة ، وتلك عادة الناس جميعا وبالاخص الحجازيين ، أن يظهروا السرور بكل وال وأمير وان كانت قلوبهم غير راضية • ونزل في جدة ضيفا على والدي الشيخ محمد نصيف ، وحياء الحاج محمد علي زينل ... بخطبة مسهبة حوت من غرر المديح ودرر الثناء شيئا كثيرا ، وأجابه الحسين بالتأثر الذي أسال عبراته من مآقيه ... » (١٥) .

كانت قد حضرت الى جدة وفود كثيرة من مختلف مدن الحجاز وقبائله للترحيب بالحسين • وكان من جملة تلك الوفود وفد يمثل حزب الاتحاد والترقي • وقام رئيس الوفد بخطب مرحبا بالحسين واصفا اياه بـ

(١٤) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) - ص ٢٧ .
(١٥) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) - القاهرة ١٣٤٩ هـ -
ج ١ ، ص ٧ .

• الامير الدستوري ، ، وأعرب عن أمله بأنه سوف يعمل بمقتضى روح العصر والتجدد • فرد الحسين على هذا الخطاب بعنف مشيراً إلى أنه لا يعرف هذه الأمور الجديدة ، وأن الحجاز هي بلاد الله لا تقوم فيها غير شريعة الله المشتعلة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فليذهب كل منكم إلى عمله : المأمور في وظيفته ، والتاجر في تجارته ، والصانع فسي حرفته • وإياكم من قال وقيل وما يقولون ، فهذه بلاد الله ليست بملك أحد ، وإن السلطان الذى أمر بالدستور يقتخر هو وأسلافه بأنهم خدام الحرمين • إن دستور بلاد الله شريعة الله وسنة نبيه ! فخرج أعضاء الوفد من عند الحسين وهم يتعثرون ، وكتبوا إلى اسطنبول يقولون : إن عبد الحميد بعث إلينا رجلاً لا يعبأ بأحد ولا يقر بدستور ولا بتجدد (١٦) •

مكث الحسين في جدة ثلاثة أيام ، ثم غادرها إلى مكة ، فوصلها في ٧ كانون الأول • وكان فى استقباله أخوه الشريف ناصر ، والمشير كاظم باشا ، وقاضي مكة ، وسادن الكعبة عبدالقادر الشيبى ، وكثيرون غيرهم • وفي اليوم الثالث من وصوله إلى مكة أرسل ابنه عبدالله إلى الطائف لاحتضار خاله الشريف المعزول علي بن عبدالله الذى كان فيها • يروي عبدالله في مذكراته أنه عندما وصل إلى الطائف وقابل الشريف المعزول مختلياً به جرت بينهما المحاوراة التالية :

علي : « ما الذى ستفعلونه بي ؟ » •

عبدالله : « الخير كله إن شاء الله » •

علي : « هل ترضى يا عبدالله بسفري إلى اسطنبول فيفعل بي سفهاء الاتحاد والترقي ما فعلوه بوزرائهم ؟ » •

عبدالله : « لا يكون ذلك إن شاء الله » •

(١٦) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) - ص ٢٤ - ٢٥ •

علي : « كيف ؟ » •

عبدالله : « الذي تحب » ان رأيت البقاء فأنت في بلادك بعد أن تتفاهم مع ابن عمك ، وان اردت الخروج فابق بمصر ولا تسافر الى اسطنبول من هنا الا بعد أن تطمئن » •

علي : « أضمن لي هذا ؟ » •

عبدالله : « أسعى ان شاء الله » •

علي : « ألسن خالك ؟ » •

عبدالله : « بلى والله » •

علي : « أترضى لي الاهانة ؟ » •

عبدالله : « حاشا لله ، ولكن علي عهد الله لك فى اننى ان عجزت عن تنفيذ مرغوبك ان لا افارقك حيث تسير » •

علي : « رضيت الآن » • ثم دمت عيناه وقبل عبدالله (١٧) •

وعندما وصل علي الى مكة بصحبة ابن اخته عبدالله توجه لمقابلة الحسين ، فاستقبله الحسين من باب البهو ، ثم أجلسه على سريريه ، واختلى به ساعة من الزمن • وفي اليوم التالي عقد الحسين مجلسا خاصا لتقرير مصير الشريف المعزول ، فاختلّفوا في امره ، وأصرّ عبدالله على السماح له بالذهاب الى مصر قائلا : « اننى تعهدت له بأنه اذا سيق الى اسطنبول فاننى أسافر معه يصيبنى ما يصيبه » • وتم القرار أخيرا على السماح له بالسفر الى مصر (١٨) • ويقال انه عند رحيله الى مصر حمل معه كثيرا من الاموال ، فاشترى بها أملاكا وعقارا وقصرا بديعا في حدائق القبة التي كانت يومذاك من ضواحي القاهرة ، وعاش هناك عيشة رضية مزفة (١٩) •

(١٧) المصدر السابق - ص ٣٨ •

(١٨) المصدر السابق - ص ٣٩ •

(١٩) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) - ص ٥ •

نشاط الحسين :

كان التقليد المتبع في الحجاز منذ انتهاء الحملة المصرية في عام ١٨٤٠م أن يتولى الشريف شؤون البدو والقبائل بينما يتولى الوالي التركي شؤون الادارة في المدن . ولكن الحسين لم يخضع لهذا التقليد بل حاول الخروج عليه ، وصار ينازع الوالي سلطاته ، ولم يترك أحدا من الاهالي يتقاضى الا عنده ، سواء في ذلك الاحوال الشخصية او الحقوق المدنية . واخذ الحسين يوطد علاقاته مع اعيان الحجاز عن طريق التواضع والتجيب لهم ، ويحرضهم على رفع الشكاوى على الوالي الى اسطنبول^(٢٠) . وتمكن بهذه الوسيلة من عزل خمسة ولاة خلال ثمانية اعوام .

في خريف ١٩٠٨ جرت انتخابات المبعوثين ، ففاز بالنيابة عن مكة اثنان هما : عبدالله بن الحسين ، والشيخ حسن الشيبني وهو ابن سادان الكعبة . وقد سافر الرجلان الى اسطنبول عن طريق البحر لحضور جلسات مجلس المبعوثين . ولكنهما عند وصولهما أخبرهما رئيس المجلس بورود برقيات من مكة تعترض على انتخابهما قائلة بان عبدالله لا يليق بالنيابة لان عمره دون السن القانونية ، وان الشيخ حسن الشيبني أمي لا يقرأ ولا يكتب . ولما عرضت تلك البرقيات على المجلس قام أحد النواب محتجا عليها حيث قال : « ومن تريدون ؟ أتبعث اليكم مكة أفضل من ابن الشريف وابن فاتح بيت الله ؟! » . فصاح المجلس كله : « لا اعتراض ، لا اعتراض » . وعند هذا أَدْخَلَ عبدالله وصاحبه الى قاعة المجلس^(٢١) .

ولما جرت انتخابات المبعوثين للمرة الثانية ، في ربيع ١٩١٢ م ، اعيد انتخاب عبدالله عن مكة ، وانتخب أخوه فيصل عن جدة . وقد اعتاد عبدالله واخوه أن يقضيا فترة انعقاد المجلس في اسطنبول ثم يعودا الى الحجاز في الصيف .

(٢٠) المصدر السابق - ج ١ ص ٨ .

(٢١) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) - ص ٥٣ .

والمعروف عن عبدالله انه كان لبق الحديث مرحا وله جاذبية شخصية ومقدرة على المعاشرة ، ولهذا كان هو الممثل الفعلي لآبيه في أوساط اسطنبول السياسية . أما اخوه فيصل فكان على النقيض منه قليل الكلام يميل الى الجد وذا مزاج عصبي ، ولم يعرف عنه أنه قام في اسطنبول بأي نشاط ملحوظ في داخل المجلس او خارجه .

مع ابن سعود :

في عام ١٩١٠ م ظهرت اولى بوادر الصراع بين الحسين وابن سعود ، وهو الصراع الذى استمر نحو خمسة عشر سنة ، يخمد تارة ويفور تارة أخرى ، حتى انتهى أخيرا الى انتصار ابن سعود وزوال حكم الاشراف في الحجاز - كما سنأتي اليه في فصول قادمة .

كان ابن سعود في عام ١٩١٠ تحيط به ظروف سيئة ، كما حل به عسر مالي شديد بسبب انحباس المطر ، والظاهر ان الدولة العثمانية أرادت انتهاز الفرصة لفرض سيادتها عليه فأوعزت الى الحسين بالزحف عليه . وفي شهر تموز تحرك الحسين بقواته نحو نجد . وحين وصل الى « الشعرا » التي هي أولى قرى نجد من جهة الحجاز وقع في يده سعد أخو ابن سعود اسيرا . وكتب الحسين الى ابن سعود يقول له : « اذا هجمت علينا تركنا لك المعسكر والخيام وعدنا بأخيك سعد الى مكة فيبقى عندنا الى ان تطلب الصلح » .

قام بالتوسط في الصلح بين الفريقين خالد بن لؤي أمير الخرمة ، وهو من الاشراف غير أنه كان ميالا الى ابن سعود والوهابية . وذهب الى ابن سعود وقال له بلبهجة البدوية : « اسمع يا عبدالعزيز أنا أعلمك . لا غاية للشريف سيئة معك لا والله . ولكنه يبي - يقصد يبغي - يبيتض وجهه مع الترك . فاكذب له ورقة تنفعه عند الترك ولا تضرك . وأنا أتكفل برجوع سعد ، واتكفل ان الشريف لا يتدخل في أمور نجد ، هذا اذا

كنت لا تتجاوز الحدود • اما اذا هو اعتدى عليك فاننا خالد بن لؤي أعاهدك عهد الله عليه • فاكون معك والله كما كان آبائي مع آبائك وكما كان اجدادي مع أجدادك • فاقنع ابن سعود بما قال خالد وكتب له ورقة تعهد فيها أن يدفع للدولة ستة آلاف مجيدي في كل سنة (٢٢) •

أطلق الحسين سراح سعد • وفي ٢٣ ايلول أرسل ابن سعود ابن عم له اسمه عبدالعزيز بن عبدالله الى الحسين ومعه ثلاث أفراس أصيلة هدية له مع رسالة مليئة بالترلف والتعجب هذا نصها :

حضرة جناب الاجل الافخم بهي الشيم أمير مكة المكرمة سيدنا الشريف حسين باشا بن السيد علي دام مجده وعلاه أمين •

بعد اهداء مزيد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام ، مع السؤال عن شريف خاطركم العاطر • لازلتكم بكمال الصحة والسرور حائزين الاوصاف الحميدة • أحوالنا من كرم الله جميلة ، وتقدم لسعادتكم قبل هذا كتاب نرجو أنه وصل واتم مسرورون • ثم نعرض لدولتكم العزيز أنه بموجب شفقتكم وعلو همتكم وانظاركم العالية قدما أخينا عبد العزيز عبدالله السعود لموجب خدمتكم وأحبينا المصاوغه - يقصد المهاداة - معكم لموجب التبرك بأقدامكم ، وأرسلنا معه الصقلاوية والحميداني وكحيلان ، ولا والله ما قصدنا في ارسالها لانكم بحاجة ، ولا شك في غايتنا نبي - يقصد تبغي - نقرب أنفسنا منكم • فاننا هنا حاسيين أنفسنا مسن خدمكم ، والفضل لله ثم لكم ، والا هديتنا لحضرتكم رؤوسنا وما تحست أيدينا ، ولكنها هي صوغه - يقصد هدية - للاولاد الكرام • وحررنا هذا الكتاب لموجب التعرض لخدمتكم وما يبدو من اللازم ، والا امركم علينا تام على كل حال ، ومهما تفعلونه معنا وتخطون أنظاركم علينا تجدونه ان شاء

(٢٢) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) - بيروت ١٩٥٤ ، ص ١٩٢ - ١٩٣ •

الله مضاعفا بالخدمات والسمع والطاعة • هذا ما لرم تعريمه • والولد برسم
الخدمة مع ابلاغ السلام حضرات الاخوان السادات الكرام علي وفيصل
وزيد ، ومن عندنا اولادنا محمد وسعود وكافة السعود يسلمون ، ودمتم
محروسين •

خادم الدولة والملة والوطن

١٨ رمضان سنة ١٣٢٨ هـ أمير نجد ورؤساء عشائرها
عبدالعزیز السعود (٢٣)

كتب الحسين بعد هذا الى ابن سعود يذكر له ما بلغه عنه من أنه يعد
العدة للهجوم على الحجاز ، وأن بعض القبائل القاطنة على الحدود تشكو
من اعتداءاته عليها • فأجاب ابن سعود برسالة فيها من التزلف والتجيب
أكثر مما في الرسالة الاولى وهي طويلة نقتطف منها ما يلي :

« ... فالآن ابنكم وخادمكم ومملوك فضلكم - يقصد نفسه - سامع
ومطيع لله ثم لحضرتكم ... فكما تأمرون أفعل امثالا لامر الله ثم امركم ...
فان كنت المجرم فانا تحت أمركم كما تأمرون أفعل ومصطبر لأدبكم ...
وانا والله وبالله وتالله ان رضاكم وامثال خدمتكم عندي أعز من رضا
عبدالرحمن - يقصد والده - وخدمته • ثم أنا معطيكم عهد الله وأمان الله
اني ولد لك سامع مطيع ما أخالف شورتك في جميع أمر ، وانا تحت
أمركم تريدون المقابلة بيني وبين المزورين في أي وقت تبغونه أحضر ،
فان كان تحبونه من بعيد فالمراجعة بيننا ونحن تحت تدبير الله ثم تدبيركم ،
وانما لا يزورون على حضرتكم اني مستغزي أهل نجد قصد محاربتكم او
مكابرتكم ، لا والله ، لا والله ، لا والله • اني ما استغزيتهم الا لموجب

(٢٣) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) - القاهرة ١٩٦٧ ،
ص ٣٣٧ - ٣٣٨ • وانظر كذلك : أمين سعيد (تاريخ الدولة
السعودية) ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٥١ - ٥٢ •

تجافينا وبعض الفساد-اللي لا يخفى جنابكم • ولا يقطع عقلكم ان قدومي بها المحل قصدي محاربة أو أمر يفضب خواطركم ، الا انما هو تقرب لخدمتكم ••• واجبنا تعجيل الطارش لموجب رد-جوابكم العزيز • ونحن بانتظار تدبير الله ثم تدبيركم ، وتحت الامر • هذا ما لزم • والرجاء ابلاغ سلامنا الاخوان السادات الكرام • ومن عندنا أولادكم محمد وسعود وكافة السعود يقبلون أياديكم ودمتم محروسين - ١٥ شوال ١٣٢٨ هـ ، (٢٤) •

لا حاجة بنا الى القول ان هذا التخصع الذي أبداه ابن سعود نحو الحسين انما هو من مظاهر الدهاء الذي أشتهر ابن سعود به • فهو كان في تلك الآونة مشغولا بمشاكله الداخلية ، ولم يكن يرى من المصلحة أن يتورط في مشكلة أخرى مع الحسين ، فأثر أن يترضاه ويتجنب اليه مؤقتا الى ان ينتهي من حل مشاكله الداخلية • والظاهر ان الحسين لم يفهم ذلك ، ولعله اغتر بما أبداه ابن سعود له من التزلف والتخصع ، وظن انه ضعيف وسيبقى ضعيفا دائما • وقد ظل الحسين ينتظر الى ابن سعود طيلة السنوات التالية بمثل هذه النظرة ويعامله على أساسها • وتلك غلطة من الحسين كانت من أهم العوامل التي أدت الى نهايته المؤسفة أخيرا •

حملة عسير :

ان منطقة عسير جزء من اليمن تقع الى الجنوب من الحجاز ، وكانت في تلك الايام متصرفية تابعة للدولة العثمانية مركزها بلدة « أبها » ، وكان متصرفها سليمان شفيق باشا • وفي عام ١٩١٠ م ثار السيد محمد الادريسي على الدولة ، وكان له نفوذ وقدسية في تلك المنطقة ، فنال نجاحا في ثورته ، وكان الايطاليون يساعدونه فيها • وفي أواخر ذلك العام استطاع الادريسي ان يحاصر « أبها » ، وكانت فيها قوات تركية كبيرة ، ودام الحصار نحو عشرة أشهر عانى السكان منه الويلات ، وأكلوا القطط والكلاب ، ومات

(٢٤) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص ٣٣٨ - ٣٣٩ •

مهم أكبر من خمسة آلاف شخص جوعاً (٢٥) .

استعانت الدولة العثمانية بالحسين لاختتام ثورة الادريسي . فأعد الحسين حملة لها ، واستدعى اليه ابنه عبدالله من اسطنبول ليكون معه في الحملة ، كما استصحب معه ابنه الآخر فيصل . وفي ١٦ نيسان ١٩١١ تحركت الحملة من مكة وهي تضم بالإضافة الى القوات المحلية ثلاثة أفواج تركية يبلغ عدد رجالها ثلاثة آلاف .

حين تغلغت الحملة في أراضي عسير أخذت القوات الادريسية تشن الغارات عليها مرة بعد مرة ، وكبدتها خسائر فادحة (٢٦) . وفي ١٦ تموز وصلت الحملة الى « أبها » وتمكنت من فك الحصار عنها ودخولها .

حل عيد الدستور في ٢٤ تموز - أي بعد أيام قليلة من دخول الحسين الى « أبها » - وصادف ان كان ذلك اليوم نفسه يوم ذكرى مبعث النبي حسب التقويم القمري . فأقيم احتفال في « أبها » بهذه المناسبة ، وألقى فيه الحسين خطبة مدح فيها الدولة العثمانية ، ودم الادريسي ذماً قبيحاً متهما إياهم بأنه يخدم الدول الأجنبية لاغراضه الشخصية وفيما يلي نص الخطبة :

« أيها الاخوان اعلسوا علم اليقين انه لولا وجود هذه الدولة العثمانية وشدة اعتناء خلفائها بالامة الاسلامية خصوصاً مولانا أمير المؤمنين الحالي - يقصد السلطان رشاد - لاخطفكم الدول الأجنبية اختطاف الذئب للغنم المنفردة ، فان جميع الدول ساعية من زمن بعيد في اضمحلال الشريعة المحمدية بواسطة هؤلاء المغرورين الذين يخدمونها لاغراضهم الشخصية .
اخواني هل يرضيكم أفعال هؤلاء القوم الساعين في تخريب بلادكم باسم الحق . لأدري كيف اشتهرتم لهؤلاء وأمنالهم وأتم أولو العقول الراجحة

(٢٥) سليمان موسى (الحركة العربية) - بيروت ١٩٧٠ - ص ٥٤ .

(٢٦) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) - ص ٦١ .

والنخوة العربية الاصيلية • آباؤكم الأولون كانوا عز العرب وعنهم ورثتم
الهمم العالية • أستم أبناء التبابعة ؟! أستم الذين قال فيكم جدي رسول الله
صلى الله عليه وسلم : العلم يمانى والحكمة يمانية ؟! أستم أتم أبناء
اسلافكم الكرام الذين اشتهروا بالذكاء الفطري والمجد المؤمل ؟! فالله الله
با أمناء الامة العربية في دينكم لاتضيعوه ، بل احفظوه ، واستظلوا بظل
الراية العثمانية التي هي شعار الاسلام ، ولا تغتروا بأقوال المفسدين الساعين
في تنفيذ أغراض المحركين لهم أعداء الدين الاسلامي ، وانتم لطيب عنصركم
وعدم معرفتكم بالسياسة الاجنبية تظنون أنهم انما يخدمون الدين مع انهم
والله عن الدين بمعزل لا يخدمون الا أغراضهم الشخصية مستترين باسم
الدين • فأحذركم ان لا تغتروا بمثل هؤلاء الاوغاد المارقين عن الدين ، بل
كونوا مطيعين لامير المؤمنين • وتعلموا أن من خالفه فقد خالف الله
ورسوله ، ومن خالفه فقد باء بفضب من الله وخسر الدنيا والآخرة ، ذلك
هو الخسران المبين » (٢٧) •

بداية الخلاف مع الاتراك :

كانت خطبة الحسين في « أبها » تمثل قمة الانسجام بينه وبين الاتراك ،
ولكن هذا الانسجام لم يدم طويلا وسرعان ما أخذ يتلاشى ، وحل العداء
محله تدريجيا •

بدأ الخلاف بين الحسين والاتراك في « أبها » عقب القاء الخطبة ، فقد
لاحظ متصرف عسير ان الحسين لم يكن خالص النية في حملته في عسير
بل كان يقصد منها تفوية نفوذه • وكان المتصرف مقتنعا بان الحسين لا يقل
في عدائه للدولة العثمانية عن الادريسي ، وقد وصفه بقوله : « انه ادريسي
مجهز بالبنادق والمدافع » (٢٨) •

(٢٧) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) - ج ١ ص ٢١ •
(٢٨) علي فؤاد (كيف غزونا مصر) - ترجمة نجيب الارمنازي - بيروت
١٩٦٢ - ص ٨٧ •

ومما زاد في شدة الخلاف بين الحسين والأتراك - حسبما رواه عبدالله في مذكراته - ان الحسين شاهد بعض مناظر الفضائع التي اقترفها الجنود الأتراك في أتباع الأدريسي ، فقد عُرِضت عليه أربع مرات جثث شويت على النار شياً وأُدخلت أعمدة الخيام من أدبارها حتى خرجت من أفواهها، كما عُرِضت عليه سنة رؤوس مقطوعة وقد وضع قضيب كل رجل منهم في فمه . ولما شاهد الحسين ذلك قال لنظيف بك أحد قواد الترك : « هذا لا يليق ! » فأجابه نظيف بك : « أليسوا قد حرقوا قلوبنا ؟! » (٢٩) .

قرر الحسين العودة الى الحجاز مع قواته قبل الانتهاء من حرب الأدريسي . فغادر « أبها » في ٣١ تموز ١٩١١ . ويروي عبدالله في مذكراته قصة لها دلالتها في هذا الصدد ، هي ان الحسين عندما وصل الى الطائف كان في استقباله والي الحجاز حازم بك ومعه الشريف ناصر بن محسن من ذوي زيد ، وكان الحسين قد علم قبل وصوله بان الشريف ناصر نشر الاشاعات السيئة عن حملة عسير كما أشاع أن الحسين نفسه قُتل فيها . ولم يكذ الحسين يراه بين المستقبلين الى جانب والي حتى أمر باخراجه اخراجاً عنيفاً ، فاحتج والي على ذلك قائلاً : « عفوا يا سيدي فانه قد جاء معي » . فأجاب الحسين : « وان كان قد جاء معك ؟! » . فقال والي : « أنا ممثل السلطان ، وهذه المعاملة تحقير للسلطان نفسه » . فأجاب الحسين : « هل تركتم ناحية من السلطان لم تحقروها ؟! أنا ممثل السلطان هنا لا أنتم » (٣٠) .

أبرق والي الى اسطنبول بما جرى ، فوردت من الصدر الاعظم ابراهيم حقي باشا الى الحسين البرقية التالية : « لقد بلغت المسامح السنية المعاملة الشديدة التي وقعت من ذاتكم الهاشمية على الشريف ناصر بن

(٢٩) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) - ص ٦٦ .

(٣٠) المصدر السابق - ص ٦٨ .

محسن الذي هرع لاستقبالكم مع عطوفة حازم بك والي الحجاز ، وان
الرغبة السلطانية منصرفة الى استدعاء الشريف المومى اليه الى مقامكم
السامي وتلطيفه وارضائه ، ، *

فأجاب الحسين بالبرقية التالية : « بما ان الاسباب الموجبة لما نال
الشريف ناصر بن محسن من زجر واخراج لاتعلق بي شخصيا ، فانا لاأرى
اظهار الندم على ما فعلت ، وان ما اشاعه المومى اليه من اخبار اضمحلال
القوى التي كانت معي واباتنا لم يقصد منه الا ايجاد حركة ثورية هنا
أيضا ، فهو يستحق ما وقع عليه . وقد بلغني الخبر من مكتوبي الولاية ،
ثم جاء به الوالي وهو يعرف ذلك وما في هذا من المداينة والفساد ليس من
خلقي » *

عاد الجواب فورا من الصدر الاعظم يقول : « ان الباب العالي لا
يستطيع غض النظر عن ما في كسر الرغبة السنية التي تبلقتموها بالبرقية
السابقة التي تؤيدها بهذه ، مردفين انتظار السلطان النتيجة ، ، *

فأجاب الحسين بما يلي : « انني ، مع كراهتي لنفسي ، الرجل الذي
يعتبر قاعدة الثاني بعد ولي العهد في المكانة ، ولا أظن ان الرغبة السنية
تقصد الحط من هذا المركز القديم . والباب العالي ، الذي لا يستطيع غض
النظر عن نفوذ الذات السنية ، كيف يوجه هذه التهمة الشائنة الى رجل
لم ينفذ بعدُ بنهار السفر عن رجله في مجد السلطان ؟! وان الباب العالي
حر في ما يحب أن يفعله » *

لم يرد الصدر الاعظم على هذه البرقية . والظاهر ان الحكومة
التركية شغلت بأمر جديد ألهاها عن مشكلة الحسين ، هو قرب اندلاع
الحرب بينها وبين ايطاليا ، ولعلها رغبت في المصالحة معه من جراء ذلك .
ففي ليلة عيد الفطر الذي حل في ٢٥ ايلول ١٩١١ ، جاء عثمان بك قائد
الجندرية الى الحسين وذكر له ان برقية وردت من الباب العالي الى الوالي

تطلب منه أن يزور الحسين معذرا وقال : « هل يقبله سيدنا ؟ » • فأبدى الحسين ترحيبه به ، وتمت الزيارة في صباح اليوم التالي عند صلاة العيد ! (٣١) •

لم يمض على المصالحة سوى اربعة ايام حتى اندلعت الحرب مع ايطاليا • وقد تشجع الادريسي بهذه الحرب فعاود الهجوم على القسوات التركية في عسير ، وأمدنه ايطاليا بالاسلحة كما قامت المدمرات الايطالية بقصف الحاميات التركية في ساحل البحر الاحمر •

استعانت الدولة العثمانية بالحسين مرة اخرى • وأرسل الحسين قواته الى عسير في ربيع ١٩١٢ بقيادة ابنه فيصل • ولم يستطع فيصل ان يفعل شيئا ذا أهمية ، فقد أنهك الحر والملايا قواته ، واصيب فيصل نفسه بالملايا • وأُشيع في مكة أن فيصل مات من شدة الحمى • ويقال ان بنتا لفيصل اتابها الذعر عند سماعها خبر موت ابيها ، فسقطت على رأسها ، وأصيبت من جراء ذلك بشلل أقعدها • وعاد فيصل اخيرا وهو محمولا على كرسي من شدة الوهن (٣٢) •

بداية الاتصال بالانكليز :

في الاسبوع الاول من شباط ١٩١٤ كان عبدالله بن الحسين فسي طريقه من مكة الى اسطنبول وقد نزل في القاهرة ضيفا على الخديوي عباس حلمي في قصر عابدين • وانتهاز عبدالله الفرصة فقابل كتشنر المعتمد البريطاني في مصر بحضور سكرتيه الشرقي رونالد ستورز ، وأخذ يحدثه عن العلاقات المتوترة بين الاتراك ووالده الحسين ، وألح الى ان الاتراك ربما عزلوا والده عن الشرافة ، وسأله بصورة غير مباشرة عن موقف الحكومة البريطانية من ذلك وهل من المحتمل أن تساعد والده اذا

(٣١) المصدر السابق - ص ٧٠ •

(٣٢) أمين الريحاني (فيصل الاول) - ص ١٣ - ١٤ •

اعلن البودة على الافراك * فأجابه كتشنر جواباً مطاطاً غامضاً مشيراً الى الصداقة التقليدية القائمة بين بريطانيا وتركيا وأن ليس من المحتمل ان تتدخل بريطانيا في الشؤون الداخلية للدولة العثمانية * وقابل عبدالله بعد هذا ستورز منفرداً ، وبسط في الحديث معه في الموضوع نفسه ، فكان جواب ستورز لا يختلف عن جواب رئيسه كتشنر (٣٣) .

عند عودة عبدالله من اسطنبول في نيسان عام ١٩١٤ م بالقاهرة ونزل في قصر عابدين كذلك ، فزاره ستورز هناك ، وجرى بينهما حديث طويل . ويقول ستورز في مذكراته عن هذا الحديث ما يلي :

« ... اني زرته في قصر عابدين ، وجلست طيلة ساعتين تحت تأثير سحر حديثه ... حيث أخذ يرتل لي المعلقات السبع وهي القصائد الرائعة من الشعر الجاهلي ويقص لي عن أمجاد ومناجات عنتر بن شداد ، ولا بد أننا تناولنا اثناء ذلك مقادير كبيرة من القهوة الخديوية الممتازة ... ثم سألني بشكل مطلق : هل بوسع بريطانيا العظمى تجهيز أبيه الشريف بآني عشر رشاشاً ، أو حتى بستة رشاشات ؟ ولما سألته عن الغرض من هذه الرشاشات ، أجابني بجواب كل طالب للسلاح : انها للدفاع * ثم أضاف الى ذلك : انها للدفاع تجاه هجوم الاتراك * وشعرت بأنني لست في حاجة الى تعليمات من رؤسائي لاقول له : اننا لا يخطر لنا ببال أن نقدم سلاحاً يُشهر في وجه دولة صديقة - يقصد الدولة العثمانية - ولم يكن لعبدالله ان ينتظر مني غير هذا الجواب ، غير اننا افترقنا على خير ما يكون من الصداقة والود » (٣٤) .

شعر عبدالله بالخيبة من اجتماعه بستورز ولكن شيئاً واحداً استفاده من

(٣٣) جورج انطونيوس (المصدر السابق) - ص ٢٠٦ .
(34) Storrs (Orientations) - London 1989 - P. 129 - 130.

هذا الاجتماع هو نشوء صداقة متينة بينه وبين ستورز . فقد كان كلاهما مولعين بالشطرنج وبالادب العربي القديم ، وصار من عادة عبدالله انه كلما مر بالقاهرة التقى بصديقه ستورز ، ويجرى التقاؤهما عادة في غرفة خلفية في بناية جريدة المقطم^(٣٥) . ويقول ستورز في مذكراته : ان العلاقة بينه وبين عبدالله صارت تنمو بمرور الزمن^(٣٦) .

علي اصغر البزاز :

عندما اُعلنت الحرب العامة في أوروبا في آب ١٩١٤ ، كان كشنر في اجازة في بريطانيا فعُين وزيرا للحرية فيها . وكتب اليه ستورز من القاهرة قائلا : « هل لك أن تفوضني في التأكد من عبدالله عن الاتجاه الذي سيسير فيه العرب اذا دخلت تركيا الحرب ، اذ أن من الواضح ان انحيازهم الى جانبنا ، فضلا عن الاعتبارات الاخرى ، سيقوي من موقفنا العسكري »^(٣٧) . فوصل الرد في ٢٤ ايلول الى القائم باعمال دار الاعتماد البريطاني فسي القاهرة على النحو التالي :

« اطلب من ستورز ان يرسل من قبلي رسولا سريا يجري اختياره يحذر الى الشريف عبدالله للتأكد هل سيقف هو ووالده وعرب الحجاز الى جانبنا أو سيكون ضدنا فيما اذا تمكن النفوذ الالماني المسلح في اسطنبول من ارغام السلطان رغم ارادته ، وارغام الباب العالي ، للقيام باعمال عدوانية وحربية معادية لبريطانيا العظمى »^(٣٨) .

أخذ ستورز بناء على هذه الاوامر التي تلقاها يبحث عن رسول أمين

(٣٥) زين نور الدين زين (الصراع الدولي في الشرق الاوسط) - بيروت ١٩٧١ - ص ٢٠٥ .

(36) Storrs (Op. cit) p. 120.

(٣٧) جورج انطونيوس (المصدر السابق) - ص ٢٠٩ - ٢١٠ .
(38) Storrs (Op. cit.) - P. 157.

ليرسله الى مكة • وقد وقع اختياره أخيراً على رجل بهائي يعمل بزازا في حي الجمالية في القاهرة اسمه علي أصغر ، وكان سبب اختيار هذا الرجل هو أنه والد زوجة حسين روجي أفندي المترجم في دار الاعتماد • ولم يشأ ستورز أن يذكر اسم هذا الرجل في مذكراته بل أطلق عليه حرف «اكس» للتستر عليه •

غادر علي أصغر القاهرة وهو يحمل معه هدية من ستورز الى عبدالله مع رسالة يذكر فيها ان الحكومة التركية عازمة على اعلان الحرب على بريطانيا ولذا فان الحكومة البريطانية مستعدة لتقديم المساعدات اللازمة للحسين للدفاع عن حقوق العرب • وقد وصل الى جدة في ٨ تشرين الاول ، ومنها استكرى حمارا لينقله الى مكة • وعند وصوله الى مكة لم يجد فيها الحسين وأولاده اذ هم كانوا يصطافون في الطائف كعادتهم في كل عام • وكان ينوب عن الحسين في مكة احد أقربائه هو الشريف شرف ، ويقول علي أصغر عن الشريف شرف : انه كان مثل المصريين يعتقد بأن الألمان سينتصرون في الحرب •

أرسل علي أصغر الى الطائف رسولا خاصا لكي يخبر الحسين بأمره • وانتهاز الفرصة فقام بالطواف حول الكعبة • وهو يصف الطواف بأنه سخيـف جدا ولكنه نوع من الرياضة البدنية الجيدة (٣٩) •

وبعد أيام قليلة وصل الحسين وأولاده الى مكة • وحين قرأ الحسين رسالة ستورز استشار ولديه عبدالله وفيصل فيما يجب به على ستورز ، فاختلف الولدان في الرأي ، اذ كان من رأي عبدالله القيام بالنورة على الأتراك وبالتعاون مع بريطانيا ، أما فيصل فكان رأيه : أن العرب ليس لهم الاستعداد الكافي للنورة ، وهو يخشى أن تنتهي الثورة بالفشل ، ويرى

(39) Loc. cit.

من الافضل ان يقف العرب الى جانب تركيا في ساعة محتتها فيكسبوا بذلك عرفانها *

كان كل من عبدالله وفيصل مصرا على رأيه لايتزحزح عنه * وبعد التفكير توصل الحسين الى قرار وسط هو أن يكتب عبدالله الى ستورز يخبره بأنه راغب في الوصول الى تفاهم مع بريطانيا ولكن مركزه الديني يمنعه من تغيير موقف الحياد الذي هو عليه ، وانه مع ذلك قد يعلن الثورة على الاتراك اذا اضطروه الى ذلك على شرط ان تعهد له بريطانيا بتقديم مساعدة فعالة (٤٠) *

عاد علي أصغر بالجواب الى القاهرة ، فوصلها في ٣١ تشرين الاول * وكانت الحرب قد أُعلنت بين بريطانيا وتركيا في ذلك اليوم * وقد أبرقت دار الاعتماد بجواب عبدالله الى كتشرف فورا ، فجاء الجواب منه في اليوم نفسه ، وهذا نصه :

« سلامات الى الشريف عبدالله * لقد تمكنت المانيا الآن من شراء الحكومة التركية بالذهب بالرغم من أن بريطانيا وفرنسا وروسيا قد تكفلت بالحفاظ على سلامة الامبراطورية العثمانية اذا بقيت تركيا على الحياد في هذه الحرب * ان الحكومة التركية قامت ، على غير رغبة السلطان وبسبب الضغط الالماني ، بارتكاب أعمال حربية بغزوها حدود مصر بعصابات مسلحة يتبعها جنود أتراك يتجمعون الآن في العقبة لغزو مصر * فاذا ساعدت الامة العربية بريطانيا في هذه الحرب فان بريطانيا ستضمن عدم وقوع تدخل في الشؤون الداخلية للجزيرة العربية وستقدم للعرب كل مساعدة ضد أي عدوان اجنبي خارجي * ومن الممكن ان يتولى الخلافة في مكة او المدينة شخص من العنصر العربي العريق ، ويمكن ان يحدث خير باذن الله من

(٤٠) جورج انطونيوس (المصدر السابق) - ص ٢١١ - ٢١٢ *

هذه الشرور الواقعة الان» (٤١) .

أعد ستورز رسالة الى عبدالله وفق هذه البرقية التي وصلته من
كتشسر ، وحصل علي أصغر الرسالة الى مكة ، وعاد منها الى القاهرة في ١٠
كانون الاول . فكتبت دار الاعتماد في القاهرة الى وزارة الخارجية البريطانية
في لندن البرقية التالية :

« عاد الرسول من رحلته البانية يحمل رسالة ثانية من الشريف عبدالله
والرسالة مكتوبة ببارات ودية وتؤكد مرة ثانية مشاعره الودية تجاه
بريطانيا العظمى وتنص بصراحة على أن والده لاينوى اتباع سياسة معادية
لصالحنا . وأكد شريف مكة في حديث شفوي مراراً على ان صداقته أقوى
كثراً مما تعبر عنه رسالته ولكنه أشار الى ان مركزه في العالم الاسلامي
والوضع السياسي الراهن في الحجاز يجعلان من المستحيل عليه قطع علاقته
حالا مع تركيا ولكنه بانتظار الفرصة المواتية . وقد أخبر الرسول بأن الاتراك
يستغلون بين العرب قطعنا المزعوم للمؤون عن الاماكن المقدسة » (٤٢) .

بعثة فيصل :

لم يكن الاتراك يعرفون ما يجري من اتصال خفي بين الحسين
والانكليز . ولما أعلنوا دعوة « الجهاد » أرسلوا الى الحسين يطلبون منه
تأيد الدعوة ، فأجابهم قائلاً : انه يؤيد الدعوة من صميم قلبه وهو يضرع
الى الله ان يكملها بالنجاح ولكنه يخشى أن يشارك في الجهاد فينتقم الانكليز
منه بفصف موانيه وقطع المواد الغذائية عن الحجاز فتنشأ المجاعة فيه وتثور
القبائل .

أدرك الاتراك ان الشريف يتمحل الاعذار لكي يتقاعس عن نصرتهم،

(٤١) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . ٠ أو ٣٧١ - ٢١٣٩) .

(٤٢) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . ٠ أو ٣٧١ - ٢١٣٩) .

فَعَزَمُوا عَلَى التَّخْلُصِ مِنْهُ • وَفِي أَحَدِ الْيَوْمِ مِنْ شَهْرِ شَبَّاطِ ١٩١٥ بَيْنَمَا كَانَ الْوَالِي التُّرْكِيُّ وَهَيْبُ بَاشَا مُسَافِرًا مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ سَقَطَتْ حَقِيبةٌ مِنْ أَمْتَعَةٍ أَحَدِ حَاسِيَتِهِ ، فَعَنَرَ عَلَيْهَا أَعْرَابِيٌّ وَسَلَّمَهَا إِلَى الشَّرِيفِ عَلِيِّ ، وَارْسَلَهَا عَلِيٌّ بِدَوْرِهِ إِلَى أَبِيهِ • وَتَبَيَّنَ أَنَّ الْحَقِيبةَ تَضُمُّ وَثَائِقَ فِيهَا دَلِيلَ عَلَى أَنَّ الْاِتْرَاقَ يَدْبُرُونَ مَوَازِمَةَ ضِدَّ الْحُسَيْنِ •

قَرَّرَ الْحُسَيْنُ أَرْسَالَ وَلَدِهِ فَيَصِلُ إِلَى اسْطَنْبُولَ ، وَكَانَ السَّبَبُ الظَّاهِرُ لِذَلِكَ هُوَ أَنَّ يَعْزُضُ عَلَى السُّلْطَانِ وَعَلَى الصَّدْرِ الْأَعْظَمِ شَكْوَاهُ مِنَ الْوَالِي وَهَيْبِ بَاشَا ، أَمَّا السَّبَبُ الْحَقِيقِيُّ فَهُوَ الْاِتِّصَالُ بِالزَّعَمَاءِ الْعَرَبِ فِي دِمَشْقَ وَمَعْرِفَةُ مَوْقِفِهِمْ مِنْ عَرُوضِ كَتَشَنَرٍ وَمَدَى تَحَمُّسِهِمْ لَهَا وَاسْتِعْدَادِهِمْ لَتَنْفِذِهَا •

وَصَلَ فَيَصِلُ إِلَى دِمَشْقَ فِي ٢٦ آذَارِ ١٩١٥ ، فَاسْتَقْبَلَهُ جَمَالُ بَاشَا بِمُظَاهَرِ التَّرْحِيبِ وَدَعَا لِلْإِقَامَةِ فِي مَقَرِ الْقِيَادَةِ الْعَامَةِ ، وَلَكِنْ فَيَصِلُ اعْتَذَرَ عَنْ قَبُولِ الدَّعْوَةِ بِحُجَّةٍ أَنَّهُ كَانَ قَدْ وَعَدَ آلَ الْبَكْرِيِّ بِالنَّزُولِ عِنْدَهُمْ • وَقَدْ قَضَى فَيَصِلُ فِي ضِيَاةِ آلَ الْبَكْرِيِّ أَرْبَعَةَ أَسَابِيعَ اجْتَمَعَ فِيهَا سِرًّا بِالْأَعْضَاءِ الْبَارِزِينَ مِنْ جَمْعِيَةِ « الْعَرَبِيَّةِ الْفَتَاةِ » ، وَانْضَمَّ إِلَى جَمْعِيَّتِهِمْ بَعْدَ أَنْ حَلَفَ الْيَمِينَ ، كَمَا اجْتَمَعَ بِالضَّبَاطِ الْعَرَبِ مِنْ أَعْضَاءِ جَمْعِيَةِ « الْعَهْدِ » ، وَبَعْضُ الزَّعَمَاءِ الدَّمَشَقِيِّينَ كَرَضَا بَاشَا الرِّكَابِيَّ رَئِيسَ الْبَلَدِيَّةِ ، وَالشَّيْخَ بَدْرَ الدِّينِ الْحُسَيْنِيَّ كَبِيرَ عُلَمَاءِ الشَّامِ • وَكَانَتْ مُحَادَثَاتُ فَيَصِلَ مَعَهُمْ تَجْرِي فِي غَايَةِ الْحَذَرِ وَالْكَتْمَانِ ، فَكَانُوا يَأْتُونَهُ إِلَى دَارِ آلَ الْبَكْرِيِّ حَوَالِي مُتَنَصِّفِ اللَّيْلِ خَوْفًا مِنَ الرِّقَبَاءِ وَالْجَوَاسِيسِ • وَقَدْ أَخْبَرَهُمْ فَيَصِلُ بِعَرُوضِ كَتَشَنَرٍ عَلَى وَالِدِهِ ، وَعَنْ تَرَدُّدِ وَالِدِهِ تَجَاهُهَا ، وَطَلَبِ مِنْهُمْ إِبْدَاءِ رَأْيِهِمْ فِيهَا ، وَاعْطَاهُمْ مَهْلَةً لِلتَّفَكُّيرِ إِلَى حِينَ عَوْدَتِهِ مِنْ اسْطَنْبُولِ •

غَادَرَ فَيَصِلُ دِمَشْقَ إِلَى اسْطَنْبُولِ فَوَصَلَهَا فِي ٢٣ نَيْسَانَ ، فَاسْتَقْبَلَ فِيهَا بِحِفَاوَةٍ • وَقَابَلَ السُّلْطَانُ وَكِبَارَ رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمُ الْوَثَائِقَ الَّتِي

تتضمن المؤامرة على والده • فطيّبوا خاطره وأصدروا الأمر بنقل وهيب باشا من الحجاز وعينوا مكانه غالب باشا وهو رجل مسالم طيب القلب وأوصوه أن يحسن علاقته مع الحسين (٤٣) • ويعزى سبب هذا الدين الذي أبداه رجال الدولة تجاه الحسين الى اشتداد حملة الدردنيل في تلك الآونة • فقد كانت الدولة العثمانية آنذاك في أخرج أوقاتها ، وكادت اسطنبول تسقط في أيدي الحلفاء • ولهذا وجد رجال الدولة ان من المصلحة ممدارة الحسين الى أن تنقشع عنهم غمة الدردنيل •

عاد فيصل الى دمشق فوصلها في ٢٣ أيار فوجد زعماءها قد استقر رأيهم على تأييد الثورة عند قيامها ، وكتبوا في ذلك ميثاقا يتضمن خارطة للبلاد العربية التي يجب على بريطانيا الاعتراف باستقلالها لقاء قيام العرب بمؤازرتها اثناء الحرب • واختلى فيصل ياسين الهاشمي زمنا غير قصير ، وكان هذا الرجل له اهمية في الشام يومذاك اذ كان رئيس اركان حرب الفيالق الثاني عشر الذي كان مقره في دمشق ويتألف معظم جنوده من العرب • فسأله فيصل عن نوع المساعدة التي يمكن ان تقدمها الحجاز الى سوريا من اجل المشاركة في الثورة ، فأجابه الهاشمي : « لانطلب شيئا ولا نحتاج الى شيء ، ودا عليك الا ان تقودنا وتسير في الطليعة » (٤٤) •

أقسم ستة من زعماء دمشق يمين الولاء وتعاهدوا على ان يعتبروا الشريف حسين ممثلا للشعب العربي ، وعلى ان تهب الفرق العربية المرابطة في الشام هبة رجل واحد في حالة موافقة بريطانيا على الشروط الواردة في الميثاق • وتأكيدا لهذا العهد أعطى الشيخ بدرالدين الحسيني خاتمه الى فيصل ليسلمه الى والده رهنا لثقة اهل الشام به (٤٥) •

(٤٣) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) - القاهرة - ج ١ ، ص ١٠٦ •

(٤٤) المصدر السابق - ج ١ ص ١٠٩ •

(٤٥) جورج انطونيوس (المصدر السابق) - ص ٢٤٥ •

تبرع فيصل لجمعية « الفتاة » بمبلغ ألف ليرة ذهب لمساعدتها في أعمالها ، وأمر بأن تكتب نسخة من الميناق بخط صغير جدا ، وأعطاهما لاحد اتباعه فوضعها في خذائه وخاط عليها بطاقة الخداء • بغية ايصالها سرا الى الحسين في مكة •

وجد فيصل أنه لا يستطيع العودة الى الحجاز قبل أن يقابل جمال باشا ويستأذنه بالسفر ، وكان جمال باشا يومذاك في القدس ، فسافر فيصل اليه بالقطار • وعند وصوله انتهز الفرصة لزيارة معسكر الجيش المعد لحملة سيناء النائية ، فأقيمت له حفلة لتكريمه ، وخطب هو في الحفلة فقال: «يجب على الامة العربية أن تشترك في الجهاد ، وانا ذاهب الى الحجاز لاعداد على رأس جيش كبير من المتطوعين فيشارك في الحملة الثانية» (٤٦) •

عاد فيصل الى مكة فوصلها في ٢٠ حزيران ١٩١٥ وقدم لوالده تقريرا مفصلا عن مهمته وشرح له كيف تغير هو في رأيه فبعد ما كان معارضا للثورة على الاتراك أصبح مؤيدا لها •

مراسلات مكماهون :

استقر رأي الحسين أخيرا على مفاوضة الانكليز تمهيدا لاعلان الثورة ، فأرسل في منتصف تموز رجلا يثق به الى المعتمد البريطاني في القاهرة السر هنري مكماهون • وبدأت منذ ذلك الحين المراسلات المشهورة بين الرجلين وهي التي عرفت باسم « مراسلات الحسين - مكماهون » •

كانت المراسلات تجري باللغة العربية وقد بلغ عددها عشر رسائل ، خمس منها مرسلة من الحسين الى مكماهون ، والاخرى اجوبة عليها • والملاحظ ان الحسين كتب رسائله على طريقة الشر الفني الذي اعتاد العرب عليه قديما ، حيث ملأها بالجميل المعترضة والتضمينات والاستطرادات

(٤٦) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج ١ ، ص ١٠٧ •

والامثال والحكم المأثورة والعبارات الرنانة الجوفاء * والظاهر ان مكماهون استغل ذلك فكان يرد على تلك الرسائل بعبارات مطاطة يخيل لقارئها انها تتعهد بكل شىء بينما هى فى الواقع لاتتعهد بشىء * ولم يفت مكماهون أن يبدأ رسائله بعبارات التحية التقليدية المليئة بالمدائح المفرطة كقوله يخاطب الشريف : « الى السيد الحبيب النسيب ، سلالة الاشراف ، وتاج الفخار ، وفرع الشجرة المحمدية ، والدوحة القرشية الاحمدية ، صاحب المقام الرفيع والمكانة السامية ، السيد ابن السيد ، والشريف ابن الشريف ، السيد الجليل المبجل ، دولتو الشريف حسين ، سيد الجميع ، أمير مكة المكرمة ، قبة العالمين ، ومحط رحال المؤمنين الطائعين ، عمت بركاته الناس أجمعين ... » (٤٧) .

مشكلة الحسين أنه بدلا من أن يعقد مع الانكليز معاهدة واضحة العبارة دقيقة الدلالة ، اعتمد على مثل هذه المراسلات التى يمكن تفسيرها حسب اختلاف وجهات النظر * ولما نصحه بعض مستشاريه بأن يطلب من الانكليز وضع اتفاقية يصادق عليها البرلمان البريطاني أجابهم بان الذين اتفقوا معه هم الحكومة نفسها ، ثم أشار الى جيبه وقال : « وعودهم هنا » (٤٨) .

يعتقد بعض الكتاب البريطانيين ان الغموض فى مراسلات مكماهون كان متعمدا ، وهم يعزونه الى سكرتيره ستورز الذى كان يعرف اللغة العربية جيدا * فقد كان الانكليز حينذاك يفاوضون فرنسا حول سوريا ، وكان اتجاه المفاوضات يناقض الوعود التى قدموها للحسين * ولكي يتخلص

(٤٧) انظر صورتها بالزنگراف فى : زين رزالدين زين (المصدر السابق) - ص ٢٨٣ .

(٤٨) خيرية قاسمية (الحكومة العربية فى دمشق) - القاهرة ١٩٧١ - ص ٢٩ .

الانكليز من هذا المآزى تعمدوا جعل مراسلاتهم مع الحسين مليئة بالغموض
والعبارات الرنانة (٤٩) .

بين الباطن والظاهر :

في أوائل عام ١٩١٦ قرر الحسين ارسال ابنه فيصل الى دمشق مرة
اخرى ليدرس الوضع فيها ومبلغ اسعداد الشاميين لتأييد الثورة عند قيامها .
وقد سافر فيصل الى دمشق ومعه خمسون فارسا بدعوى أنهم طلائع قوات
المجاهدين التي يجري اعدادها في الحجاز للاشتراك في حملة سيناء
النايئة .

نزل فيصل كالعادة في ضيافة آل البكري بينما نزل فرسانه في مزرعة
لآل البكري تقع في القابون على بعد خمسة اميال من دمشق . وبعد دراسة
الحالة وجد فيصل ان دمشق تختلف عما كانت عليه في زيارته الاولى ،
فقد كان جمال باشا قد بدأ منذ الصيف الماضي بشن حملة ارهاب على دعاة
العروبة في الشام ، فشنق عددا منهم في ٢١ آب ١٩١٥ ، بينما كان عدد آخر
منهم تجري محاكمتهم بقسوة في عالية ، وتم نقل الضباط العرب مع جنودهم
الى اماكن نائية وجيء بقوات تركية صميمية لتحل محلهم في الشام ، كما
تم نفي الكثير من الوجهاء مع عائلاتهم الى بلاد الاناضول . اضيف الى ذلك
أن المجاعة قد بدأت تظهر في بلاد الشام ، واستفحلت بشكل خاص في لبنان ،
فانشغل الناس بها عن الثورة وقضايا القومية .

وفي شهر شباط جاء وزير الحربية التركية أنور باشا الى دمشق ومنها
سافر بالقطار الى المدينة بصحبة جمال باشا وفيصل . وقد دُعي الحسين
الى المدينة للاجتماع بالوزيرين ولكنه اعتذر عن ذلك وأرسل لكل منهما
سيفا مرصعا .

(49) Elizabeth Monroe (Britain's Moment In the Middle East) —
London 1968 — P. 31 — 32.

جرى في المدينة استعراض للقوة التي كان الحسين يعدّها للثورة باطنا ويتظاهر بأنّها معدّة للاشتراك في حملة سيناء • وقد وجه أنور باشا الى فيصل سؤالاً : هل ان هذه القوة كلها قد أعدت لحرب اعداء الاسلام ؟ فأجاب فيصل : نعم (٥٠) •

عاد أنور وجمال الى دمشق ومعهم فيصل • وفي أوائل شهر آذار عندما عاد أنور باشا الى اسطنبول ابرق الى الحسين يكرر الطلب عليه باعلان الجهاد المقدس • وكان الحسين حينذاك قد نفذ صبره وأراد أن يكشف عن بعض نيته تجاه الاتراك ، فأرسل في ١٦ آذار برقية الى الصدر الاعظم وانور باشا قال فيها : انه لا يعلن الجهاد الا بشروط هي : اعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين ، ومنح سوريا والعراق ما يطلبانه من نظام لامركزي ، وجعل اماره مكة وراثية في أولادى ، واذا لم تقبل هذه المطالبات فأرجوكم أن لا تنتظروا مني الاشتراك في حرب كنت قد نصحت بأن لا تدخلوا فيها ، وسأكتفي بالدعاء للدولة بالنصر والظفر •

كانت هذه البرقية ذات وقع شديد على الصدر الاعظم وانور باشا ، فأبرقا الى الحسين بجواب غنيف أشارا فيه الى ان فيصل سيبقى في دمشق ضيفا على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب • وانكم اذا لم ترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بارسالهم الى دمشق فان النتيجة بحقكم سوف لا تكون سارة • فأجابهما الحسين قائلاً : انه عندما بعث فيصل الى دمشق كان يعتقد انه سوف لا يراه مرة اخرى ، فافعلوا ما شئتم •

يبدو ان الصدر الاعظم وجد ان هذا العنف تجاه الحسين قد يورطهم في مشكلة هم في غنى عنها ، فأبرق اليه بعد يومين برقية فيها ما يشبه الاعتذار فأجابه الحسين بالشكر ووعدّه بأنه سيرسل المجاهدين حال وصول فيصل الى المدينة (٥١) •

(٥٠) أرسكين (المصدر السابق) - ص ٤٩ - ٥٠ •

(٥١) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) - ص ١٠٥ - ١٠٧ •

فيصل ممثلاً :

مك فيصل في دمشق مع فرسانه الخمسين زهاء خمسة أشهر ، وقد برزت آنذاك مواهبه السياسية إذ كان بارعا في مدهائته لجمال باشا وازالة الرية من قلبه في الوقت الذي كان ابوه بعد العدة للعودة على الاتراك .

يقول جمال باشا في مذكراته : انه استدعى اليه فيصل في أوائل نيسان ١٩١٦ بحضور رئيس أركان حربه علي فؤاد بك ، وأخذ يعاتبه عتابا شديدا على سلوك ابيه في مكة وسلوك أخيه علي في المدينة ، وقال له : « أني أريد ان تدرك انكم ان اردتم ان تظلوا أصدقاءنا فعليكم مراعاة قوانين الصداقة ، أما اذا كنتم ذوي غايات أخرى فالاولى ان تلجأوا الى السلاح وتجنحوا الى ثورتكم في الحال وبذلك تنتهي تلك المهزلة وبصبح كل منا عدوا للآخر ظاهر العداوة ، وحيث يصبح الامر بيد الله ... » + فامتقع لون فيصل من تأثير هذا الكلام - حسب رواية جمال باشا - وعلا وجهه الاصفرار ، ثم قام من مقعده والتفت نحو جمال باشا ويده على صدره وقال : « عفوا يا صاحب السعادة ! كيف يخطر لك ان تغزو الينا أمثال هذه التهم؟ وكيف يلبق بنا ان نكون خونة ونحن تلك الاسرة التي هي من سلالة الرسول والتي ترى من أكبر الشرف لها أن تكون من الراعايا المخلصين المواليين للخليفة ! فأبي وأخي وأنا لسنا خائنين للشعب او الحكومة ، بل نحن الخدم الاوفياء الامناء لسلطاننا الامجد الذي طالما غمرنا بانعاماته ، فلتكن موقفنا بأني سأسوي الخلاف القائم بين أخي والحاكم بصري باشا ، وسأكلفه بالحضور لتقيل يدك ! » + ويقول جمال باشا : ان فيصل بعد أن خرج من عنده ذهب الى دار علي فؤاد بك وهو في حالة تهيج وبكى بكاء مرا . ثم يقول جمال باشا تعليقا على ذلك : اني وايم الله لو كنت أعلم بأمر المراسلات التي كانت تجري يومذاك بين مكماهون والشريف حسين لامرت حالا بالقبض على فيصل في دمشق وعلى اخيه علي في المدينة ، ولارسلت

فرقة تركية على حناح السرعة الى مكة للقبض على الشريف حسين في مكة ، فأقضي بذلك على تلك البورة المشؤومة في مهدها (٥٢) .

كان فيصل في تلك الفترة يسعى للحصول من جمال باشا على عفو عن المتهمين الذين تجري محاكمتهم في عالية ، فكان يتشفع لهم عنده ويجرض اعيان دمشق على التشفع لهم ايضا . وفي يوم جمعة أقام فيصل وايمة لجمال باشا وضباطه في مزرعة آل البكري في القابون ، وحاول بعد الفراغ من الطعام ان يدر الحديث الى قضية المتهمين واستحسان العفو عنهم ، فقال له جمال باشا : « لو عرفت التفاصيل لاسفت أشد الاسف على توسطك بالصفح عنهم » .

وفي فجر ٦ أيار تم شنق سبعة من المتهمين في ساحة المرجة في دمشق ، واربعة عشر في ساحة البرج في بيروت . وكان فيصل يومذاك مقيما في مزرعة القابون ، وبينما كان يتناول طعام الافطار مع مضيفيه من آل البكري وصلهم رسول من دمشق يحمل اليهم العدد الخاص من جريدة «الشرق» الذي كان يتضمن قصة الشنق واسماء المشنوقين فخيم الوجوم على الحاضرين ، وقرأ بعضهم الفاتحة ، غير ان فيصل قفز واقفا كمن أصابه مس مفاجئ ، فانتزع الكوفية من على رأسه ، ورمى بها على الارض ، وداسها بعنف ، وصاح : « طاب الموت يا عرب » (٥٣) .

أسرع فيصل ذاهبا الى دمشق حيث قابل جمال باشا وقد حدثه جمال باشا عن الاسباب التي حملته على شنق المتهمين وشرح له « خيانتهم » وكيف أنهم اتصلوا بالدول الاجنبية . ويروي جمال باشا في مذكراته : ان فيصل قال له : « قسما بحرمة الاجداد لو علمت أن جريمة الجناة كانت بهذه

(٥٢) جمال باشا (مذكرات جمال باشا) - ترجمة علي احمد شكري -

بغداد ١٩٦٣ - ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٥٣) جورج انطونيوس (المصدر السابق) - ص ٥٨٤ - ٢٨٥ .

الشناعة لما أحسنت فقط عن طلب الشفاعة لهم بل لطلبت ان تمزق
أوصالهم ليطول عذابهم • الا لعنه الله عليهم « (٥٤) •

تمثيلية اخرى :

وصلت الى فيصل في منتصف أيار رسالة سرية من أبيه يخبره فيها
بقرب اندلاع الثورة • فأخذ فيصل يبحث عن حيلة يستطيع بها مغادرة
دمشق الى مكة دون ان يثير ريبة جمال باشا •

ذهب فيصل لمقابله جمال باشا وقال له : ان المجاهدين قد تم حشدهم
في المدينة وانهم على استعداد للمجيء الى دمشق للإشتراك في حملة سيناء •
وتساءل فيصل : الا يرى الباشا ان مما يزيد من مهابة وصولهم ان يبعث
والده بأحد أبنائه ليكون في مقدمةهم ؟ • فأنطلت الحيلة على جمال باشا ،
واقترح على فيصل ان يكون هو في مقدمة المجاهدين • فأظهر فيصل تمعناً
وقال ان له أخوين اكبر منه سناً ويجب ان يكون لهما الحق في التقدم عليه •
فأجبه الباشا قائلاً : « ومع ذلك فاني ارجوك أن تذهب ، وليأت أحد
أخويك أيضاً اذا استطاع ، ولكن من الضروري ان تذهب الى المدينة
لتستعجل اتمام الاعدادات ، ولتصحبك حاشيتك الخاصة » (٥٥) •

يدعي جمال باشا في مذكراته انه فطن الى حيلة فيصل وانه انما سمح
له بمغادرة دمشق لانه كان قد أعد خطة لضرب ثورة الحسين عند قيامها •
وفيما يلي نص ما قال جمال باشا في مذكراته في هذا الموضوع :

« وفي ذات يوم حوالي منتصف مايس جاءني الشريف فيصل
وأخبرني ان اخاه قد تلقى الاوامر من أبيه بالانضمام الى جيش سيناء وانه
هو - أي فيصل - يرغب بعد استئذاني في الذهاب الى المدينة لينجى بأخيه

(٥٤) جمال باشا (المصدر السابق) - ص ٢٤٢ •

(٥٥) جورج انطونيوس (المصدر السابق) - ص ٢٨٨ •

الى القدس • واكد لى ان ذهابه سيؤثر في نفوس المجاهدين تأثيرا حسنا •
ولما كنت قد تعودت الخديعة من الشريف حسين واولاده آثرت أن أكون
انا الغالب ففكرت قليلا ثم قلت : (حسنا جدا ، لقد صرحت لك • فاغد الى
المتطوعين في المدينة واستقبلهم باسمي ثم اتني بهم هنا • وسأمر مصلحة
السكك الحديدية بنقل الجنود ، وأرسل معك بعض العلماء من دمشق
ليكونوا في ركابك ، وبذلك تستطيع ان تؤلف وفدا خاصا لاستقبال
المجاهدين) • وما كدت أفرغ من هذه الكلمات حتى أبرقت أسلارير وجهه
وكاد فؤاده يطير فرحا • فتجلت لي الحقيقة وتكشفت ، حتى لقد التفت الى
علي فؤاد بك رئيس اركان حربي قائلا : (انني موقن بأن الثورة سيشب
ضرامها في الحجاز في القريب العاجل ، فاني قد رأيت الشريف فيصل قد
فرح أشد الفرح لخديعتي حتى أنه لم يستطع اخفاء شعوره) • وكان علي
فؤاد بك يرى رأيي وقد وافق على الخطة التي سلكتها نظرا لتقرر اتخاذ
خطة اخرى ••• « (٥٦) •

ويقول جمال باشا انه لم يكذب فيصل يغادر دمشق بالقطار حتى أرسل
وراءه قائدا معروفا بوطنية وثباته هو فخري باشا لكي يتسلم القيادة في
الحجاز عند اول قيام الثورة • وكانت هذه قوة تركية مؤلفة من ألفين
او ثلاثة آلاف جندي قد أرسلت من اسطنبول الى اليمن ، فأمر جمال باشا
بأن تبقى في المدينة وان يتم تسليحها بالبنادق التي كان في النية ارسالها الى
رجال الشريف • والظاهر ان جمال كان واثقا من ان هذه الاجراءات كافية
للقضاء على الثورة في مهدها (٥٧) •

اعلان الثورة :

في صيف ١٩١٦ كن غالب باشا يتولى قيادة الجيش في الحجاز بالاضافة

(٥٦) جمال باشا (المصدر السابق) - ص ٢٤٤ - ٢٤٥ •

(٥٧) المصدر السابق - ص ٢٤٦ - ٢٤٧ •

الى منصب الوالي ، وهو كما اشرنا اليه من قبل رجل مسالم طيب القلب .
وكان يشكو من مرض الكليه ، فغادر مكة مع القسم الاكبر من جنوده الى
الطائف لقضاء فصل الصيف فيها غافلا عما يخبئه القدر له .

لم يكن قد بقي في مكة من الجيش سوى ألف ومائتي جندي . وفي
صباح ١٠ حزيران ١٩١٦ م - الموافق ليوم ٩ شعبان ١٣٣٤ هـ - بينما كان
الجنود يتدربون خرج ثكنتهم بلا سلاح فوجئوا بالرصاص ينهمر عليهم ،
فأسرع قائدهم درويش بك الى التلمون وسأل الحسين عن سبب هذا
الرصاص ؟ فكان جواب الحسين له : « ان العرب لا ترضاكم حكاما عليهم
وانتم في ديارهم قد أهتتموهم وعاديتموهم » . وعند هذا لجأ درويش بك
الى الحيلة فتظاهر بأنه مستعد للاستسلام هو وجنوده ولكنه لم يكد يدخل
الكنة حتى أوعز الى جنوده بتناول اسلحتهم . وبذا بدأ القتال الشديد بينهم
وبين البدو المحاصرين لهم (٥٨) .

كان الاتراك يملكون منزلة لم يكن العرب يملكونها في بداية الثورة
هي المدافع ، وكانت لديهم في مكة ثكنتان هي « جياذ » التي تقع على بعد
ثلاثمائة متر من قصر الحسين ، وثكنة « جرول » التي كانت على بعد ألفي
متر منه . وقد أخذت مدافع هاتين الثكنتين توجه قنابلها على القصر ، وظلت
تواصل قصفه يوما بعد يوم . وقد أبدى الحسين شجاعة فائقة في اثناء ذلك ،
فكان يشابر على الجلوس في مكتبه يوما وهو ثابت لم يغير مكان جلوسه .
وقد دخلت إحدى القنابل غرفته ومرت على قيد شبر منه واخترقت اساس
الغرفة وهو لا يعبأ بها . وظلت فرقته الموسيقية تعزف أمام القصر على عادتها
في كل يوم . وحدث ان سقطت قنبلة بالقرب من العازفين فانفرط عقدهم
خائفين ، ولكن الحسين أمرهم أن يواصلوا العزف ولو ماتوا كلهم ، فعادوا
الى العزف تحت خطر القنابل (٥٩) .

(٥٨) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) - ج ١ ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٥٩) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٧٦ .

ليس هنا مجال الحديث عن الثورة العربية ، وهو حديث طويل
متمشع^(٦٠) ، يكفي أن نذكر هنا أن اول حامية تركية استسلمت للثورة
هي حامية جدة وذلك في ١٦ حزيران - اي بعد ستة ايام من اعلان الثورة -
وقد ساعد الاسطول البريطاني على اخضاعها + وفي ٦ تموز تم الاستيلاء
على ثكنتي حيا وجرول + وفي ٢٢ ايلول استسلمت حامية الطائف + ولم
يصمد في القتال سوى فخري باشا قائد حامية المدينة ، فقد كان هذا
الرجل شديد المراس صارما مؤمنا بعثمانيته وصوفيا من اتباع الطريقة
البكتاشية + وصار يرتقي منبر الحرم النبوي مرة بعد مرة فيسب العرب
ويسب الحسين وجميع الاشراف ويصفهم بأنهم قد تأمروا مع الكفار على
الخلافة الاسلامية .

لم تتمكن الثورة من احتلال المدينة ، واكتفت أخيرا بتطويقها بقسم
من قواتها بينما وجهت القسم الآخر نحو الشمال + وكانت القوات التي
توجهت نحو الشمال بقيادة فيصل بن الحسين يعاونه عدد من الضباط
العراقيين والسوريين ، ومعهم الضابط البريطاني المعروف لورنس + وقد
احتلت هذه القوات ميناء « الوجه » في ٢٤ كانون الثاني ١٩١٧ ، والعقبة في
٦ تموز ، ثم وصلت الى دمشق في ١ تشرين الاول ١٩١٨ +

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الحسين ببيع بالملك في مكة في
٢٩ تشرين الاول ١٩١٦ + ويقول عبدالله في مذكراته : ان الحسين لم
يكن راغبا في ذلك وأنه أصر على رفض البيعة ، ولكن رجال الدولة وقواد
السورة ومن كان في مكة من كبار حجاج العراق والشام ألحوا عليه في
قبول البيعة وقالوا له : « لسنا جميعا على استعداد لخدمة الثورة الا على
شرط قبول ما عرضناه + » ، فرضي الحسين + (٦١) .

(٦٠) راجع الجزء الرابع من هذا الكتاب - الفصل الثاني .

(٦١) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) - ص ١٢٩ - ١٣٠ .

الفصل الثالث

الحكم الشريف في سوريا

في صيف ١٩١٨ كانت قوات الامير فيصل بن الحسين العسكرية في شرقي الاردن تمثل الجناح الايمن للقوات الانكليزية المحتشدة في فلسطين بقيادة الجنرال اللنبي . وفي ١٩ ايلول بدأ الجنرال اللنبي بشن هجومه الكبير على القوات التركية ، وفي خلال ثلاثة أيام استطاع بخطة بارعة أن ينزل بالقوات التركية ضربات ماحقة مزقتها تمزيقا . وعند هذا صارت القوات العربية تتسابق مع القوات الانكليزية في سبيل الوصول الى دمشق . وفي ٣٠ منه وصلت طلائع الفريقين الى مقربة منها ، وقد اضطر الاتراك الى الانسحاب من دمشق على عجل ، ونسفوا قبيل انسحابهم مخازن العتاد فيها على نحو ما فعلوا في بغداد عند انسحابهم منها .

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي - أي ١ تشرين الاول - دخلت الى دمشق الخيالة الاسترالية من الجهة الغربية ، بينما دخلت اليها القوات العربية من الجهة الجنوبية . وقيل ان الجنرال اللنبي كان يرغب في أن يدخل العرب الى دمشق مع قواته جنبا الى جنب لكي يجعل لجيشه في أذهان الاهالي صورة الحليف لا صورة الفاتح .

كان الشريف ناصر على رأس القوات العربية الداخلة الى دمشق ممثلا للامير فيصل . وكان معه عودة أبو تايه شيخ عشيرة الحويطات ، ونوري الشعلان شيخ عشيرة الرولة ، وسلطان الاطرش شيخ الدروز ، كما كان معه لورنس ونوري السعيد . وقد قابل سكان دمشق القوات العربية والانكليزية بحماس منقطع النظير ، فكانت الشوارع مزدحمة بالجماهير الى حد يكاد يتعذر المرور فيها ، والتهنئات تشق عنان السماء . وقد

وصف صبحي العمري ما شاهده في دمشق عند دخوله اليها ، وكان ضابطا
نظامياً في القوات العربية ، فقال :

« ... » وعند مدخل حي الميدان شاهدنا الالوف من الخلق التي
جاءت ترحب بنا • وسرنا في طريق الميدان فوجدنا الناس متجمعين على
الطريق اعتبارا من بوابة الله حتى المرجة بالالوف ، في الشوارع وعلى
السطوح ، نساء آ ورجالا وشباباً وشيباً • لقد كان الجميع يرحبون بنا
بمختلف الوسائل ، بالتصفيق والنداءات والانشيد والزغاريد ونثر
الازهار • وكان في يد بعض الرجال قماقم ماء الورد والزهر يرشونه
علينا ، وهي عادة دمشقية للترحيب ... ، (١) •

كان ذلك ايذاناً ببدء الحكم الشريف في سوريا ، وهو الحكم
الذي دام ستين وكان مليئاً بالاحداث المثيرة والدروس الاجتماعية •
وسنحاول في هذا الفصل دراسة تلك الاحداث والدروس بايجاز •

اول الاحداث :

أول حادث مثير شهدته دمشق في العهد الشريفى هو حادث الاميرين
الجزائريين سعيد وعبدالقادر • فهذان الاميران هما حفيدا الثائر الجزائري
المشهور عبدالقادر الجزائري • وكانا يسكنان دمشق ولهما فيها عدد كبير
من الاتباع يعرفون بـ « المغاربة » • والواقع أنهما أنقذا دمشق من النهب
والفوضى عند انسحاب الاتراك منها في ٣٠ ايلول ، فقد وزعا اتباعهمسا
المغاربة في مختلف أحياء المدينة ، وصار هؤلاء الاتباع يجولون على
خيولهم في أحياء المدينة وخاصة في أحياء اليهود والنصارى ، وكان لهم
أثر فعال في نشر الامن والطمأنينة بين السكان •

كان آخر من انسحب من الاتراك هو وكيل الوالي الميرالاي بهجت
بك ، وقد اجتمع قبيل انسحابه بشكري باشا الايوبي وسلمه ادارة المدينة •

(١) صبحي العمري (لورنس كما عرفته) - بيروت ١٩٦٩ - ص ٢٢٧ •

ولكن الإيوبي وجد ان الامير سعيد الجزائري قد تولى الادارة في المدينة فعلا فلم يشأ أن ينازعه عليها • وكان الامير سعيد قد رفع العلم العربي على بناية السراي ، وأعلن قيام حكومة مؤقتة برئاسته باسم الملك حسين ، وأبرق بذلك الى مختلف أنحاء سوريا •

وفي صباح اليوم التالي عندما دخلت القوات العربية الى دمشق ، كان الاميران سعيد وعبدالقادر مجتمعين مع شكري الإيوبي والشريف ناصر في السراي ، فدخل عليهم آنذاك لورنس ومعه نوري السعيد • وكان لورنس له معرفة سابقة بالامير عبدالقادر ويحمل له حقداً ويتهمه بالميل الى الاتراك وخيانة العرب • ولم يكذ الامير سعيد يلمح لورنس داخلا حتى وقف في وجهه وأخذ يخاطبه بلهجة تتم عن التحدي حيث قال له : « لقد ألفنا بالامس أنا وأخي عبدالقادر أحفاد عبدالقادر الجزائري مع شكري باشا الإيوبي سليل صلاح الدين حكومة وطنية ونادينا بالحسين ملكا على العرب على مسمع ومرأى من الاتراك والالمان المدحورين » (٢) • غضب لورنس من هذا الكلام غضبا شديدا وهمّ بالرد عليه ، غير أنه سمع صوت مشاجرة في القاعة المجاورة ، فأسرع ليرى ماحدث ، وهناك وجد عودة أبو تايه وسلطان الاطرش قد شهر كل منهما سلاحه في وجه الآخر ، كما شهر أتباعهما أسلحتهم ، وكاد الرصاص ينطلق لو لم يلق بعض الحاضرين أنفسهم بين المتخاصمين ، ويمنعونهم من اطلاق الرصاص (٣) •

حين عاد لورنس الى القاعة الاولى وجد الاميرين الجزائريين قد غادراها الى البيت • فأرسل يستدعيهما اليه • وبعد قليل وصل الاميران

(٢) لورنس (اعمدة الحكمة السبعة) - بيروت ١٩٦٣ - ص ٤٣٧ •
(٣) نقلا عن سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) - عمان ١٩٧٦ - ص ١٦٦ •

الى السراي ومعهما حرسهما الخاص والشرر يتطاي من عيونهما * فأعلن لورنس على مشهد من الحاضرين قائلاً : انه بصفته مندوباً عن الامير فيصل يعزل حكومة دمشق المحلية التي شكلها الامير سعيد الجزائري وأخوه ويعين بدلاً عنها حكومة جديدة برئاسة رضا باشا الركابي على أن ينوب عنه الى حين حضوره شكري باشا الايوبي ، ويكون نوري السعيد قائداً عاماً للقوات المسلحة *

كان لهذا الكلام وقع شديد جداً على الاميرين ، وأخذ سعيد يسب لورنس وينعته بأنه نصراني انكليزي ، واستنجد بالشريف ناصر عليه باعتباره ابن دينه وعنصره * ثم قام عبدالقادر وهو شاهر خنجره ، وانقض على لورنس شاتماً له وفمه يرتجف من شدة الغضب ، غير ان عودة أبو تايه سارع لمساعدة لورنس وانقض على عبدالقادر حائلاً دون وصوله الى لورنس ، وتدخل نوري الشعلان معلناً أن قبيلة رولة القوية تقف الى جانب لورنس^(٤) * فانسحب الاميران من السراي وهما يهددان ويتوعدان بالانتقام من لورنس لكونه نصرانياً كافراً^(٥) *

صمم لورنس على قتل عبدالقادر ، وكلف نوري السعيد بذلك ، وقد كلف نوري بدوره صبحي العمري * يقول صبحي العمري في ذلك ما نصه :

« ففي اليوم الاول او الثاني من دخول دمشق ، وكنت مسؤولاً عن أمن المنطقة الوسطى من المدينة ، ومقري قرب مقر القيادة التي كانت في فندق فيكتوريا ، طلبني نوري السعيد الى المقر المذكور وكان لورنس جالساً بقربه وقال لي : « ان الامير عبدالقادر يشتغل ضد الحكم العربي

(٤) لورنس (المصدر السابق) - ص ٤٣٩ - ٤٤٠ *

(٥) نايتلي وسمبسون (المخبّي من حياة لورنس العرب) - ترجمة لاوند والعايد - بيروت ١٩٧١ - ص ٩٦ *

ويعمل لحساب الفرنسيين وهو يسعى الى الاخلال بالامن فاريدك أن تصحب عدداً من جنود سريتك وتقتله « . فدُهِشت من هذا الامر ، وبعد تفكير قليل قلت له : « افهم من أمرك ياسيدي انك تطلب مني احضاره ، فاذا عصى الامر وقاوم فاننا نجلبه حياً أو ميتاً » . ففرق نوري في تفكير قصير وراح يتبادل النظرات مع لورنس ثم قال : « طيب ، افعل » . ثم قال : « اذهب الى مدير الشرطة واطلب منه بصورة سرية شخصاً يدلك على بيت عبدالقادر » . وذهبت الى مدير الشرطة وبلغته الامر فأرسل اليّ الشخص ، وما كدت أصل الى مقرني حتى جاءني رسول يبلغني طلب نوري السعيد حضوري . فلما دخلت عليه وجدت لورنس لايزال عنده . قال لي : « صرفنا النظر عن الامر » . وخرجت (٦) .

ظل عبدالقادر مطلق السراح حتى ٩ تشرين الثاني ١٩١٨ ، ففي صباح ذلك اليوم جاء أفراد من الشرطة اليه في بيته لاعتقاله هو وأخيه سعيد . وقد تمكنت الشرطة من اعتقال أخيه ، أما هو فقد قاوم الشرطة وصار يشتم رئيس الحكومة رضا الركابي ، ثم أسرع الى فرسه وانطلق بها نحو طريق الصالحية ، ولما وصل الى جسر الصالحية أطلقت عليه الشرطة النار وأردته قتيلًا .

أُودع سعيد في سجن المزة عشرة أيام ، ثم نُقل الى حيفا ووضع فيها تحت الرقابة . وفي منتصف ١٩١٩ أُطلق سراحه وسُمح له بالاقامة في بيروت . وهناك انضم الى الفريق المالي لفرنسا والمعادي لحكومة دمشق العربية ، وأخذ ينفق الاموال في الدعاية لنفسه وفرنسا ، وأقبل عليه الكثيرون من اللبنانيين يؤيدونه ، وشرعت الصحف الميالة الى فرنسا تكيل له الثناء وتشر أخباره بشكل يلفت الانظار اليه ويرفع من شأنه

(٦) صبحي العمري (المصدر السابق) - ص ٢٣٣ .

النهب في دمشق :

في اليوم التالي لدخول القوات العربية دمشق وقعت فيها بعض حوادث النهب ، ويعزوها لورنس الى الامير عبدالقادر الجزائري حيث يقول :
« في صباح اليوم التالي جاء لايقاظي مواطن يرتجف من الخوف * وأبلغني بأن عبدالقادر قد أعلن الثورة على الحكم الذي أقمناه في الامس * فاستدعيت نوري السعيد على جناح السرعة موقناً بأن هذا الجزائري الاحمق انما يحضر قبره بيده * وكان هذا قد خشد رجاله وخطب فيهم معلناً بأن رجال الحكم ليسوا سوى صنائع بريطانيا ودعا الى القضاء على حكمهم في المهة خدمة للدين والخلافة * وبما أن أنصاره كانوا معتادين على الطاعة دون مناقشة فقد اعتبروا كلامه منزلاً وهبوا لمحاربتنا * والدروز الذين كنت في الامس قد رفضت اغداق المكافآت عليهم لخدمات متأخرة أدوها لنا ، تبع عدد منهم عبدالقادر ، ليس حباً به ، أو غيرة على الدين والخلافة ، أو ولاءاً للاتراك المقيهورين ، بل حباً بالسلب والنهب طالما ان الفرصة مؤاتية * وبثبت صحة ذلك انهم انقضوا على الحيوانات المقتوحة لسلب ما فيها عوضاً عن التوجه اليها لمحاربتنا ... » (٧) .

ان صبحي العمري لا يوافق لورنس على قوله هذا ، فهو يذكر الحادثة على النحو التالي حيث يقول : : « أصبح الأمن مستتباً ولم يعكر صفوه سوى حادثة واحدة كانت آخر الحوادث الفردية البسيطة التي كان لابد من وقوعها في مثل هذه الاحوال * وهذه الحادثة هي أن افراداً من بدو الشعلان والدروز أرادوا الاستفادة من هذه الحالة لينهبوا ما يمكن أن تصل اليه أيديهم ، فذهب عدد منهم الى بعض البيوت شمالي المزة من جهة زقاق الصخر ، وعدد آخر الى قرب الربوة ، فنهبوا بعض المساكن وتوجهوا من هناك نحو دمشق * فأعلمت بذلك وصدر لي الامر بضربهم والقبض على من يمكن القبض عليه » *

(٧) لورنس (المصدر السابق) - ص ٤٤١ .

ويصف العمري كيف ضرب الناهيين بالرشاشات فيقول : « صبنا الرشاشات في المكان الذي شُيّد عليه فندق سميراميس اليوم وانتظرت وصولهم . ولم تمر دقائق قليلة حتى رأيناهم مقبلين من جهات الربوة ، وكانوا نحو مائة بين خيال وهجان . لم يكن على الشارع سوى بناية واحدة مقابل الجسر الحالي القائم بجانب التكية . وكانوا يحملون على رواحلهم ما كانوا نهبوه من الدور ، كما كانوا يتقدمون وهم يحدون . تركتهم حتى وصلت مقدمتهم الى قرب الجسر الذي يقابلنا ، وعندها أمرت بفتح النار عليهم اعتباراً من مؤخرتهم حتى مقدمتهم في آن واحد . وبدأوا يتساقطون عن رواحلهم : فالتقدمون القريبون منا اندفعوا منهزمين من فوق الجسر باتجاه محطة الحجاز ، فحصدتهم الجنود برصاص بنادقهم ، والآخرون منهم من فرّ على الطريق نحو بوابة الصالحية ، ومنهم من فرّ على طريق الربوة . وانتهت القضية خلال عشر دقائق . وامتلاً الشارع من مقابل التكية الى محطة الحجاز باثنين وعشرين قتيلاً ونحو من ثلاثين جريحاً . بعد ذلك ارسلت الجنود نحوهم ، فجمعوا من سلم منهم كما جمعوا السلاح والابل والخيول في اصطبلات الشرطة تحت الحراسة . أما القتلى والجرحى فتركهم كلاً في مكانه للعبرة . وبعد مرور ساعة وردني أمر بإطلاق سراحهم وتسليمهم رواحلهم وجرحاهم وبنادقهم على أن يبارحوا المدينة . وهكذا كان ولم يقع غير هذه الحادثة المهمة . . . » (٨) .

بين فيصل والنبّي :

في الساعة الواحدة بعد ظهر ٣ تشرين الاول دخل الى دمشق الجنرال النبّي وهو راكب سيارة مكشوفة . فنزل في فندق فكتوريا . ويقال انه كان عند وصوله مضطرب البال قلقاً لانه تسلم قبل قليل برقية تأمره بأنه عند استيلائه على دمشق يجب ان يعمل طبقاً لاتفاقية سايكس

(٨) صبحي العمري (المصدر السابق) - ص ٢٢٩ .

بيكو^(٩) ، وهي الاتفاقية التي تجعل سوريا تحت نفوذ فرنسا . ويقال أيضاً ان برقيات أخرى كانت قد وصلت من دوائر بريطانية وفرنسية فحواها « اخنقوا حركة فيصل ولورنس في مهدها ، أوقفوا السيل العربي . تذكروا اتفاقية سايكس بيكو »^(١٠) . فأسرع النبي يستدعي اليه قائد الخيالة الاسترالي الجنرال شوفيل وطلب منه أن يبعث بسيارة ليأتي بفيصل الى فندق فكتوريا حالاً .

كان فيصل عند وصول أمر النبي اليه قد وصل بالقطار الى مقربة من دمشق ، وكانت جماهير المدينة قد تجمعت على ارضفة الشوارع وشرفات الدور استعداداً لاستقباله . ويبدو أن فيصل وجد نفسه في موقف حرج لا يدري كيف يخرج منه : هل يستجيب لأمر القائد فيخيب ظن الجماهير ، أم يستجيب للجماهير فيعصي أمر القائد ؟!

قرر فيصل الاستجابة للجماهير على أن يذهب لمقابلة القائد بعدئذ . ولهذا ترك السيارة التي جاء بها شوفيل وامتطى جواداً عربياً ، وسار في شوارع دمشق في موكب حافل يحيط به ألف وخمسمائة فارس من البدو بأيديهم السيوف والرماح . فاستقبله الاهالي بهتاف يصم الآذان ، وثرخوا عليه الزهور والرياحين . ولم يتمالك فيصل نفسه من البكاء^(١١) .

اتجه فيصل في مبيرته نحو فندق فكتوريا ، وحين دخل قاعة الاستقبال وجد النبي واقفا ينتظره مع حاشيته . وكانت تلك اول مقابلة بينهما . يقول ويفل : ان الرجلين كانا على طرفي نقيض ، فقد كان النبي الرجل البريطاني الضخم البنية الواثق من نفسه المعتاد على اصدار الاوامر

(٩) نايتلي وسميسون (المصدر السابق) - ص ٩١ .

(١٠) زين نورالدين زين (الصراع الدولي في الشرق الاوسط) - بيروت ١٩٧١ - ص ٧٩ .

(١١) أرسكين (فيصل ملك العراق) - ترجمة عمر ابو النصر - بيروت

١٩٣٤ - ص ١١٢ .

بينما كان فيصل يمثل العربي النحيل البسيط الزاهد ولكن تبدو عليه
سيما الامارة ... (١٢) .

يروى شوفيل في تقرير له نُشر مؤخراً : ان النبي بدأ يتكلم موجهاً
كلامه الى فيصل ، بينما كان لورنس يترجم بينهما ، فقال ما معناه ان فيصل
سيتولى حكم سوريا بالنيابة عن والده تحت حماية فرنسا وبإشرافها ودعمها
المالي ، وان هذا الحكم سيشمل سوريا الداخلية فقط ولا علاقة له
بلبنان وفلسطين . فرد فيصل على هذا الكلام قائلاً : انه لا يعترف لفرنسا
بأي شأن وأنه على استعداد لتلقي المساعدة البريطانية دون سواها ، ولن
يقبل بلد لا منفذ له على البحر . وهنا التفت النبي نحو لورنس يسأله :
« ألم تخبره بأن سوريا ستكون تحت وصاية فرنسا ؟ » . فأجاب لورنس :
« لا ياسيدي ، كنت أجهل ذلك » . فقال النبي له : « ولكنك كنت تعلم
علم اليقين بأنه لن يكون ليفصل علاقة بلبنان » . فأجاب لورنس : « لا
ياسيدي كنت أجهل ذلك أيضاً » .

ختم النبي المحاورة أخيراً بأن صرح قائلاً : « أنا السر آدموند
النبي القائد العام ، وأنت فيصل جنرال تحت امرتي ، وعليك أن تطيع
أوامري وتقبل بالوضع الحاضر الى أن تتم تسوية الامور بعد أن تضع
الحرب أوزارها » . فانصاع فيصل لهذا القرار وانصرف مع حاشيته
خارجاً (١٣) .

وعلى أثر خروج فيصل طلب لورنس من النبي أن يعفيه من
الخدمة ، وذكر له ان وقت اجازته قد حان وانه يرغب في العودة الى
بريطانيا . فأجابه النبي : « نعم من الافضل ان تسافر » . فانصرف

(١٢) زين نورالدين زين (المصدر السابق) - ص ٧٩ - ٨٠ .

(١٣) نايتلي وسمبسون (المصدر السابق) - ص ١٠١ - ١٠٢ .

لورنس ، وفي ٤ تشرين الأول غادر دمشق متوجهاً إلى لندن • وفي ٣٠ منه قابل لورنس الملك جورج الخامس لكي يتسلم منه الوسام الذي مُنح له تقديراً لأعماله الباهرة في الثورة العربية • ويروي أحد الذين حضروا المقابلة ان لورنس رفض قبول الوسام من الملك معتذراً بأنه قد ارتبط بمهد مع فيصل بينما هو يرى الحكومة البريطانية الآن على وشك التخلي عن العرب حسب اتفاقية سايكس بيكو • وأضاف لورنس الى ذلك قائلاً : انه كان أميراً بين العرب وهو الآن ينوي أن يلتزم جانبهم في السراء والضراء ، وقد يحارب فرنسا اذا اقتضت الضرورة من أجل انقاذ سوريا • ثم أنهى لورنس حديثه مع الملك طالباً منه المغفرة لرفضه الوسام منه (١٤) •

حادثة في حلب :

كان الفرنسيون يبذلون أقصى جهدهم لتدعيم نفوذهم في لبنان ، وجاءوا بمبلغ ضخم من الجنهات المصرية يُقدر بخمسة ملايين ونصف بغية توزيعه على الانصار والدعاة • واتخذوا من بيروت مركزاً لدعايتهم • يروي اسكندر الرياشي أن الضابط الفرنسي كولوندر استدعى اليه الزعيم اللبناني حبيب السعد وقال له بحضور الرياشي : « الحكاية أصبحت بعد دخول الانكليز بجيشهم الكبير حكاية تراحم بيننا وبينهم على هذه البلاد ، فهم أخذوا ينكبون علينا معاهدة سايكس بيكو ويتمسكون بحق القسح اعتباراً ان جيشهم هو الذي فتحها » • ويقول الرياشي ان كولوندر قال له : اذا كان الانكليز قد ملأوا سوريا ولبنان بجيوشهم فان فرنسا ماتزال تملك وسائل أخرى لمنافستهم (١٥) •

(14) Stewart (T. E. Lawrence) London 1977 — P. 218

(١٥) اسكندر الرياشي (رؤساء لبنان كما عرفتهم) — بيروت ١٩٦١ —

وفي الوقت الذي كان فيه لبنان يعج بالدعاية لفرنسا ، كانت سوريا على العكس من ذلك تعج بالدعاية ضد فرنسا • واتخذت الدعاية في كلا البلدين صبغة دينية وصارت تضرب على الاوتار الطائفية مما أدى السي حادثة مؤسفة في حلب •

كان سبب الحادثة ان اشاعة انتشرت في حلب في أواخر شباط ١٩١٩ مفادها أن الجنود الارمن استطوعين في القوات الفرنسية اعتدوا على العرب القاطنين في أطنه وما حولها ، فهاج المسلمون في حلب وقرروا القيام بمظاهرة استنكارية في يوم ٢٨ شباط ، وكان ذلك اليوم يوم جمعة •

كان شكري الايوبي يومذاك حاكماً عسكرياً لولاية حلب ، بينما كان علي جودت الايوبي حاكماً عسكرياً لمدينة حلب • ويقول علي جودت في مذكراته : انه حين بلغه قرار المظاهرة اقترح على شكري باشا منعها لما يمكن أن ينتج عنها من محذور ولكن شكري باشا لم يوافق على اقتراحه • وبينما كان علي جودت في داره في صباح الجمعة يستقبل زائريه كالعادة اذ بجرس التلفون يرن ، واذا بشكري باشا يخبره أن مذبحه وفعت بين المسلمين والارمن في سوق الجمعة فأسرع علي جودت ممتطيا حصانه وذهب الى مقر جنوده ليوجههم الى محل الحادثة • وفي خلال ساعة واحدة تقريبا انتهت الحادثة بعد أن سقط عدد من القتلى والجرحى قدره البعض بأكثر من مائة (١٦) •

قام الفرنسيون للحادثة وقعدوا ، واعتبروها دليلا على صحة مايدعونه من ان العرب لا يصلحون للحكم الذاتي ، وأخذوا ينشرون الدعاية السيئة حولها في أوروبا (١٧) • وأخذت جمعية الصليب الاحمر الامريكية تبذل

(١٦) علي جودت (ذكريات) - بيروت ١٩٦٧ - ص ٧٥ - ٧٦ •
(١٧) محمد طاهر العمري (مقدرات العراق السياسية) - بغداد ١٩٢٥ - ج ٣ ، ص ١٤٢ •

المساعدة لمن شاء من الارمن للهجرة من حلب ، فأوصلتهم الى بيروت وأمنت سفرهم بحرّاً الى البلاد التي اختاروها^(١٨) .

أستدعي شكري الايوبي الى دمشق وحل محله جعفر العسكري ، كما عين ناجي السويدي معاوناً له^(١٩) . ودعا ناجي السويدي وجهاء الارمن والمسلمين الى اجتماع عام من أجل تصفية القلوب . وعلى أثر ذلك أقام وجهاء الارمن حفلة شاي في المينم الارمني دعوا اليها وجهاء الحلبيين من جميع الطوائف ، فتبادلوا عواطف الود والاخاء وأبرق وجهاء الارمن الى المفوضية الفرنسية العليا في بيروت يرجون منهم عدم استخدام متطوعي الارمن ضد سوريا والسوريين^(٢٠) .

فيصل في فرنسا :

في ٨ تشرين الثاني أرسل لورنس الى الحسين في مكة البرقية

التالية :

« أعتقد ان محادثات ستجري بين الحلفاء في باريس خلال خمسة عشر يوماً حول قضية العرب . ان الجنرال اللنبي قد أبرق بأنك ترغب في أن يكون لك مندوب هنالك . فاذا كان الامر كذلك ، فاني آمل أنك سوف ترسل فيصل لإن انتصاراته الباهرة قد جعلت له سمعة شخصية في اوربا . . . فاذا وافقت على ارساله أرجو أن تبرق اليه لكي يكون مستعداً أن يغادر سوريا حالاً ، ولمدة شهر واحد تقريباً ، كما أرجو أن تطلب من الجنرال اللنبي لكي يعد سفينة لنقله الى فرنسا . انك يجب أن تبرق الى حكومات بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة وايطاليا

(١٨) يوسف الحكيم (سوريا والعهد الفيصلي) - بيروت ١٩٦٦ - ص ٦١ .

(١٩) علي جودت (المصدر السابق) - ص ٧٨ .

(٢٠) يوسف الحكيم (المصدر السابق) - ص ٦١ .

تخبرهم ان ابنك ذاهب الى باريس مندوباً عنك ، (٢١) .
وعلى أثر تسلم الحسين هذه البرقية أبرق الى ابنه فيصل برقية كان
هذا نصها :

« حليفنا بريطانيا العظمى ترغب حضورك نائباً عن مصالح العرب ،
وكل ما يكون أساساً لحياتهم سواء ما يتعلق بالحدود او الادارة مما هو
معلوم لديك في مجتمع سيعقد في باريس في ٢٤ نوفمبر الجاري ، فانفاذاً
لرأي عظمتها توجه بكل سرعة ممكنة لباريس وحيث ان رابقتنا
الوحيدة هي العظمة البريطانية ولا علاقة لنا ولا مناسبة مع سواها فسي
أساساتنا السياسية ، فكل ملاحظاتك وما تراه في الموضوع تبديه لعظمائها
ونوابها الاماجد ان كانوا زملاءك في المجتمع او معتمديها السياسيين ، وما
يكلفونك به من قول أو عمل ان كان في المجتمع أو سواء تعمل به ،
وتجنب كل ما سوى ذلك . هذه درجة مأذونيتك عما يختص بالمجتمع وخير
الاهالي بالمصلحة والقصد والله يتولاك » (٢٢) .

وفي ١٦ منه أبرق لورنس الى فيصل عن طريق وزارة الخارجية
البريطانية يطلب منه أن يأتي الى أوروبا بملابسه العربية وان يصحبه
ضابط عراقي واحد ، هو نوري السعيد ان امكن ، كما يصحبه أيضاً
اثنان من أعوانه السوريين الرئيسيين (٢٣) .

كان فيصل عند وصول برقية أبيه في حلب ، فأسرع متوجهاً الى
بيروت عن طريق حمص وطرابلس . ولما وصل الى بيروت استقبله
المسلمون فيها استقبالا حماسيا عظيماً ، وقد أوقف بعض الشبان عربية

(21) Mousa (T. E. Lawrence) – London 1967 – P. 216.

(٢٢) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) – القاهرة ١٩٦٧ –
ص ١٧٤ .

(23) Mousa (Op. cit.) – P. 217.

فيسل وحلوا رباط جياتها وأخذوا يجرونها في شوارع بيروت وهم ينادون : « ما ينرضى غيرك سلطان » و « لا نرضى الا بالعرب » (٢٤) .
والظاهر أنهم أرادوا بذلك تحدي الفرنسيين وأعوانهم المارونيين .

انزعج الفرنسيون من هذه الزيارة حتى أنهم كادوا يتجاهلونها ، واعتبروها جزءاً من المخطط البريطاني الرامي الى تشجيع الفئات اللبنانية الموالية لبريطانيا ولفيسل ، وكذلك اعتبروها جزءاً من جهود فيصل في سبيل ضم لبنان الى حكومة دمشق (٢٥) .

غادر فيصل بيروت في ٢٠ تشرين الثاني على ظهر طراد بريطاني ومعه حاشية مؤلفة من نوري السعيد ورستم حيدر وفائز الغصين وتحسين قدري وأخيه الطبيب أحمد قدري . فوصل الى مارسيليا في ٢٥ منه ، وهناك وجد لورنس في استقباله وهو بملابسه العسكرية ولكنه كان واضعاً العقال على رأسه بدلاً من القبعة العسكرية .

كان في استقبال فيصل من الجانب الفرنسي الكولونيل بريموند ، وهو الضابط الذي عاش في المغرب عدة سنوات واتقن اللغة العربية . وكان استقباله مزيجاً من الجفاء والمجاملة ، وقد أخبر بريموند فيصل بأن الحكومة الفرنسية ترحب به ضيفاً كريماً ولكنها لا تعترف له بأي مركز دبلوماسي ، أي انها لا تعتبره مندوباً للملك حسين في مؤتمر الصلح . ثم التفت بريموند نحو لورنس قائلاً له : ان الحكومة الفرنسية ترحب به كضابط بريطاني يلبس الملابس المناسبة لرتبته العسكرية انما هي لا ترحب به اذا ظل متنكراً بزي العرب . وقد غضب لورنس من ذلك وقال : « انكم تطردونني وسأسافر في هذا المساء » . وغادر لورنس فرنسا فعلاً بعد أن أعاد للفرنسيين الوسام الذي كانوا قد منحوه اياه خلال الحرب .

(٢٤) سليمان موسى (الحركة العربية) - بيروت ١٩٧٠ - ٤١٧ .

(٢٥) زين نورالدين زين (المصدر السابق) - ص ٩٢ .

كان الفرنسيون يعتقدون أن لورنس يعمل ضد مصالحهم وأنه يحرض فيصل على مقاومة مطامحهم في سوريا * وكانوا كذلك يعتقدون ان دعوة الملك حسين لارسال مندوب عنه في مؤتمر الصلح هي من تدبير لورنس (٢٦) .

نظمت الحكومة الفرنسية لفصل منهجاً طويلاً قصدت به أن يزور مواقع المعارك التي جرت خلال الحرب ، وقد أحاطته بكل مظاهر التكريم والتبجيل بغية التأثير عليه نفسياً * وفطن فيصل الى أنها تريد ابعاده عن باريس وعن الاشتراك في مؤتمر الصلح عند افتتاحه (٢٧) .

لم يتحمل فيصل هذه المكائدات الفرنسية ، فأمسك بيد بريموند وأخذه الى جانب وقال له : « نحن حاربنا معاً جنباً الى جنب ، ومعنى ذلك اننا اخوة في السلاح * اخبرني بصراحة ماهي الحقيقة ؟ وكذلك أخبرني بلا موارد هل أن الحكومة الفرنسية ترغب في حضوري الى باريس أم لا ؟ لقد تركت أخي زيد في دمشق نائباً عني ، وهو شاب ، ولما كانت الامور غير مستقرة هناك فان من الافضل لي أن اعود الى دمشق بدلاً من اضاعة الوقت هنا » (٢٨)

أثرت هذه الكلمة في بريموند فاتصل بحكومته يقترح عليها دعوة فيصل لمقابلة رئيس الجمهورية * وأخذت الحكومة بهذا الاقتراح ، وفي ٧ كانون الاول قابل فيصل هنري بوانكاريه رئيس الجمهورية الفرنسية ، وكان المترجم بينهما قدور بن غبريط التونسي * ولم تدم المقابلة سوى دقائق ، ولم يتجاوز الحديث فيها عبارات المجاملات المألوفة (٢٩) .

(26) Mousa (Op. cit.) — P. 218.

(٢٧) أحمد قدرى (مذكراتى عن الثورة العربية الكبرى) — دمشق ١٩٥٦
— ص ٩٤ .

(28) Mousa (Op. cit.) — P. 219.

(٢٩) خيرية قاسمية (عونى عبد الهادى) — بيروت ١٩٧٤ — ص ٢١ .

فيصل في بريطانيا :

في ٩ كانون الاول غادر فيصل مع حاشيته باريس متوجهاً الى لندن ، فجرى له فيها استقبال حافل ، ونزل ضيفاً على الحكومة البريطانية في فندق « كارلتون » الذي كان أفخم فنادق لندن في تلك الايام . وقد مكث فيصل في بريطانيا شهراً واحداً ، وكان لورنس يلزمه كظله ساعياً لتلبية طلباته ، وبخاطبه بكلمة « سيدي » .

وفي ١٢ منه قابل فيصل الملك جورج الخامس ، وكان لورنس معه بصفته مترجماً وقد لبس الملابس العربية كاملة . وقد أثارت هذه الملابس امتعاض أحد رجال حاشية الملك ، وأخذ يوبخ لورنس قائلاً : « هل من الصواب ، يا كولونيل لورنس ، أن يأتي أحد رعايا الملك ، وهو ضابط علاوة على ذلك ، لابساً ملابس أجنبية ؟ » . فأجابه لورنس بهدوء : « اذا كان الانسان يخدم سيدين وقد تحتم عليه أن يغيظ أحدهما فمن الافضل أن يغيظ اقواهما » . اني جئت لآكون مترجماً للامير فيصل وهذا هو زيه » (٣٠) .

قدم الملك جورج قلادة فكتوريا الى فيصل وقال : انه يقدمها تذكراً للدماء المشتركة التي أهرقها العرب والانكليز في ساحات القتال جنباً الى جنب ، وانه يؤمل أن يكون الود بينهما دائماً الى ما لا نهاية له . وتكلم فيصل فقال : انه جاء مندوباً عن والده لتقديم الشكر على ما لقيه من مساعدة من الملك جورج وحكومته وأن والده يتمنى أن تبقى محبتكم نحونا مدى الايام . فأجاب الملك جورج : اننا لا نتخلى عن مساعدة والدكم والعرب جميعاً وأطمئنكم انكم ستجدون بريطانيا معكم . . . (٣١) .

كان فيصل طيلة المدة التي قضاها في لندن موضع احترام وتكريم ،

(30) Hart (T. E. Lawrence) – London 1965 – P. 386.

(٣١) سليمان موسى (المصدر السابق) – ص ٤٢٥ .

اذ كان كبار الشخصيات البريطانية يتسابقون للقاءه واقامة المآدب الفخمة له في قصورهم * ويقول عوني عبدالهادي الذي كان أحد أفراد حاشيته : « ان هذه الايام القليلة التى قضاها الامير فيصل في لندن كانت كافية لتطور سموه تطوراً كبيراً ، نقلته من أمير عربي عسري في البداوة الى امير متحضر ، (٣٢) » .

اتفاقية وايزمن فيصل :

انتهر وايزمن - الزعيم الصهيوني المعروف - فرصة وجود فيصل في لندن فطلب منه موعداً لمقابلته بغية اقناعه بالموافقة على وعد بلفور * وفي ١١ كانون الاول ١٩١٨ جرت أول مقابلة بينهما في فندق كارلتون ، وحضر المقابلة لورنس بصفته مترجماً * .

المظنون أن وايزمن استغل حالة القلق التى كانت مستحوذة على فيصل تجاه مطامع الفرنسيين في سوريا وميل البريطانيين للمساومة معهم على حساب العرب ، فأخذ يشرح لفيصل كيف أن اليهود يمكن ان يكونوا السند الوحيد للعرب في هذه المحنة : فاليهود لديهم المال الكثير والخبرة الاقتصادية ، كما ان لهم نفوذهم الكبير فى مختلف الدول الكبرى ولاسيما في أمريكا ، فاذا اتفق العرب معهم ، وهم أبناء عم ، فليس هناك قوة في الارض تستطيع أن تهضم لهم حقاً * وذكر وايزمن لفيصل ان اليهود ليس لهم أية مطامع سياسية في فلسطين ، فهم تجار وأصحاب أموال ، وليس لديهم سلاح يقاتلون به او يستحوذون به على البلاد ، كل غرضهم هو تعمير البلاد العربية بأموالهم وغقولهم ، فالاراضي العربية كثيرة غير معمورة بينما اليهود على استعداد لتقديم يد العون للعرب كأصدقاء مخلصين ... (٣٣) * .

(٣٢) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ٢٣ *

(٣٣) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٤٣٥ - ٤٣٦ *

ظل وايرمن برتد على فيصل هذه الاقوال وأمثالها • ومن الجدير بالذكر ان هذه الاقوال لم تكن جديدة ، فطالما كان الصهاينة يرددونها على زعماء العرب منذ عهد ما قبل الحرب ، وقد صدق بها بعضهم ، ولا سيما بعض أقطاب حزب اللامركزية في مصر^(٣٤) ، كما صدق بها الحسين نفسه^(٣٥) • أضف الى ذلك ان لورنس كان يرى مثل هذا الرأي في اليهود وقد بذل جهده في اقناع فيصل بصحته •

يمكن القول على أي حال ان وايرمن استطاع بمعونة لورنس أن يؤثر على فيصل تأثيراً بليغاً ، وأن يقنعه بصحة ما قال له عن اخلاص اليهود للعرب ومدى الفائدة التي سيجنيها العرب منهم • فلما انتهى وايرمن من كلامه مع فيصل ، تكلم فيصل قائلاً : « ان العرب سيقبلون مطلوب اليهود اذا لمسوا منهم الاخلاص والنفعة ، فالعرب بحاجة الى الاموال لاصلاح مافسد في بلادهم ، ويطلبون منكم المعاونة السياسية عند الامم وخصوصاً أمريكا » • وعند هذا مد وايرمن يده وقال ليفصل انه يعاهده باسم اليهود « بأننا نموت سواء ونحيا سواء » • فقال فيصل : « ان وفيت بقولك هذا فاني موفي لك بقولي المملكة العربية لاتتجزأ »^(٣٦) •

تم الاتفاق بين فيصل ووايرمن أخيراً على توقيع اتفاقية تتضمن تسع مواد تنص على القرابة العرقية والصلات القديمة بين العرب واليهود ، وعلى ضرورة التعاون بينهما ، وتقديم الضمانات لتنفيذ تصريح بلفور ، وتشجيع الهجرة اليهودية الى فلسطين ، وحرية ممارسة العقيدة الدينية •

(٣٤) عبدالعزيز محمد عوض (الشخصية الفلسطينية والاستيطان اليهودي) - في مجلة (شؤون فلسطينية) - في عددها الصادر في آب ١٩٧٤ •

(٣٥) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٤٢٨ •

(٣٦) المصدر السابق - ص ٤٣ •

يبدو أن فيصل حين رأى الصيغة النهائية للاتفاقية مكتوبة على الآلة الطابعة، ومعدة للتوقيع عليها أدرك مغبة ما فعل ، ولهذا وجدناه يمسك القلم ويكتب في ذيلها التحفظ التالي :

« اذا نالت العرب استقلالها كما طلبناه بتقريرنا المؤرخ ٤ كانون ثاني ١٩١٩ المقدم لنظارة خارجية بريطانيا العظمى فإني موافق على ما ذكر بنطاق هذه المواد وان حصل أدنا تغير أو تبديل فلا أكون ملزوماً ومربوطاً بأي كلمت كانت بل تُعد هذه المقالة لاشيء ولا حكم لها ولا اعتبار ولا أطلب بأي صورت كانت » (٣٧) .

لاشك ان هذه العبارة التي كتبها فيصل كانت ضربة سياسية بارعة جعلت الاتفاقية لقيمة لها من الناحية العملية ، ولكننا مع ذلك نلاحظ أن لورنس حين ترجم العبارة الى اللغة الانكليزية أجرى عليها بعض التحريف بحيث شوه المقصد منها . فقد كانت ترجمتها على النحو التالي :

« اذا تأسس العرب كما طلبناه في تقريرنا المقدم الى وزارة الخارجية البريطانية فإني سأنفذ ما كتب في هذه الاتفاقية » . واذا حدثت تغييرات فإني غير مسؤول عن فشل تنفيذ هذه الاتفاقية » (٣٨) .

يواجهنا هنا سؤال : هل كان لورنس في تأييده للصهيونية عميلاً لها مأجوراً ، أم كان ينفذ تعليمات بلفور وزير الخارجية البريطانية ، أم كان غير ذلك ؟

في رأي المؤرخ البريطاني المعروف توينبي ان لورنس انما كان في محاولته التقريب بين العرب واليهود يعمل بدافع من اجتهاده الشخصي .

(٣٧) انظر صورة التحفظ بالزنگراف كما كتبه فيصل بخطه في مجلة (آفاق عربية) - في عددها الصادر في حزيران ١٩٧٧ - ص ١١٧ .

(٣٨) المصدر السابق - ص ١١٩ .

يعول توينبي في هذا الصدد ما نصه : « ... ان لورنس كان رجلاً مستثلاً
الرأي • وفيما أعلم فان لورنس نصح فيصلاً بأنه لا يستطيع أن يحارب
على جبهتين في وقت واحد : فرنسا والصهيونية ، وان خطر فرنسا مائل
للعيان وهي تريد القضاء على سوريا بينما مشاريع الصهاينة ما تزال في نطاق
النظريات ، وان الحكمة تقضي عليه الآن أن يستعين باليهود لمقاومة فرنسا ،
وفيما بعد يكون لكل حادث حديث » (٣٩) •

ان عوني عبدالهادي الذي كان من حاشية فيصل في لندن له رأي آخر
في لورنس ، فهو يقول : « لقد كان لورنس يلعب على الجبلين ، كان يتظاهر
للغرب بأنه عربي صميم وانه صديق العرب الحميم ، فيما كان يعمل لمصلحة
العرب مرة ويعمل لمصلحة اليهود مرة أخرى • ولورنس هو انجليزي
وليس عربياً ولا يهودياً • وليس من يجهل الدور الذي لعبه في اقناع
سمو الامير بتوقيع الاتفاقية المعروفة باتفاقية فيصل - وايزمان ، » (٤٠) •

ولا بد لنا في هذه المناسبة من أن ننقل رأي وايزمن نفسه في لورنس •
فهو يقول عنه في مذكراته ما نصه « ينبغي في هذه النقطة أن أظهر تقديري
للخدمات التي قدمها لورنس لقضيتنا ، وأن أضيف شيئاً في وصف شخصيته
الرائعة ... ان علاقته بالحركة الصهيونية كانت ايجابية جداً ، على الرغم
من كونه شديد الميل للعرب وما وصف به خطأً من كونه معادي للصهيونية •
لقد كان رأي لورنس ، كما كان رأي فيصل ، ان اليهود يمكن أن يقدموا
مساعدة عظيمة للعرب ، وان العالم العربي سيجني نفعاً كثيراً من انشاء وطن
 لليهود في فلسطين ... » (٤١) •

(٣٩) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٤٣٤ (حاشية) •

(٤٠) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ٢٥ •

(41) Weizmann (Trial and Error) - New York 1949 - P. 236.

عودته الى باريس :

عاد فيصل مع حاشيته الى باريس في ٩ كانون الثاني ١٩١٩ ، فنزل في قصر الكوتيسة تونير ضيفاً على الحكومة الفرنسية . وكتب فيصل الى الحكومة الفرنسية يطلب السماح له بحضور مؤتمر الصلح ممثلاً للبلاد العربية . فجاء الجواب منها مفاده أن الحكومة الفرنسية تأسف لعدم تمكنها من حجز مقعد له في المؤتمر . وكان هذا الجواب صدمة عنيفة لفيصل . وأسرع لورنس لمقابلة لويد جورج واللورد كرزن اللذين كانا نازلين في فندق « استوريا » . وفي الساعة الثانية بعد منتصف الليل عاد لورنس الى فيصل ، وكان فيصل مازال ساهراً وهو يتمشى في غرفته نهب الحيرة والقلق ، فبادره لورنس قائلاً : « سيدي ، لويد جورج يهديك سلامه ويقول لك لقد خصص لك مقعدان في المؤتمر بدلا من واحد » (٤٢) . فابتهج فيصل بذلك كثيراً وارتفع اعتبار لورنس في نظره (٤٣) .

افتتح مؤتمر الصلح في ضاحية فرساي في ١٨ منه . وقد مثل العرب فيه فيصل ورستم حيدر ، وكان يساعدهما نوري السعيد وعوني عبدالمهدي ولورنس . وكان لورنس يضع العقال على رأسه ، فكان ذلك يزعج الفرنسيين .

يمكن القول بوجه عام ان وجود فيصل في مؤتمر الصلح قد أكسب العرب شيئاً من السمعة وزاد من عدد أنصارهم . فهو قد بهر الانظار - ولا سيما انظار النساء - بوسامته وعباءته البيضاء الفضفاضة وعقاله المذهب . ودأبت الصحف على نشر صورته والحديث عنه . ولم يكن الاوربيون يومذاك قد اعتادوا على رؤية شيوخ العرب كما اعتادوا عليها في أيامنا هذه .

(٤٢) خيرية قاسمية (الحكومة العربية في دمشق) - القاهرة ١٩٧١ - ص ٩٥ .

(٤٣) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٤٦٥ .

وقد تذكروا عدد رؤيته مباهج ألف ليلة وليلة • يقول عنه أحد الأمريكين الذين حضروا المؤتمر وهو المحامي روبرت لانسنغ : « ان صوته يبدو كأنه ينفث رائحة البخور ويدل على وجود سجادات ياذخة وعمائم خضر تلمع بالذهب والجواهر » • ويصف هذا المحامي شخصية فيصل بقوله : « انه مع حداثة سنه قد أبدى نضوجاً في التفكير قلما يُشاهد في الشباب ، وكان يبدو في مظهره ولباسه كأحد الانبياء الاقدمين الذين ينوئون تحت المعرفة الثقيلة » (٤٤) •

وكان من بين الذين اجتذبوا الى فيصل الاديب الفرنسي أناتول فرانس • فقد كان هذا الاديب يسكن في شارع الشانزليزيه قريباً من القصر الذي نزل فيه فيصل ، وكثيراً ما كان يتردد على فيصل ويتناول الطعام على مائدته (٤٥) ، كما كان يدعو فيصل الى مائدته ومعه رؤساء تحرير الصحف الفرنسية (٤٦) •

وكذلك اجتذبت الى فيصل زوجة الرئيس الأمريكي ويلسون ، فهي وصفت فيصل بأن وجهه يشبه صورة المسيح • وكتبت اليه فيما بعد عدة رسائل • والمظنون انها كانت ذات تأثير على زوجها في مصلحة العرب (٤٧) • ومن الجدير بالذكر ان الانكليز كان لهم ضلع في ترويج الدعاية لفيصل في اروقة المؤتمر وعلى اعمدة الصحف • والمظنون انهم كانوا يريدون أن يجعلوا من فيصل ورقة رابحة في أيديهم عند مساومتهم مع الفرنسيين في بعض القضايا المتنازع عليها ولا سيما قضية الموصل - كما سنأتي اليه •

(44) Lansing (The Big Four and Others of The Peace Conference)
- London 1922 - P.

(٤٥) ابراهيم سليم نجار (الملك فيصل الاول) - بيسروت - ص ٦٧
(حاشية) •

(٤٦) خيرية قاسمية (عونى عبدالهادي) - ص ٢٧ •
(47) Mousa (Op. Cit.) - P. 226.

وقد أدرك الفرنسيون ما وراء هذه اللعبة البريطانية من سر ، وصاروا ينظرون الى فيصل نظرتهم الى عميل بريطاني ، وأخذت الصحف فيما بعد تضرب على هذا الوتر وتحاول الحط من شأن فيصل وترويج الدعاية السيئة ضده .

ماذا جرى في المؤتمر :

تقرر أن يكون يوم ٦ شباط موعداً لالقاء فيصل خطابه في مؤتمر الصلح . وقد أمضى فيصل الليلة السابقة في اعداد الخطاب بمساعدة رستم حيدر وعوني عبدالهادي ، وأعد لورنس ترجمة الخطاب الى اللغة الانكليزية بمساعدتهما أيضاً .

وعندما ألقى فيصل خطابه في الموعد المحدد كان اسلوبه هادئاً رصيناً فيه صراحة مزيجة بالتهذيب ، وقد استهجن بلطف اتفاقية سايكس بيكو وبسط مطالب العرب في الوحدة والاستقلال ، وذكر كيف ان العرب انضموا الى الحلفاء في الحرب في أخرج الاوقات وبلغت ضحاياهم عشرين ألف قتيل . وحين قاطعه أحد الحاضرين مشيراً الى أن العرب من الشعوب غير المتقدمة حضارياً ، رد عليه فيصل بصوت جهوري حاد قائلاً : « انني اتسمي الى شعب تمتع بالحضارة عندما كانت جميع البلاد الاخرى التي يجلس ممثلوها في هذه القاعة مسكونة بالبرابرة » . وقد حاول أورلاندو ممثل إيطاليا الرد عليه مشيراً الى اقدمية روما في الحضارة ، فقاطعه فيصل بشدة قائلاً : « نعم ، هكذا كان الامر قبل تأسيس روما » (٤٨) .

وقف رجل واحد في المؤتمر يؤيد فيصل بقوة ، كما وقف رجل آخر يعارضه بقوة أيضاً . أما الرجل المؤيد فهو الدكتور هوارد بلس رئيس

(48) Lloyd George (The Truth about the Peace Treaties) — London 1938 — vol 2, P. 1039 .

الكلية البروتستانتية السورية التي تسمى اليوم بـ « جامعة بيروت الأمريكية » • ويفسر اسكندر الرياشي التأيد الذي أبداه الدكتور بلس نحو العرب بأنه من جراء المنافسة الشديدة التي كانت موجودة في بيروت بين الكلية البروتستانتية الأمريكية والكلية اليسوعية الفرنسية ، فان الفرنسيين حين دخلوا بيروت في تشرين الاول ١٩١٨ شرعوا يملأون الدوائر الحكومية بالمتخرجين من الكلية اليسوعية والمعاهد الكاثوليكية الاخرى ، فغضب الدكتور بلس من ذلك وحمل حقيته راحلاً الى باريس لمقابلة الرئيس ويلسون ، وكانت بينهما علاقة وثيقة ، فأنزله ويلسون منزلة الرفيق وأخذ يصفي اليه (٤٩) •

وعلى أي حال فقد ألقى الدكتور بلس في ١٣ شباط خطاباً في المؤتمر طالب فيه بارسال لجنة حيادية الى سوريا للتعرف على رغبة السكان حسب مبدأ تقرير المصير الذي يدعو اليه الرئيس ويلسون • وقد تأثر ويلسون بهذا الخطاب الى حد كبير •

أما الرجل الذي وقف يعارض فيصل في المؤتمر فهو شكري غانم وهو لبناني الاصل غير أنه كان يقيم في فرنسا منذ خمس وثلاثين سنة ، وله شهرة ككاتب مسرحي ، ويتولى تحرير جريدة « المستقبل » العربية التي كانت تصدر في باريس خلال الحرب •

دخل هذا الرجل الى قاعة المؤتمر على أثر انتهاء الدكتور بلس من ألقاء خطابه ، وهو على رأس وفد يسمى نفسه « الوفد السوري » ، فقدم كلمنصو الوفد الى المؤتمر ثم طلب من شكري غانم أن يلقي خطابه • فألقى شكري خطاباً طويلاً منمق العبارة تجددى به فيصل تحدياً مشيراً حيث قال ما معناه : ان فيصل يمثل الحجاز ولا يحق له التكلم باسم جميع العرب ولا

(٤٩) اسكندر الرياشي (المصدر السابق) - ص ٢١٨ - ٢٢١ •

سيما السوريين ، فان دمشق تبعد عن مكة بما لا يقل عن ألف وخمسمائة كيلو متر ، فاية صلات روحية وتقارب ذهني تربط بين الحجازي والسوري أو بين البدو والحضر ؟ فان ضم سوريا الى الجزيرة العربية هو افتئات صارخ على قدسية الارض الذي أنبت الشعب السوري وتاريخه . ثم استطرد شكري الى موضوع استفتاء الشعب السوري فقال انه لا يوصي به فسي الوقت الحاضر وان من الافضل منطقياً ان تعين الدول الكبرى دولة من بينها لمعونة هذا البلد الصغير لكي ينهض بنفسه ، ثم قال شكري راجياً من الدول ان تكون فرنسا هي التي تُوكل اليها هذه المهمة النبيلة ، اذ هي الدولة الوحيدة المؤهلة لانجاز ما يصبو اليه السوريون . ثم انهى شكري خطابه بيت من الشعر العربي القديم وهو :

رب يوم بكيت منه فلما صرت في غيره بكيت عليه

ثم قال : « ايها السادة هل ستركونا نبكي على ماضينا المفجع وانتم أملنا الوحيد ، أنتم الذين نعتبركم ممثلي العدالة والحق والرحمة الانسانية » (٥٠) .

لوحظ على أثر شروع شكري غانم بالقاء خطابه أن أحد أعضاء الوفد الأمريكي دفع الى الرئيس ويلسون قصاصة ورق ذكر فيها ان شكري قضى معظم حياته في فرنسا . فأدى ذلك بويلسون الى عدم المبالاة بخطابه ، ثم نهض ويلسون بعد قليل وأخذ يتمشى نحو الجانب الآخر من القاعة حتى وصل الى النافذة وصار ينظر من خلالها الى الخارج وهو واضع يديه في جيوب معطفه ، فأدى ذلك الى ارباك الفرنسيين وازعاجهم . ومال كلمنصو نحو وزير خارجيته بيثون ليؤنبه على الاتيان بشكري غانم الى المؤتمر ، حيث همس في اذنه بخشونة قائلاً : « لماذا جئت بهذا الرجل الى هنا ؟ »

(٥٠) زين نورالدين زين (المصدر السابق) ص ١٠٤ - ١٠٥ .

فمد يشون يديه بصورة احتجاج يائس وقال : « لم أكن أعلم انه سيعالج الامر على هذا المنوال ! » (٥١)

تعيين لجنة تحقيق :

في صباح ٢٠ آذار جرى اجتماع سري حضره رؤساء الدول الاربعة الكبرى في شقة لويد جورج بباريس ، وجرى فيه نقاش حاد حول العرب والقضية السورية . وقد فتح النقاش وزير الخارجية الفرنسي يشون فأشار الى الاتفاق المبدئي الذي حصل بين كلمنصو ولويد جورج في لندن قبل المؤتمر ، فأجابه لويد جورج انه لايجيد عن مضمون اتفاقية سايكس بيكو الا بالنسبة للموصل وفلسطين ، واذا كانت فرنسا تعتزم احتلال دمشق بجيوش فرنسية فانه يعتبر ذلك انتهاكاً صارخاً لمعاهدتنا مع العرب ، فرد عليه يشون : أن ليس هناك أية معاهدة بين فرنسا والعرب . فقال لويد جورج : ان اتفاقية سايكس بيكو تركز برمتها على رسالة بعضها مكماهون الى الملك حسين ، وهي الرسالة المؤرخة في ٢٤ تشرين الاول ١٩١٥ . وقرأ لويد جورج منها مقتطفات تؤيد وجهة نظره ، ثم أخذ يطنب في ذكر المساعدة التي قدمها الملك حسين والعرب للحلفاء في أثناء الحرب ، حيث قال ان بريطانيا جندت حوالي مليون جندي ضد الاتراك ، وأن جنسودهم هم الذين احتلوا سوريا بمساعدة العرب الذين كانت مساعدتهم « جوهريّة » ، وان الملك حسين وضع جميع موارده في ميدان القتال وقدم بذلك مساعدة مادية قصوى لكسب الحرب . وأيده الجنرال اللنبي على قوله هذا حيث قال : « ان مساعدة العرب لا تقدر بثمن » .

وعند هذا تدخل الرئيس ويلسون في الجدل وقال : ان الولايات المتحدة لاتهمها مدعيات بريطانيا وفرنسا بالنسبة لاي شمسعيب الا اذا كان

(٥١) المصدر السابق - ص ١٠٤ - ١٠٦ .

الاهلون يريدونها ، ولذلك فإن السبيل الوحيد لمعالجة القضية هو اكتشاف
رغبة أهالي تلك المناطق . فوافق الحاضرون على اقتراح ويلسون ، ولكن
كلمنصو قال ان التحقيق يجب أن يشمل فلسطين والعراق وأرمينيا ، فأجاب
لويد جورج انه لا يعترض على ذلك .

وعلى أي حال فقد انتهى الاجتماع والقلوب متنافرة ، حتى أن ويلسون
خرج من قاعة الاجتماع وهو يلعن كل واحد وكل شيء قائلاً انه لم يفعل
طيلة ثمانين وأربعين ساعة سوى الكلام وانه مشتمن من الموضوع كله (٥٢) .
وفي اجتماع آخر عقده الاربعة الكبار في ٢٥ آذار تمت الموافقة
رسمياً على تعيين لجنة من أعضاء فرنسيين وبريطانيين وإيطاليين وأمريكيين
وارسالها الى سوريا وإلى المناطق المجاورة لها ان دعت الحاجة الى ذلك ،
لكي تستطلع الحقائق وتكتب عنها تقريراً الى مؤتمر الصلح .

كان هذا القرار مبعث سرور عظيم لفصيل . يحكى أنه حين سمع به
أخذ يشرب الشمبانيا - لأول مرة - عباً كأنه يشرب الماء ، ثم ركب عربته
ومر بها على مقر الوفدين الأمريكي والبريطاني ، فأخذ يقذف مبنى الكريون
وفندق الماجستيك ووزارة الخارجية الفرنسية بالحشايا والوسائد ، قائلاً انه
لا يستطيع أن يعبر عن مشاعره الا بتلك الطريقة مادام لا يملك القنابل (٥٣) .

بين فيصل وفرانكفورت :

في ١ آذار ١٩١٩ نشرت جريدة « الماتان » الفرنسية تصريحاً لفصيل
قال فيه : « يسرنا بحكم الانسانية والمروءة أن نرى اليهود التاعسين يهاجرون
الى فلسطين فيقيمون على الرحب عاملين بمقتضى الواجبات الوطنية على

(٥٢) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٤٧٢ - ٤٧٣ .

(٥٣) جورج انطونيوس (يقظة العرب) - ترجمة ناصر الدين الاسعد
واحسان عباس - بيروت ١٩٦٢ - ص ٤٠٠ .

شرط أن يكونوا تحت سلطة اسلامية او تحت سلطة نصرانية تتلقى وكالتها من قبل عصبة الامم» .

يقول وايزمن في مذكراته : ان هذا التصريح الذي نشرته جريدة « الماتان » للامير فيصل كان صريح العداء لنا ، وقد أسرع سكرتير الامير الى تكذيبه (٥٤) . أما عوني عبدالهادي الذي كان حينذاك سكرتير فيصل فقد أنكر تكذيبه للتصريح (٥٥) .

ومهما كان الحال فقد اهتم الصهاينة لهذا التصريح ، واتصلوا بصديقيهم لورنس لكي يعمل بما يخفف من تأثيره او يلغيه ، فدير لورنس اجتماعا بين فيصل والمستر فليكس فرانكفورتتر عضو الوفد الصهيوني الامريكي في مؤتمر الصلح . وتم الاتفاق بين الرجلين على أن يتبادلا رسالتين تتضمنان فحوى ما دار بينهما من حديث . ويقال ان لورنس وفرانكفورتتر اجتماعا بعدئذ فكتب فرانكفورتتر الرسالة التي سيوجهها باسمه الى فيصل ، وكتب لورنس الرسالة التي سيجيب فيصل بها عليه (٥٦) . ثم ذهب لورنس الى فيصل ، وعاد وهو يحمل الرسالة وعليها توقيع فيصل . وفيما يلي نص الرسالة مترجمة عن مذكرات وايزمن :

وقد الحجاز - باريس

٣ آذار ١٩١٩

عزيزي المستر فرانكفورتتر

أود انتهاز هذه الفرصة لاول اتصال لي بالصهيونيين الامريكيين
لاخبرك بما كنت أقوله للدكتور وايزمن في الجزيرة العربية وأوربا .

(54) Weizmann (op. cit.) - P. 245.

(٥٥) خيرية قاسمية (عوني عبدالهادي) - ص ٢٥ .

(٥٦) سليمان موسى (الحركة العربية) - ص ٤٤٤ .

فنحن نشعر بأن العرب واليهود أبناء عم ، وانهم يعانون نفس الاضطهاد من دول أقوى منهم . ومن حسن الصدف أنهم تمكنوا من ان يخطوا الخطوة الاولى للتعاون في سبيل تحقيق أهدافهم القومية معاً . نحن العرب ، وخاصة المنقفيين منا ، ننظر الى الحركة الصهيونية بعطف عميق جداً . ان وفدنا في باريس مطلع كل الاطلاع على المقترحات التي قدمتها المنظمة الصهيونية الى مؤتمر الصلح ، ونحن نعتبر هذه المقترحات معتدلة ومناسبة . وسوف نبذل أقصى جهدنا ، في القدر المتعلق بنا ، للعمل على تحقيقها ، كما نرحب باليهود القادمين الى الوطن ترحيباً قليلاً صميمياً . لقد كانت لدينا أوثق الصلات مع زعماء حركتكم ، لاسيما الدكتور وايزمن ، وهي مازالت مستمرة . انه كان اكبر مساعد لقضيتنا ، وأنا آمل أن العرب قد يصبحون في وقت قريب قادرين على مكافأة اليهود على جميلهم . اننا نعمل معاً في سبيل اصلاح الشرق الاوسط وانهاشه ، وان حركتنا وحركتكم تكمل احدهما الاخرى . ان الحركة اليهودية قومية وليست استعمارية ، وكذلك حركتنا قومية ليست استعمارية ، وهناك مجال في سوريا لكليهما . أنا اعتقد في الواقع ان اية حركة منهما لايمكن ان تنال نجاحاً حقيقياً بدون الاخرى . ان الذين هم أقل اطلاعاً ومسؤولية من زعمائنا يتناسون ضرورة التعاون بين العرب واليهود ، وأخذوا يستغلون الخلافات المحلية التي لا بد ان تنشأ في فلسطين في المراحل الاولى من الحركة . وأخشى ان بعض هؤلاء قد شوه أهدافكم لدى الفلاحين العرب ، كما شوه أهدافنا لدى الفلاحين اليهود ، وكانت النتيجة ان استفاد اولو المصالح من هذه الخلافات المصطنعة . اني أود أن أعبر لك عن اعتقادي الجازم بان هذه الخلافات ليست خلافات مبدأية ، انما هي مسائل تتعلق بالتفاصيل ، كشأن الخلافات التي لا بد أن تنشأ بين الاقوام المتجاورة ، والتي يسهل حلها عن طريق حسن النية المتبادل . والواقع ان كل هذه الخلافات تقريباً سوف تزول حين تبضح الحقائق

وضوحاً أكمل • انني وشعبي نتطلع الى اليوم الذي سوف نعاونكم وتعاونونا فيه ، حتى تستعيد البلاد التي يهمننا ويهمكم أمرها مكانها اللائق بين شعوب العالم المتعدن •

المخلص لكم

فصل (٥٧)

اهتم الصهاينة بهذه الرسالة واستندوا عليها أكثر مما فعلوا مع اتفاقية وايزمن فيصل • فالتذيل الذي كتبه فيصل في اتفاقته مع وايزمن افقدها قيمتها ، أما هذه الرسالة فقد اعتبروها وثيقة مهمة في أيديهم يستندون عليها في نزاعهم مع العرب • يقول وايزمن في مذكراته : « ان هذه الرسالة الرائعة ينبغي أن تؤخذ بعين الاعتبار من قبل النقاد الذين يتهمونا بأننا بدأنا عملنا الصهيوني في فلسطين من غير اهتمام برغبات العالم العربي أو رفاهه • يجب ان لا يغرب عن البال ان الآراء التي تضمنتها هذه الرسالة هي من قائد العرب المعترف به ، وحامل آمالهم ، وانها كانت نتيجة مداورات عديدة ... » (٥٨) •

في عام ١٩٣٩ عندما جاءت لجنة شو البريطانية الى فلسطين أبررز الصهاينة هذه الرسالة للجنة مستنديين عليها • وقد اضطر عوني عبدالهادي الذي كان يومذاك في فلسطين أن يبرق الى فيصل في بغداد يسأله مستوضحاً عنها • فأجابه رئيس الديوان الملكي رستم حيدر قائلاً : « ان جلالته لا يذكر أنه كتب شيئاً مثل هذا بعلم منه » (٥٩) • ويعلق عوني عبدالهادي على ذلك قائلاً : « أستطيع ان أؤكد أن فيصل لم يكتب مطلقاً تلك الرسالة • فاذا كانت

(57) Weizmann (op. cit.) — P. 245 — 246.

(58) Ibid., P. 246.

(٥٩) سليمان موسى (المصدر السابق) — ص ٤٤٥ •

تلك الرسالة حقيقية فلماذا عجز الصهاينة عن ابراز نسختها الاصلية التي تحمل توقيع فيصل ؟ ان كل ما أبرزوه منها نسخة ثانية مطبوعة بالآلة الطابعة مع كلمة « فيصل » في زاوية منها • ولما نظرت اليها تبينت حالا انها مزورة • • ومن المحتمل ان لورنس هو الذي ارسل الرسالة بدون علم من فيصل « (١٠) •

عودة فيصل :

عندما قرر الاربعة الكبار في ٢٥ آذار ١٩١٩ ارسال لجنة للتحقيق الى سوريا قرر فيصل العودة الى سوريا لكي يعمل على تهيئة الرأي العام فيها لاستقبال اللجنة • فأناوب عنه في مؤتمر الصلح عسوني عبد الهادي ورستم حيدر ، وغادر باريس متوجهاً الى سوريا •

وصل فيصل الى بيروت في ٣٠ نيسان ، فجرى له فيها استقبال عظيم اشتركت فيه وفود من مختلف المناطق السورية وقد غادر فيصل بيروت ترافقه تلك الوفود متجهاً نحو دمشق ، فوصلها في ٣ أيار ، وكان استقباله فيها منقطع النظير حيث نصبت له أقواس النصر وركب هو عربة تجرها ثمانية جياذ على طريقة ملوك بريطانيا •

كان فيصل عند وصوله متشياً متفائلاً يظن أن الدنيا اصبحت في قبضة يده ، وكان قد وضع كل أمله في لجنة التحقيق القادمة ، وكان واثقاً أن اللجنة ستعرف الى رغبة السكان في الاستقلال ولا بد ان تستجيب الدول لتلك الرغبة وينتهي الامر حسب المرام ! •

وبعد يومين من وصوله الى دمشق استدعى الوفود التي جاءت معه من بيروت الى اجتماع عام يعقد مساءً في بهو دار الحكومة • وحين التأم جمعهم ألقى فيصل خطاباً طويلاً استعرض فيه الثورة التي قام بها أبوه في

(60) Mousa (op. cit.) - P. 280.

الحجاز ، ومساعيه هو في اوربا ومؤتمر الصلح ، والصعوبات التي واجهها هناك ومبلغ نجاحه في تذليلها . والملاحظ ان فيصل أخذ في خطابه يضرب على وتر جديد لم يكن معروفاً من قبل ، حيث تحول عن المطالبة بالوحدة العربية التي تشمل الاقطار العربية كلها الى المطالبة باستقلال كل قطر عربي على حدة ، وعلل ذلك بأن الاقطار العربية يختلف بعضها عن بعض من حيث مستوى التعليم والثقافة ، ولهذا فان الظروف الحالية ليست كافية لتجعل العرب أمة واحدة . ثم ختم فيصل خطابه بقوله : « فالوقف اليوم هو بيدكم . ان التسويات الخارجية قد تمت بفضل الباري سبحانه وتعالى وبحسن نية من حالفنا من الدول العظام التي لايمكنني أن أفرق بين الواحدة والاخرى في حسن النية وهم قد قبلوا مانثرت بين أيديهم من أقوال ، ، »

كان فيصل يقصد من كلامه هذا اعلان استقلال سوريا عن الحجاز فلا تبقى تابعة له . والتفت نحو الحاضرين يسألهم : هل هم يوافقونه في هذا الاتجاه ؟ وهل هم يعتمدون عليه ؟ وهل يستطيع أن يواصل السير على ذلك برضاهم ؟ فكان جوابهم : نعم ، نعم ، نعم ، كل الرضا وفوق الرضا . ثم صاروا يهتفون له ويصفقون مرة بعد مرة .

وفي الختام طلب فيصل من الحاضرين أن يبدي كل واحد منهم رأيه بكل حرية وصراحة . فقاموا واحداً بعد الآخر يتكلمون على النحو التالي :

سعد الدين الخليل : « ان حوران تقدم لسموه ما يطلب ، »

أحد اعضاء الوفد الفلسطيني : « ان دماء الفلسطينيين وأموالهم للامير ! . »

أحد اعضاء الوفد العامري : « اننا قد لبسنا للحرب عدتها ، نحن وجميع العرب . من لم يقتل فليمت ! »

نوري الشعلان : « حنا كلنا عرب الرولة أطوع لك من يمينك ، ومن
لا يكون مثلنا ليس من دين الاسلام ! » •

نسيب الاطرش : « نحن جميع عشائر سوريا العربان والدروز
نضحي حياتنا تجاه خدمتك وخدمة الامة العربية ، والحائد عن ذلك يكون
خائن الناموس والشرف والعرب ! » •

عبدالحسين صادق : « انني باسم جبل عامل أبايعك على الموت ! » •
محمد فوزي العظم ومحمد عابدين وأسعد الصاجب : « نحن رهينو
أمرك نفديك ونعتمدك ! » •

بطريك الروم الكاثوليك : « كما تأمرون سموكم فأمروا بما
تشاؤون ! » •

بطريك الروم الارثودكس : « بيننا وبين سموكم اتفاق في هذه
القاعة على شرائط معدودة لاتبرح من ذاكرتكم الشفافة ، فنحن عليه
راسخون ! » •

مطران السريان الكاثوليك : « اني اعتمد نفس الاعتماد الذي اعتمده
بطريك الروم الارثودكس ! » •

مطران السريان القديم : « أقول بلسان أمة السريان في سوريا انهم
طوع أمرك ، نبايعك بقلوبنا ونعتمد عليك ! » •

رئيس حاخاهي اليهود : « ان اموالنا ونفوسنا بين يديك يا سمو
الامير ! » •

سعيد سليمان : « عموم أهل قضاء بعلبك تحت أمرك ، ماث وألوف
رهن اشارتك ! » •

عمر الاتاسي : « قدمت من حمص وما ودعت الحمصيين الا بعد أن
اعتمدوني وهم يسلمونك دماءهم وأرواحهم ! » •

ابراهيم الخطيب : « فوضناك ان تكون سلطاناً ، نجبل لبنان جزء مقيم
لـسوريا لا ينفك عنها ! » *

مطران الارمن (باللغة التركية) : « أشكر مالمقه مهاجرو الارمن
من عطف العرب وانسانيتهم خلال سني الحرب الاربع * ان تاريخنا سيكتب
اسم العرب بمداد من ذهب ، فانا أبارك لكم وأشكركم ! » *
وبعد ما اسهوا من كلماتهم استأنف فيصل الخطاب ، فأقسم بشرف
آبائه وأجداده أن ينظر الى السوريين نظرة واحدة بلا تفريق حسب
أديانهم او انسابهم العائلي والطبقي ، فالكفاءة الشخصية هي الاساس ،
والرجل قد يكون من عائلة رفيعة الشأن ولكنه غير قادر على ادارة وظيفة ،
فليعلم كل انسان اني لاأتحزب لشخص لانه من أسرة ذات شأن وقوة بل
أنظر الى اقتداره الشخصي... (٦١) .

المؤتمر السوري :

أهم ماكان يشغل بال فيصل آنذاك هو كيف يمكن تعبئة الرأي العام
السوري لمواجهة لجنة التحقيق بالرأي المطلوب * وبعد المداولة مع
مستشاريه استقر رأيه على انتخاب مجلس نيابي لكي يضع اللجنة أمام الامر
الواقع باعتبار ان هذا المجلس يمثل الشعب السوري حسب الطريقة
الديمقراطية المتعارف عليها في البلاد المتقدمة *

كان الظن السائد ان اللجنة سوف تصل قريباً ، ولهذا أوعز فيصل
باجراء الانتخابات على عجل * وقد جرت الانتخابات في سوريا وفقساً
لقانون الانتخاب العثماني ، أما في لبنان وفلسطين فقد جرى الانتخاب على
طريقة المضابط *

وبينما كان فيصل مشغولاً بالانتخابات وصلته من رستم حيدر من

(٦١) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج ، ص ٢٥ - ٣٤ .

باريس برقية مفادها : ان فرنسا عارضت الاشتراك في اللجنة وان بريطانيا تابعتها على ذلك ولكن الرئيس ويلسون أصر على ارسال اللجنة على ان تكون أمريكية بحتة ، وسوف تصل اللجنة الى سوريا قريباً •

أصيب فيصل بخيبة أمل من هذا الخبر ولكنه مع ذلك ظل يعمل مع اعوانه لتحضير الرأي العام لمواجهة اللجنة الاميركية عند وصولها ، وأخذ الدعاة ينتشرون في مختلف انحاء البلاد يوصون الناس بأن يكونوا على رأي موحد أمام اللجنة حيث يطالبون بوحدة سوريا الطبيعية التي تشمل لبنان وفلسطين ، وباستقلالها ، على أن تكون تحت انتداب امريكا ، او انتداب بريطانيا في حالة امتناع امريكا عن قبول الانتداب ، أما فرنسا فلا يمكن قبول انتدابها أبداً •

وبعد أن تمت الانتخابات جرى افتتاح المجلس في ٣ حزيران باسم « المؤتمر السوري » ، وحضره مائة واربعة اعضاء ، بينما تغيب ستة عشر عضواً وهم من نواب لبنان اذ منعتهم السلطة الفرنسية من الحضور • وقد انتخب هاشم الاتاسي بالاجماع رئيساً للمؤتمر •

ومما يلفت النظر ان جدالاً عنيفاً وقع في الجلسة الثانية من المؤتمر ، وذلك عندما تليت العريضة التي قدمت لشكر الامير فيصل على جهوده في خدمة سوريا ، فقد لاحظ رجال الدين المسلمون ان العريضة خالية من البسملة ، واعترضوا على ذلك • فرد عليهم بعض النواب من الشبان ، اذ كان رأيهم ان الامة تتطلع الى فجر جديد وحكومة تتفق مع روح العصر ، ولهذا يجب ان تبقى الاديان على حرمتها وقداستها بعيدة عن السياسة كما هو الحال في أوروبا وأمريكا • فثار رجال الدين على هذا الرأي ، واحتدم الجدل بين الفريقين حتى كاد يصل الى درجة الانقسام والتشاحن • وعند هذا قام النائب المسيحي يوسف الحكيم فاقترح حلاً وسطاً للتوفيق بين الفريقين هو أن تكتب في اعلى العريضة كلمتان فقط هما : « باسم

الله ، فصنق النواب جميعاً لهذا الرأي ووافقوا عليه (٦٢) .

حرب دعائية :

في ١٠ حزيران وصلت لجنة التحقيق الامريكية الى يافا وهي برئاسة
انستر تشارلس كراين و معه الدكتور هنري كنغ * واخذت تنقل في
أنحاء البلاد حيث قضت اثنين وأربعين يوماً زارت خلالها ٣٦ مدينة واستقبلت
١٥٢٠ وفداً وتلقت ١٨٦٣ عريضة *

وجدت اللجنة في جميع المناطق - باستثناء لبنان - ان اكثر الناس
متفقون على الرأي الذي يريده فيصل ، اي المطالبة باستقلال البلاد السورية
كلها مع انتداب امريكا او بريطانيا عليها * أما في لبنان ، ولا سيما في
الاوراسط المارونية ، فكان الامر على النقيض من ذلك حيث كان الناس
يطالبون بالانتداب الفرنسي *

كان في لبنان عاملان لهما أثرهما في توجيه الناس نحو المطالبة بالانتداب
الفرنسي ، هما جهود القساوسة المارونيين من جهة والاموال الفرنسية من
الجهة الاخرى *

كان القساوسة المارونيون ينظرون الى القضية كأنها قضية دينية
مذهبية ، فقد اعتبروا اللجنة الامريكية ذات ميول بروتستانية وطلبوا من
أتباعهم أن يقاوموها ويتضافروا عليها (٦٣) * أما الاموال الفرنسية فهي
بطبيعتها أقوى أثراً من الدعاية الدينية وقد أثارت في الناس موجة من
التظاهرات المؤيدة لفرنسا بشكل أذهل اللجنة الامريكية *

كان الصحافي اللبناني اسكندر الرياشي من جملة الذين كلفهم
الفرنسيون بتوزيع الاموال في تلك الايام ، وهو يصف ذلك في كتابين من

(٦٢) يوسف الحكيم (المصدر السابق) - ص ٩٥ - ٩٦ *

(٦٣) أمين الريحاني (فيصل الاول) - بيروت ١٩٥٨ - ص ٤٨ *

كتبه وصفاً طريفاً • فهو يقول : ان الفرنسيين استخدموا في دعايتهم جميع الوسائل التي وقعت في أيديهم وجميع الرجال الذين استطاعوا استخدامهم ، وقد داخ المستر كراين رئيس اللجنة منذ الساعة الاولى اذ احتشد حول مكتبه الالوف وهم يهزجون بالاغنية الجديدة التي ملأت قري لبنان يومذاك وهي : « فرنسا أم الدنيا عموم - اعتزوا بالبنانية » • وكان القبضايات - أي اشقياء بيروت - من بين الذين استخدمهم الفرنسيون لهذا الغرض ، فقد أخذوا يطوفون على الناس بعرائض يطالبون بها بالابتدأب الفرنسي ، وجعلوهم يوقعونها قسراً • وقد تسلم أحد الاشقياء عرائض بهذا المعنى ، ثم أعادها بعد ثلاثة أيام وهي تحمل عشرة آلاف توقيع ، وكان جزاؤه ليرة ذهب عن كل توقيع^(٦٤) • وكان بعضهم يصنع آلاف الاختام ليملاً بها العرائض^(٦٥) •

كان المستر كراين قد علم سابقاً بأن المسلمين والدروز لا يريدون فرنسا ، ولكنه فوجئ بأكداس العرائض تطالب باتتداب فرنسا وهي مملوءة بأسماء محمد ومحمود وعلي وحسين • وشهدت بيروت بالاضافة الى ذلك فرسان الدروز يرتدون البرانس البيضاء والحمراء والقفاطين المزركشة ، ويحملون السيوف المعكوفة وقد كحلوا أعينهم بدائرة واسعة من كحل الصحراء ، وهم يأتون يومياً بمواكب وهاجة هازجة مهللة • وقد بلغت مضاريق هذه المواكب ما يزيد على المليون ونصف المليون ليرة ذهب ، اذ ان كل فارس درزي لابد أن يحصل على تعويض عن ثمن مجيئه الى بيروت من الشوف او من جبل الدروز ، ورب فارس يأتي عدة مرات بعد أن يبدل ملابسه واسمه ، وفي كل مرة يحصل على حق تبعه^(٦٦) •

(٦٤) اسكندر الرياشي (قبل وبعد) - بيروت ١٩٥٣ - ص ٣٠ .

(٦٥) اسكندر الرياشي (رؤساء لبنان كما عرفتهم) - ص ٢٢٦ •

(٦٦) اسكندر الرياشي (قبل وبعد) - ص ٣٥ •

أصبحت البلاد السورية كأنها في معمة حرب دعائية وصراع شديد بين دمشق وبيروت ، أحدهما تدعو الى الانتداب الفرنسي والآخر تدعو الى الانتداب الأمريكي او البريطاني . وصار كل من يدعو الى الانتداب الفرنسي في سوريا يُعد خائناً للوطن . أما في لبنان فكانت وصمة الخيانة من نصيب من يدعو الى الانتداب الأمريكي او البريطاني .

يقول يوسف الحكيم في مذكراته : ان سوريا كانت تضم فئة صغيرة من الناس تدعو الى الانتداب الفرنسي غير أنها لم تكن تجرأ على الاعلان عن صوتها مخافة احتقار الجماهير لها ، فكانت ساكتة على مضض ولاتكلم الا همسا مع من تتق به . ويروي الحكيم قصة زعيم دمشقي عرض عليه صديق له أن يأخذ من الفرنسيين ألف ليرة ذهب لكي يدعو الى الانتداب الفرنسي ، فرفض الزعيم ذلك رفضاً باتاً ، فوجه الصديق اليه سؤالاً : « هل ترى الانتداب البريطاني أفضل من الانتداب الفرنسي ؟ ! » . فكان جواب الزعيم : انه لايفضل أحدهما على الآخر ولكنه لايرى من الحكمة أن تقوم الاقلية الصغيرة بمقاومة الاكثية في فكرتها (٦٧) .

عادت اللجنة الامريكية الى باريس بعد انجاز عملها ، وقدمت تقريرها الى الوفد الامريكي في مؤتمر الصلح . وقد تضمن التقرير تحييد نظام الانتداب لمدة محدودة على سوريا والعراق ، على ان تكون الولايات المتحدة الامريكية منتدبة على سوريا ، وتكون بريطانيا منتدبة على العراق ، واذا رفضت الولايات المتحدة قبول الانتداب على سوريا فانه يُمنح لبريطانيا . أما اذا أصرّت فرنسا على التثبيت بمصالحها في سوريا فيمكن منحها الوصاية على لبنان الصغير فقط . وقد تضمن التقرير كذلك تحديد الهجرة اليهودية ونبذ فكرة جيل فلسطين دولة يهودية (٦٨) .

(٦٧) يوسف الحكيم (المصدر السابق) - ص ٨٨ .

(٦٨) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٤٩٣ - ٤٩٤ .

لم يجد التقرير من يهتم به في مؤتمر الصلح ، فقد تكاثفت فرنسا وبريطانيا على قتله في مهده • وشاء القدر أن يتلى الرئيس ويلسون بمرض خطر في تلك الآونة • ولهذا أُلقي التقرير في زوايا الاهمال • ولم يُنشر الا في الشهر الاخير من ١٩٢٢ ، وذلك بعد فوات الاوان ! •

يمكن القول على أي حال ان الاستفتاء الذي أجرته اللجنة في سوريا قد أغضب فرنسا دون أن ينتفع منه العرب ، فقد أخذت الصحف الفرنسية تهاجم بريطانيا مهاجمة شديدة وتتهمها بأنها هي التي حرّضت السوريين على معاداة فرنسا بغية التملص من الالتزامات التي تفرضها اتفاقية سايكس بيكو، او المساومة على تعديلها • ولم تسكت الصحف البريطانية عن هذا الاتهام فأخذت تكيل للصحف الفرنسية بصاعها^(٦٩) •

اتفاق فرنسا وبريطانيا :

كان المقرر حسب اتفاقية سايكس بيكو أن تكون سوريا كلها تحت اشراف فرنسا علاوة على منطقة الموصل الغنية بالنفط • والظاهر ان بريطانيا ندمت على تنازلها لفرنسا عن منطقة الموصل ، فأخذت تسعى لاستعادتها من فرنسا وضمها الى العراق •

يقول لويد جورج في مذكراته : « عندما جاء كلمنصو الى لندن بعد الحرب رافقته الى السفارة الفرنسية • ولما وصلنا السفارة سألتني ماذا أريد الحصول عليه بوجه خاص من فرنسا ؟ فأجبتة حالا انني أريد ضم الموصل الى العراق وان تكون فلسطين من دان حتى بئر سبع تحت السيطرة البريطانية • فوافق كلمنصو على ذلك بلا تردد »^(٧٠) •

من الطبيعي ان تكون موافقة كلمنصو على التنازل عن منطقة الموصل

(٦٩) جورج انطونيوس (المصدر السابق) - ص ٤١١ •

(٧٠) Lloyd George (op. cit.) - vol. 2, 1088.

لقاء عوض ، وكان هذا العوض ان تكون سوريا كلها تحت الانتداب الفرنسي^(٧١) . وقد تم الاتفاق النهائي بين بريطانيا وفرنسا على ذلك في ١٥ ايلول ١٩١٩ حيث تقرر سحب الحاميات الانكليزية من سوريا وكيكيا ، وأن تكون سوريا مع لبنان تحت الانتداب الفرنسي ، وذلك لقاء أن تكون فلسطين والعراق تحت الانتداب البريطاني . ويقال ان الاتفاق تضمن كذلك أن تتخلى بريطانيا عن فيصل وان تطلق يد فرنسا في معالجته كما تشاء^(٧٢) .

كان لويد جورج قد ارسل قبل توقيع الاتفاق برقية الى فيصل يطلب منه المجيء سريعا . فبادر فيصل الى مغادرة دمشق بعد ست ساعات من وصول البرقية اليه ، حيث سافر بالقطار الى حيفا ومنها ركب مدمرة بريطانية أوصلته الى مرسيليا في ١٧ ايلول، وهناك قرأ في الصحف تفاصيل الاتفاق الذي تم بين لويد جورج و كلمنصو ، فسيطر عليه الغم^(٧٣) .

وصل فيصل الى لندن في مساء ١٨ ايلول ، فذهب لمقابلة لويد جورج بصحبة النبي ، وقد جامله لويد جورج وعمل على تطيب خاطره ولكنه أفهمه بصراحة ان عليه أن يتفق مع فرنسا^(٧٤) ، وقال له : « لا يمكننا أن نتخلى عن حليفنا بعد أن وعدت بالمحافظة على استقلال سوريا ، فمليكم أن تتفاهموا مع مسيو كلمنصو »^(٧٥) . ووعد لويد جورج أن يسمي لتأييد وجهة نظره لدى كلمنصو .

شعر فيصل كأن الانكليز الذين كانوا حلفاء بالامس قد باعوه الى خصومه الفرنسيين ، فاعترض واحتج بلا جدوى . وكان قبل هذا قد وضع

(71) Mousa (op. cit.) — P. 220.

(٧٢) أمين سعيد (الوطن العربي) — القاهرة — ص ٣٠ .

(٧٣) سليمان موسى (المصدر السابق) — ص ٥٠٦ .

(٧٤) أحمد قنري (المصدر السابق) — ص ١٣٨ .

(٧٥) يوسف الحكيم (المصدر السابق) — ص ١١٣ .

أمله في أمريكا فحاجب أمله فيها كذلك * وقد أدرك انه امام طريقين لاثالث
لهما : اما التفاهيم مع فرنسا او اعلان الفطية مع بريطانيا وفرنسا معا * وقرر
أخيراً أن يذهب الى فرنسا ويحاول الوصول الى اتفاق معها بالتي هي
أحسن وأمره الى الله *

مشروع معاهدة :

وصل فيصل الى باريس في ٢٠ تشرين الاول ١٩١٩ ، ومكث فيها
مدة تزيد على الشهرين قضاها في المفاوضات مع المسؤولين في وزارة الخارجية
الفرنسية تحت اشراف كلمنصو * وكان يساعد فيصل في المفاوضات رستم
حيدر وعوني عبدالهادي * وكانت المفاوضات صعبة اعتورتها العراقيل بين
الحين والآخر *

تم الاتفاق أخيراً بين المريفيين على مسودة معاهدة قال عنها عوني
عبدالهادي أنها كانت أحسن ما يمكن الوصول اليه في تلك الظروف باعتبار
ان السياسي الماهر يجب أن يفرق بين الممكن وغير الممكن^(٧٦) * ومن
الجدير بالذكر في هذا الصدد أن كلمنصو كان يختلف عن السياسة
التقليدية في معالجته للقضايا الاستعمارية اذ كان مرناً متساهلاً ، وكان
هؤلاء السياسة يتهمونهم بالتقدمية ويخشون منه * يقول الباحث السويدي
لونروث : ان الاوساط المالية والعسكرية في فرنسا كانت تتهم كلمنصو
بانه متساهل اكثر مما ينبغي تجاه قضية سوريا^(٧٧) * ويروي ابراهيم نجار
الذي كان من حاشية فيصل حينذاك : ان كلمنصو قال لفيصل وهو يشير
الى شعر رأسه : « ان هذا الشعر الذي تراه في رأسي قد ابيض من معاناة
السياسة في هذه البلاد * أنا غير استعماري ولا أعتقد بالاستعمار * وأنا

(٧٦) خيرية قاسمية (الحكومة العربية في دمشق) - ص ١٦٠ .
(٧٧) Lonroth (Lawrence of Arabia) - Trans by Lewis - P. 77.

أعرض عليك معاهدة لاثجد سياسياً فرنسياً غيري يجرأ على عرضها عليك
وتوقيعها • ففكر ملياً واعطني جوابك « (٧٨) •

نصت المعاهدة على أن تحترم فرنسا من جانبها استقلال الدولة
العربية في دمشق ، وان على هذه الدولة أن تحترم احتلال فرنسا للبنان
والساحل حتى الاسكندرونة ، وان تستمد كل معونة تحتاجها من فرنسا •
وقد أشارت المعاهدة الى أن هذه تدابير موقته ريثما تتم التسوية النهائية في
مؤتمر الصلح •

كان فيصل في قرارة نفسه يميل الى تصديق المعاهدة ، كما أن
مستشاريه وافقوا عليها ما عدا الدكتور أحمد قدري • وقد كتب فيصل الى
أبيه الحسين رسالة أشار فيها الى موقفه الحرج واضطراره الى الاتفاق مع
فرنسا ، حيث قال في رسالته : قد توافرت القناعة عندي بأن بريطانيا
استخدمتنا لمصالحها وتركتنا ، وان أمريكا تخلت عنا بعد أن أضرت بنا
وكانت السبب في وقوعنا في هذا المأزق الحرج ، وان من الصعب على
السوريين ان ينتصروا على الفرنسيين لعدم وجود الوسائط والآلات الحربية
وعدم وجود التربية المالية التي تدفع الامة ، ولهذا فقد رأيت لدى وصولي
الى باريس أن أتوصل الى نوع من التفاهم مع الفرنسيين أخرج به عن
المجرى القديم القائم على التزام جانب الانكليز التزاماً تاماً (٧٩) •

كان الحسين في تلك الآونة غاضباً على ابنه فيصل لاعلانه استقلال
سوريا عن الحجاز ، ولما وصلته رسالة فيصل لم يوافق على ما ورد فيها ،
وأرسل طبيبها الخاص الدكتور ثابت نعمان الى باريس وهو يحمل رسالة
الى فيصل يأمره فيها بعدم التوقيع على أية معاهدة مخالفة للموعود البريطانية
السابقة له • وقد وصل الدكتور ثابت الى باريس قبل توقيع المعاهدة • ولهذا

(٧٨) ابراهيم سليم نجار (المصدر السابق) - ص ٦٨ •

(٧٩) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٥٢٠ - ٥٢١ •

اضطر فيصل الى الاعتذار عن توقيع المعاهدة ووعد كلمنصو بأنه سيعرض مشروع المعاهدة على السوريين ويحثهم على قبولها^(٨٠) .

غادر فيصل فرنسا الى سوريا ، وتشير القرائن الى أنه كان ينوي أن يقنع السوريين بقبول المعاهدة وبذلك يضع أباه أمام الامر الواقع بحجة أن أهل البلاد هم الذين وافقوا على المعاهدة وأنه لا شأن له في الامر .

الحماس في سوريا :

ان الفترة التي غاب فيها فيصل عن سوريا - وهي التي دامت زهاء أربعة اشهر - تميزت بظهور الحماس الشعبي واستفحاله . فقد كان الامير زيد ينوب عن أخيه فيصل في الحكم ، وكان شاباً قليل الخبرة ، فاندفع مع الحماس الشعبي وصار يؤيده علناً أحياناً ، وسراً أحياناً اخرى .

بدأ الحماس الشعبي منذ غادر فيصل دمشق الى أوروبا في ١٢ ايلول . ويقال انه هو الذي بذر بذرتة الاولى لانه اجتمع قيل سفره ببعض الزعماء وقال لهم : انه ينتظر منهم أن يقوموا بحركة شعبية لتحويل الامة الى أمة مسلحة وتحويل الوطن الى ثكنة عسكرية^(٨١) . ولعل فيصل أراد بذلك تدعيم موقفه في المفاوضات المقبلة مع سياسة بريطانيا وفرنسا ، ولم يدر ان الحماس الشعبي اذا انطلق هادراً فلن يستطيع أحد ايقافه عند حد معين .

حين وصلت الاخبار الى دمشق عن الاتفاق الذي حصل بين فيصل وكلمنصو هاج الناس وأخذوا يعلنون تدميرهم من بريطانيا ويقولون عنها أنها باعت سوريا للفرنسيين لقاء نفط الموصل . ولما بدأت القوات البريطانية تنسحب من سوريا وفقاً للاتفاق ازداد هياج الناس وقرروا تأسيس جيش سوري لسد الفراغ الذي تركه انسحاب القوات البريطانية . فاتصل سكان محلات

(٨٠) المصدر السابق - ص ٥٣٤ .

(٨١) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ١٤٤ .

دمشق بعضهم ببعض واتفقوا على انتداب أربعة رجال من كل محلة ليجتمعوا ويقرروا ما يرونه لازماً للدفاع عن الوطن . وأخذ المندوبون يجتمعون كل مساء في محلة من المحلات ، حيث أصبح اجتماعهم كأنه برلمان شعبي محلي تلقى فيه الخطب والقصائد الحماسية (٨٢) .

وفي ١٠ تشرين الثاني خرجت في دمشق مظاهرة كبرى وتوجهت الى دار الحكومة وقدمت الى الامير زيد برقية احتجاج على فكرة تجزئة البلاد لارسالها الى فيصل بباريس . وفي اليوم التالي تلقى زيد من فيصل برقية يقول فيها : « لاتزال المخبرات جارية مع الحلفاء ، أوصوا الشعب بالتروي والتعلل مع المحافظة على الامن والسكينة بانتظار جوابي » (٨٣) . فلم تؤثر هذه البرقية في الشعب شيئاً ، ولعله ازداد بها حماساً وهياجاً .

ظهرت في تلك الآونة مواهب زعيم شعبي قادر على اثارة الجماهير بخطبه الحماسية هو الشيخ كامل القصاب ، وكان معمماً من رجال الدين . وفي ٢٧ تشرين الثاني انعقد اجتماع كبير في دار آل البارودي في حي القنوات حضره مشائخ الدروز ، وقام الشيخ كامل فخطب بأسلوبه المثير مشيداً بالغيرة الوطنية التي تجلت في الامة العربية والضحايا التي قدمتها في سبيل حريتها واستقلالها ، وندد بما شاع عن رغبة الامير فيصل في التفاهم مع الفرنسيين « أعداء الامس واليوم والغد » . وفي نهاية خطابه طلب تشكيل لجنة باسم « اللجنة الوطنية العليا » لاعداد المقاومة ضد الفرنسيين وتنظيم المتطوعين للتجنيد وجمع التبرعات للمجهود الحربي . فصفق الحاضرون له طويلاً وأجابوه على طلبه لتشكيل اللجنة وانتخبوه رئيساً لها بالاجماع (٨٤) .

(٨٢) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) - القاهرة - ج ٢ ص ١٠٢ .

(٨٣) يوسف الحكيم (المصنذ السابق) - ص ١١٦ .

(٨٤) المصدر السابق - ص ١٢٢ .

قررت اللجنة الوطنية العليا تأليف لجان فرعية لجمع المال اللازم للحركة الوطنية بنسبة اثنين في المائة من ثروة كل فرد من أفراد الأمة ، ومن ثناء أن يزيد فله الفضل • كما قررت اللجنة تأليف كتبية من المتطوعين يبلغ تعدادها ألف رجل وتتولى هي تجهيزها وارسالها الى ميدان القتال • وفي ١٠ كانون الاول أعلن الشيخ كامل القصاب في اجتماع للجنة : أنه قابل رجال الحكومة ووجدهم على وفاق مع الشعب فما يريد يريده ، ثم قال : ان الأمة قررت الدفاع وان رجالا من محلة الميدان قد تطوعوا فعلا وسينصبون خيامهم غداً في المزة (٨٥) •

وفي ٢١ منه أقر الامير زيد مشروع قانون للتجنيد الاجباري يقضي بتجنيد من أكمل العشرين الى الاربعين ، وجعل مدة الخدمة ستة أشهر والبدل النقدي ثلاثين جنيهاً مع استثناء وحيد والديه •

وفي تلك الآونة ظهرت عصابات لمحاربة الفرنسيين في جبال العلويين ، وفي تل كلفج قرب حماة ، وفي البقاع وجبل عامل ومرتفعات الجولان ، وكانت حكومة دمشق تشجع تلك العصابات سرّاً وتمدها بالمال والسلاح • وهما يجدر ذكره في هذا الصدد ان القوات الفرنسية كانت حينذاك مشغولة بمحاربة القوات التركية في منطقة كليكا • وكان السوريون يشعرون بالتعاطف مع الاتراك نكاية بالفرنسيين ، وأخذت مناشير الدعاية التركية تنتشر في حلب بتشجيع من بعض الضباط السوريين والعراقيين ، وكانت تلك المناشير مذيلة بتوقيع مصطفى كمال باشا • ننقل فيما يلي فقرة من احداها وهي موجهة الى الشعب السوري :

« بصفتي مسلماً أتوسل اليكم الا تكثرثوا بما بيننا من خلاف أدى بنا الى القطيعة • ينبغي لنا أن نزيل كل سوء تفاهم وقع بيننا ولنوجه جميعنا

(٨٥) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج ٢ ص ١٠٢ - ١٠٣ •

سلاحنا ضد الاحزاب الخائنة التي ترغب في تجزئة بلادنا... ان المجاهدين الذين يؤمنون بالحق سيقومون قريباً بزيارة اخوانهم العرب ، وسوف يمزقون شمل الاعداء ، فلنعش اخوة في الدين ، والموت لاعدائنا « (٨٦) .

الجنرال غورو :

عينت فرنسا الجنرال غورو مفوضاً سامياً لها في بيروت ، وكان هذا الجنرال من قواد حملة الدردنيل وكانت له شهرة فيها وقد فقد فيها أحد ذراعيه . والظاهر ان فرنسا قصدت من تعيين هذا الرجل أن تحسم قضية سوريا التي أقلقته طويلاً عن طريق الحل العسكري .

وصل غورو الى بيروت في ٢١ تشرين الثاني ١٩١٩ ، فجرى له فيها استقبال فخم الى أبعد الحدود . والمعروف عنه أنه كان رجلاً فخوراً يحب الزهو ، ولهذا احاط نفسه منذ قدومه بمظاهر الفخفة . يقول عنه بشارة الخوري في مذكراته : « أراد هذا الجنرال أن يحيط نفسه بأبهة منذ تسلمه مهام منصبه ، ومن مظاهر ذلك تأليفه حرساً وطنياً لمواكبته على الخيول العربية في تنقله في أسواق المدينة ، وقد فرض أن يكون جميع أفراد الحرس من جبل الدروز . وقد ظنهم كذلك ، ولكن بعض الفرسان جيء بهم من قرى لبنان وكحلت عيونهم ليوهموا السلطة أنهم من جبل الدروز ، وأخذ أحد السياسيين جعالة على تطوعهم لابس بقيمتها ، وهكذا كلف ذلك الحرس مالا وفيراً » (٨٧) .

أهم مشكلة واجهها غورو عقب وصوله الى بيروت هي اشتداد الحرب بين القوات التركية والفرنسية في منطقة كليكا ، فعندما انسحبت القوات البريطانية من تلك المنطقة انفردت القوات الفرنسية وحدها بمواجهة

(٨٦) زين نور الدين زين (المصدر السابق) - ص ١٤٠ ، ٢٤٦ .

(٨٧) بشارة خليل الخوري (حقائق لبنانية) - بيروت - ص ٩٨-٩٩ .

القوات التركية ، وكان مصطفى كمال باشا قد أعد هناك جيشاً نظامياً كبيراً
كما سُلح عصابات من الفلاحين أخذت تقتحم القرى ، وقد نال الارمن
القاطنين في تلك القرى من البلاء شيئاً كبيراً •

وحه غورو الى كليكا فرقتين كبيرتين ، ولكنه وجد صعوبة كبيرة في
تموين الفرقتين وامتدادها ، ذلك لان حكومة دمشق منعت من استعمال القطار
السوري لنقل المؤن ، فاضطر من جراء ذلك الى نقلها عن طريق البحر
الى الاسكندرونة ، وهذا يتطلب مدة خمسة عشر يوماً بينما كان طريق
القطار يتطلب أربعة أيام فقط^(٨٨) • ولأحاجة الى القول ان هذا العمل من
حكومة دمشق جعل غورو يضممر الحقد الشديد عليها ويصمم على القضاء
عليها •

خبر مشير :

كان فيصل قبل عودته الى سوريا قد اتفق مع كلمنصو على أن تبقى
المعاهدة طي الكتمان لكي يتمكن عند وصوله الى دمشق من اقناع
السوريين بها في جو هاديء خالي من الانفجالات • والغريب انه لم يكذب
يفادر مرسيليا في ٧ كانون الثاني ١٩٢٠ حتى نشرت جريدة « الطان »
الفرنسية خبراً عن المعاهدة قالت فيه : « وافق الامير فيصل منسجماً مع
فرنسا على انتدابها على سوريا كافة ، ولقاء ذلك فان فرنسا رضيت بقيام
منطقة عربية تشمل المدن الاربع ، دمشق وحمص وحماة وحلب ، على
ان تكون تحت حكمه بمساعدة المستشارين الفرنسيين والمفتشين •••
وكذلك فان الامير وافق على التعاون مع فرنسا دون غيرها في الشؤون
الاقتصادية والمالية » • وقد بادرت وزارة الخارجية الفرنسية الى نفسي

(٨٨) اندرياو (تاريخ الدروز وتمرد دمشق) - ترجمة حافظ أبو مصلح
- بيروت ١٩٧١ - ص ٢٩ •

الخبر غير أن الجريدة أكدت على صحته مع إضافة تفصيلات أخرى إليه في مقالات تالية (٨٩) .

هنا يحق لنا أن تساءل : هل كان نشر الخبر من قبيل السبق الصحفي الذي استطاع أحد محرري الجريدة أن يحصل عليه بجهوده أم أن نشره كان مدبراً من قبل بعض الساسة الفرنسيين لغرض معين قصدوا إليه ؟!

أرجح الظن ان نشر الخبر كان مدبراً ومتعمداً ، فان الاوساط المحافظة والساسة التقليديين ، من خصوم كلمنصو في فرنسا ، لم يهن عليهم عقد مثل تلك المعاهدة التي هي في نظرهم مضرة بمصالح فرنسا . انهم كانوا - كما رأينا آنفاً - يتهمون كلمنصو بأنه متساهل أكثر مما ينبغي تجاه قضية سوريا . وليس من المستبعد أنهم هم الذين تعمدوا نشر الخبر بتلك الصورة لكي يحرضوا السوريين على رفض المعاهدة . وهذا أمر كثيراً ما يقع في عالم السياسة ، وقد جرى مثل ذلك في العراق في عوام ١٩٤٨ - كما سنأتي إليه في جزء قادم من هذا الكتاب ان شاء الله !

وعلى أي حال فقد كان لنشر خبر المعاهدة في جريدة « الطان » أثر بالغ في الرأي العام السوري . انه كان كالشرارة التي تلهب النار ، فانطلق الجمهور يلعن المعاهدة ويلعن كل من يؤيدها كائناً من كان .

عودة فيصل .

وصل فيصل الى بيروت في ١٤ كانون الثاني ١٩٢٠ ، وكان قبل وصوله قد تلقى برقية من كلمنصو يخبره بأن حكومته قد صادقت على المعاهدة بشرط أن يتخذ الامير الوسائل الفعالة لاحتلال السكينة في الشعب السوري ويكسب رضاهم بسياسته . وقد عرض فيصل هذه البرقية على

(٨٩) محمد جميل بيهم (المصدر السابق) - ١٦٠ - ١٦١ .

الجنرال غورو عند اجتماعه به في بيروت • وقيل ان غورو سأله : هل في مقدورك وقف القلاقل في سوريا ؟ فأجابه فيصل : ان من السهل عليه وقف القلاقل لانه هو نفسه كان يثيرها لخلق المشاكل أمام فرنسا (٩٠) •

غادر فيصل بيروت بعد يومين من وصوله اليها • وحين وصل دمشق كان استقبال الجماهير له فاتراً نسبياً (٩١) • وشعر فيصل ان الجو ملغوم ضده. وشد المعاهدة ، واخذ يتحدث الى زواره شارحاً لهم الموقف واوصاهم بكتمانه عن العامة • وفي اليوم التالي من وصوله الى دمشق خرجت فيها مظاهرة كبرى ، وجاءت الى قصره وهي تهتف ، فأطل عليها من الشرفة يحييها • ووقف الشيخ كامل القصاب خطيباً في المتظاهرين وقال موجهاً كلامه الى فيصل : « اني واثق أنك لن ترضى ، وحاشاك ان ترضى ، أن تكون أميراً على بلاد يظلمك فيها علم أجنبي (٩٢) » • فتكلم فيصل يشكر المتظاهرين على اخلاصهم وغيرتهم الوطنية وطمأنهم بأن قضية البلاد لم يبت في أمرها بعد ، ودعاهم الى الهدوء والاعتماد على حق الامة الصريح بعد الانكال عليه سبحانه وتعالى (٩٣) •

وفي مساء ٢٢ كانون الثاني أقام النادي العربي حفلة كبيرة لتكريم الامير فيصل بمناسبة عودته من أوروبا وحضر الحفلة كثير من الاعيان والمسؤولين وقادة الجماهير • وتوالى على منصة الخطابة عدد من الخطباء وكانوا كلهم يحاولون شجب المعاهدة عن طريق التلميح والكناية ، ويطالبون بالاستقلال التام الذي لاتشوبه حماية او وصاية وبوجوب الدفاع عن هذا الاستقلال بكل غالي ورخيص •

(٩٠) المصدر السابق - ص ١٦٢ •

(٩١) جورج انطونيوس (المصدر السابق) - ص ٤١٧ •

(٩٢) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ١٥٩ •

(٩٣) يوسف الحكيم (المصدر السابق) - ص ١٢٧ •

كان الطبيب عبدالرحمن الشهبندر من جملة الخطباء ومن أشدهم حماساً ، فقد انتقد الحكومة القائمة ووصف نفسه بأنه من الشعب وأنه يحكم مهنته يدخل بيوت الناس ويعرف أفكارهم (٩٤) . ثم أخرج سماعته الطيبة وقال انها توصل الى سمعه يوماً دقات قلوب الشعب القلقة على مصيره شاكية ضعف النشاط السياسي (٩٥) .

وعند انتهاء الخطباء من خطبهم وقف فيصل وأخذ يتكلم كلاماً طويلاً يدل على ما كان يشعر به من ألم عميق . فقد بدأ خطابه بشكر الشبيبة التي أقامت الحفلة ، وأشار الى انه في العام الماضي كان يلاحظ في النادي قطعة مكتوب عليها « ممنوع التكلم في السياسة » ولكنه الآن لا يراها ، وعلل ذلك بالاحوال السياسية الحاضرة التي قضت على النشأ الجديد أن يهملوا دروسهم وكتبهم ويهتموا بالسياسة حيث اعتقدوا أن الدفاع عن الوطن فوق كل شيء . وان العلم يأتي في الدرجة الثانية . ثم قال : « ربما لاحظتم اني أتلعثم في القول ، فانا لست بخطيب ولم أعتد أن أقول كثيراً لانني ألفت الصمت ، ومن عرفني قديماً يعرف ذلك عني ، ولذلك أرغب ان تكون الامة صامتة مثلي . تعمل كثيراً وتقول قليلاً . . . لنا سنة ونصف ونجن نقول . كفانا خطباً ، كفانا أقوالاً ، نحن في أيام العمل لافي أيام القول . ان الاقوال لاتأتي بفائدة ولكن الافعال تفيد كثيراً . اني غبت عن البلاد أربعة أشهر ولا أشك بأن التاريخ يحفظ ما فعلته بالغرب سواء أكان جيداً أو رديئاً ، قليلاً او كثيراً ، ولا أنزه نفسي عن الخطيئات لانني كنت أقول ما يلهمني ضميري . ولما عدت الى هنا رأيت الامة بأشد الحماس ، ولكنه حماس لا يتعدى القول ، وحبذا لو قرن هذا الحماس بالعمل ، أنا أدعو الامة الى ذلك اذ لاهياة لها الا اذا فعلت كما أقول » .

(٩٤) أحمد قدرى (المصدر السابق) - ص ١٦٧ .

(٩٥) يوسف الحكيم (المصدر السابق) - ص ٨٣ .

ثم تطرق فيصل الى خطاب عبدالرحمن الشهبندر فدافع عن الحكومة وقال :
انها قائمة برأي من اعتمدته الامة وهو أنا ، فالحكومة هي شخصي ، ولا
أسمح لشخص أو جماعة ان يقول ان الحكومة هي كذا وكذا ، أو يطلب
إبدال حاكم بحاكم ، لانني أنا المسؤول الى ان ينعقد مجلس الامة وعندئذ
أتصل عن المسؤولية + ثم أشار فيصل الى سماعه الشهبندر وكيف
انه يعرف بها دقات قلوب الشعب ، وقال : ان أول عمل يجب أن يعمل
له الدكتور الشهبندر هو ترقية الفن المختص به ، فاذا عمل كل فرد منا
بما يجب عليه في مجال اختصاصه تنتظم حركة الامة بأجمعها ، « فالجندي
يحارب ، والزعيم يقود الجنود ، والسياسي يدير الامور بما تستدعيه
الظروف ، والطبيب يداوي المرضى ، فلا يتجاوز أحد حدود اختصاصه
الى مهمة غيره ولا يتداخل فيما يخرج عن نطاق اختباره وعما وقف
نفسه عليه » + ثم عاد فيصل الى موضوعه الاساسي فقال : « أعود فأؤكد
لكم يا اخواني بانني عامل على ما اتم تطالبون به وهو الاستقلال التام ...
ولكنني في الوقت نفسه أقول أن بينكم وبين الامم الغربية صلات تصلكم ولا
تقدرون أن تستغنوا عنها ، لان وسائل النقل الحديثة جعلت أوروبا في بطن
سوريا ، واذا قلتم انكم تستغنون عنها عرفت انكم لا تريدون الحياة ...
نحن اليوم في موقف حرج يجب أن لا نتحقر فيه الامم لاننا باحتقارنا لاحداها
نكون قد احتقرنا أنفسنا + أمامنا دول كبار وأمم عظام + يجب علينا أن
نحترم كل أمة وكل حكومة متى احترمت بلادنا واستقلالنا ومنافعنا » (٩٦) .

عند انتهاء فيصل من كلامه كان يظن ان الحاضرين اقتنعوا بصحة ما
قال + وهذا وهم كثيراً ما يسيطر على الساسة الذين لا يعرفون طبيعة
البشر + ان الادلة التي أوردها فيصل في خطابه كانت قوية مقنعة في نظره ،

(٩٦) انظر : المصدر السابق - ص ٨٧ . وكذلك : أحمد قدری (المصدر
السابق) - ص ١٦٧ - ١٦٨ .

وكان يحسب انها مادامت كذلك فلا بد أن تكون قوية ومقنعة في نظرس الآخرين أيضا • لم يدر أن الحماس المسيطر على الرأي العام جعل الناس في عالم آخر غير العالم الذي هو فيه • انه كان ينظر الى الامور في ضوء المبدأ القائل « السياسة هي فن الممكن » ، بينما هم كانوا ينظرون اليها في ضوء « ارادة الشعب » و « الموت في سبيل الوطن » • وشتان ما بين النظرتين !•

محاولة اخرى :

اراد فيصل أن يقوم بمحاولة أخرى لاقناع الشعب بقبول المعاهدة ، فطلب عقد اجتماع سري مع الهيئة الادارية لجمعية « العربية الفتاة » ، وهي الجمعية التي كان لها تأثير كبير في الرأي العام السوري حينذاك • وتم عقد الاجتماع في بيت الدكتور أحمد قدري في ٦ شباط ، وعرض فيصل على الحاضرين مشروع المعاهدة التي اتفق عليها مع كلفنصو ، ودافع عنها وقال انها أقصى ما يمكن الحصول عليه ، ورجا منهم أن يكونوا واقعيين في معالجتهم لامور السياسة • غير انهم لم يستجيبوا لرجائيه ، ورفضوا المعاهدة وأصروا على الرفض • فقال لهم فيصل : ان رفض المعاهدة معناه اعلان الحرب على فرنسا • فكان جوابهم : « اننا مستعدون لاعلان الحرب على فرنسا وانكلترا معاً » ، (٩٧) •

وفي اليوم التالي استدعى فيصل اليه اعضاء الهيئة الادارية واحداً بعد الآخر على انفراد بغية اقناعهم فلم ينجح فأشار عليه رضا الركابي باقالة الهيئة وابدالها بهيئة أخرى ، فوافق فيصل على هذا الرأي • واجتمع خمسون من أعضاء الجمعية في بيت الركابي برئاسة الامير زيد • وافتتح الشيخ كامل القصاب الجلسة بخطبة من خطبه النارية خمل فيها على الهيئة

(٩٧) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج ٢ ص ١٢٥ •

الادارية واتهمها بالتفريط في مصلحة البلاد وطالب باقالتها • ثم تعاقب الخطباء على مثل هذا القول • وقام أحد أعضاء الهيئة يقول : « اننا فعلنا ما استطعنا فعله فجربوا أنتم أنفسكم » • ثم جرى الانتخاب ففاز بها أعضاء جدد كان من بينهم الركابي (٩٨) •

ولم يكتف فيصل بهذا بل أخذ بشجع الناس على تأسيس حزب جديد للموقوف تجاه جمعية « العربية الفتاة » والحد من قوتها • وقد تأسس الحزب فعلا باسم « الحزب الوطني السوري » ، وانضم اليه الاعيان من أصحاب الوجاهات التقليدية ، وكتب بيان الحزب محمد كرد علي فتمقه تنميحاً (٩٩) •

لاحاجة بنا الى القول ان هذه المحاولة لابد أن تبوء بالفشل عاجلاً او آجلاً • فان أي حزب سياسي انما يكسب قوته من التفاف الجماهير حوله ، والجماهير بطبيعتها لا تحب الاعتدال لان الشيء في نظرها اما أسود أو أبيض ولا يمكن أن يكون هناك وسط بينهما • ومن يريد ان ينال المكانة لدى الجماهير يجب عليه أن يسير معهم ويتحمس بحماسهم ، والا فهم يحتقرونه ويمدون خائناً للوطن •

أصبحت الجماهير في دمشق ترتاب في وطنية كل رجل يُشاع عنه أنه يؤيد المعاهدة ، ولهذا صار الناس يتهمون نوري السعيد بالخيانة ويهتفون ضده في الشوارع ، كما انتشر بين الناس منشور سري موجه ضد الركابي (١٠٠) •

أدرك فيصل أخيراً أن اقناع الجماهير بالموافقة على المعاهدة أمر في منتهى الصعوبة او هو يكاد يكون مستحيلاً • وهو لذلك أصبح في حيرة

(٩٨) المصدر السابق - ج ٢ ، ص ١٢٦ •

(٩٩) أحمد قنري (المصدر السابق) - ص ١٧٢-١٧٤ •

(١٠٠) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ١٦١ •

من أمره لا يدري أينسجم مع الجماهير فيخسر السياسة ، أم ينسجم مع السياسة فيخسر الجماهير • ان الجماهير لا يمكن أن تكون عاملاً ايجابياً في السياسة الا اذا كانت لها قيادة حكيمة تعرف كيف توجهها • يقول أحد المفكرين السياسيين : « ان قادة الجماهير يجب أن يسيروا أمامها لا وراءها » ، ويقصد بذلك ان القادة يجب أن يكونوا هم الموجهين للجماهير لا ان تكون هي الموجهة لهم •

يبدو أن جماهير دمشق في ذلك الحين لم تتوفر لديها مثل هذه القيادة الحكيمة ، اذ كان قادتها من طراز كامل القصاب يسيرون وراء الجماهير ويهتفون بهتافها دون أن يكون لهم رأيهم المستقل الندي يستطيعون به توجيه الجماهير • ولهذا أصبح فيصل في وضع نفسي لا يحسد عليه وكأنه بين حجري الرحي •

زار دمشق في تلك الفترة برسيغال فيلبس مراسل جريدة « الديلي اكسبريس » البريطانية ، وقابل فيصل ثم كتب الى جريدته يصف الحالة النفسية التي كان فيها فيصل حيث قال : « ترك الامير فيصل في نفسي عند مقاباتي الاخيرة له أنه رجل على حافة الانهيار التام من جراء اليأس الذي يشعر به ، وذلك لان كل شخص هنا يشك فيه • والفرنسيون لا يثقون به • • • وملك الحجاز أبوه لا يثق به ظناً منه ان فيصل قد أسلم أمره وبلاده للتبعية عن طريق المعاهدة التي لاتعرف مكة عن أمرها شيئاً » (١٠١) •

تتويج فيصل :

في ٢٠ كانون الثاني ١٩٢٠ سقطت وزارة كلمنصو ، وحلت محلها وزارة جديدة برئاسة ميليران • والمعروف عن الرئيس الجديد أنه كان

(101) Daily Express - 24 Feb. 1920.

على النقيض من كلفنصو لايميل الى التساهل في القضية السورية ويبغي حلها عن طريق القوة العسكرية •

أعلن ميليران أمام البرلمان الفرنسي على أثر تسنمه الحكم ان احتلال سوريا يحتاج الى قوة عسكرية كبيرة ، وطالب البرلمان بالموافقة على تخصيص المبالغ اللازمة لذلك وقال : « لكي تجلب فرنسا لاهل سوريا تحت رايتها نعمة الحكم الجيد كما فعلت ذلك في المغرب » (١٠٢) •

ان هذا التبدل في السياسة الفرنسية جعل فيصل يشعر بضرورة مجاراة الحماس الشعبي • ولعله خشى أن يخسر المشيتين ، أي خشي أن يخسر الجماهير والسياسة معاً • ففي أوائل آذار ١٩٢٠ تم الاتفاق بينه وبين زعماء الاحزاب السورية على أن يضعوا فرنسا أمام الامر الواقع وذلك باعلان استقلال سوريا ومبايعة فيصل ملكاً عليها ، وتقرر ان يكون ذلك في ٨ منه •

ويقال ان مشكلة عائلية واجهت فيصل آنذاك اذ هو لايجوز له حسب تقاليد العائلة الهاشمية ان يتقدم على أخيه عبدالله الذي هو أكبر منه سناً • وبعد المداولة مع زعماء الاحزاب تم الوصول الى حل هو ان يعلن العراقيون الموجودون في سوريا استقلال العراق ومبايعة عبدالله ملكاً عليه في نفس اليوم الذي تتم فيه بيعة فيصل (١٠٣) •

أُستدعي المؤتمر السوري على عجل ، كما استدعي العراقيون الموجودون في سوريا لانتخاب مؤتمر خاص بهم • وفي عصر ٦ آذار اجتمع المؤتمر السوري فقرر استقلال سوريا استقلالاً تاماً بحدودها الطبيعية التي تشمل لبنان وفلسطين وان يكون فيصل ملكاً عليها كلها • وفي

(١٠٢) مجلة (آفاق عربية) - في عددها الصادر في أيار ١٩٧٧ - ص ١١٩

(١٠٣) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) - ج ٣ ص ١٨٩ •

الوقت نفسه اجتمع العراقيون في بيت نوري السعيد في حي الشهداء وانتخبوا من بينهم الاشخاص التالية اسماؤهم من أجل اعلان استقلال العراق ، وهم : جعفر العسكري ، سعيد الشيعلي ، علي جودت الايوبي ، عبدالله الدليمي ، جميل المدفعي ، تحسين علي ، اسماعيل نامق ، سامي الاورفلي ، فرج عمارة ، رشيد الهاشمي ، رضا الشيبلي ، صبيح نجيب ، محمود أديب ، ناجي السويدي ، توفيق السويدي ، ابراهيم كمال ، يونس وهبي ، حمدي صدرالدين ، أحمد رفيق ، نوري القاضي ، مكي الشربتي ، ثابت عبدالنور ، ابراهيم توحلة ، عزت الكرخي ، عبداللطيف الفلاحي ، توفيق الهاشمي ، محمد البسام ، أسعد صاحب ، محمد خيرو .

وفي اليوم المعين - أي ٨ آذار - أُعد احتفال فخيم في دار البلدية في المرجة حضره رؤساء الطوائف الدينية والاعيان وممثلو الدول . ولوحظ تغيب البريطانيين عن حضور الاحتفال ، بينما حضره الفرنسيون وعلامم الابتهاج بادية على وجوههم الامر الذي لفت اليه الانظار . ومن طريف ما وقع في بداية الاحتفال ان نوري الشعلان رئيس عشيرة الرولة جاء ومعه عشرة من اتباعه المسلحين فأشغلوا صدر القاعة ، فتقدم نحوه أحد القائمين بالتشريفات راجياً منه بلطف أن يأمر أتباعه بالوقوف مع الاعيان المدعويين ، ولكن الشيخ رفض ذلك اذ شعر سيفه وصاح بالرجل : « ارجع مكانك » . فعاد الرجل خائباً .

وصل فيصل الى محل الاحتفال وهو راكب جوادا فهتفت لسه الجماهير المحتشدة في ساحة المرجة ، وبعد قليل خرج الى الشرفة المطة على الجماهير محمد عزة دروزة سكرتير المؤتمر السوري فتلا قرار المؤتمر باعلان استقلال سوريا واختيار فيصل ملكاً عليها . وتلاه توفيق السويدي فتلا قرار المؤتمر العراقي باعلان استقلال العراق واختيار عبدالله

ملكاً عليه • ثم تقدم رئيس بلدية دمشق غالب الزالق يحمل علم سوريا الجديد ، وهو نفس العلم الحجازي مع اضافة نجمة واحدة اليه ، فتسلمه المرافق فخري البارودي ورفعته فوق السارية ، فضجت الجماهير بالهتاف • ورُفعت لوحة مكتوب عليها : «ليحيى جلالة الملك فيصل» • وكانت المدافع تطلق آنذاك مائة طلقة وطلقة •

ضجة في بيروت :

قوبل اعلان الملكية بالسخط من قبل فرنسا وبريطانيا • ففي ٩ آذار أرسل وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن برقية الى فيصل تتضمن احتجاجاً عنيفاً ، وقال له : ان المؤتمر السوري ليس له صفة شرعية وان بريطانيا لاتعترف بحق أية فئة في دمشق تتكلم نيابة عن فلسطين والعراق (١٠٤) • وفي ١ نيسان أبرق اللورد كرزن الى الحسين وابنه عبدالله يقول لهما : ان بريطانيا لاتعتبر العراقيين التسعة والعشرين الذين اجتمعوا في دمشق ممثلين للعراق وان مؤتمر الصلح هو وحده الذي سيقدر مستقبل العراق بعد التحقق من رغبات الاهلين • فرد عليه الحسين قائلاً : انه لاعلاقة له بمؤتمر الصلح وان علاقته منحصرة ببريطانيا وحدها وهو انما قام بالثورة وجازف بكل شيء وواجه الاخطار والكوارث اعتماداً على تلك العلاقة وثقة منه بشرف بريطانيا العظمى التي اشتهرت بالمحافظة على عهودها (١٠٥) •

وفي بيروت بدأت عرائض الاحتجاج تصل الى مقر البطريركية المارونية من كل مكان في لبنان معبرة عن رفض موقعها لضم لبنان الى دولة فيصل الجديدة دون استشارة أهله • وفي ١٢ آذار أعد مجلس ادارة

(١٠٤) زين نورالدين زين (المصدر السابق) - ص ١٥١ •

(١٠٥) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٥٤٤ •

لبنان قراراً رفعه الى مؤتمر الصلح بواسطة الجنرال غورو احتجاج فيه على قرار المؤتمر السوري وقال ان المؤتمر ليس له حق في التدخل في شؤون لبنان وإدارته • وفي ٢٢ آذار عقد اجتماع حاشد في بعبدا حضره أعضاء مجلس الإدارة وجمهور من اعيان لبنان وممثلي طوائفه المسيحية وتم فيه اعلان استقلال لبنان ، ثم رُفع العلم اللبناني على سراي بعبدا فمرت به كئائب من الجيش اللبناني تؤدي له التحية (١٠٦) •

وحصل من جراء ذلك شيء من التوتر الطائفي بين المسلمين والمسيحيين في بيروت ، فقد أخذ خطباء المساجد يخطبون باسم الملك فيصل ، فصدرت اليهم الاوامر من السلطة الفرنسية بأن يخطبوا باسم الخليفة العثماني محمد وحيد الدين فرفض الخطباء ذلك وانكروا تدخل السلطة في الشؤون الدينية ، وكان أشدهم في ذلك الشيخ محي الدين المكاوي خطيب جامع المجيدية ، فاعتقلته السلطة في ٥ نيسان وأبعدته الى جزيرة أرواد ، فثارت ثائرة المسلمين ، وخرجت مظاهرة في دمشق احتجاجاً على ابعاده • وأرسل الملك فيصل الى الجنرال غورو والجنرال اللنبي والحكومة الفرنسية يحتج فيها على ما أصاب الديانة الاسلامية من اهانة لتدخل السلطة العسكرية في الامور الدينية ومنع الخطب في الجوامع من الدعاء حسب رغبة السكان (١٠٧) •

اضطرت السلطة الفرنسية الى اطلاق سراح الشيخ محي الدين ، وأصدرت بياناً انكرت فيه أنها تتدخل في الامور الدينية ، وذكرت أن فرنسا تحترم جميع الاديان على السواء انما هي لا ترضى ان يتخذ الدعاء باسم جلالة الملك فيصل حجة لاثارة الخلافات السياسية (١٠٨) •

-
- (١٠٦) زين نور الدين زين (المصدر السابق) - ص ١٥٣ - ١٥ •
(١٠٧) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ١٩٠ •
(١٠٨) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج ٢ ص ١٤٢ •

الوزارة الركابية :

في ٩ آذار - أي في اليوم التالي لتوقيع فيصل - صدرت الارادة الملكية بتشكيل الوزارة السورية الاولى ، فكانت مؤلفة من رضا الركابي رئيساً ، وعلاء الدين الدروبي لرئاسة مجلس الشورى ، ورضا الصلح للداخلية ، وعبد الحميد القلطي للحربية ، وجلال الدين زهدي للحقانية ، وسعيد الحسيني للخارجية ، وفارس الخوري للمالية ، وساطع الحصري للمعارف ، ويوسف الحكيم للنافعة •

كان معظم هؤلاء الوزراء من الكهول الميالين للاعتدال في السياسة ، ولهذا صار الوطنيون المتحمسون يتهمونها بالضعف وبقلة الاهتمام بالدفاع عن الوطن • وقد اشتد الانتقاد لها على أثر اعلان مقررات سان ريمو في ٢٥ نيسان ، وهي المقررات التي جعلت سوريا تحت انتداب فرنسا ، والعراق وفلسطين تحت انتداب بريطانيا • فقد ثارت نائرة الاحزاب والجماهير على تلك المقررات ، واخذوا يتهمون على الوزارة ، ووصفوها بأنها لاتشاركهم العزم على محاربة فرنسا حتى النهاية (١٠٩) •

كان يتزعم هذه المعارضة ضابط شاب في السادسة والثلاثين من عمره اسمه يوسف العظمة ، وكان يومذاك يتولى منصب مساعد وزير الحرية ، وهو برتبة مقدم ولكن فيصل قد منحه رتبة عقيد فخرية تقديراً له • وكان يؤيد هذا الضابط في المعارضة احسان الجابري رئيس الديوان الملكي ، وساطع الحصري وزير المعارف •

كانت القوات التركية في تلك الايام تكيل الضربات القوية للفرنسيين في كليكا حتى وصلت في زحفها الى مقربة من الحدود السورية وأخذت تهددها • وكان رأي الركابي أن يتعاون مع الفرنسيين للدفاع عن حدود

(١٠٩) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ١٧٨ •

سوريا الشمالية^(١١٠) • ولكن يوسف العظمة كان يخالفه في هذا الرأي
اذ كان يميل الى الاتفاق مع الاتراك ضد الفرنسيين • وقد حدثت في أحد
الايام مشادة بين الركابي ويوسف العظمة بحضور الملك ، فقد قال يوسف
للملك : « لو سمحت جلالتك لأمكننا أن نرمي الفرنسيين الى البحر بقدمي
هذه » • فسأله الركابي عن مقدار القوة العسكرية التي يملكها لمحاربة
فرنسا ، فأجابه يوسف العظمة : ٤٠٠٠ جندي و ١٢ مدفعاً و ٣٦ قنبلة • فرد
عليه الركابي قائلاً : « أخشى أن تتعب قدمك قبل أن تلقي الفرنسيين في
البحر »^(١١١) •

عقد خصوم الوزارة الركابية أخيراً اجتماعات سرية في بيت احسان
الجابري قرروا فيها اسقاط الوزارة • وقد انحاز الملك الى جانبهم • وفي
٢ أيار ١٩٢٠ ضجر الركابي من المؤامرة التي تحاك ضده فغادر مكتبه وذهب
الى بيته عازماً على الاستقالة ، فأرسل الملك اليه احسان الجابري يطيب
خاطره ويوصيه بالتريث ، فأجابه الركابي : « لا يسعني الصبر على ما أشاهده
في العاصمة ، وفي المؤتمر السوري خاصة ، من تهور وافراط في المطالبات
مما قد يؤدي الى فقد النظام والى الاضطراب على الحدود وينذر بسوء
المصير »^(١١٢) • ثم كتب الركابي استقالته حيث قال فيها انه يستقيل بناءً
على اسباب صحية ، وناولها الى الجابري •

الوزارة الأتاسية :

في اليوم التالي لاستقالة الركابي كلف الملك فيصل هاشم الاتاسي
بتشكيل وزارة جديدة • فشكلها الأتاسي على النحو التالي : رضا الصلح
لرئاسة مجلس الشورى ، وعلاء الدين الدروبي للداخلية ، وعبدالرحمن

(١١٠) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٥٥٣ •

(١١١) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ١٧٨ - ١٧٩ •

(١١٢) يوسف الحكيم (المصدر السابق) - ص ١٥٧ •

الشهبندر للخارجية ، وبوسف العظمة للحربية ، وفارس الخوري للمالية ،
وجلال الدين زهدي للحقانية ، وساطع الحصري للمعارف ، وبوسف
الحكيم للنافعة •

الملاحظ ان خمسة من اعضاء الوزارة الجديدة كانوا في الوزارة
المستقيلة ، ولم تضم الوزارة الجديدة سوى وزيرين جديدين هما : يوسف
العظمة وعبدالرحمن الشهبندر ، وكانا يتشابهان بكونهما شابين ومن أشد
الناس حماساً واندفاعاً • ومما يجدر ذكره أن الملك كان قبل هذا يكره
الشهبندر ويعتبره عدواً له وقال عنه ذات مرة : « انني لما عرفت الشهبندر
احتقرت جميع أهل الشام ... » (١١٣) • والظاهر ان الملك انما أدخله في
الوزارة لكي يجتذبه اليه ويخفف من حماسه •

عندما مثلت الوزارة الاتاسية أمام المؤتمر السوري وألقت بيانها أعترض
المؤتمر عليها لخلو البيان من التصريح عن الدفاع ووسائله • فاختلت الوزارة
في غرفة جانبية ، ثم خرج الشهبندر بعدئذٍ الى المؤتمر وقال : « تسألوننا
ايها السادة عن الدفاع ، ونحن نقول لكم اننا ماخُلِقنا الا من الدفاع والى
الدفاع » • فصفق اعضاء المؤتمر لهذا التصريح ومنحوا الوزارة
ثقتهم (١١٤) •

أخذت الوزارة الاتاسية تعمل بكل جهدها في اعداد وسائل الدفاع عن
البلاد ، وكان أول ما قامت به في هذا الشأن انها أعادت النظر في قانون
التجنيد الاجباري الذي أهملته الوزارة السابقة ، وجعلت مدة الخدمة سنة
واحدة بدلا من ستة أشهر ، وكذلك أصدرت سندات قرض وطني بمبلغ
نصف مليون دينار بفائدة ستة بالمائة مقابل رهن مليون دونم من اراضي
الدولة • وبدأت مناشير الدعاية لهذا القرض توزع على الناس وهي

(١١٣) يوسف ايبش (رحلات الامام محمد رشيد رضا) - بيروت ١٩٧١
- ص ٣٠٠ •

(١١٤) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) - ج ٣ ، ص ٢١٥ •

تتضمن العبارات التالية : " هل أنت شرقي ؟... هل أنت عربي ؟... هل تريد الحياة الحرة ؟... هل تريد الاستقلال التام ؟... اشترك بالقرض السوري .. لاحياة الا بالاستقلال ولا استقلال الا بالمأل " (١١٥) .

وقد بذل يوسف العظمة جهداً كبيراً في اعداد الجيش السوري وتسليحه . ثم ذهب الى حلب بحجة النظر في تعزيز وسائل الدفاع عن الحدود الشمالية ، غير أنه كان في الحقيقة يقصد التفاهم مع مصطفى كمال باشا ، وقد اتصل هناك بمندوبين عنه وباحثهم في انشاء تعاون عسكري بين العرب والأتراك . ويبدو ان الانكليز علموا بهذا الاتصال ، فقد صرح شرشل في مجلس العموم البريطاني قائلاً : ان العرب يحاولون الآن لأول مرة التفاهم مع الاتراك لايجاد قضية مشتركة بينهما ، وذلك بعدما كانت سياستنا قد نجحت في التفريق بينهما (١١٦) .

أدرك الفرنسيون انهم في هذه الظروف غير قادرين على الاحتفاظ بسوريا وكيكيا معاً ، ولا بد لهم من أن يتخلو عن احدهما ليحافظوا على الاخرى . وقد صرح أحد مفكريهم السياسيين قائلاً : " لو كان يتحتم على فرنسا أن تتخذ قرارها مستندة على المنافع والحسابات وحدها لوجب عليها أن ترجح كيكيا على سوريا ، ولكن لفرنسا تقاليد وروابط معنوية كثيرة تربطها بسوريا منذ قرون عديدة ، فعليها إذن ان تسمك بتلك الروابط والتقاليد ، وان تنازل عن كيكيا في سبيل الاحتفاظ بسوريا اذا اقتضى الحال " (١١٧) .

ولهذا عقد الجنرال غورو هدنة مع مصطفى كمال باشا في ٣٠ أيار

-
- (١١٥) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ١٧٩ .
 - (١١٦) المصدر السابق - ص ١٨٦ .
 - (١١٧) ساطع الحصري (ميسلون) - بيروت - ص ٨ .

١٩٢٠ ، ثم أخذ يسحب قواته من كليسيا ويحشد لها تجاه حكومة دمشق (١١٨) .

مذبحة في جبل عامل :

يقع جبل عامل في جنوب لبنان يحده البحر الابيض غرباً ومرتفعات الجولان شرقاً ، ومعظم سكانه من الشيعة الاثني عشرية ويطلق عليهم اسم « المتأولة » ومعناه الذين يتولون علماً . وكان الجبل يضم بالإضافة الى الشيعة أقلية مسيحية أكثرها من الموارنة . وقد نشأت بين الفريقين في تلك الفترة احتكاكات طائفية تهدأ تارة وتثور تارة أخرى . يقول محمد عزة دروزة : « لقد كانت الدعايات والتحريضات قد أدت في منطقتي الجولان وجبل عامل المتجاورتين ... الى بعض الاحتكاكات العدائية بين المسلمين والنصارى فيهما ، فلم تلبث بعد اعلان الاستقلال والملكية أن أخذت تتسع ويبدو على مسرحها بعض صور حرب العصابات من الجانبين : نصرانية مسلحة بالسلاح الافرنسي ومدبرة باليد الافرنسية تحت ستار الدفاع عن النفس ورد العدوان ، واسلامية مسلحة بالسلاح العربي ومدبرة باليد العربية بقصد احباط دسائس الفرنسيين وتحريضاتهم وعرقلة أهدافهم ... » (١١٩) .

وفي ٢٤ نيسان ١٩٢٠ عقد الشيعة مؤتمراً لهم في وادي الحجير الواقع على بعد خمسة عشر ميلاً من جنوب النبطية ، حضره علماء الشيعة وأعيانها وعلى رأسهم كامل بك الاسعد والمجتهد المعروف السيد عبدالحسين شرف الدين ، وقرروا بالاجماع الانضمام الى حكومة فيصل العربية ورفض الخضوع للحكم الفرنسي (١٢٠) .

- (١١٨) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٥٥٥ .
(١١٩) محمد عزة دروزة (الحركة العربية الحديثة) - ص ١٩٥٠ - ج ١ ، ص ١٢٤ .
(١٢٠) محمد جابر آل صفا (تاريخ جبل عامل) - بيروت - ص ٢٢٦ .

أدى هذا المؤتمر الى تفاقم التوتر الطائفي في المنطقة ، وبدأت الاشاعات تنتشر بين السكان تثير كل طائفة منهم على الاخرى • حدثني أحد المسنين من العاملين قائلا : ان اشاعة انتشرت بين الشيعة مفادها أن النصارى أحرقوا القرآن كما افتضوا بكاره سبع فتيات شيعيات • وهو يعزو هذه الاشاعة الى دسائس الفرنسيين ، وكانت تبيجتها أن ثارت نائرة الشيعة فهاجموا قرية مسيحية قريبة من الحدود الفلسطينية تدعى « عين ابل » ، وقتلوا عدداً كبيراً من سكانها •

يتهم النصارى أحد علماء الشيعة الذين حضروا مؤتمر الحجير بأنه كان السبب في وقوع المذبحة اذ هو - على حد قولهم - استخار الله بالمسيحة على ذبح النصارى (١٢١) • ولكن الشيعة يعزون السبب الى الفرنسيين ، يقول أحد مؤلفيهم في ذلك : ان الفرنسيين سلحوا النصارى بالبنادق واغروهم بالتحرش بجيرانهم ، وأذكوا فيهم نار التعصب ، وأخذ هؤلاء النصارى يعتمدون على ابناء السبيل والفقراء من الشيعة مما جعل الشيعة يردون عليهم بالمثل ، ف وقعت الفاجعة التي عكرت صفو الولاء بين الطائفتين وأسف له العقلاء (١٢٢) •

حين بلغ الجنرال غورو خبر المذبحة صمم على الانتقام من الشيعة • وفي ٥ أيار ١٩٢٠ تحركت من بيروت حملة فرنسية مؤلفة من أربعة آلاف جندي بقيادة الكولونيل نياجر • وسارت الحملة في طريق الساحل حتى وصلت الى صور ، وهناك أحرقت بيت المجتهد عبدالحسين شرف الدين ، وكانت فيه مكتبة نفيسة ، ثم تحولت بعدئذ نحو الداخل ، وشرعت تحرق الكثير من القرى والضياع ، وأعدمت نحو ثلاثين رجلاً بتهمة مساهمتهم في مذبحة النصارى •

(١٢١) امين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٥٣ •

(١٢٢) محمد جابر آل صفا (المصدر السابق) - ص ٢٢٧ •

ولما تمت السيطرة على جبل عامل كله دعت السلطة الفرنسية عدداً كبيراً من أعيان الشيعة والدروز والمسيحيين الى اجتماع في صيدا • وانعقد الاجتماع في ٥ حزيران ، ووقف الكولونيل نياجر فألقى خطاباً شديداً للهجة موجهاً الى الشيعة وقرأ الاحكام القاسية التي صدرت عليهم حيث حكم بالاعدام على بعضهم وبالنفي المؤبد على آخرين منهم ، وكان من بين المنفيين عبدالحسين شرف الدين وكامل الاسعد وراشد عسيران ومحمد سعيد البري • وقال نياجر في ختام خطابه ان الحكومة الفرنسية يسوءها الحكم على اعيان الشيعة بهذه الاحكام الصارمة ولكنهم هم الجناة على انفسهم •

ثم ذكر نياجر شروطاً قال ان الحملة لن تترك المنطقة الا بعد تنفيذها ، وهي : دفع غرامة قدرها مائة ألف جنيه مصري ، واعادة المنهوبات الى أهلها ، واعطاء تعهد خطي بالمحافظة على المسيحيين ، وتسليم الاسلحة ، وتسليم المجرمين ، وتحمل المسؤولية عن كل حادثة جديدة • فوافق الشيعة على هذه الشروط ما عدا الاخير منها حيث قالوا بأنهم لا يستطيعون ان يتحملوا المسؤولية عن كل حادثة جديدة لانهم غير قادرين ان يكونوا في كل مكان في وقت واحد ، غير أنهم تعهدوا أن يبذلوا جهدهم بكل قواهم لمنع الحوادث •

وقد تألفت لجنة لجمع الغرامة المفروضة • واستغل أعضاء اللجنة الفرصة فأخذوا يجمعون لانفسهم أكثر مما جمعوه للمتضررين • يقول أمين الريحاني نقلاً عن بعض المطلعين : ان أعضاء اللجنة جبوا بمهارتهم ٤٨٥ ألف ليرة ، فدفنوا للمتضررين ٥٠ ألف ليرة ، ووضعوا الباقي في جيوبهم (١٢٣) •

وعلى أي حال فقد حل البؤس والخراب بجبل عامل على أثر تلك الواقعة • واضطر الكثير من العاملين الى بيع ما يملكون من أجل دفع

(١٢٣) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٢٨ •

الغرامه • وقد حاول آتلك فيصل النخيف عنهم فأرسل احتجاجاً الى الجنرال غورو ، كما أرسل الى لويد جورج يطلب منه التوسط باسم الإنسانية ، وأشار الى ان تسليح الفرنسيين للمسيحيين يؤدي الى تعصب ديني ويقضي على جهوده الرابعه الى ايجاد قومية اسلامية مسيحية موحدة (١٢٤) •

انذار غورو :

في ١٠ تموز ١٩٢٠ حدثت في بيروت حادثة أدت الى غضب غورو وازدياد حنقه على حكومة دمشق ، خلاصتها أن أسخاخاً حاؤوا من دمشق واتصلوا سرّاً ببعض أعضاء مجلس ادارة لبنان ، وقدموا لهم رشوة كبيرة قدرتها المصادر الفرنسية بانين وأربعين ألف جنيه ، ونمكنوا بهذه الرشوة أن يفنعوا سبعة أعضاء مهمم بحيث جعلوهم يوقعون على عريضة يطالبون فيها باستئلال لبنان وباقامة تعاون اقتصادي بينه وبين حكومة دمشق • وقد قرر هؤلاء الاعضاء السبعة أن يسافروا الى باريس لتقسيديم العريضة الى مؤتمر الصلح ، ولكن السلطة الفرنسيه كانت على علم مسبق بما قرروه عن طريق جاسوس كان مدموساً بينهم ، فألقت القبض عليهم عندما كانوا يغادرون بيروت ، ثم حكمت عليهم بالنفي وبغرامة جسيمة •

كان فيصل في ذلك الحين ينوي السفر الى فرنسا لاعادة النظر في المعاهدة ، وقد أرسل نوري السعيد الى بيروت لمفاتيحة غورو في أمر هذا السفر • وصادف وصول نوري السعيد الى بيروت في نفس الوقت الذي تم فيه لقاء القبض على الاعضاء السبعة • ولما بدأ نوري الكلام مع غورو قال له غورو : ان لديه بعض المطالبات لتقدمها الى فيصل ، وانه لن يوافق على سفر فيصل الا اذا قبل بتلك المطالبات • ثم قدم غورو خلاصة لتلك

(١٢٤) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ١٩٣ •

المطالب وهي : (١) وضع سكة حديد رفاق حلب تحت تصرف الجيش الفرنسي ، (٢) إلغاء التجنيد الاجباري وتسريح المجندين ، (٣) قبول الانتداب الفرنسي بلا قيد او شرط ، (٤) معاقبة المتهمين بمعاداة فرنسا ، (٥) قبول أوراق النقد التي أصدرها الفرنسيون .

عاد نوري السعيد الى الملك فيصل يخبره بالامر ، وفي ١٤ تموز وصل الى دمشق الكولونيل نياجر وهو يحمل أنذاراً رسمياً يتضمن تلك المطالب الخمسة ومعها مهلة أمدها أربعة ايام تنتهي في ليلة ١٨-١٩ تموز ، فاذا لم تقبل المطالب خلال تلك المهلة فان الحكومة الفرنسية ستكون مطلقة التصرف في عملها تجاه حكومة فيصل .

كان لانذار غورو وقع شديد على فيصل ووزرائه ، واجتمعوا يتدارسون الموقف للنظر في حل له وكيف الخروج منه ، وكان الوجود سائداً عليهم جميعاً ماعدا يوسف العظمة اذ كان متفائلاً . يقول ساطع الحصري : « كان يوسف العظمة يعمل بنشاط ، ويظهر تفاؤلاً كبيراً في جميع الاعمال ، حتى أنه اراد ان يشرع باصدار بلاغات رسمية عن الحركات العسكرية ، غير اننا اعترضنا عليه وأوصيناه بالترث لكيلا يظهر للعالم بأننا نحن البادئون بالعدوان ... » (١٢٥) .

أستدعي ياسين الهاشمي للاستفادة من خبرته العسكرية وعُين قائداً لجبهة مجدل عنجر التي كانت أهم الجبهات لوقوعها في طريق دمشق بيروت . يقول الحصري انه زار الهاشمي في بيته فقال الهاشمي له بصراحة تامة وبلهجة الحازم المتأكد : « ان الجيش الموجود لا يستطيع أن يدافع عن البلاد ... انه لا يستطيع أن يصمد أمام العدو أكثر من ساعتين على أعظم تقدير » . وأضاف الهاشمي الى ذلك يقول : « ان المدافع التي مرت

(١٢٥) ساطع الحصري (المصدر السابق) - ص ١٢١ .

أمامكم في الاستعراضات ليس لها الا عدد قليل جداً من القذائف ، وهي لا تكفي لحرب تستمر أكثر من ساعة واحدة • واستطيع ان اقول ان الجيش اذا اشتبك في حرب نظامية يبقى بعد ساعتين بلا عتاد » (١٢٦) •

خرج الحصري من بيت الهاشمي وهو في اضطراب وحيرة شديدة ، وذهب الى الوزراء واخبرهم بما سمع من الهاشمي • وكان الملك قد بلغه رأي الهاشمي فاستدعى اليه الوزراء ، وتم عقد جلسة منهم بحضوره ، وبدأوا يتدارسون الوضع العسكري في ضوء ما ابداه الهاشمي • وحين سأل الوزراء يوسف العظمة عن مقدار الاسلحة والاعتدة المتوفرة لدى الجيش أجابهم : « لدى الجيش من العتاد ما يكفي لمقاومة الفرنسيين مدة من الزمن وربما لدحرهم على اعقابهم اذا أداروا ظهورهم في أول ملحمة » • ولما طلب الوزراء منه تقديم بيان خطي بذلك أجابهم غاضباً : « الاتقون بكلامي وأنا زميلكم المسؤول عن امور الجيش » (١٢٧) •

استدعى الملك فيصل كبار القادة العسكريين لابتداء رأيهم في الامر • وفي الساعة الثالثة من عصر ١٦ تموز حضر القادة كما حضر الهاشمي ، وأخذوا يدلون بآرائهم كل بأسلوبه وحسب اجتهاده • فالح الملك عليهم أن يقدموا رأياً موحداً حاسماً • فانسحب القادة الى غرفة جانبية واختلوا فيها ، ثم خرجوا بعد قليل وهم يحملون رأياً موحداً خلاصته : أنه اذا كانت الحرب غير جدية فان في مقدور الجيش ان يقاوم بضع ساعات ، اما اذا حمى وطيس القتال فان مقاومة الجيش لا تسدوم أكثر من خمس دقائق (١٢٨) •

(١٢٦) المصدر السابق - ص ١٢٢ •

(١٢٧) يوسف الحكيم (المصدر السابق - ص ١٨١ •

(١٢٨) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج ٢ ، ص ١٨٠ •

وعند هذا التفت الملك نحو الهاشمي يسأله عن رأيه ، فتكلم الهاشمي موجهاً انتقاده الى يوسف العظمة وأبدى رأيه بأن الحرب لا ضرورة لها ، ثم قال : لو كان في الامكان صد الفرنسيين على خط دمشق فما العمل لو انقضت على الجيش العربي الفرقة الفرنسية من حلب . فاعترض عليه بعض القادة بقولهم : « المسألة مسألة شرف يا باشا » . فرد عليهم : « الشرف يعود للوزراء لا للجنود » (١٢٩) .

انتهى الاجتماع بلا نتيجة حاسمة ، و اراد الملك أن يقف على رأي الانكليز قبل أن يبت في الامر ، فأرسل نوري السعيد وعادل أرسلان الى حيفا لاستشارة الجنرال اللنبي . فعاد الرجلان من حيفا يقولان بأن اللنبي أشار عليهما بقبول الانذار سريعاً بلا تردد ، وقد كتب اللنبي الى فيصل كتاباً أصر فيه على ضرورة قبول الانذار وذلك تفويهاً للغرض الذي كان غورو يسعى اليه وهو دخول دمشق دخول الغزاة الفاتحين (١٣٠) .

استقر رأي الملك ووزرائه على قبول الانذار ، ولكن مشكلة أخرى كانت تواجههم هي أن الجنرال غورو ألمح في كتابه المرفق بالانذار الى ضرورة تبديل الوزارة اذ وصفها بأنها كانت قد بذلت جهدها في جر البلاد الى الحرب وأن بقاءها في الحكم ينطوي على معنى العداء لفرنسا .

وقد اتجه فكر الملك وبعض وزرائه الى تكليف رضا الركابي بتأليف وزارة جديدة ، ولكن الركابي حين حضر أبدى اعتذاره وقال موجهاً كلامه للملك : « طاماً قلت لك يا سيدي أن هؤلاء الاولاد سيهورونا وعليهم أن يتحملوا تبعه ما بدأوه » . وكان الركابي يشير بنظراته الى يوسف العظمة (١٣١) .

(١٢٩) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ١٩ نيسان ١٩٣٠ .
(١٣٠) احسان الهندي (معركة ميلسون) - دمشق ١٩٦٧ - ص ٥٥ .
(١٣١) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ٢٠١ .

وبعد أن يشن الملك من الركابي بتأليف الوزارة اتجه نحو ياسين الهاشمي ، ولكن الهاشمي اعتذر ايضا . وحدثت آنذاك مشادة عنيفة بين يوسف العظمة والهاشمي . فقد كان يوسف العظمة يفسر موقف الهاشمي بالغيرة منه (١٣٢) . وأخذ يوجه الى الهاشمي كلاماً قاسياً حيث قال له : « أنت يا باشا بلبلت الافكار وفضحت أسرار الجيش بما نقلته الى بعض الوزراء عن عتاده ، مع أنك أنت المسؤول عن تموينه فلا يليق بك التهرب من الحكم بعد أن أوصلتنا ببياناتك الى الازمة الحاضرة » . فرد عليه الهاشمي قائلاً : « اني أوقفت الوزارة على حقيقة ميرة الجيش لكي لا تتخذ بأقوالك وتسوق البلاد الى حرب لا أمل لها في كسبها . أما مسؤولية التقصير فتقع على عاتق الذين خلفوني في رئاسة الميرة وتولوا شؤون الدفاع » . وهنا تدخل الملك وقال موجهاً كلامه الى الهاشمي : « ولكنك يا ياسين كنت رئيساً للميرة مدة عشرة أشهر ، فلماذا لم تعمل على تدارك الاسلحة اللازمة ؟! » (١٣٣) .

وهنا تقدم يوسف العظمة بحماسة المعروفة وأدى التحية العسكرية للملك وقال : « اني مستعد يا صاحب الجلالة للدفاع عن الوطن بكل قواي حتى النفس الاخير اذا أوليتموني ثقكم » . فشكره الملك ودعا له بالتوفيق وعينه نائباً للقائد العام للقوات المسلحة أي نائباً للملك الذي هو القائد العام (١٣٤) .

وعاد يوسف العظمة الى الكلام فخطب الهاشمي قائلاً : « يا باشا تريد ان تجعلنا سلماً حتى تصعد علينا ثم تكون رئيس الوزراء » .

(١٣٢) أحمد قدرى (المصدر السابق - ص ٢٤٠) .

(١٣٣) يوسف الحكيم (المصدر السابق) - ص ١٩٢ .

(١٣٤) المصدر السابق - ص ١٩٣ .

فرد عليه الهاشمي بشدة قائلاً : « اذا احتجتُ الى سلم فاني أبحث عن سلم متين » (١٣٥) .

عاد الملك ووزرائه بعد ذلك الى المداولة في أمر الانذار فقر قرارهم بالاجماع على قبوله ، ووقع الملك برقية بهذا المعنى وسلمها الى الكولونيل تولا معاون ضابط الارتباط الفرنسي ، فأبرق تولا بها الى الجنرال غورو .

انتفاضة الجماهير .

في الوقت الذي كان فيه المسؤولون يتدارسون الموقف على النحو الذي ذكرناه آنفاً ، كانت الجماهير ومعها المؤتمر السوري في هياج شديد ، وخرجت المظاهرات الى الشارع وهي تنادي : « الى الحرب الى الحرب ! » وأصبح الملك فيصل بين هؤلاء واولئك في مأزق عجيب ! .

في ١٥ تموز - أي في اليوم التالي لورود الانذار - عقد المؤتمر السوري جلسة للنظر في الامر ، وكانت جلسة حماسية تعاقب فيها الخطباء واحداً بعد الآخر وكلهم ينادون بالحرب ويوجهون التقرير الى الوزارة الاتاسية متهمين اياها بالضعف والميل الى الاستسلام . وكانت الجماهير في أثناء ذلك قد احاطوا بمقر المؤتمر وهم يهتفون له ، واندفع أفراد منهم فافتحموا الابواب ودخلوا الى القاعة صارخين يطالبون بالحرب . وعند هذا تقدم خمسة واربعون من أعضاء المؤتمر باقتراح مفاده أن المؤتمر السوري الذي هو منزل للامة السورية لايعترف بأية معاهدة او اتفاقية تتعلق بمصير البلاد ما لم يصادق عليها المؤتمر . وقد وافق المؤتمر على هذا الاقتراح وقرروا نشره على الجمهور .

استدعى الملك فيصل أعضاء المؤتمر الى اجتماع في حديقة قصره في الساعة الرابعة والنصف من عصر ١٧ تموز ، وقد نصب سرادق في الحديقة

(١٣٥) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ١٩ نيسان ١٩٣٠ .

لهذا الغرض ، وحين وصل الاعضاء قابلهم الملك بشاشسة وأخذ يحاول اقناعهم حيث شرح لهم كيف أن الجيش السوري لا يكفي للدفاع تجاه القوات الفرنسية المجهزة بأحدث الآلات الحربية ، وذكر أن الواجب يقضي عليهم بمعالجة الامور بالتؤدة والحكمة عن طريق المفاوضات السلمية مع الجنرال غورو . وقد كان بين الحاضرين فريق كبير يميلون الى مثل رأي الملك في المسألة ولكنهم لم يجرأوا على الجهر برأيهم وظلوا ساكتين ، فأخذ المتحمسون زمام الكلام وصاروا يجادلون الملك بقوة ، وخاطبه أحدهم بلهجة شديدة غير أن الملك كتم غيظه ولم يرد عليه .

وفي ختام الاجتماع عندما يشس الملك من اقناعهم قدم لهم اقتراحا ظنه نافعا هو أن يكتب كل واحد منهم عند عودته الى بيته مكتوباً خاصا يبدى فيه رأيه كما هو معتقد به أمام الله ، ثم يرسله الى الملك . ووعدهم الملك أنه سيعمل حسبما تؤدي اليه اكثرية الآراء التي تصله (١٣٦) . لقد كان الملك يظن ان الآراء التي تُعطى بهذه الصورة سوف تكون واقعية لا يؤثر فيها ايحاء او ارهاب (١٣٧) . ولكن اعضاء المؤتمر أدركوا ما ينطوي عليه اقتراح الملك من خطورة ، فتفاهموا فيما بينهم على رفضه .

وفي صباح اليوم التالي - أي ١٨ تموز - عقد المؤتمر السوري جلسة فوق العادة ، وجاءت المظاهرات اليه ، وكان المتظاهرون يحملون الخناجر والسيوف وينشدون الاناشيد الحماسية ، ثم صاروا يهتفون بسقوط الجبناء ذوي النفوس الضعيفة . وفي عصر ذلك اليوم عقد المؤتمر جلسة أخرى قرر فيها استدعاء الوزارة الاناسية للاستفسار منها عن الخطة التي قررت السير عليها في مواجهة الانذار الذي كان أمده ينتهي في منتصف تلك الليلة (١٣٨) .

(١٣٦) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) - ج ٣ ص ٢٤٦ .

(١٣٧) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج ٢ ص ١٨٥ .

(١٣٨) رفيق التميمي (الايام السود) - بغداد ١٩٣٣ - ص ١٣ .

وفي صباح ١٩ تموز انتشر بين الناس خبر قبول الوزارة للانذار ،
فانتفضت دمشق لهذا الخبر ، واحتشد الالوف منهم في ساحة المرجة
يحتفون ، وقام الشيخ كمال القصاب خطيباً فحرضهم على امتشاق الحسام
للذود عن الوطن المهدد وندد برجال الحكومة وهددهم . وأخذ الخطباء
بتعاقبون واحداً بعد الآخر يحثون الناس على المقاومة مهما كلفهم
الامر (١٣٩) .

وفي الوقت نفسه عقد المؤتمر السوري جلسة لمواجهة الوزارة
والاستسار منها عن خطتها . ولكن رئيس المؤتمر الشيخ رشيد رضا أعلن
أن رئيس الوزارة ابلغه بعدم قدرتها على الحضور امام المؤتمر لانها في
انتظار عودة الرسول الذي ذهب الى بيروت للمفاوضة . وهنا قام أحد
الاعضاء وتقدم باقتراح مفاده : أن الحكومة تصبح غير شرعية في حالة
تصديقها على صك يخالف قرار المؤتمر ، وان الوزراء يتحملون تبعة ذلك
تجاه الوطن . وقد وافق أعضاء المؤتمر بالاجماع على هذا الاقتراح وأوعزوا
بطبعه ونشره في جريدة « العاصمة » ، كما اختاروا من بينهم وقدأ برئاسة
رشيد رضا لمقابلة الملك وتقديم الاقتراح اليه .

تصاعد الانتفاضة :

بما كانت الجماهير والمؤتمر السوري في أوج الحماس وصلت برقية
من غورو يقول فيها أنه لا يكتفي بقبول الانذار بل يريد تنفيذ شروطه حالاً ،
وهو يمدد مهلة الانذار يومين آخرين حيث تنتهي في منتصف ليلة ٢٠-٢١
تموز .

كانت تلك صدمة جديدة للملك ووزرائه . وفي مساء ذلك اليوم بينما
كان الملك غارقاً في حيرته لا يدري ماذا يصنع جاءه طلب من وفد المؤتمر

(١٣٩) المصدر السابق - ص ١٤ .

يريدون مقابلته • ولما أذن لهم ودخلوا عليه جرت بينه وبينهم مناقشة
حادة ، ولم يملك الملك أعصابه فقال لهم غاضباً : « من أتم ••؟ أنا خلقت
سوريا •••! » • فرد عليه رشيد رضا قائلاً : « أنت خلقت سوريا !؟ لقد
خلقت سوريا قبل أن تُخلق أنت ! » (١٤٠) •

قرر الملك تعطيل جلسات المؤتمر السوري لمدة شهرين • وفي صباح
اليوم التالي ذهب وزير الحربية يوسف العظمة الى المؤتمر وقرأ عليه
قرار التعطيل ، فحاول بعض الاعضاء الصعود على منصة الخطابة للاحتجاج
على ذلك ، ولكن وزير الحربية صرخ بهم مهدداً وأشار اليهم بالانصراف ،
فانصرفوا (١٤١) •

وفي عصر ٢٠ تموز اجتمع الوزراء بحضور الملك وقرروا الاستجابة
لانذار غورو الاخير اى تنفيذ شروطه حالا بما فيها تسريح الجيش • وتسلم
الكولونيل تولا القرار ثم أبرق به الى الجنرال غورو في الساعة السابعة
والنصف مساءً •

لم يكد الخبر ينتشر بين الناس في صباح اليوم التالي حتى انطلقت
المظاهرات في الشوارع وهي تنادى بالويل والنبور ، وكان على رأسها
الشيخ كامل القصاب • وأخذ فريق من المتظاهرين يهتفون بسقوط
الوزارة وباحتالها الى المحكمة العليا بتهمة الخيانة الوطنية (١٤٢) ، كما أخذ
فريق آخر يهتف ضد الملك مطالباً بسقوطه مع الوزارة (١٤٣) • وانتشرت
في بعض الاوساط فكرة تنحية الملك فيصل ومبايعة الامير زيد مكانه (١٤٤) •
ووقعت آنذاك مذبحة قرب قلعة دمشق كان سببها أن بعض الجنود

(١٤٠) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ٢٠٢ •

(١٤١) احسان الهندي (المصدر السابق) - ص ٥٨ - ٥٩ •

(١٤٢) المصدر السابق - ص ٥٩ •

(١٤٣) ساطع الحصري (المصدر السابق) - ص ١٢٧ •

(١٤٤) يوسف الحكيم (المصدر السابق) - ص ١٩٣ •

الذين سرحوا من الجيش انطلقوا بتحريض من بعض زعماء الاحزاب يريدون الهجوم على القلعة والاستيلاء على السلاح المخزون فيها من أجل الدفاع عن الوطن ، وكان في مقدمتهم عثمان قاسم من أعضاء « العربية الفتاة » اذ كان يطلق الرصاص من مسدسه في الهواء تشجيعاً لهم (١٤٥) . وقد انضم اليهم الكثير من الرعاع فكسروا أبواب السجن في القلعة ، وبدأ النهب ينتشر في الاسواق القريبة . وأسرع الامير زيد ومعه مدير الامن طه الهاشمي على رأس قوة مسلحة بالرشاشات ، فأطلقوا النار على المتظاهرين ، فسقط منهم عدد كبير من القتلى والجرحى (١٤٦) .

ويحدثنا طه الهاشمي في مذكراته عن تلك الواقعة فيقول ما نصه :
« ... خرج عدة جنود من ثكنة البرامكة شاهرين السلاح بدعوى ان الحكومة استسلمت للفرنسيين . مرّوا بشارع النصر ومروا بحرس الموقع فبدلاً من أن يصدوهم عن عملهم التحقوا بهم . شوقهم المشاغبون فزاد التجمهر . هجموا على القلعة . دافع الدرك . هجموا على مستودع السلاح . صادروه وأخرجوا المساجين . بدأ اطلاق الرصاص في البلدة واستمر الى منتصف الليل . نهبت بعض الدكاكين . قُتل ٢٥ وجُرح ٣٥ شخصاً » (١٤٧) .

وبينما كانت هذه المظاهرة الدامية تجري قرب القلعة كانت هناك مظاهرة أخرى تقترب من قصر الملك هاتفة هائجة ، وتقدم وفد منها يمثل الاحزاب الوطنية طالباً مقابلة الملك . وكان الملك في تلك الساعة لايزال مجتمعاً مع وزرائه عقب الانتهاء من قبول ائذار غورو الاخير . فازن الملك

(١٤٥) أحمد قدرى (المصدر السابق) - ص ٢٤٨ .
(١٤٦) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٥٦٣ .
(١٤٧) خلدون ساطع الحصري (مذكرات طه الهاشمي) - بيروت ١٩٦٧ - ج ١ ص ٦١ - ٦٢ .

للفد بمقابلته وانسحب الوزراء الى غرفة مجاورة • وكانت مقابلة الوفد للملك
لا تخلو من غلظة وجرأة مما أثار غضب الملك بحيث لم يستطع السيطرة على
أعصابه •

اختلفت الروايات في وصف تلك المقابلة وما جرى فيها • يقول
يوسف الحكيم - وهو كان من جملة الوزراء الذين انسحبوا الى الغرفة
المجاورة - ان أحد أعضاء الوفد دفعته الحماقة الى مخاطبة الملك بقوله :
« يا صاحب الجلالة ، ان الامة لن ترضى عن التفاهم مع الفرنسيين
وستحاسب المسؤولين عنه حساباً قاسياً » ، فغضب الملك من هذا القول وقال
بصوت عالي سمعه الوزراء في الغرفة المجاورة : « أنا لا أهدد ! أنا أقدر
منكم على خدمة بلادي التي هي بلادكم ! أتريدون الحرب مع دولة قوية
وليس لديكم قوة تقف في وجهها » (١٤٨) •

وهناك رواية أخرى يرويها خير الدين الزركلي هي ان الوفد ألح
للملك بوجوب مغادرة البلاد ، فصرخ الملك في وجوههم قائلاً : « لقد دخلت
البلاد فاتحاً ولن أخرج منها الا بالقوة • فاذا كانت لديكم القوة الكافية
لاخراجي افعلوا ذلك ، ودمي ودماءكم في الشارع » (١٤٩) •

وعلى أثر مغادرة الوفد للقصر بلغ الملك ان المتظاهرين قادمون نحو
القصر وهم يهتفون بسقوطه • فأبدى اشارة خفية الى كبير حجابيه ، وهو
رجل حجازي أسود اللون ، فأسرعت ثلة من فرسان البدو يبلغ عددهم
المائتين بالخروج الى الشارع ، وأخذوا يصنولون ويحولون على طول
الشارع الكبير الممتد بين القصر وساحة المرجة وهم يهزجون (١٥٠) •

(١٤٨) يوسف الحكيم (المصدر السابق) - ص ١٩٣ •

(١٤٩) نقلا عن : أنيس صائغ (الهاشميون والثورة العربية الكبرى) -
بيروت ١٩٦٦ - ص ١٥٣ •

(١٥٠) يوسف الحكيم (المصدر السابق) - ص ١٩٣ - ١٩٤ •

يقول ساطع الحصري : « بقينا في القصر الى ما بعد منتصف الليل
نسمى لتهدئة أعصاب الملك من جهة ، واتخاذ التدابير اللازمة لتسكين هياج
الجماهير من جهة أخرى . ولم أعد الى الدار الا قبل الفجر . واستلقيت
على الفراش وأنا في غابة التعب » (١٥١) .

التحول الى الحرب :

أصبحت دمشق في ٢١ تموز هادئة بعد تلك الليلة الليلاء التي قضتها ،
ولكن سرعان ما ورد خبر مفاجيء الى الملك هو أن القوات الفرنسية تزحف
باتجاه دمشق . فذهل الملك من ذلك واستدعى اليه ضابط الارتباط
الفرنسي الكولونيل كوس ليستفسر منه عن جلية الخبر . وأظهر كوس
حيرة شديدة ووعد بالسفر حالا للتحقيق في الامر . ثم أنطلق خارجاً .
وفي عصر ذلك اليوم عاد كوس ليقول ان سبب زحف القوات الفرنسية هو
أن برقية قبول الانذار التي أرسلها الملك بالامس لم تصل الى الجنرال
غورو في الوقت المحدد بل تأخرت نصف ساعة من جراء قطع العصابات
خطوط اتلغراف . واقترح كوس ايفاد أحد الوزراء الى غورو للتفاهم
معه .

وقع الاختيار على ساطع الحصري للسفر الى عالية للتفاهم مع غورو .
وركب الحصري سيارة مكشوفة يصحبه مرافق الملك جميل الاششي
والكولونيل تولا . وكان الطريق مزدحماً بالسيارات وقوافل البغال والاباعر
وبقطعات الجنود . ولم يصل الحصري الى عالية الا في صباح اليوم التالي
- أي في ٢٢ تموز - وقد جرت بينه وبين غورو محاوراة طويلة ، وتبين
للحصري أن غورو مصمم على احتلال سوريا بأية حجة وعلى أي حال .
فقد قال غورو للحصري : « اننا لم نجد تشق بكم . . . ومن واجبنا أن نطلب

(١٥١) ساطع الحصري (المصدر السابق) - ص ١٢٧ .

منكم ضمانات جديدة * ، ثم أخرج من ادراج مكتبه مذكرة تتضمن ضمانات ثمانية وبدأ يقرأها على الحصري * ولم يجد الحصري أمامه سوى أن يطلب من غورو تأجيل الزحف قليلا لكي يتمكن من العودة الى دمشق ومباحثة الملك بشأن الضمانات الجديدة * ولم يوافق غورو على التأجيل الا بعد تمنع وتردد *

وجد الحصري صعوبة في العودة الى دمشق بالسرعة المطلوبة ، ولعل المرئيين عرقلوا عودته لغاية في أنفسهم * ولم يصل الحصري الى دمشق ٧١ في ساعة متأخرة من الليل * وفي الصباح التالي عقد الوزراء اجتماعاً بحضور الملك للنظر فيما جاء به الحصري من أخبار * وبينما كان الوزراء مجتمعين وصل الكولونيل كوس ومعه برقية مستعجلة من غورو مؤرخة في الساعة العاشرة من صباح ٢٢ تموز يقول فيها ان القوات الفرنسية مضطرة لاعتبارات عسكرية أن تستمر في زحفها حتى تصل الى خان ميسلون * وهنا ادرك الملك ووزرائه أن ليس أمامهم سوى طريق الحرب *

وانطلقت صيحة الجرب في سوارع دمشق وساحاتها * واستدعى الملك الشيخ كادل القصاب وقال له : لقد قررنا الدفاع كما أردتم فأرنا همتك ونشاطك وجئنا بالقوى الوطنية التي تقول انها مستعدة للقتال * فأجابه القصاب قائلا : ما دمت قد قررت الدفاع فأنا أعدك بتجنيد عشرة آلاف رجل يحمل البندقية حتى المساء * ثم خرج القصاب يجوب محلات دمشق وينادي بالبدار الى الحرب * وبعد فترة قصيرة غاد القصاب وهو يحمل في ذيل جيبه كمية من خراطيش البنادق والمسدسات من انواع مختلفة ، وقدها الى الملك يقول : « اشتريت هذه الرصاصات من أحد الدكاكين في المدينة * من قال لكم انه ليس في البلاد ذخيرة ؟ » * فضحك ياسين الهاشمي الذي كان حاضراً وقال بمرارة : « أبمنل هذا العتاد وهؤلاء المتطوعين الذين يظنون الحرب كالمظاهرات والنزهات يمكننا أن نصيد

الجيش الفرنسي سيما وحسب العصابات تختلف عن الحرب
النظامية» (١٥٢) .

وذهب الملك الى الجامع الاموي فارتقى المنبر وخطب في الناس قائلاً :
« اردت أن أرد عنكم زحف جيش الاعداء باجابة مطالبهم فلم يرتدوا . فان
كتم في حاجة الى بلدكم فاخرجوا للدفاع عنه » (١٥٣) .

وأعدت ادارة السكك قطارات يتحرك واحد منها في كل ساعة لحمل
المتطوعين الى الجبهة في خان ميسلون . وتهافت المتطوعون الى القطار وهم
يحملون ما لديهم من بنادق او سيوف او مسدسات أو عصي ، كما تطوع
عدد من النساء لخدمة الجرحى ولبس بعضهن الملابس العسكرية وكانت في
طليعتهن الآنسة نازك العابد التي كانت برتبة رئيس فخري في الجيش
العربي .

يقول جميل بيهم : ان المتطوعين انضموا الى الجيش بدافع الحماس
والواجب الوطني غير أن اكثرهم كانوا لا يحسبون حساب الحرب وأهوالها ،
فكان يكفي أحدهم ان يتجهز بالبندقية لشعر اعتماداً على شجاعته بأنه
سيكون من الابطال . فهم كانوا يتصورون كأنهم في نزهة عسكرية مما
حمل بعضهم من المولعين بالنارجية لـ أن يصحبوها معهم الى تلك
النزهة (١٥٤) .

قرر يوسف العظمة الخروج بنفسه الى الجبهة . وذهب لتوديع
الوزراء ، وانتحى بساطع الحصري في زاوية من القاعة وكلمه بالتركية
قائلاً « أنا ذاهب ! اني اترك ليلي - يقصد ابنته - أمانة لديكم أرجوكم

(١٥٢) أحمد قدرى (المصدر السابق) - ص ٢٥٢ .

(١٥٣) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ٢٠٣ - ٢٠٤ .

(١٥٤) محمد جميل بيهم (المصدر السابق) - ص ١٦٧ .

لاتنسوها » • وتبين من كلامه أنه كان مصمماً على أن لا يعود من الجبهة
حيّاً •

وذهب يوسف العظمة لتوديع الملك ، وجرى بينهما حوار له مغزاه
البعيد نقله هنا بنصه عن أحمد قدرى الذى كان حاضراً الحوار :

يوسف : أتيت لتلقّي أوامر جلالتك •

فيصل : بارك الله فيك ، اذن أنت مسافر لميسلون ؟

يوسف : نعم يامولاي اذا كنتم لاتودون قبول الانذار الاخير •

فيصل : ولماذا كنت تصر على الدفاع بشدة ؟

يوسف : لانني لم أكن أعتقد بان الفرنسيين يتمكنون من دوس جميع
الحقوق الدولية والانسانية ويقدمون على احتلال دمشق ، وكنت أظاهر
بالمناورة للمقابلة بالمثل •

فيصل : وهل يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه
الذم •

يوسف : اذن فهل يأذن لي جلالة الملك بأن أموت ؟

فيصل : بعد أن انتهت الامور الى هذا الخد يجب ان نموت جميعاً
شرفاء ، وننقذ البلاد من حرب أهلية أيضاً •

يوسف : اذن فأنا أترك ابنتي الوحيدة ليلى لدى جلالتك^(١٥٥) •

معركة ميسلون :

بدأت المعركة في ميسلون حوالي الساعة الخامسة من صباح ٢٤
تموز واستمرت حتى الظهر ، ويُقدر عدد الذين اشتركوا فيها من العرب
بنحو ثلاثة آلاف ، بعضهم من الجنود النظاميين والباقي من المتطوعين • وهي
في الواقع لم تكن معركة ، بل كانت بالمذبحة أشبه • فقد كان لدى القوات
الفرنسية عشر طائرات والكثير من الدبابات والمدافع^(١٥٦) بينما لم يكن

(١٥٥) أحمد قدرى (المصدر السابق) - ص ٢٥٣ •

(١٥٦) احسان الهندي (المصدر السابق) - ص ٢٠٠ •

لدى العرب الا القليل من المدافع ولم يكن العتاد الذي وزع عليهم من عيار الاسلحة التي في أيديهم (١٥٧) .

أبدى العرب صموداً في القتال لا يستهان به • وقتل منهم أربعمائة رجل عدا الجرحى وتلك نسبة عالية في جيش مقاتل • وكان من بين القتلى عدد غير قليل من رجال الدين الذين اعتبروا القتال في مسيلون جهاداً في سبيل الله •

كان المفروض في يوسف العظمة بصفته وزيراً للجبرية أن يكون بعيداً عن ساحة القتال ، ولكنه آثر المشاركة الفعلية فيه لأنه كان يريد أن يموت • وفي الساعة العاشرة والنصف أصابته صلية رشاش من دبابة فرنسية فسقط على الارض يتخبط بدمائه •

أثبت هذا الرجل بموته أنه يختلف عن بعض الناس الذين يتحسسون عند الامان غير أنهم في ساعة الخطر يهربون او يستسلمون • ومن الجدير بالذكر هنا ان فيصل خصص فيما بعد راتباً شهرياً لابنة يوسف العظمة ، وظلت البنت تسلم الراتب باستمرار حتى وفاة فيصل في ١٩٣٣ • (١٥٨) .

عندما انتشر خبر مقتل يوسف العظمة بين الجنود انتشرت فيهم روح الهزيمة ، فبدأوا ينسحبون سريعا نحو دمشق • ومما يحز في النفس أن أهل القرى الواقعة بين مسيلون والمزة انثالوا على الجنود المنسحبين ينهاونهم •

دخل الجيش الفرنسي دمشق في الساعة الخامسة من عصر ٢٥ تموز، وكان في مقدمته قائد الجبهة الجنرال غوايه وهو راكب جواده • وكانت أسواق دمشق حينذاك مقفلة ، وقد وقف الناس على أرصفة الشوارع يرقبون مسيرة الجيش بصمت ووجوم • وفي ١ آب وصل غورو إلى

(١٥٧) زين نور الدين زين (المصدر السابق) - ص ٢٦٦ •

(١٥٨) ساطع الحصري (المصدر السابق) - ص ١٥٩ (حاشية) •

دمشق حيث دخلها في تموكب عظيم • ويقال انه توجه خالاً الى قبر صلاح الدين الايوبي • فوقف على القبر يقول : « يا صلاح الدين انت قلت لنا في ابان حروبك الصليبية انكم خرجتم من الشرق ولن تعودوا اليه وها أنا قد عدنا ، فانهض لمرانا هنا في سوريا » (١٥٩) •

أبدى بعض مشايخ البدو شيئاً من الخسة عقب المعركة • فأحدهم كان قد تسلم من خزينة الجيش العربي قبيل معركة ميسلون خمسمائة جنيه لكي يستعين بها على قتال الفرنسيين ، ولكنه لم يكد يلمح الجيش العربي مهزوماً حتى اتال هو وأتباعه على الجنود المنسحقين يسلبونهم سلاحهم ومتاعهم (١٦٠) وقد فعل مثل هذا نوري الشعلان شيخ مشايخ الرولة ، فهو قد تسلم من فيصل في شهر آب ١٩١٨ ثلاثين ألف ليرة ذهب (١٦١) ، ولكنه عند دخول غورو الى دمشق خرج لاستقباله وانضم الى موكبه مع رجاله ، وشوهد في الموكب وهو شاهر سيفه (١٦٢) •

طرد الملك :

كان الملك فيصل أثناء معركة ميسلون في مقر القيادة العسكرية في الهامة ، وحين علم بنتيجة المعركة انسحب هو وحاشيته الى الكسوة وهي محطة للسكة الحديدية تقع على بعد اثني عشر ميلاً الى الجنوب الشرقي من دمشق •

أرسل فيصل يستدعي الوزراء اليه في الكسوة ، فوصلوا كلهم ماعدا اثنين هما علاء الدين الدروبي وفارس الخوري ، كما وصل اليها نحو خمسين شخصاً من زعماء المظاهرات كالشيخ كامل القصاب وعثمان قاسم

(١٥٩) احسان الهندي (المصدر السابق) - ص ٢٠١ •

(١٦٠) المصدر السابق - ص ٢٠٩ •

(١٦١) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) - ص ٢٠١ •

(١٦٢) سليمان موسى (الحركة العربية) - ص ٦٥٨ •

وشكري القوتلي • واتخذ الجميع عربات القطار مسكناً لهم ، ولكن بعضهم لم يتحملوا البقاء في الكسوة فركبوا قطاراً كان على أهبة السفر الى درعا فحيثما ، وكان من بينهم عبدالرحمن الشهبندر وكامل القصاب •

كان المتوقع من فيصل في تلك الظروف ان يخرج من سوريا نهائيا ليعلم للعالم ما حل به من ظلم على يد فرنسا التي تدعي أنها أم الحرية وحقوق الانسان ، ولكن نيتل لم يفعل ذلك بل آثر أن يعود الى دمشق ليتفق مع الفرنسيين ويرضخ لارادتهم • يقول ساطع في وصف حالة الملك النفسية في الكسوة ما نصه :

« وصل الملك فيصل مع حاشيته بالسيارات مساءً قبل غروب الشمس ، وقد كان في حالة شاذة تختلف عن حالاته المعتادة اختلافاً كبيراً ، فجميع حركاته وسكناته كانت تدل على أنه في حالة تردد شديد وقلق عظيم • ولاح لي من تتبع هذه الحركات أنه كان مشغول اللب بشيء يميل الى اخفائه عنا • فقلت لنفسي : ربما كان لايزال يأمل في التفاهم مع الفرنسيين ويتتظر ورود بعض الاخبار التي تساعد على تحقيق هذا التفاهم • وقد تبين لي بعد قليل أن ظني كان مطابقاً للحقيقة والواقع • انه كان قد أوفد نوري السعيد لمقابلة الفرنسيين وأرجأ جميع قراراته الى حين وصول أخبار هذه المقابلة • ولهذا كان ينتظر هذه الاخبار بفارغ الصبر ، ويتجنب التكلم وابداء الرأي في أي موضوع كان » (١٦٣) •

في مساء ٢٥ تموز وصلت الى الملك برقية من نوري السعيد تبشره بحصول اتفاق هوقت مع الفرنسيين ، فتفاهل الملك بها واسترسل في تفائله استرسالا غريباً (١٦٤) • وفي اليوم التالي وردت اليه أخبار شفوية تؤيد مضمون البرقية ، فزاد ذلك من تفاؤله وقرر اقالة الوزارة الأناسية وتشكيل

(١٦٣) ساطع الحصري (المصدر السابق) - ص ١٦٤ - ١٦٥ •

(١٦٤) المصدر السابق - ص ١٦٥ •

وزارة جديدة من وزراء معروفين بتأييدهم للاثداب الفرنسي • وقد اوعز بتشكيل هذه الوزارة فعلاً ، فتألفت من علاء الدين الدروبي رئيساً ، وعبد الرحمن اليوسف رئيساً لمجلس الشورى ، وعطاء الايوبى وزيرا للداخلية ، وبديع المؤيد للمعارف ، وجميل الاشبي للحربية ، وجلال الدين زهدي للعدلية ، وفارس الخوري للمالية ، ويوسف الحكيم للنافعة •

عاد الملك الى دمشق فوصاها قبيلاً منتصف الليل • وكان لا يزال متفائلاً يظن ان الفرنسيين سيرحبون به ويرضون بالتعاون معه • ولكنه فوجئ في الصباح بأنهم لا يريدونه وانهم يعتبرونه المسؤول الاول عما جرى من اضطرابات دموية • وقد طلبوا منه بكل صلافة أن يغادر دمشق في خلال يومين ، ووضعوا تحت تصرفه قطاراً خاصاً لنقله الى درعا • ناحتج الملك على ذلك احتجاجاً شديداً دون أن يجد لاحتجاجه أي صدى • فاضطر الى ركوب القطار ، وقد تحرك القطار به في الساعة الخامسة من صباح ٢٨ تموز •

لم يكن في وداع الملك في محطة دمشق سوى عدد قليل من الناس ، وقد صحبه في القطار ساطع الحصري وعوني عبدالهادي واحسان الجابري وتحسين قدرى وأحمد قدرى • وحين وصلوا الى درعا اتخذوا عربات القطار مسكناً لهم على نحو ما فعلوا في الكسوة •

وجاء رؤساء العشائر الحورانية للترحيب بالملك ، وأخذ هو يحرضهم على حرب الفرنسيين فكان جوابهم له : انهم مستعدون لحرب الفرنسيين على شرط الحصول على تأييد من الانكليز (١٦٥) •

وفي اليوم التالي - أي في ٢٩ تموز - وصلت الى الملك برقية من علاء الدين الدروبي يسترحم منه أن يغادر درعا حفظاً لبلاد حوران من

(١٦٥) أحمد قدرى (المصدر السابق) - ص ٢٧٤ - ٢٧٥ •

المصائب والخراب • وفي الوقت نفسه ألقت طائرة فرنسية منشوراً موجهاً الى عشائر حوران يتضمن انذاراً لهم أمدته عشر ساعات بأن يكلفوا فيصل بمغادرة درعا ، واذا امتنع عن ذلك يجب ارجاع القطار به الى دمشق ، والا فان بلادهم ستصبح هدفاً للقنابل • فاضطر الملك الى مغادرة البلاد متوجهاً مع حاشيته الى حيفا •

بعد الطرد :

كان فيصل عند مغادرته سوريا في حالة نفسية وصحية سيئة للغاية • يقول ابراهيم نجار : « كان فيصل ضعيف البنية من صغره حتى أنهم كانوا يقولون عنه بأنه كان مصدوراً ، وكثيراً ماخشوا عليه هذا الداء • فلما صدم هذه الصدمة العنيفة الهائلة في دمشق أثرت في نفسه ورثته تأثيراً عظيماً جداً ، حتى أن الذي كان يرى فيصلاً بعد مبارحته العاصمة السورية كان يعتقد أنه ينظر الى تمثال من شمع • فلو أن طيباً فصدّه في كل عروقه لما نزلت منه نقطة دم ••• » (١٦٦) •

وصل فيصل الى حيفا في ١ آب ١٩٢٠ • يقول المندوب السامي في فلسطين السر هربرت صموئيل في مذكراته : « قررت أن استقبل فيصل على الاراضي الفلسطينية لا كلاجئ مغلوب على أمره بل كصديق محترم • ولذا أمرت فصيلة من الجند لاختذ التحية له في المحطة عند وصوله ثم تقدمت مع السر رونالد ستورز لاستقباله • وقد قيل لي بعد ذلك ان الملك فيصل بعد تلك الايام العصيبة التي مرت به لم يدر هل كان أولئك الجنود قد جاؤوا لالقاء القبض عليه أم لتكريمه • وحين علم بأنهم جاؤوا لاستقباله استقبالا عسكرياً زال القلق عنه » (١٦٧) •

(١٦٦) ابراهيم سليم نجار (المصدر السابق) - ص ٧٩ •
(167) Samuel (Memoirs) London 1945 - P. 158 - 159.

نزل فيصل في منزل المس نيوتن وهي سيدة بريطانية معروفة بعطفها على العرب • وأبرق الى أبيه في مكة يطلب منه مالا ليتمكن من السفر الى أوروبا ، فأرسل اليه الحسين حوالة على المصرف العثماني بخمسة وعشرين ألف جنيه •

وفي ٩ آب كتب فيصل من حيفا الى أبيه رسالة بخط يده يشرح له فيها أسباب الكارثة التي حلت به ويبرر عمله في فصل سوريا عن الحجاز ، حيث قال : اني كنت أعتقد ان الواجب يقضي علينا بالتساهل مع الدول بالنظر الى اطماعها وضعفنا ولكن الذي حال دون ذلك مبدأه - يقصد مبدأ والده الحسين - القائم على استقلال البلاد العربية من غير قيد أو شرط ، ومعارضة شبان العرب لكل تساهل ، وقد كان بالامكان الضرب على أيدي الاحزاب المعارضة ولكنني لم أقدم على ذلك خشية « اللوم التاريخي » ، وزاد الوضع سوءاً ان الاحزاب لم تكن تدرك حقيقة ضعف البلاد وقوة الاعداء ، ثم تأزم الوضع وحشد العدو قواته بينما الامة واقفة تنظر اليه بعينها وهي جامدة كأنها لاعلاقة لها بما يجري • والذي يوجب الاسف ان الامة قوالة غير فعالة ، فأهل البلاد لم يقفوا موقفاً ايجابياً من التجنيد الاجباري فكان الفارون من التجنيد أكثر من المتطوعين ، ولم يقبل الاهالي على دفع المال لصندوق الحكومة لكي تتمكن من العمل ، فكان الاقبال على دفع المال وعلى التجنيد بحكم العدم • ولهذا قبلنا بشروط غورو ولكن بعض الاحزاب المتهوسة قامت وحرضت الناس على الثورة في حين كان العدو يترصد بنا الدوائر • (١٦٨) •

زار صموئيل فيصل في منزل المس نيوتن وأبلغه برقية وصلته من وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزون يقول فيها : « ان بريطانيا تأمل أن

(١٦٨) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٥٦٧ - ٥٦٨ •

تلوح الفرصة في المستقبل كي تظهر له أن موقفه الودي تجاهها لن يُقابل بالسيان » •

كان صموئيل قد اقترح على فيصل العودة الى الحجاز ، ولكن فيصل أصر على السفر الى سويسرا لمراجعة عصبة الامم • وفي صباح ١٨ آب غادر حيفا بالقطار متجهاً الى مصر • وحين وصل الى محطة القنطرة الواقعة على ضفة قناة السويس لم يجد أحداً في استقباله من قبل الجنرال اللنبي أو الحكومة المصرية ، فاضطر ان يجلس على أمتعته في انتظار تحويل القطار علي نحو ما يفعل أي مسافر عادي (١٦٩) • وهناك جاء اليه عبدالملك الخطيب معتمد أبيه الحسين في مصر ، فأبلغه تعليمات أبيه ووصاياه ، كما أبلغه لوم أبيه على ما فعل في سوريا من فصلها عن الحجاز • فرد عليه فيصل قائلاً : انه مازال يرجو أن يتوصل الى ترتيب مع الفرنسيين (١٧٠) •

غادر فيصل بور سعيد في ٢٠ آب على باخرة تجارية قاصدا إيطاليا ، وكان معه نوري السعيد وساطع الحصري واحسان الجابري وتحسين قدري والامير زيد • فوصل الى نابولي في ٢٥ منه • ومن هناك سافر الى الشمال بغية الذهاب الى سويسرا • وحين وصل الى حدود سويسرا جاء اليه حداد باشا معتمد أبيه في لندن فأبلغه رسالة شفوية من لويد جورج يقول فيها : اني الآن في سويسرا مشغول باجتماعات مهمة ، وحضورك يربكني ، فأرجوك أن تبقى في إيطاليا • فاضطر فيصل الى البقاء في شمال إيطاليا حيث نزل في فندق قريب من بحيرة كومو •

مكث فيصل في إيطاليا زهاء ثلاثة أشهر ، وقد التحق به هناك عادل أرسلان ورياض الصلح ، وأخذ هو وحاشيته يبذل الجهود والاموال في سبيل عرض القضية السورية على الرأي العام الاوربي • ويقال إنهم دفعوا

(169) Storrs (Orientations) — London 1939 — P. 448.

(١٧٠) سليمان موسى (المصدر السابق) — ص ٥٧١ •

مائة ليرة ذهب الى موسوليني لكي يساند القضية السورية ، وكان موسوليني يومذاك صحافياً يصدر جريدة اسمها « شعب ايطاليا » (١٧١) .

وأخذ فيصل يسعى للاتصال بالأتراك بغية التعاون معهم ، فأوفد ساطع الحصري الى اسطنبول سرّاً لهذا الغرض . وقد بذل الحصري جهوداً كثيرة للتفاهم مع الكمالين دون جدوى (١٧٢) .

وبينما كان فيصل وحاشيته يبذلون جهودهم في كل ناحية لعلهم يجدون مخرجاً لوضعهم اليأس ، وصلت اليه في ١١ تشرين الثاني بريقة من اللورد كرزن تدعوه الى زيارة لندن ، فكانت تلك الدعوة له بمثابة الفرج بعد الشدة . وقد تم الاتفاق معه في لندن على تنصيبه ملكاً على العراق - كما ذكرناه في الجزء السادس من هذا الكتاب . ويدعي فيليبي استناداً على بعض الوثائق أن عرش العراق انما قُدم لفيصل كجزء من المكافأة على موافقته على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين (١٧٣) . ولا ندري مبلغ هذا الادعاء من الصحة ! .

رأي غريب :

للسحافي اللبناني اسكندر الرياشي رأي غريب في احداث سوريا التي سبقت معركة ميسلون ، وهو رأي يصعب علينا تصديقه انما هو على اي حال جدير بأن يطلع القاري عليه .

كان الرياشي حينذاك يعمل في الاستخبارات الفرنسية - كما اشرف هو بذلك . وهو يقول عن تلك الاحداث أنها كانت مؤامرة فرنسية وقد دُبرت بأموال فرنسية من أجل الاطاحة بفيصل . ويذكر الرياشي ان

(١٧١) اندرياو (المصدر السابق) - ص ٢٠ .

(١٧٢) ساطع الحصري (المصدر السابق) - ص ١٧٨ - ١٩٤ .

(١٧٣) جريدة (الاهرام) المصرية - في عددها الصادر في ١٨ حزيران ١٩٦٨ .

الفرنسيين كانوا في بدابة الامر قد عرصوا على فيصل رشوة كبيرة مقدارها نصف مليون ليرة ذهب ، كما عرضوا على صاحبه نوري السعيد مائة الف ليرة ، ولكنهما رفضا الرشوة . واضطر الفرنسيون أن يبحثوا في دمشق عن أشخاص مستعدين لقبض الرشوة من بين الرجال الذين كانوا يملكون زعامة الشارع ويحسمون الجماهير ، وأسرع هؤلاء ينادون بالحرب ويسرون رجل الشارع لوطنيته وكرامته ، فهبت على سوريا تحت تأثيرهم روح الاستشهاد والنداء ، وأخذت الحماسة تغطي على كل حساب ، حتى صار أكثر الناس تعقلا ينادون بالحرب متجاهلين ما كانوا يعرفونه من أن هذه الحرب ستنتهي بكارثة وان القائلين بها يحققون ما يتمناه الفرنسيون . ويقول الرياشي أيضاً ان فيصل وأعوانه كانوا يسعون حتى آخر ساعة لتجنب المعركة مع الفرنسيين وهم يعرفون حق المعرفة انها اذا وقعت فسوف يحسرونها لتفاوت القوى بين الجانبين تفاوتاً لايمكن تجاهله ، ولكن المؤامرة الفرنسية غلبتهم .

يقول الرياشي : « كنا في المكتب الثاني للقائد الفرنسي نراقب نجاح هذه المؤامرة على الشريف وعرشه وعلى استقلال سوريا ، ونعرف أنه سيضطر الى حشد جيوشه ومتطوعيه ، فيكون هو البادى المعتدى ويكون الفرنسيون في حالة الدفاع عن النفس ، يساعدهم على ذلك اولئك الساسة الذين ملأوا جيوبهم من ذلك الذهب الذى كان الجنرال لاموت قد أعده » .

ويصنف الرياشي الزعماء الذين أثاروا الجماهير في دمشق الى فريقين : فريق مخلص كان يدعو الى الحرب عن استشهاد وطني وفدائية مدهشة ، من أمثال يوسف العظمة ، ولكنهم كانوا قليلين بالنسبة الى الفريق الثاني الذى يعمل بالتواطوء مع الفرنسيين^(١٧٤) .

(١٧٤) اسكندر الرياشي (رؤساء لبنان كما عرفتهم) - ص ٢٧٢ - ٢٧٦ .

فجوة الشعب والحكومة :

كانت الفجوة بين الشعب والحكومة في سوريا في العهد العثماني كبيرة جداً على نحو ما كانت في جميع البلاد الشرقية • ولكن هذه الفجوة اختفت فجأة في بداية العهد الشريفى ، وهو العهد الذى اشتد فيه الحماس الشعبى وأخذ الحكام - وفي مقدمتهم فيصل - يحاولون التقسرب من الشعب والاختلاط به والاستماع الى صوته •

يجب أن لا ننسى ان تلك فترة لا يمكن ان تدوم طويلا ، ولا بد أن تعود الفجوة الى الظهور عاجلا أو آجلا • ان المرحلة الاجتماعية التى كان يعيش فيها الشعب السوري لا تسمح ببقاء تلك الفترة طويلا • فهناك عوامل كثيرة من شأنها بعث التذمر في أوساط الشعب تجاه الحكومة • وفيما يلي نذكر أهم تلك العوامل :

أولا : ان التجنيد الاجباري الذي فرضته الحكومة على المواطنين كان من أهم عوامل التذمر طبعاً • فقد كان الناس في العهد العثماني ينفرون من التجنيد نفرة لا حد لها ويحاولون الفرار منه بكل وسيلة تيسر لهم ، وكان أكبر أسباب فرحهم بزوال الحكم العثماني أنهم تخلصوا من بلاء التجنيد ، ولكنهم وجدوا بعد فترة قصيرة ان ذلك البلاء قد عاد اليهم من جديد • ليس من السهل على الناس ان يتحولوا من بغض التجنيد الى حبه بمجرد سماعهم للاناشيد والخطابات الحماسية •

يُروى أن مظاهرة جاءت الى قصر الملك فيصل وهي تنادي : « الى الحرب ، الى الحرب » • فأمر الملك مرافقه بأن يأخذ المتظاهرين الى الثكنة لتجنيدهم وتدريبهم على القتال ، غير أنهم لم يكادوا يسيرون في طريقهم نحو الثكنة حتى صاروا يتسللون الى بيوتهم • ولما وصل المرافق الى الثكنة لم يجد معه منهم سوى نفر محدود •

ثانية : لم تكد تمر مدة قصيرة على بداية الحكم الشريفى حتى بدأت المحسوبية ، والشفاعة والوساطة تلعب دورها في اختيار الموظفين على نحو ما اعتاد الناس عليه في العهد العثماني . وهذا أمر طبيعي في مجتمع تسوده قيم القبيلة والقراية والجيرة والشهامة وما أشبه ، يقول الشيخ رشيد رضا رئيس المؤتمر السوري : « . . . وما أبرئ الحكومة من عيب محاباة الكبراء وقبول شفاعتهم في طلاب وظائفها بدءاً وترقية ، وكان أكبر الضعف في الوزراء والرؤساء بازاء الملك فيصل وعشيرته والمقربين منه ، فان هؤلاء قد اعتادوا في عهد سلطتهم العسكرية المطلقة أن يتصرفوا في الاعمال والاموال بما شاؤوا وكيف شاؤوا ، فصعب عليهم بعد اعلان الاستقلال ان يتقيدوا بقانون ونظام ، ولم يكن للوزراء من الشجاعة الادبية والتكافل ما يؤهلهم لتقيدهم وتعويدهم الوقوف عند حدود سلطتهم الرسمية ، اذ كانوا هم قد اعتادوا في عهد الترك أن يميلوا مع أهواء الرؤساء والكبراء ، ومع هذا أمكن لحكومة الاستقلال ان تقيد الملك براتب محذود لم يكن راضياً به على كثرته ، وكان يستهلك راتب كل شهر في أوله وقبل بدء هلاله ، ويطلب من وزارة المالية سلفة بعد سلفة فلا ينال كل ما يطلب ولا أكثره بسهولة . وقد كان نفوذه في بعض الوزارات أقوى منه في غيرها . » (١٧٥)

ثالثة : كان الاعيان والوجهاء قبل تنصيب فيصل قد اعتادوا أن يقابلوه ويتحدثوا اليه متى وكيف يشاؤون ، وكان هو يزورهم في بيوتهم ويحادثهم كما يحادث الرجل أصحابه . فلما تم تنويجه عين احسان الجابري رئيساً للديوان الملكي بلسم « رئيس امناء الملك » ، وكان هذا الرجل موظفاً في البلاط العثماني سابقاً فشرع يعمل على تطبيق قواعد التشريعات السلطانية على بلاط الملك فيصل ، ووضع القيود على مقابلاته تنفيذاً للقاعدة الدستورية التي تجعل السلطة التنفيذية في يد الحكومة ، فحدث ذلك كثيراً من القيل

والقال (١٧٦) • فان من طبيعة البشر أن كل فرد منهم يحسب نفسه أولى بالتشريف من أقرانه ، ورأيه أفضل الآراء ، ولو سمح للناس جميعا بمقابلة الملك بلا قيود لاصيب الملك بالانهيار العصبي لكثرة الزحام عليه والصراخ من حوله • ولكنهم حين يُمنعون من مقابلة الملك يتدمرون • وهذا أمر يصدق على صغار المسؤولين كما يصدق على الملك •

رابعة : كان تعيين ساطع الحصري وزيراً للمعارف من أسباب التدمير في أوساط العامة ورجال الدين ، فهؤلاء كانوا يكثرون من الطعن على الحصري ويزعمون انه يريد اضعاف الدين في المدارس وتعويد البنات على التهلك • يقول الشيخ رشيد رضا : ان رجال الدين طالما راجعوه قبل اعلان الاستقلال وبعده متوسلين به الى السعي معهم لدى فيصل بعزله ، وكان هو ينصح لهم بالتأني لانه لا يحب ان يعود الاهالي على الافتيات على الحكومة ولا سيما الطامعون في مناصبها (١٧٧) •

خامسة : كان فيصل يعطف على العراقيين عطفاً خاصاً لان كثيرين منهم قاتلوا تحت رايته في الثورة العربية ، ولهذا عينهم في مختلف وظائف الدولة ومناصبها العالية • قيل ان مجموع العراقيين الذين كانوا في خدمة الحكومة آنذاك بلغ نحو اربعمائة موظف وضابط • وهذا لابد أن يؤدي الى انتشار التدمير بين السوريين ، ولا سيما الذين لم يحصلوا على الوظائف التي يطمحون اليها ، وصاروا ينادون بمبدأ « سوريا للسوريين » • يقول محمد كرد علي في كتابه « خطط الشام » : ان الناس في الشام تأففوا من السياسة التي سار عليها فيصل في الاعتماد على الغرباء - يقصد العراقيين - ونزع ثقته من أعيان البلاد ومفكريها ، وأخذوا ينصحون له سرّاً بالعدول عن هذه السياسة (١٧٨) •

(١٧٦) أحمد قدرى (المصدر السابق) - ص ١٨٨ •

(١٧٧) يوسف ابيش (المصدر السابق) - ص ٣٠١ •

(١٧٨) محمد كرد علي (خطط الشام) - دمشق ١٩٢٥ - ج ٣ - ص ١٧٠ •

ويذهب الى مثل هذا القول أحد العراقيين الذين كانوا في سوريا حينذاك حيث يقول ما نصه : « وما هو جدير بالذكر ان البعض ممن السوريين كانوا قد بوا في سوريا روح الامتعاض من العراقيين لاشغال بعض رجال العراق مناصب كبيرة في الحكومة السورية ، وكانت قد بلغت الوقاحة بهؤلاء المفسدين الى درجة جعلتهم يصرحون بوجوب تنحيسي العراقيين عن الوظائف في سوريا الامر الذي أوجب شيئا من التباغض والنفاق بين السوريين والعراقيين » (١٧٩) .

تقييم فيصل :

ان السياسة التي سار عليها فيصل أثناء حكمه في سوريا لقيت انتقادات شديدة من بعض الرجال الذين خالطوه وعرفوه . وفيما يليني نستعرض أقوال أربعة منهم هم : محمد كرد علي وجميل بيهم وعبدالرحمن الشهبندر وابراهيم سليم نجار :

(١) يقول محمد كرد علي عن فيصل : « انه لو أظهر حزمًا في معاملة المشاغبين لما وقعت ميسلون » (١٨٠)

(٢) يقول جميل بيهم : انه كان قليل الخبرة بالسياسة مترددا يتأثر بحاشيته ، ويداري الاحزاب ولو تطرفت ، ويتحاشى الرأي العام ، ولذلك فقد مشى مع التيار بدلا من ان يوجهه على ما يريد شأن الحاكم القوي . ثم يقارن جميل بيهم بين سياسة فيصل في سوريا وسياسته في العراق فيقول : « أما في العراق حيث كان الزمان قد علمه ما لم يعلم فانه كان على خلاف ذلك : كان ملكا حازماً موجهاً ، واذا اضطر لمباشاة الرأي العام فقد كان يلتزم السكينة عند اشتداد العاصفة ثم يمضي قدماً بعد سكونها غير مبال ولا

(١٧٩) محمد طاهر العمري (المصدر السابق) - ج ٣ ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .

(١٨٠) خيرية قاسمية (المصدر السابق) - ص ٢٦٤ .

متردد • وكان هناك يتمتع بهيبة قوية وبكلمة نافذة على الرغم من صلابه
عود العراقيين وقوة شكيمتهم ، وعلى الرغم من انهم قريبي الانفعال لا يرضون
بالموجود ، واذا غضبوا انتفضوا ، وجنحوا الى الثورة اذا استطاعوا اليها
سيلا ، (١٨١) •

(٣) يقول عبدالرحمن الشهبندر : « ولكن دعاية شنيعة بُشّت على
فيصل عند عودته من باريس ، فراجع من غير نظام لانه كان حديث العهد
بالشؤون السياسية والحملات المدبرة • ولو أنه وقف موقفاً ثابتاً ودافع عن
آرائه بمثل الطريقة المدبرة الحاذقة التي سلكها في العراق فيما بعد لوجد
من المعتدلين انصارا يؤيدونه ويقفون في وجه مناوئيه » (١٨٢) •

(٤) يقول ابراهيم سليم النجار : « فلقد ملأ المغرضون البلاد اشاعات
قبل وصوله بأن فيصلاً طمعاً بالعرش باع سوريا الى الفرنسيين (هكذا) •
وكان المتطرفون من السوريين ، وخصوصاً من أهل الشام ، هم الذين
اشاعوها ، فلم تسهل مهمة الرجل الذي كان رطب العود في السياسة •
والظاهر أنه خشي أن تؤثر هذه الاشاعات في سمعته ، فبدلاً من أن يضرب
بها عرض الحائط أو ينفىها بحزم وقوة ، وان يقنع السوريين بأن ما حصل
عليه هو أعظم ما كان في الامكان بلوغه وانه ليس في وسع أحد أن ينال
أعظم منه ، أخذ في خطبه يجهر بوطنيته ويغالي بالاستقلال الذي (يؤخذ
ولا يعطى) ، ويجاري المتطرفين ظناً منه أنه يقدر أن يرضيهم بهذه المجازاة
فأدخل بعضاً منهم في الحكومة اسكاتاً لهم مرغماً على هذا الادخال • ثم فكر
هؤلاء أنهم يقدرّون ان يضعوا فرنسا والدول أمام الامر الواقع فقرروا
اعلان ملكيته في ٩ آذار من تلك السنة دون أن يكون في الحوادث ما يوجب

(١٨١) محمد جميل بيهم (المصدر السابق) - ص ١٨١ •

(١٨٢) مجلة (المقتطف) - في عددها الصادر في تشرين الاول ١٩٣٣ •

أو بدعو الى اعلان هذه الملكية ، أو تستشار بها دولة من الدولتين الانكليزية أو الفرنسية » .

ويقول ابراهيم سليم النجار أيضاً : « لقد كان يجب على الامير فيصل في بدء سنة ١٩٢٠ أن يعرف جيداً ما يريد » فاما انه كان يريد حرب الاستقلال فيستعد لها استعداداً حقيقياً ينيله مراده منه ، واما أنه يريد العمل السلمي بالاتفاق مع الحكومة المنتدبة فيلجأ الى الحزم مع المتطرفين ، ويظهر بمظهر الحاكم الذي يعرف ما يريد ويعرف السيل الذي يسلكه للوصول اليه » .

وبقارن النجار بين ما فعله المتطرفون في سوريا وما أرادوا أن يفعلوه في شرقي الاردن عندها لجأوا اليه عقب معركة ميسلون ، فيقول انهم حاولوا دفع الامير عبدالله الى مثل ما دفعوا اليه أخاه فيصل من قبل ، ولكنه وقف تجاههم موقفاً حازماً ، وكان ذلك اكبر سبب في بقائه في عمان (١٨٣) .

* * *

اننا حين نفحص هذه الاقوال في ضوء ما نعرفه من طبيعة الانسان والمجتمع البشري نجد انهم نظروا الى جانب من الحقيقة وأهملوا الجانب الآخر . ان فيصل لو كان في سوريا صارماً عنيفاً تجاه الجماهير يضربهم بالرصاص ويسلط عليهم سيف الارهاب ، على نحو ما يفعل العتاة من رجال السياسة ، لصار لعنة في الافواه ، ولاتهمه الناس بالعمالة للاستعمار وخيانة الوطن ، ولرأينا هؤلاء الذين انتقدوه على لينة ينتقدونه على شدته ويلعنونه . وقد فطن فيصل الى ذلك حين قال في رسالته الى أبيه : « قد كان بالامكان الضرب على أيدي الاحزاب المعارضة ولكنني لم اقدم على ذلك خشية اللوم التاريخي » .

لقد فشل فيصل في سياسته ولكنه نجح من ناحية أخرى ، حيث صارت

(١٨٣) ابراهيم سليم نجار (المصدر السابق) - ص ٧٣ - ٧٥ .

فترة الستين التي حكم فيها سوريا فترة مضيئة في تاريخ سوريا الحديثة يلهمج السوريون بمناقبها ويتغنون بها • يقول سعيد الافغاني في ذكر تلك الفترة وهو قد ادركها في صباه •

« أما في حساب الزمن فقد كانت كالحلم الخاطف ، لم يعمر سوى ستين ، نعمت البلاد فيه بالسيادة والسعادة ، وعاشته ساعة ساعة ، بل لحظة لحظة • انه عهد احياء ونشور ، كان فيه الافراد والجماعات تتظافر في بناء حياة وبعث لغة وتأسيس كيان ، وأما في حساب النتائج والثمرات ، فما أُسس حينئذ بقي يعمل بقوة الدفع والاستمرار الى ايامنا هذه ، وما نزال في خير تلك الدفعة من النهضة ، نتقدم على رغم ما عرا السير من توقف حينا ونكسة حينا • ولقد كان من قوة هذه الانطلاقة أن تأبّت على الحديد والنار وكل ما تمخض عنه الخبث الاستعماري الفرنسي من خطط مأكرة حلوة المظهر فتاكة المخبر مدة خمسة وعشرين سنة من الاحتلال العسكري ... » (١٨٤) •

لأنكر ان فيصل أخطأ خطأ فظيلاً حين حاول الرضوخ للفرنسيين عقب معركة ميسلون ، فقد كانت تلك نقطة سوداء في تاريخه ، وكان الاخرى به أن يتجنب الوقوع في ذلك الخطأ لكي يخرج من سوريا مرفوع الجبين كما يفعل الابطال الاباة • ان يوسف العظمة كان أفضل منه اذ هو آثر أن يموت شهيداً بدلا من تحمل الالهانة ، وضرب بذلك مثلاً عالياً تذكره له الاجيال القادمة •

ان التاريخ لا يحركه العتاة السفاكون وحدهم ، بل يحركه الشهداء أيضاً • كل منهما له دوره في مسيرة التاريخ ! •

(١٨٤) سعيد الافغاني (حاضِر اللغة العربية في الشام) - القاهرة ١٩٦١ - ص ٥٧ •

الفصل الرابع

الحسين ملكاً

تحدثنا في الفصل الثاني عن سيرة الحسين بن علي منذ بداية حياته حتى اعلانه الثورة على الاتراك في ١٩١٦ * وستحدث في هذا الفصل عن سيرة الحسين في الفترة الاخيرة من حكمه ، وهي الفترة التي كان فيها ملكاً يحكم الحجاز بأمره لاينازعه السلطة أحد .

شخصية الحسين :

لابد لنا في البداية من اعطاء صورة موجزة عن شخصية الحسين ، اذ هي تلقي ضوءاً على طبيعة الاعمال التي قام بها والاحداث التي ساهم فيها .

المعروف عن الحسين انه كان متديناً ورعاً بعيداً عن مواطن الشبهات ، يحترم نفسه ويترفع عن الدنيا ، ولم يُعرف عنه انغماسه في الملذات على نحو ما عُرف عن الملوك غالباً . فكان اذا اتابه الغم لجأ الى ضب فوضعه تحت جيبه ثم استدعى اليه رجلاً من وزرائه معروفًا بشدة الخوف من الضب ، فاذا جاء الرجل وجلس غافله الحسين وألقى الضب في حجره ، فيصرخ الرجل ويقفز مذعوراً جاريًا الى الباب ، وعند هذا يقهقه الحسين حتى يكاد يستلقي على قفاه (١) .

كان الحسين يريد من رعاياه أن يقتدوا به في تجنب الملاهي والملذات المحرمة . يُروى أن جدة كانت في العهد العثماني كفيها من الموانيء تضم

(١) أمين الريحاني (ملوك العرب) - بيروت ١٩٥١ - ج ١ ص ٣٥ - ٣٧ .

كثيراً من محلات البغاء وشرب الخمر * ولما انفرد الحسين بالحكم عقب زوال ذلك العهد عمد الى تطهير البلدة ، فأمر بالقاء القبض على كل من يتعاطى الدعارة فيها ، كما رمى بالخمر وأوعيته في البحر (٢) * يقول أمين الريحاني الذي زار جدة في ١٩٢٢ : انه وجد بعض سكانها يتعاطون الخمر سرّاً ، كما يتعاطون الغناء والطرب ولعب القمار ، غير انهم كانوا يتركون ذلك عندما يرور الحسين جدة ، ثم يعودون الى عادتهم عندما يغادرها * وينقل الريحاني في هذا الصدد كلمة قالها له احد سكان جدة ، وهي :

« عجيب يا استاذ أمر الناس في هذا البلد * لا تستغرب قلبي ان في جدة خوفاً يستحوذ عليهم من مجرد ذكر صاحب الجلالة المنقذ الاكبر - يقصد الحسين - عندما يشرف البلدة كأنهم في مأثم ، وعندما يعود الى مكة يعيدون ، فيخرجون من الصنادق الكأس والابريق ، وترى حتى الجليل مسترسلاً في التهليل »

وينقل الريحاني أيضاً كلمة أخرى قيلت له في جدة هي : ان الحسين في ساعات الغضب مخيف هائل فاذا استدعى أحداً منهم الى مكة ، بريئاً كان أو مذنباً ، كتب الرجل وصيته قبل أن يخرج من بيته (٣) * .

من الجدير بالذكر ان لشخصية الحسين جانباً آخر اشتهر به ، هو أنه كان شديد الاعتداد برأيه لا يتنازل عنه بسهولة ، وقد لا يتنازل عنه في بعض الاحيان أبداً * انه كان يتصور الدنيا كما يرغب أن تكون لا كما هي في الواقع * يقول فؤاد الخطيب الذي كان وزيراً للخارجية لدى الحسين : انه لم تكن لديه أية سلطة في منصبه كوزير للخارجية ، ولم يباشر أي عمل من الاعمال التي تدخل في دائرة اختصاصه ، بل كان تجاه الحسين كالملائكة

(٢) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) - القاهرة ١٣٤٩ هـ - ج ١ ص ١١٥ - ١١٧ .

(٣) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ج ١ ص ٥٥ ، ٥٧ .

تجاه الله يسبح بحمده ويقدر له ، وكثيراً ما تصدر المذكرات بتوقيعه دون أن يطلع عليها أو يعرف عنها شيئاً ، وإذا اطلع على مذكرة منها صدفة واجرى عليها بعض التصليحات النحوية واللغوية أمر الحسين بإعادة كتابتها لكي ترجع كما كانت سابقاً^(٤) .

يقول أمين الريحاني في وصف الحسين من هذه الناحية ما نصه :

« كان الشريف حسين الكل في الكل حتى في تحرير جريدة «القبلة» ، فقد كان يظن ان مقالاته الافتتاحية تترجم الى اللغات الاوربية فيطالعها ويهتم بها الوزراء ، وأن آراءه في سياسة العالم وسياسة الحياة ، من أصغر الجزئيات الى أكبر النظريات ، هي وحي منزل ، وأن تفسيره لبعض آيات القرآن هو أصح من تفسير الائمة الكبار ، وأنه في الفصاحة والبيان مثله في العلم أمير أقرانه وفريد زمانه ، وأنه اذا استصرخ العرب يجيئونه من أقصى الجزيرة سامعين لامين ، وأنه يستطيع وهو في « المخلوان » - يقصد ديوانه الخاص - أن ينقذ البلاد ويؤسس الدولة العربية ، بل كان يظن ان العالم الاسلامي بأجمعه يتسم لابتسامته ويفضض لفضبه وان الذين يخدمونه يخدمون العرب والاسلام ولا يبغون أجراً غير رضا»^(٥) .

كان الحسين معتقداً بأن العرب كلهم يحبونه ويفقدونه بأرواحهم ، والمظنون ان هذا الاعتقاد نما لديه من جراء ما يقوله له المتزلفون من الحجاج في كل عام ، وما ينشده الشعراء بين يديه من القصائد الرنانة . فكان يحسب ان العرب سيثورون جميعاً ثورة واحدة حالما يعلمون انه تنازل عن الملك . ولهذا كان يهدد الانكليز دائماً بأنه عازم على التنازل . وقد حدث ذات مرة ان تشرشل حينما كان وزيراً للمستعمرات نفذ صبره من تهديد

(٤) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) - بيروت - ج ٢ - ص ١٥١ .

(٥) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) - بيروت ١٩٥٤ - ص ٣٤٤ .

الحسين فأراد أن يكتب اليه رسالة يقول فيها ان الحكومة البريطانية تطلب منه أن يذكر اسم الشخص الذي سيخلفه على العرش في حالة تنازله * وكان رأي تشرشل ان مثل هذه الرسالة قد تجعل الحسين يكف عن التهديد بالتنازل عن الملك (٦) *

من تراث الاسرة :

كان الحسين يحمل في عقله الباطن بقية من تراث اسرته القديم ، وهي التي يسميها الصحفي المصري المعروف محمد حسنين هيكل بـ « عقدة الاضطهاد » ، فقد كان الحسين يذكر دائما ما حل بأجداده العلويين من مآسي وآلام ، وكان يردد هذه العبارة : « كذلك نحن آل البيت ، هذا قدرنا المكتوب » ، وكان أبناؤه يرددونها أيضاً ، ولا سيما ابنه عبدالله (٧) . وكان لهذه العقدة أثرها الفعال في سلوك الحسين وتفكيره ، فكان ينظر في أحوال الحاضر بنفس المنظار الذي ينظر به في احوال الماضي * انه كان مثلاً ينظر الى أهل العراق في عصره على نحو ما ينظر اليهم في العصر الذي وقعت فيه فاجعة كربلا *

يروى علي البازركان انه كان في ضيافة الحسين في مكة في عام ١٩٢١ عندما وصلته برقية من بعض رؤساء العراق يطلبون منه ابنه فيصل ليكون ملكاً عليهم ، فقال الحسين : « ولكنني أخشى يا شيخ أن يعامل أهل العراق فيصلاً كما عاملوا جده الحسين من قبل » ، فرد عليه البازركان قائلاً : « سيدي لقد تغير الزمن وان أهل العراق اليوم ليسوا كأسلافهم في زمن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام ، فهم الآن يقومون باكرام الضيف وبخدمة ملكهم » ، وعند هذا ضرب الحسين كفاً بكف وصاح بلهجته الحجازية : « يا عيال نادوا فيصل » (٨) *

- (٦) سليمان موسى (صفحات مطوية) - عمان ١٩٧٧ - ص ٩٣ .
(٧) محمد حسنين هيكل (العقد النفسية التي تحكم الشرق الاوسط) - القاهرة ١٩٥٨ - ص ١٠١ - ١٠٥ .
(٨) علي البازركان (الوقائع الحقيقية) - بغداد ١٩٥٤ - ص ٢٣٠ .

وحدثني أحمد الراوي بقصة تشبه هذه القصة خلاصتها : أنه كان في عام ١٩٢٣ مدير شرطة المنتفق فأرسله الملك فيصل الى مكة لكي يأتي بعائلته وابنه غازي منها ، ولكنه عند وصوله الى مكة لم يسمح له الحسين بأخذ العائلة • يقول الراوي : انه كان يكرر الطلب على الحسين مرة بعد أخرى ، وكان الحسين يعده بتلبية الطلب في كل مرة ثم يغير رأيه بعدئذ • وقد نفذ صبر الراوي أخيراً واضطر الى مجابهة الحسين بشيء من الصراحة حيث قال ما مضاه : ان منع الزوجة من الالتحاق بزوجها يخالف أمر الله ورسوله • فرد الحسين قائلاً : « أخاف منكم يا أهل العراق أن تفعلوا بعائلة الحسين مثلما فعلتم بعائلة الحسين من قبل » • وقد ظل الحسين مصراً على موقفه هذا مما اضطر الراوي الى العودة الى العراق خائباً •

ولما زار الحسين عمان في كانون الثاني ١٩٢٤ قام الملك فيصل بمحاولة أخرى لاستدعاء عائلته من مكة ، فأرسل وفداً الى عمان برئاسة نوري السعيد • وغادر الوفد بغداد في ٧ شباط ، وقابل الحسين راجياً منه الاذن للعائلة المالكة بالقدوم الى العراق • وقد أبدى الحسين موافقته المبدئية على تلبية الرجاء ، وقال انه سيرسل العائلة عند عودته الى مكة • ولكنه عند عودته غير رأيه على نحو ما فعل قبل هذا مع أحمد الراوي •

وفي ٢٠ آب وصلت برقية الى الملك فيصل تخبره بأن أباه قد سمح للامير غازي بمغادرة مكة الى عمان • تقول المس بيل في رسالة لها مؤرخة في ٢٠ آب : « ان الملك متهمج كثيراً لان الملك حسين قد أطلق سراح ابنه الوحيد غازي الذي كان حتى الآن محفوظاً في مكة • ان الصبسي - تقصد الامير غازي - في الثانية عشرة من عمره ، وهو الآن في عمان ، وسيرسل الملك محسن بك للاتيان به » (٩) • وقد وصل الامير أخيراً الى

(9) Burgoyne (Gertrude Bell) — London 1961 — vol. 2, P. 351.

بغداد في ٥ تشرين الاول ١٩٢٤ (١٠) .

ان الحسين حين أطلق سراح الامير غازي لم يطلق معه سراح
أمه واخواته . والظاهر أنه كان يخشى عليهن من السبي كما جرى على
نساء آل البيت في كربلا . وقد ظلت الام والاخوات في مكة حتى تشرين
الاول ١٩٢٤ ، حيث غادرن الحجاز الى العقبة مع الحسين على أثر تنازله
عن العرش - كما سنأتي اليه في الفصل القادم . وقد انتقلن من بعد ذلك
الى عمان ومنها الى بغداد ، وكان وصولهن الى بغداد في ١٦ كانون الاول
١٩٢٤ (١١) .

تمرد البدو :

مزرت على الحسين في السنوات الاخيرة من حكمه أوقات عسيرة جداً
من الناحية المالية ، ذلك لان بريطانيا أخذت تخفض معونتها المالية الشهرية
له ابتداءً من انتهاء الحرب ، ثم قطعتها نهائياً في نيسان ١٩٢٠ . فاضطر
الحسين الى الحصول على المال بطرق شتى منها فرض القروض الاجبارية
التي لا تُسدّد على التجار (١٢) ، ومنها المشاركة في تجارة الغنم واجور
المطوفين والخبازين والجمالة وغيرهم (١٣) ، وكذلك اضطر الحسين الى
قطع المعونات التي اعتادت القبائل البدوية أن تأخذها منه . وقد أدى ذلك
الى انتشار التذمر العام في الحجاز وفي اوساط الحجاج ، كما أدى الى
تمرد القبائل البدوية فصارت تقطع الطرق على الحجاج ، ولا سيما الطريق
الرئيسي الذي يربط المدينة بمكة .

(١٠) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ٦ تشرين الاول ١٩٢٤ .
(11) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, p. 359.

(١٢) طالب محمد وهيم (مملكة الحجاز) - اطروحة ماجستير غير منشورة
- ص ٢٠١ .

(١٣) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) - ص ٣٤٧ .

اعتاد البدو منذ قديم الزمان على قطع الطرق وفرض الاتاوة على المسافرين ، وهم يعتبرون ذلك حقاً مشروعاً لهم يرتزقون منه ، ولا يتركونه الا اذا أخذوا عوضاً عنه مبالغ سنوية من الحكومة ، فاذا امتنعت الحكومة عن الدفع عادوا الى قطع الطريق • وهذا ما وقع في الحجاز على أثر قطع الحسين دفع المعونات الى القبائل البدوية •

يحدثنا السيد محسن أبو طيخ في مذكراته المخطوطة انه عندما لجأ الى الحجاز هو وزملاؤه من رجال ثورة العشرين ، عقب انهيار الثورة ، خرجت عليهم قبيلة حرب على مقربة من المدينة ، فحصرتهم في وادي ضيق وقطعت عليهم الطريق • ولما أخبروها بأنهم ضيوف الملك حسين كان جوابها : اننا نريد قتلکم لانکم ضيوف الملك حسين • ولم يتخلصوا منها الا بعد ان دفعوا لها أتاوة قدرها خمسمائة ليرة ذهب^(١٤) •

وفي صيف ١٩٢١ ذهب الشيخ علي الشرقي الى الحج في معية الشيخ خيون العبيد ، وهو يحدثنا في كتابه « الاحلام » حديثاً مستفيضاً عما كابده قافلته في مسيرتها بين مكة والمدينة من خسائر في الارواح والاموال • تنقل فيما يلي موجزاً له :

كان الحسين قد أرسل مع القافلة حرساً مؤلفاً من خمسمائة رجل مع قائد لهم ، ولكن ذلك لم ينفع القافلة بل أضربها • ففي الليلة الاولى من مسيرتها فقدت شخصين قتلاً وهما في محملهما • وفي الليلة الثانية فقدت القافلة ستة عشر رجلاً أصبحوا قتلى في محاملهم • وعند هذا قررت القافلة العودة الى مكة وترك زيارة المدينة • ولكن القائد طلب من الشيخ علي الشرقي الاجتماع به منفرداً وقال له : اني أودعك سرّاً في افشائه اراقة دمي ، ان هذه القبائل لاحساب لها معكم ، ان حسابها مع الملك الذي بخسهم

(١٤) نقلاً عن مذكرات السيد محسن أبو طيخ المخطوطة •

حقهم وليس له قوة على ردعهم ، وما هذه الفواجع التي نزلت بكم الا من يرقنا الذي يرافقكم ، فاذا انطوى هذا اليرق أمكنكم التفاهم معهم بسهولة فتسيرون بسلامة واطمئنان . وطلب القائد من الشرقي أن يكتب الى الملك كتاباً يشكره فيه لكي يحمله القائد ويعود الى مكة مع بيرقه .

يقول الشرقي : انهم فعلوا ما اوصاهم به القائد ، وجمعوا مبلغاً من المال دفعوه الى قبيلة حرب . ثم ساروا مطمئين نحو المدينة . غير أنهم لم يكادوا يقتربون منها ويشاهدون أضوية الحرم النبوي حتى فاجأهم بنو سليم ، وهم فخذ من حرب يسكنون بالقرب من المدينة ، فأمطروهم بنيران بنادقهم وقتلوا منهم اربعين شخصاً كان من بينهم أربع نساء عراقيات ، وذلك ماعدا الجرحى ، ثم نهبوا القافلة .

وعند وصول القافلة الى المدينة قدم رجالها شكواهم الى الحكومة . وذهب الشرقي باعتباره الناطق بلسان القافلة الى السراي لمقابلة الحاكم السياسي الشريف شحاذ ، وحين قابله حضر عنده رؤساء بني سليم وكان كل رجل منهم يستند على بندقيته والخراطيش مصفوفة على صدره . فأخذ الحاكم يخاطب الرؤساء معاتباً موبخاً لما فعلوه بوفد الله ووفد رسوله - يقصد القافلة - ثم سألهم أن يدلوه على الفاعل ، فانبرى له شاب وسيم اسمه محمد بن نهار وقال « انا الفاعل » . وتبين أنه رئيس بنسي سليم . فجرت بينه وبين الحاكم محاوراة على النمط التالي :

الحاكم : لماذا ؟

الرئيس : حتى أعرف الشريف حسين أن عند بني سليم بارود ، وليس البارود عند غيرهم فقط .

الحاكم : ذلك أمر بينكم وبين الملك ، وما شأن هؤلاء الضيوف . حسبكم ما وقع ودعوني أخرجهم بسلام يا ابن نهار .

الرئيس : لاتخرجهم ولا هم يخرجون حتى يصفّي الشريف
حسابنا •

الحاكم (غاضباً) : يا ابن نهار أخرجهم بهذا (وأشار بإبهامه الى
خرطوشة من الخراطيش المصفوفة على صدره) •

الرئيس : تخسأ يا حمار يا حمار ، وعيش عاش فيه رسول الله لأن
أخرجتهم لاذبحنك وأذبحهم معك ، هيا يا معشر حرب • (وخرجوا
جميعاً) •

قرر رجال القافلة أخيراً أن يجمعوا الاتاوة المعتادة لبني سليم ،
ومقدارها ستة آلاف ليرة ، لكي يتمكنوا من العودة الى مكة سالمين • وقد
بلغ الحسين ذلك وقرر ان يشتري سمعة حكمه بأن يدفع المبلغ من ماله ،
فأوعز الى وكيله في المدينة السيد عمران الجبوبي بأن يدفع المبلغ الى بني
سليم ويسجله على الحساب • وقد فعل السيد عمران ذلك ، وعادت القافلة
اني مكة بسلام^(١٥) •

اعتاد الحسين ان يذيع بياناً على الحجاج فحواه ان الحكومة ملزمة
بدفع التعويض عن جميع ما تنهبه القبائل منهم ، فعلى من يُنهب منه شيء
ان يقدم للحكومة عريضة يذكر فيها مقدار ما نُهب منه ويحلف بالكعبة
على ذلك • يروي الشرقي نقلاً عن قائمقام جدة الحاج محمد علي نمازي :
ان بعض الحجاج يصدقون بهذا البيان فيقدمون عرائضهم الى الحكومة
ويبقون في الحجاز منتظرين دفع التعويض الى أن تتحرك آخر باخرة من
بواخر الحجاج فينقطع بهم الطريق ويموتون جوعاً^(١٦) •

واقعة تربة :

ان تربة والخزمة واحتان حجازيتان تقعان الى الشرق من الطائف

(١٥) علي الشرقي (الاحلام) - بغداد ١٩٦٣ - ص ١٢٩ - ١٣١ •

(١٦) المصدر السابق - ص ١٣٢ •

وكان يحكمها الشريف خالد بن لؤي وهو من اقرباء الحسين * وفي عام ١٩١٨ خنق خالد من الحسين ومن ابنه عبدالله ، وقيل ان مشاجرة عنيفة جرت بينه وبين عبدالله فضربه عبدالله على فمه بالنغال ، فذهب خالد غاضباً الى ابن سعود في الرياض ، وهناك أعلن « تدينه » - أي اعتنق المذهب الوهابي - ونال وعداً من ابن سعود بمساعدته ، ثم عاد الى منطقته معلناً عصيانه على الحسين ومتحدياً له *

أرسل الحسين قوة لقتال خالد واعادته الى الطاعة ، فردها خالد مدحورة ، وأرسل الحسين قوة ثانية وثالثة ، فكان مصيرهما كالأولى * وصمم الحسين أخيراً ان يرسل الى خالد قوة كبرى تنتصر عليه ثم تتوجه بعدئذ الى الرياض لتأديب ابن سعود نفسه *

وجد الحسين فرصته في كانون الثاني ١٩١٩ حين استسلم له فخرى باشا مع قواته في المدينة ، فقد استولى الحسين على ما كان لدى فخرى باشا من مدافع ورشاشات واعتدة كثيرة ، وظن انه قادر بهذه المعدات وبما لديه من جيش نظامي ان يضرب خالد بن لؤي ضربة ماحقة *

أوعز الحسين الى ابنه عبدالله أن يتحرك بقواته نحو خالد * يقول عبدالله في مذكراته انه اعترض على ابيه في هذا الامر وشرح له حالة جنوده الذين سئموا من القتال بعد تلك المدة الطويلة التي قضوها في حصار المدينة ، وذكر له انهم يرغبون في العودة الى أوطانهم بعدما أثروا وامتلاأت جيوبهم بالاموال * ولكن الحسين أصر على تنفيذ امره ، واضطر عبدالله الى الطاعة (١٧) *

كانت حملة عبدالله مؤلفة من ٨٥٠ جندياً نظامياً ، ونحو ١٥٠٠ محارب غير نظامي ، وكان معها عشرة مدافع ونحو عشرين رشاشاً ثقيلًا وعشرين رشاشاً خفيفاً * ومن الجدير بالذكر ان معظم ضباط الحملة كانوا

(١٧) عبدالله بن الحسين (مذكراتي) - القدس ١٩٤٥ - ص ١٥٤ *

من العراقيين كمحمد حلمي الحاج ذياب وصبري العزاوي وابراهيم الراوي وحامد الوادي وعباس العاني وسامي صبرى ورشيد خماس وجمال علي وخضير مخلص *

عندما وصلت الحملة الى موضع يدعى « عشيرة » يقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من شرق الطائف ، جاء اليها الحسين بنفسه لاستعراضها . وحين جرى استعراضها ابتهج بها الحسين وخيل له انها قادرة على فتح جزيرة العرب كلها . وقد حاول عبدالله اقناعه بوجوب التريث ، ولكن الحسين كان مصراً على مواصلة الزحف وقال له : « يجب عليك ان تتوجه الى الخرمة للقضاء على هذه الحركة الفسادية ، وان معك من القوة ما لو قاتلت بها كل العرب لتغلبت عليهم » (١٨) *

وصل الى « عشيرة » لمقابلة الحسين حسين روجي افندي الذى كان يومذاك يعمل سكرتيراً للقنصل البريطاني في جدة . وكان هذا الرجل يحمل للحسين كتاباً من القنصل ينصحه بالاعتدال وبحل النزاع بينه وبين ابن سعود سلماً . فلما قرأ الحسين الكتاب قال بصوت عالي يخاطب حسين روجي على مسمع من الحاضرين : « اذهب وقل لهم انهم لاحق لهمسم بالتدخل في شؤوننا الداخلية ، فنحن احرار نفعل ما نريد » (١٩) *

عاد الحسين الى مكة ، وواصلت الحملة سيرها نحو تربة التي كانت تبعد عن الطائف شرقاً بسبعين كيلو متراً ، فاحتلتها بسهولة . وكان ابن سعود قد أرسل الى عبدالله يحذره من مهاجمة تربة والخرمة ، فرد عليه عبدالله ينذره ويتوعده . وقد أمر ابن سعود بالتعبئة العامة في نجد وسار على رأس جيش قدر عدده باثنى عشر ألف رجل متوجهاً نحو الحجاز ،

(١٨) المصدر السابق - ص ١٥٦ *

(١٩) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٨٤ *

وأرسل أمامه طلائع من رجاله الفدائيين - وهم الذين عُرفوا باسم « الإخوان » - يقدر عددهم بألف وخمسمائة رجل بقيادة خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد •

وصل الإخوان الى الخرمة واجتازوها متوجهين نحو تربة • وفي عصر ٢٤ أيار ١٩١٩ وصل الى تربة رجل بدوي وقال للامير عبدالله : « تحذر يا شريف • المتدنية - يقصد الإخوان - في الخرمة هاجمون عليكم » • فغضب الامير منه وأمر بقطع رقبته • وقيل في رواية أخرى ان الامير أمر كبير عبيده بضرب الرجل ، فضربه العبد حتى مات (٢٠) • وقال الامير أمام الحاضرين لتبرير عمله : « انهم أرادوا من ارساله الينا أن يوهنوا في أعصابنا » (٢١) •

تحرك الإخوان نحو تربة في مساء ٢٤ أيار ، وهم يهتفون : « هبت هبوب الجنة وين أنت يا باغيها ! » • واقتربوا من تربة في فجر اليوم التالي ، ثم هاجموها هجوماً مفاجئاً صاعقاً • واستمرت المعركة بين الفريقين نحو ساعتين انتصر فيها الإخوان انتصاراً ساحقاً •

كان ابراهيم الراوى من المشاركين في المعركة وقد أعطانا وصفاً لها في مذكراته حيث قال : « ... هجموا علينا مع أذان الفجر ، ومع أننا كنا على علم بأننا في هذه الليلة سنُهاجم ، وكنا اتخذنا للامر عدته ، ولكن شدة الهجوم النابع من رغبة صادقة وعزيمة لا تقهر ... وكانت تحت امرتي بطرية جبلية سريعة عيار ٥-٧ سم جرمنية ، وبطرية أخرى سريعة (قدرتلي) شيكوسلوفاكية ، ومدفعان هاون • فعند سماعي خبر الهجوم تهيأت للذهاب للبطرية التي كان أمرها السيد عباس ، وكان بيني وبين موضع البطرية حوالي مائة متر ، وكنت نائماً بنزتي العسكرية ، وفيما كنت متوجها بدأت

(٢٠) امين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٢٥٤ •

(٢١) امين سعيد (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٩٠ •

المدافع والرشاشات توجه نيرانها ، والمشاة ترمي ببنادقها وقنابرها اليدوية تسمع في كل الجهات ، ومع كل هذا كان البعض من الاخوان قد تسرب الى داخل المعسكر وتم التلاحم حتى بالمسدسات والخناجر *** وقد منّ الله عليّ بلطفه فوصلت المدافع سالماً ورأيت أمرها السيد عباس يوجه مدافعه نحو الاخوان ويصليهم ناراً حامية * وبعد مرور بضع دقائق واذا بالملازم خضر * وهو بكى ويقول : ان الاخوان استولوا على رشاشاتنا * وبعد بضع دقائق وصل الاخوان الى المدافع التي كنا عندها ، وأخذوا يستولون عليها ، ويقتلون كل مرتبانها ، فابتعدت عنهم لاركب حصاني واذهب الى البطارية الاخرى التي كانت في موضع آخر ، فأتيت الى من كان ممسكاً بحصاني وهممت بالركوب ، ولما ادخلت رجلي بالركاب *** استهدفنا أربعة من الاخوان * لم اتمكن من ركب الحصان فقد قتل الاخوان الجندي وأخذوا الحصان ، فذهبت الى اسطبل بطرية جبليه قريبة مني فأخذت منها بغلاً ، ثم بعدت ، واذا بحصان آخر هو لي ، فأتيت فامتطيته * وقبل ان أضع الاعنة في يدي وجدت الاخوان بالقرب مني ، فحدجا فيّ ، ورهاني أحدهم بطلقة نارية والمسافة بيني وبينه مترا واحدا ، فابتعدت بعدما قضوا على جميع الذين كانوا معي عدا اثنين من الفرسان * وعند ذاك كانت الشمس توشك ان تشرق وكانت المعركة في نهايتها ، فابتعدت عن القرية والدماء تنزف من ذراعي *** « (٢٢) » *

خسرت الحملة كل ما كان لديها من مدافع وسلاح ومتاع ، كما فقدت معظم ضباطها وجنودها ، ولم ينبج من قواتها النظامية سوى سبعة ضباط ومائة وخمسين جنديا * يقول ابراهيم الراوي : انه كان في حوزته ألف ليرة ذهب ، وسيف مذهب ثمين ، وحصانان وذلول

(٢٢) ابراهيم الراوي (ذكريات) - بيروت ١٩٦٩ - ص ١٣٤ - ١٣٨ .

وبعض الالاث ، وقد فقدوها كلها في المعركة ، وهو يحمد الله على نجاته على أي حال ! (٢٣) .

كانت نجاه عبدالله من المعركة بأعجوبة ، اذ استطاع ابن عمه الشريف شاكر بن زيد أن يردفه على فرسه ويفر به على عجل . وقد تحدث عبدالله فيما بعد عن هذه الواقعة حيث قال : « مازال يرن في سمعي صوت المغيرين ليلة تربة : الجنة ، الجنة ، الجنة » (٢٤) .

وصل ابن سعود الى ساحة المعركة بعد انتهائها . وهناك ورد اليه انذار من الحكومة البريطانية يقول : « ترجوكم حكومة صاحب جلالسة الملك ان تعودوا الى نجد عند وصول هذا الكتاب الى يدكم ، وتركوا تربة والخرمة منطقة حرة وغير مملوكة لاحد حتى عقد الصلح وتحديد الحدود . واذا لم تعودوا فان حكومة بريطانيا تعد كل اتفاق بينكم وبينها ملغيا وتتخذ ما يلزم من التدابير ضد حركاتكم العدائية . وهي تأسف كل الاسف لما حصل بين أصدقائها وكانت ترجو الا يقع » (٢٥) .

وفي الوقت الذي وصل هذا الانذار الى ابن سعود كان الاخوان يطالبونه بالزحف على الطائف ، وصاروا يصيحون : « الى الطائف ، رخص لنا بالطائف ! » . فمنعهم ابن سعود من ذلك وقال : « كفى الباغي جزاء بغيه » (٢٦) .

ازمة في لندن :

ان واقعة تربة أدت الى حصول ازمة حادة في وزارة الخارجية

(٢٣) المصدر السابق - ص ١٤٠ - ١٤٣ .

(٢٤) خير الدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز) - بيروت ١٩٧٧ - ج ١ ص ٣٢٢ .

(٢٥) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٩٣ .

(٢٦) امين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٢٥٧ .

البريطانية • فقد كانت بريطانيا حينذاك تقف الى جانب الحسين وتؤيده من كل ناحية ، كما كانت واثقة كل الثقة من قوته ومن انه قادر على دحر ابن سعود وتحطيمه • وكان رأي الخبراء البريطانيين أن « تلك الحثالات من الوهابيين المتعصبين » لا تستطیع ان تصمد صموداً جدياً تجاه قسوات الحجاز النظامية التي تدربها بريطانيا وتجهزها بالاسلحة والمعدات •

كان فيلبي يومذاك في لندن ، فاستدعي لحضور المؤتمر الذي عقده وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن لدراسة هذا الموضوع • وكان رأي فيلبي على النقيض من رأي الخبراء الذين حضروا المؤتمر ، ولكن الخبراء استهجنوا رأيه واستهزأوا به • ويقول فيلبي في مذكراته : انه عندما وقعت واقعة تربة ، وانتصر فيها ابن سعود ، عقد اللورد كرزن مؤتمراً ثانياً ، وحين حضر الخبراء رأهم فيلبي مظاًطياً الرؤوس وقال احدهم : « يبدو اننا راهانا على الجواد الخاسر » (٢٧) •

كان اللورد كرزن قد تلقى برقية من القنصل البريطاني في جدة يقول فيها ان جدة اكتظت باللاجئين الذين فروا من الطائف ومكة خوفاً من الوهابيين ، وفيهم نحو أحد عشر ألف هندي من رعايا بريطانيا ، وأصبح من المتوقع انتشار الاوبئة بينهم • وطلب القنصل في برقيته عدداً من البواخر لنقل اللاجئين •

عندما تداول المؤتمر في أمر هذه البرقية تبين أن البحرية البريطانية غير قادرة على توفير أية باخرة لنقل اللاجئين • فالتفت كرزن نحو القادة العسكريين الحاضرين في المؤتمر وقال : « ماذا في وسع وزارة الحرب أن تفعل ؟ فليس في وسعنا ان نترك هؤلاء الناس يُذبحون ذبح النعاج على أيدي الوهابيين » فرد أحد القادة عليه قائلاً : « أخشى يا سيدي اننا لانستطيع

(٢٧) خيرى حماد (عبدالله فيلبي) - بيروت ١٩١١ - ص ٧٤ - ٨١ •

ان نعمل شيئاً • ان وزارة الحرب مصممة على عدم اقحام نفسها في أية
مغامرة حربية في الصحراء العربية فقد كفانا ما مررنا به حتى الآن •

أبدى فيلبي رأيه حيث قال : ان بريطانيا لو وافقت على احتفاظ ابن
سعود بواحتي تربة والخرمة ، فانه سيرضى بذلك ويتوقف عن الزحف •
وتعهد فيلبي أن يذهب بنفسه الى ابن سعود لاقناعه بذلك • فوافق المؤتمر
على رايه ، وأعدت له طائرة خاصة لنقله الى الحجاز على عجل • وغادر
فيلبي لندن بالطائرة ، ولكنه عند وصوله الى القاهرة علم بأن ابن سعود قد
أوقف الزحف وعاد الى الرياض ، ولم يبق هناك من خطر على اللاجئين
في جدة •

كانت بريطانيا قد ارسلت الى جدة ست طائرات مشحونة في صناديق
بغية الدفاع عن الحجاز تجاه هجوم الوهابيين • وكان المندوب السامي في
القاهرة الجنرال اللنبي عازماً على استخدام تلك الطائرات فعلاً ، غير ان
فيلبي نصحه بأن لايفعل اذ قال له : « ان الطائرات التي أرسلت الى جدة
اذا استخدمت وهبطت احداها في ارض وهابية فسيقطع الوهابيون رقاب
طياريتها » • فأصدر الجنرال أوامره بان تظل الطائرات في صناديقها (٢٨) •

عقدة الحسين :

كانت واقعة تربة ذات أثر كبير على الحسين نفسياً وصحياً • يقول
عبدالله في مذكراته : « فلقد وجدته بعد رجوعي الى المركز ، أي بعد واقعة
تربة وفتح المدينة ، على غير علمي بجلالته ، وكان مرضه الذي توفاه الله
به - يقصد مرض تصلب الشرايين - ابتداءً منذ ذلك الحين ، فكان كثير
الصلف ، كثير النسيان ، كثير التردد ، قليل الاعتماد على من كان يعتمد
عليه • • وللمسألة خطورتها » (٢٩) •

(٢٨) المصدر السابق - ص ٨١ •

(٢٩) عبدالله بن الحسين (المصدر السابق) - ص ١٦٣ •

أصبحت واقعة تربة بمثابة العقدة النفسية للحسين فلم يكن يهن عليه
أن ينتصر عليه رجل كان يعتبره من أمراء الدرجة الخامسة • وكان يلقي
اللوم في هزيمة تربة على ابنه عبدالله اذ اعتبره المسؤول الاول عنها • ومعنى
ذلك انه جعل عبدالله كبش الفداء • وظل الحسين دائم التفكير في الانتقام
من ابن سعود وفي استعادة تربة والخزعة منه •

اصبح الحسين كغيره من ذوي العقدة النفسية يرتاح لمن
يدغدغ عقده ويداريها • ولهذا حف به بعض المتزلفين
وصاروا يصورون له الدنيا كما يشتهي • يروي أمين الريحاني
قصة رجل من هؤلاء المتزلفين هي أنه كان متفناً في اختلاق أخبار السوء عن
نجد وابن سعود ، وكان الحسين يقرب اليه هذا الرجل ويرتاح لحديثه •
جاءه الرجل ذات يوم وجرت بينهما محاوراة على النحو التالي :

الرجل : « السنة سنة جدد في نجد • وقد جفت الآبار ، وهلك
الالوف من الببل » •

الحسين : « صحيح ! سبحان الله • أنت يا بني أعلم الناس بأحوال
نجد » •

الرجل : « ابن سعود مصخن سيدي ، مضروب بالرئة ، يقولون :
السل • وهذا الداء لا يعيش صاحبه » •

الحسين : « صحيح ؟ صحيح ؟ - سبحان الله ! لا يصدقني الخبر
غيرك » •

الرجل : « وقد خرجت عليه قبائل الحسا ، وهم يقولون انهم لا يبقون
غير الملك حسين » •

الحسين : « هذا الذي أقوله دائماً يا ابني • ستخرج عليه القبائل
كلها • وكلها تجيئنا ان شاء الله » (٣٠) •

(٣٠) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٣٤٦ •

مفاوضات لورنس :

في صيف ١٩٢١ قررر الحكومة البريطانية عقد معاهدة مع الحسين فهي كانت تظن ان الحسين يخمد لها ما فعلت له حيث عينت أحد أولاده ملكاً على العراق ، والثاني أميراً على شرقي الاردن ، وذلك بالاضافة الى كونه هو قد صار ملكاً في الحجاز . فأرسلت اليه صديقه لورنس ليكون ممثلاً في التفاوض معه لعقد المعاهدة .

وصل لورنس جدة في ٢٩ تموز وكان معه جبرائيل حداد باشا . وفي اليوم التالي عقد أول اجتماع له مع الحسين ، وكان مع الحسين ابنه علي وزيد ووزير خارجيته فؤاد الخطيب . فافتتح لورنس الحديث قائلاً : « ان هناك ديناً يُراد توفيته ولا يتيسر دفعه الآن برمته ، ولكن يُدفع منه قسط قليل على أن ينظر في تسديد الباقي في المستقبل . ثم قدم لورنس مسودة لمعاهدة كانت قد أعدت في لندن سابقاً ، فقال الحسين يخاطب لورنس : « انت شرفت ، ولا بد من البحث والمناقشة واهلا وسهلا » (٣١) .

دامت المفاوضات خمسة اسابيع ، وقد اتبع الحسين فيها طريق المماطلة والمراوغة ، فكان يجامل لورنس في اثناء المفاوضة ويمدح بريطانيا العظمى ولكنه في النهاية لا يوافق على شيء . وقد أبرق لورنس في ٢ آب الى وزير الخارجية البريطانية اللورد كرزن يقول له : « اجتمعت بالملك عدة مرات ، وقد أعلن لي عن تخليه عن موقفه المبني على اساس رسائل مكماهون ، ولكنه يشير أفكارا عميقة جديدة كل يوم . انه عجزوا أحقق لاحدود لغروره وأطماعه ، ولكنه يبدي الكثير من الود ويؤكد أنه صديق مخلص لنا » (٣٢) .

(٣١) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) - القاهرة - ج ٣ - ص ١٥٨ .

(٣٢) نايتلي وسمبسون (المخفي من حياة لورنس العرب) - ترجمة لاوند والعايد - بيروت ١٩٧١ - ص ١٥٣ .

توتر الوضع بين لورنس والحسين على أثر ذلك • فقد طلب لورنس من الحسين أن يتكلم بصراحة ماذا يريد ، فقدم الحسين أربعة مطالب هي :
(١) الاعتراف بأن يكون العراق وفلسطين تابعين له ، (٢) أن تُضم عسير والحديدة الى الحجاز ، (٣) أن يكون هو مقدماً على جميع أمراء العرب ، (٤) أن يعود امراء العرب الى حدودهم القديمة ، والمقصود من ذلك انسحاب ابن سعود من تربة والخرمة •

اثارت هذه المطالب امتعاض لورنس ، فرد على الحسين بشدة واتهمه بالطمع ، وأوضح له مدى امكانياته وأوقفه على واقع الامور قاصداً من ذلك الاشارة الى ضعفه وأن في مقدور ابن سعود الوصول الى مكة في مدى ثلاثة أيام • فظهر التأثير الشديد على الحسين من هذا الكلام وغادر الاجتماع غاضباً دون ان يتلفظ بكلمة وداع • وأرسل لورنس الى اللورد كرزن برقية وصف فيها ما جرى وختمها بقوله : « ان الملك أضعف مما كنت أظن ، وأرى أنه يمكن الضغط عليه حتى يستسلم استسلاماً نهائياً ، واذا تمكنا من التغلب عليه الآن ، فان التفاوض معه سيكون اكثر سهولة في المرة القادمة » (٣٣) •

حل موسم الحج في منتصف شهر آب ، فاضطر الحسين الى العودة الى مكة للمشاركة في الموسم والاشراف عليه ، وذهب لورنس بدوره الى عدن حيث قضى فيها اسبوعين ، ثم عاد الى جدة في ٢٩ آب ، كما عاد اليها الحسين في ٢ ايلول • فاستؤنفت المفاوضات من جديد •

حاول الحسين في هذه المرة التخفيف من مطالبه السابقة ، حيث طلب : أن تعود جميع الامارات العربية الى الحدود التي كانت لها قبل انتهاء الحرب ، وأن يكون له حق تعيين جميع رجال القضاء والاقتضاء في الجزيرة العربية والعراق وفلسطين ، وان يُعترف له بالسيادة فوق جميع

(٣٣) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٦٩ - ٧٠ •

الحكام والامراء العرب في جميع الاقطار • فرد لورنس على هذه المطالبات رداً أشد مما فعل في المرة الاولى • ويقول لورنس في برقية الى اللورد كرزون : ان الحسين عند سماعه لهذا الرد طلب خنجرا وحلف يميناً انه يتخلى عن العرش او يقتل نفسه • فقال له لورنس « ان الحكومة البريطانية سوف سستانف المفاوضات مع الرجل الذي سيخلفه » (٣٤) •

لم ييأس لورنس من النجاح في عقد المعاهدة ، وظل يعيد الكرة فسي مفاوضاته كلما أخفق فيها • وفي ٢٢ ايلول أبرق الى حكومته يقول ان الحسين صادق على جميع مواد المعاهدة وأعلن على رؤوس الاشهاد أنه سيوقعها عما قريب ، ولكنه عندما قدم الامير علي اليه نص المعاهدة لكي يصادق عليها صرخ في وجهه ورماها عليه • ويقول لورنس في برقيته : ان الامير عليّ وصف أياه بالجنون ، وأنه اتفق مع أخيه الامير زيد على العمل على اقالته • ويبيدي لورنس تفاؤله من تعاون عليّ وزيد معه في المفاوضات ، ويقول عنهما : انهما يتصرفان بطريقة مدهشة وقد يغيران الامور في الاسابيع القليلة القادمة (٣٥) •

وافق لورنس على اضافة مادة على المعاهدة ينص فيها أن المعاهدة لا تنقض أي عهد او وعد قطع للعرب في أثناء الحرب • وكان لورنس يتوقع ان هذه المادة سوف ترضى الحسين ، ولكن الحسين لم يرضه شيء • وأخذ أفراد عائلته وحاشيته يلحون عليه لكي يوافق على المعاهدة بلا جدوى • ويقال ان زوجته أم زيد اشتركت في الالاحاح عليه • ولما ضايقوه بالحاحهم صعد الى سطح الدار واتجه نحو الكعبة وأقسم بربها على أنه لا يوقع أية معاهدة لا تحقق الوعود التي وعد بها سابقا ، ثم نزل عن السطح وانزوى وحده لا يكلم أحداً • ولما رأى أفراد عائلته ذلك منه كفوا عن التكلم حول المعاهدة معه ، ثم اتفقوا مع لورنس على أن يزور الامير عبدالله

(٣٤) المصدر السابق - ص ٧٣ •

(٣٥) طالب محمد وهيم (المصدر السابق) - ص ٢٢١ •

في عمان لكي يوقع الامير المعاهدة باسم والده ، ثم يرسلها اليه
لاقرارها (٣٦) .

غادر لورنس جدة في ٢٢ ايلول متوجهاً الى عمان ، وحين وصل
اليها أكب هو والامير عبدالله على تمحيص المعاهدة للتوصل الى صيغة
تنال موافقة الفريقين . وفي ٢٩ تشرين الثاني أبرق لورنس الى اللورد
كرزن يقول انه توصل الى نص معدل للمعاهدة حظي بموافقة الامير
عبدالله ، وان الامير على ثقة من أن أباه سوف يصادق على النص الجديد .
وقد تم التوقيع على المعاهدة في عمان في ١٨ كانون الاول من قبل لورنس
والامير عبدالله .

وفي ٢٧ منه وصلت صيغة المعاهدة الجديدة الى الحسين ، ولكنه بدلا
من المصادقة عليها أبرق الى لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية يقترح
ارسال ابنه عبدالله الى لندن من أجل اعادة النظر في صيغة المعاهدة
وتنقيحها . فعاد الجواب من لويد جورج عن طريق القنصل البريطاني في
جدة بالصورة التالية ، حيث يقول القنصل ما نصه : « كلفتني حكومة جلالة
الملك البريطانية بمناسبة برقية جلالتيكم بتاريخ ٢٨ كانون الاول ١٩٢١
للمستر لويد جورج ، أن أذكر جلالتيكم بأن مسألة تنقيح المعاهدة شبي
خارج عن الموضوع ، وأنه يقتضي اما قبولها او رفضها كما هي . وتضيف
على ذلك ان زيارة سمو الامير عبدالله لانجلترا يجب اعتبارها أنها تأجلت
في الوقت الحاضر . واذا أردتم جلالتيكم بعد التصديق على المعاهدة فتح
باب موضوعات أخرى لتبادل الحديث فيها وتفويض الامير عبدالله لهذا
الغرض فان زيارة سموه لانجلترا تكون عندئذ فرصة لتقديم تلك
المعرضات لحكومة جلالة الملك البريطانية » .

تألم الحسين من هذا الجواب كثيراً ، وكتب الى القنصل البريطاني

(٣٦) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج ٣ ص ١٥٨ .

في جدة يشرح له الاسباب التي دعتة الى اقتراح ايفاد عبدالله الى لندن ،
ثم قال انه لايفهم اسباب التحدي والتحامل اللذين ظهرا في الجواب ، وانه
لا يريد جواباً على مطالعته الا قول « لا » او « نعم » ، وانه سيجد نفسه
مضطراً لاتخاذ موقف ما اذا لم يحصل من بريطانيا على احدى الكلمتين
« لا » او « نعم » •

وفي اليوم التالي كتب الحسين الى القنصل رسالة أخرى بالمعنى ذاته
وقال فيها : ان رفض الحكومة البريطانية لزيارة عبدالله الى لندن يؤيد
الاشاعة القائلة بان بريطانيا تريد التبرؤ مني ، وان هذا كله يدفعني السى
القول بانني اذا لم يأتني الجواب بـ « نعم » أو « لا » حتى نهاية الشهر
الجاري - أي في ٢٧ شباط - فأنني مضطر الى اعلان تنازلي •

وبعد يومين كتب الحسين الى القنصل رسالة ثالثة ذكر فيها أن مواد
المعاهدة التي يُراد منه المصادقة عليها تقوم على « ما ليس له أصل ولاوجود » ،
يشير بذلك الى ما ورد في المعاهدة في شأن احترام الصلات والحدود المتفق
عليها بين أقطار الجزيرة العربية • فهو يعتبر تلك الحدود ولا سيما تلك
التي هي بين الحجاز ونجد لم يتم حولها اى اتفاق ، وهو يريد اعادة الحدود
الى ما كانت عليه قبل نهاية الحرب •

بلغ التوتر في علاقة الحسين مع بريطانيا أقصاه في ١٤ شباط ١٩٢٢ ،
فقد كتب القنصل البريطانى في جدة رسالة الى الحسين لاتخلو من اهانة
حيث ذكر له ان الحكومة البريطانية أخذت علماً بعزمه على التنازل عن
العرش في ٢٧ شباط ، وانها وهي تذكر تعاونه المخلص وعلاقاته الودية
معه سابقاً تتأسف لاضطراره الى التنازل ، ولكنها تدرك أنها لاشأن لها
في هذه القضية ، اذ هي قضية تخص أبناء شعبه وهو يجب أن يسويها معهم •
فرد الحسين على القنصل برسالة أعرب فيها عن خيبة أمله وقال انه تحمل

المخاطر اعتماداً على عهود بريطانيا دون الرجوع الى الشعب ، ولهذا فان الشعب لاشأن له في قضية تنازله عن العرش (٣٧) .

الدكتور ناجي الاصيل :

ناجي الاصيل شاب بغدادي درس الطب في جامعة بيروت الامريكية، وعند تخرجه منها التحق بالجيش العربي طبيباً برتبة نقيب ، ولما انتهت الحرب حصل على وظيفة في شركة تدعى « الشركة الانكليزية الفرنسية للاعمار في الشرق الاوسط » ، وقد أرسلته هذه الشركة الى الحجاز في حزيران ١٩٢٢ لانشاء بعض المشاريع فيه . وهناك وجد فرصة للاجتماع بالحسين والتحدث اليه .

تشير بعض القرائن الى ان ناجي الاصيل استطاع أن يؤثر في الحسين نفسياً وينال ثقته ، فقد ذكر له الاصيل أنه يعرف بعض الشخصيات المتنفذة في السياسة البريطانية وانه لذلك قادر على عقد معاهدة ترضي الحسين . وقد بلغ تأثير الاصيل في الحسين الى درجة ان الحسين عينه مندوباً عنه في لندن وخوله التفاوض باسمه مع الحكومة البريطانية .

غادر الاصيل الى لندن وهو يحمل صيغة معدلة للمعاهدة ، كما حمل معه رسالة من الحسين الى لويد جورج يقول فيها ان عدم موافقته على المعاهدة سابقاً ناشيء من عدم وجود من نحسن التفاهم معه . وفي أواخر ايلول ١٩٢٢ وصل الاصيل الى لندن وعرض الصيغة المعدلة على وزارة الخارجية ، وحين درسها خبراء الوزارة وجدوا أن التعديلات التي ادخلها الحسين في المعاهدة مقبولة ماعدا اسقاطه مادة واحدة وهي المادة السابعة عشرة التي تنص على الاعتراف بالمركز الخاص لبريطانيا في فلسطين . عادت المفاوضات من جديد بين وزارة الخارجية وناجي الاصيل .

(٣٧) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٩٦ .

وفي ١٦ نيسان ١٩٢٣ تم وضع صيغة جديدة للمعاهدة حيث وضع اللورد كرزن والدكتور الاصيل عليها الحروف الاولى من اسميهما • وفي اليوم التالي غادر الاصيل لندن متوجهاً الى جدة وهو واثق بأن الحسين سوف يوافق على الصيغة الجديدة •

وصل الاصيل الى جدة في ٣٠ نيسان ، وحين درس الحسين الصيغة الجديدة للمعاهدة أجرى عليها بعض التعديلات ، وأرسل القنصل البريطاني تلك التعديلات الى لندن للموافقة عليها • وفي ١٠ أيار وصل الجواب من وزارة الخارجية البريطانية وفيه بعض التحفظات والاقتراحات • فاتصل القنصل البريطاني بالاصيل يبلغه بالجواب ، فظن الاصيل ان الحكومة البريطانية وافقت على التعديلات الجديدة وذهب الى الحسين يبلغه الخبر • وقد ابتهج الحسين بذلك ابتهاجاً لاحد له ، ولم يكن يدري أن الخبر لا أساس له من الصحة وانه من توهمات ناجي الاصيل •

وعندما حل عيد الفطر في ١٧ أيار اعلن الحسين لوفود المهثين ان بريطانيا وافقت على مطالب العرب وعلى الاعتراف باستقلالهم ، وقال : « لا ريب في أنه يوم اجتمع فيه عيدان : عيد الفطر السعيد وعيد الاعتراف باستقلال العرب ووحدتهم • واني أعلن ذلك للامة العربية حاضرها وبأديها » • ثم القى رئيس الديوان الهاشمي بياناً قال فيه : ان الحكومة البريطانية تعترف باستقلال العرب وتتعهد بالمعاضدة الفعلية لتأسيس الوحدة العامة الشاملة لكل البلاد العربية ما عدا عدن ، ثم ختم البيان قائلاً : « فنأمر أن يُعتبر هذا اليوم عيد الاعتراف باستقلال الامة العربية ، والله ولي التوفيق » • وبعد هذا ألقى الاصيل خطبة أشار فيها الى بداية الانقلاب الكبير في حياة الامة العربية الذي قام به الحسين فحطم به سلاسل الاغلال القديمة وجاء اليوم بالاستقلال والاتحاد ، فالامة العربية مدينة لكم يا هولاي • ثم أشار الاصيل الى نفسه وكيف أنه قام بواجب الوطن يوم لبى النداء

فترك الجيش التركي والتحق بالجيش العربي للاشتراك في الدفاع عن استقلال بلادى العربية في تلك المعركة الكبرى ***

لم تمض على ذلك سوى ايام معدودة حتى تبين للناس ان الفرع كان قائماً على وهم • وفي ٥ حزيران نشرت حكومة فلسطين في صحف القدس ملخصاً للمعاهدة ، واتضح مما نُشر أن بريطانيا لم تتخل عن سياسة انشاء الوطن القومي لليهود في فلسطين • فارت نائرة العرب فيها ، وأبرق موسى كاظم الحسيني الى الحسين يلفت نظره الى ذلك • فأجابه الحسين قائلاً : « مولانا أؤكد لكم بهذا أيضاً أن عزمنا الاساسي المؤمنين تأييده بقدرة الله لايمكن ان تتأخر عن واجباته مقدار شعرة • واعلموا انها حركة عليها نجيا وعليها نموت • والحقائق كما ذكرت تصلكم عقبه • فكونوا واثقين بأنه لايعترينا فتور أو كسل في سبيل تلك الغاية الشريفة التى لانريد بها الا خدمة بلادنا وابنائها اخواننا » (٣٨) •

وفي ٢٧ ايلول نشرت جريدة « القبلة » تقول : ان جلالة الملك الحسين رفض التصديق على المعاهدة بالرغم من كل تهديد ، وبالرغم من كل ما أقيم في سبيله من العقبات والعراقيل ، كل ذلك حرصاً من جلالته على حقوق العرب ومحافظة على بلادهم •

عاد ناجي الاصيل الى لندن ، وظل يسعى آملاً أن يعقد معاهدة ترضي الحسين وبريطانيا في آن واحد ، وكان في ذلك كمن يطلب المستحيل • كتب القنصل البريطانى في جدة تقريراً سرياً الى حكومته قال فيه : « اني لأعتقد ان الدكتور ناجي يمكن تبرئته من كونه خادماً سيئاً جداً لحكومة الحجاز • ويبدو انه بذل جهداً كبيراً لتنمية عقدة العظمة لدى الحسين في بادىء الامر • • • فقد كان ناجي يحث الحسين على أن لايقع المعاهدة ، وأن يصمد في موقفه حتى ينال ما يريد ويكون حاكماً على جميع البلاد العربية

(٣٨) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج ٣ ص ١٧٠ •

وكل شيء * ان هذه التأكيدات من ناجي ربما كانت ناشئة عن غروره ، ولكن المكر وحده هو الذى جعله يخبر الحسين بأن وزارة الخارجية البريطانية قد أكدت له أن وعد بلفور لايعنى شيئاً وأنه سيلغى قريباً ، وهذا هو الذى أدى الى الاعلان المشهور في مكة في ربيع ١٩٢٣ * ومنذ ذلك الحين أخذ ناجي يحاول الاحتفاظ بمنصبه عن طريق تمسكه بالآمال بين حين وآخر حول التوقيع على المعاهدة » (٣٩) .

في تلك الآونة وصل من العراق الى لندن جعفر العسكري في مهمة رسمية ومعه توفيق السويدي * فالتقيا بالاصليل ، وجرى بين السويدي والاصليل جدال ومشاجرة شخصية * يقول السويدي في مذكراته : ان الاصليل كان يتمتع في لندن بمركز يؤمن له كل ما ينفقه عن سعة اذ كان يتقاضى مبلغا لا يقل عن ستمائة باون في الشهر ، وكان يبدي نحونا استعلاءً وتكلفاً في معاملاته وحركاته ، وقد ابدى غطرسة حتى في معاملته مع جعفر العسكري الذى كان أمره في جيش الثورة العربية ، فقد كان يريد أن يقدم في التشريفات بمنزلة أرفع من جعفر العسكري باعتبار انه يمثل الملك حسين بينما العسكري يمثل ابنه الملك فيصل * ويذكر السويدي ان الاصليل كان مدفوعاً بشعور يجعله يعتقد ان في امكانه تحقيق اهداف القضية العربية ، فكان يمثل تماماً حماسة الملك حسين فيما يبذله من جهود زائدة لحمل الحكومة البريطانية على تنفيذ وعودها الموهودة * ويروي السويدي أنه كان يتحدث ذات مرة على المائدة بحضور الاصليل وجعفر العسكري ، فتطرق في حديثه الى الملك حسين وذكره باسم « الشريف حسين » ، فغضب الاصليل من هذه التسمية وصار يؤنب السويدي على ذلك * فرد عليه السويدي بما فحواه ان لقب « الشريف » أعظم قدراً وأدعى للفخار من لقب « الملك » * ثم انتهر السويدي الفرصة لينتقد الاصليل على غطرسته

(٣٩) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (اف ٠ او ٣٧١ - ١٠٨٠٨) .

حيث قال : « انني أخشى على الدكتور الاصيل من الزلزل ولست أطمئن على مستقبله لانني أعلم ان الملك حسين طالما بقي متحمساً في مطالبه فانه ينتدبه كممثل له لتسهيل غاياته ، الا ان هذه الغاية وبالا لاسف من الصعب أن تتحقق وسيمثل الملك حسين من المطالبة كما يمل من دفع النفقات المستمرة الباهظة الى الدكتور على المنوال الحاضر ، ويقطعها * وسيبقى الدكتور يبذل ماله الى أن يصيبه العوز فيضطر الى قطع العلاقة مع الملك حسين والرجوع الى العراق ، وعندما يصل اليه سيطلب وظيفة في الحكومة لاي زيد راتبها على ٢٥ ديناراً . وهكذا تنتهي مهمة الدكتور ولا يبقى أثر لهذه العنجهية » . (٤٠)

الحسين وأبنائه :

كان أبناء الحسين يخالفون أباهم في رأيه ومسلكه السياسي ، ويضيقون به ذرعاً ، ولكنهم كانوا مضطرين الى اظهار الطاعة له مهابة له . وكان هو من جانبه يتذمر منهم ويشكو من مخالفتهم له المرة بعد المرة . كان فيصل أكثر اخوته اختلافاً مع أبيه . انه كان يؤمن بان السياسة هي فن الممكن ولهذا اتبع اتجاه الانكليز في العراق مبدأ « خذ وطالب » ، بينما كان أبوه على العكس من ذلك يتبع مبدأ « الكل واما لاشي » ، ولهذا كان يطالب الانكليز بتحقيق جميع وعودهم التي قطعوها له ، وأعلن أنه لن يتنازل عنها قيد شعرة .

غضب الحسين على فيصل عندما بويع هذا بالملك في سوريا عام ١٩٢٠ ، فقد اعتبر الحسين ذلك خيانة من فيصل وعقوباً ، لان سوريا جزء لا يتجزأ من المملكة العربية الكبرى التي يجب أن يكون ملكها الحسين لا غيره . ولما طرد فيصل من سوريا قال الحسين : هذا جزء من لا يسمع كلامي ، ولو

(٤٠) توفيق السويدي (مذكراتي) - بيروت ١٩٦٩ - ص ٨٧-٨٩ .

كانت سوريا قد بقيت تابعة للحجاز لما تجرأ الفرنسيون على احتلالها •
ومن الجدير بالذكر ان الحسين فعل مثل ذلك مع ابنه الآخر عبدالله عندما
أصبحت اماره شرقي الاردن خاضعة للاتداب البريطاني وانفصلت ادارياً
عن الحجاز •

يروى محمد نصيف كبير أعيان جدة : انه كان في توديع فيصل عند
ركوبه الباخرة متوجها الى العراق في عام ١٩٢١ وقال له : « انا نرجو ان
نراك قريباً بيننا في موسم الحج القادم » ، فأجابه فيصل : « كلا لن اعود الى
الحجاز مادام والدي فيه » ، ثم استطرد فيصل قائلاً : « لقد أساء الينا ،
وأخرج مركزنا وعادى أصدقاءنا ولم يبق لنا صديق • حتى أنت نفسك
- يقصد محمد نصيف - وقد كنت أعز صديق لنا وساندتنا ووقفت الى
جانبنا في جميع المواقف ، فقد عاداك وحاربك • لا • لا • لن أعود السى
الحجاز مادام على قيد الحياة » •

ويروي محمد نصيف أيضاً : ان الامير زيد اتفق مع أخويه فيصل
وعبدالله على خلع والدهم واجلاس ابنه الاكبر الامير علي مكانه ، ولكن
الامير علي لم يوافقهم على ذلك وقال لهم : « الناس لا يعرفون الحقائق ،
فاذا ثرنا عليه وأنزلناه عن العرش ، قالوا انا تأمرنا عليه وأنزلناه عن العرش ،
لنجلس مكانه قبل الاوان • يجب علينا أن نحترم شيخوخته ومقامه ولا
نسيء اليه في أواخر أيامه ، ويجب علينا أن نصبر عليه وان نتحمل النتائج
التي تنتج عن اعماله مهما كانت فان ذلك أليق بنا أمام الناس » (٤١) •

ويروي سليمان موسى : انه قابل الامير زيد في لندن عام ١٩٦٨
فجرت بينهما أحاديث شتى كان من بينها حديث أبيه الحسين ، فقال زيد
يصف أباه : « كان الحسين شديد التصلب في آرائه • انه لم يكن انساناً

(٤١) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) - ج ٢ ص ١٤٩ - ١٥٠ •

هيناً ليناً • ولكنه كان دون شك صاحب مبدأ وعقيدة • وغير صحيح أنني كنت أحث الحسين على القبول بالمعاهدة التي عرضتها بريطانيا على يد لورنس لأن الحسين كان لا يصغي لأحد ، ولا يسمع من أحد ، ولم يكن يؤثر أحد عليه » (٤٢) •

الحسين في شرقي الاردن :

في أوائل كانون الاول ١٩٢٣ أعلن الحسين عن عزمه على زيارة شرقي الاردن دون ان يذكر السبب في ذلك • وقد انتشرت الشائعات في شرقي الاردن أن الحسين يعتزم خلع عبدالله عن الامارة وتعيين ولده الاكبر علي خلفاً له فيها (٤٣) •

في ٩ كانون الثاني ١٩٢٤ وصل الحسين الى العقبة ولم يكن فيها مدافع لاطلاق التحية له ، فأوعز هو الى الباخرة التي حملته باطلاق مدافعها تحية له • ويعلق المؤلف البريطاني جارفز على ذلك قائلاً : ان الحسين اتبع المبدأ الياباني الذي يجعل الانسان يصافح نفسه بنفسه (٤٤) •

كان في استقبال الحسين في العقبة جمهور غفير من اعيان البلاد • وقد أعدت له ولحاشيته سيارات عديدة لنقلهم الى محطة سكة الحديد في معان ، ولكن الحسين رفض ركوب السيارات ، بل ركب بغلاً كان قد جاء به معه في الباخرة (٤٥) • فاضطر المستقبلون والحاشية جميعاً الى الاقتداء به ، فأحضرت لهم الدواب من كل صنف مما يمكن العثور عليه في العقبة من الجمال والخيول والبغال • ولوحظ أن بعضهم لم يكن معتاداً على ركوب الدواب وصاروا من جراء ذلك في حالة تستدعي الشفقة ، أما الحسين فكان

(٤٢) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) - عمان ١٩٧٦ - ص ٢٠١ .

(٤٣) خيرى حماد (المصدر السابق) - ص ١٣٩ •

(٤٤) Jarvis (Arab Command) London 1942 - P. 110 .

(٤٥) خيرى حماد (المصدر السابق) - ص ١٤٠ •

على الرغم من عمرة الذي تجاوز السبعين متماسكاً قوياً فوق ظهر البغل ،
وقد قطع المسافة بين العقبة والقويرة - وهي مسافة تزيد على الخمسة
والثلاثين ميلاً - دون ان يالتفت يمنة ويسرة ، أو تظهر عليه أية اشارة
للتعب (٤٦) .

كان فيلبي حينذاك معتمد بريطانيا في شرقي الاردن ، وكان من جملة
المستقبلين للحسين . وهو يقول في مذكراته : انه عندما وصل مع المستقبلين
الى القويرة استدعاه الحسين الى خيمته وصار يحدثه حديثاً كله عذوبة
ورقة ، ثم قال له : « اسمع ، ليس هناك من خلاف بيني وبين ابن سعود .
ألسنا جميعاً من العرب ؟ انني اعتبره واحداً من أولادي ، وأنت صديقه
وصديقي ، في وسعك أن تكون رسولي اليه . وانني لأقبل أية تسوية
ترضاها أنت » . ويعلق فيلبي على هذا الكلام مبدئياً استغرابه من الاتجاه
الجديد الذي لاحظته في الحسين بالمقارنة الى ما كان عليه قبلئذ . ويعمل
فيلبي هذا التغير بأن الحسين ربما اتجه حقه من ابن سعود الى أولاده
الذين خانوه وتنكروا لقضيته ولا سيما فيصل (٤٧) . وفي رأيي ان فيلبي
قد أخطأ التعليل ، والمظنون ان الحسين لم يتجه حقه نحو أولاده بمقدار
ما اتجه نحو الانكليز الذين نكثوا بوعودهم له في اعتقاده .

كان استقبال الحسين في عمان فخماً رائعاً شارك فيه وفود من سوريا
وفلسطين ومن مختلف القبائل البدوية ، كما حضره صحافيون من مصر
والقدس وبيروت ودمشق . ولما أطل الحسين عليهم من نافذة القطار ارتفعت
الهتافات مدوية : « ليحيى ملك العرب ، ليحيى المنقذ الاعظم ! » . وأخذ
فرسان البدو يجولون على خيولهم ويهزجون ، ورفع تلاميذ المدارس
أصواتهم بالهتاف والانشيد . وكانت الطائرات الانكليزية آنذاك تغمغم في
الفضاء مشاركة في الترحيب .

(46) Jarvis (op. cit.) - P. 110.

(٤٧) خيرى حماد (المصدر السابق) - ص ١٤٠ .

أعدت للحسين دار تجاه اللعب الروماني ، فأطل الحسين على جموع
المستقبلين من شرفة الدار . وأخذ الخطباء والشعراء يلقون ما جادت به
« قرائعهم الفياضة » ، فحيوا المنقذ الأعظم والنهضة العربية ، ولعنوا الاستعمار
والمستعمرين ، وهددوا بريطانيا وفرنسا . وجاءت الوفود بعد ذلك لمصافحة
الحسين فتكلم فيهم قائلاً : « انه لا تنازل عن مبدأ واحد من المبادئ التي
هي أركان النهضة ، لا أتنازل عن حق واحد من حقوق البلاد . لا أقبل
الا ان نكون فلسطين لاهلها العرب ، أقول لاهلها العرب . لا أقبل بالتجزئة ،
ولا أقبل بالانتدابات ولا أسكت وفي عروقي دم عربي عن مطالبة الحكومة
البريطانية بالوفاء بالعهود التي قطعتها للعرب . اذا رفضت الحكومة
البريطانية التعديل الذي أطلبه فأني أرفض المعاهدة كلها . لا أوقع المعاهدة
قبل أن آخذ رأي الامة . اني عامل دائماً في سبيل الاتفاق مع أمراء
العرب . اني عامل دائماً في سبيل الوحدة العربية والاستقلال التام ، أقول
الاستقلال التام للاقطار العربية كلها . ولا فرق عندي اذا كان مركز الحكومة
العربية في الحجاز ، او في سورية ، او في العراق ، او في نجد » (٤٨) .

مكث الحسين في شرقي الاردن نحو شهرين ونصف . ولوحظ انه
كان طيلة تلك المدة يتصرف كأنه ملك البلاد . يقول جارفز : ان الحسين
كان طيلة مكوثه في شرقي الاردن يتصرف كأنه الأمر الناهي في البلاد بينما
كان الامير عبدالله يتخذ له مقعداً خلفياً ، وقد سبب ذلك حرجاً للمسؤولين
البريطانيين ، اذ هم كانوا يفترضون في الامير عبدالله أن يكون الحاكم
الفعلي للبلاد لا أن يكون نائباً عن ابيه في حكمها ، كما كانوا يفترضون أن
يكون الحسين ضيفاً مكرماً في البلاد لا أمراً ناهياً فيها . ولم يستطع هؤلاء
المسؤولون أن ينبهوا الحسين الى ذلك بل تحملوه على مضض... (٤٩) .

(٤٨) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٣٢٤-٣٢٥ .
(٤٩) Jarvis (op. cit.) - P. 111. (40)

جاء لزيارة الحسين في عمان السكرتير العام لحكومة فلسطين السر
جلبرت كلايتون ، وبعد عودته الى القدس كتب الى حكومته في لندن تقريراً
قال فيه : ان الحسين كرر بياناته المعتادة حول الوضع الصعب الذي يجسد
نفسه فيه أمام المسلمين عموماً بسبب تحالفه مع بريطانيا أولاً ، ولعدم وفاء
بريطانيا بالعهود التي قطعتها له ثانياً . ثم يقول كلايتون : انه فهم مسن
محادثاته مع الحسين ان الصعوبة التي يشكو منها تتعلق بفلسطين ، وقد
أكد الحسين له أنه على أتم الاستعداد لمساعدة الحكومة البريطانية في أية
وسيلة ممكنة غير أنه لا يستطيع أن يضع نفسه في وضع يعرضه لنقد
المسلمين . واختتم كلايتون تقريره مقترحاً اسقاط مادة واحدة من المعاهدة
وهي المادة التي تتعلق بسياسة بريطانيا في فلسطين ، لان موافقة الحسين على
هذه السياسة ستعرضه الى نقد شديد وستدمر نفوذه عند عرب فلسطين
الذين سيتخلون عنه في الحال ويعلمون انه تخلى عن قضيتهم (٥٠) .

الحسين خليفة :

في ١ آذار ١٩٢٤ أعلن مصطفى كمال باننا إلغاء الخلافة في تركيا، وكان
الحسين لا يزال مقيماً في عمان ، فأخذ ابنه عبدالله يحثه على انتهاز الفرصة
واعلان الخلافة لنفسه . يقول المؤرخ الالماني فون ميكوش : « ولما أعلن
قرار أنقرة بالتخلي عن الخلافة استبدت بالامير عبدالله فكرة استغلال ذلك
الحدث لمجد الاسرة الهاشمية واعلاء شأنها ، وهو الذي يذهب بطموحه
أبعد كثيراً من حدود اماره شرقي الاردن الصغيرة التي لا يملك فيها أمر ،
ويهدف الى تسنم قمة المجد درجة بعد أخرى . فمضى يقنع والده باهتبال
الفرصة ، ويستعمل لذلك وسائل الترغيب التي استعملها في اقناعه باعلان
المورة ضد العثمانيين ، مهيباً بالحسين أن يعلن نفسه خليفة للمسلمين «...» .
ويقول فون ميكوش : ان الحسين تردد في الاخذ برأي ابنه عبدالله ،
ذلك لان الخييات المتكررة التي مني بها على أيدي الانكليز جعلته مضطرباً

(٥٠) سايمان موسى (صفحات مطوية) - ص ١٧١ - ١٧٢ .

ضعيف الثقة بنفسه ، وربما انتابه شعور مبهم بأن خطوة من هذا النوع قد تفضي به الى كارثة • ولكن عبدالله ظل يواصل الالاحاح عليه ، وأخذ يذكره بأن الانكليز خلال مفاوضاته الاولى معهم قيل اعلان الثورة صدر منهم ما يدل على أنهم يرحبون بخلافته على المسلمين (٥١) •

وافق الحسين أخيراً على رأي عبدالله ، وتقرر أن تكون البيعة بالخلافة في ٥ آذار في قرية « الثمونة » التي تقع على مقربة من عمان وهي مشتهرة للامير عبدالله • وقد جاءت الى تلك القرية وفود للبيعة من سوريا ولبنان وفلسطين بالإضافة الى وفود شرقي الاردن ، كما جاء اليها بعض المصريين • فقام الامير عبدالله يبايع أباه ، ثم بايعه من بعده أمين الحسيني باسم فلسطين ، ثم بقية الوفود • وبعد اتمام البيعة ألقى الحسين خطبة طويلة ذكر فيها أنه قبل البيعة بالخلافة حرصاً على إقامة شعائر الدين وصيانة الشرع المبين ، وبناءً على الحاح أهل الرأي والحل والعقد من علماء الدين في الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى وما جاورهما من البلدان والامصار (٥٢) •

أخذت البرقيات تتوالى على الحسين من مختلف الاقطار الاسلامية لتتهنئته ومبايعته بالخلافة • ولا حاجة بنا الى القول ان العراق كان من اكثر الاقطار ، ان لم يكن اكثرها ، اهتماماً بخلافة الحسين وتقديم البيعة له • فقد أخذت الجرائد العراقية تنشر البرقيات التي تردّها من مختلف مدن العراق وعشائره وهي تعلن بيعتها للحسين بالاجماع • واجتمع اعضاء المجلس التأسيسي في القصر الملكي وعرضوا بيعتهم للحسين بن علي أمام الملك فيصل ، ونهض أحمد الشيخ داود فألقى خطبة ضمنها الدعاء « مولانا الخليفة الاعظم » • وفي يوم الجمعة ١٤ آذار ١٩٢٤ أدى الملك فيصل

(٥١) صلاح الدين المختار (تاريخ العربية السعودية) - بيروت - ج ٢ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ •

(٥٢) أمين سعيد (اسرار الثورة العربية الكبرى) - بيروت - ص ٣٥٨ - ٣٥٩ •

صلاة الجمعة في جامع السراي وتليت الخطبة فيه باسم الخليفة الحسين بن علي . ونشرت جريدة « العراق » خبراً بعنوان « خلافة الملك حسين ومبايعة الجعفرية لجلالته » قالت فيه : ان علماء الجعفرية خفوا لمبايعة الحسين مع العلم أنهم امتنعوا من قبل عن مبايعة سلاطين آل عثمان ، وذلك لانهم وجدوا الشروط المطلوبة للخلافة متوفرة فيه ، فهو عربي قرشي علوي ادامي . كما نشرت الجريدة برقية وردتها من عبدالرزاق الوهاب في كربلاء يقول فيها : ان ثلاثمائة ألف زائر في صحح الحسين ، وهم الذين جاؤوا للزيارة بمناسبة منتصف شعبان ، يبائعون الحسين بالخلافة . وكذلك نشرت الجريدة برقية كان قد أرسلها الى الحسين السيد هبة الدين الشهرستاني رئيس مجلس التمييز الجعفري ، وهذا نصها :

« لأعتاب صاحب الجلالة الهاشمية الملك حسين المنقذ الاعظم ارواحنا فداد . أتشرف بلم تلك اليد الطاهرة معترفاً بالخلافة الاسلامية الكبرى لذلك الامام الهاشمي الفاطمي معتقداً في عزماته الحسنى على جمع شمل الموحدين وتعظيم شعائر الدين وحماية حوزة المسلمين نصرهم الله تعالى تحت لوائه آمين » (٥٣) .

عاد الحسين الى مكة فوصلها في ٣٠ آذار ، وكانت الزينات قد أقيمت له في كل مكان ، وأخذت جريدة (القبلة) تنشر البرقيات التي وردتها من انحاء العالم لتهنئة الحسين بالخلافة . ويعلق المؤلف البريطاني هوارث على ذلك قائلاً : لاندري كم هو الصحيح من تلك البرقيات لان الحسين نفسه كان يحرر الجريدة (٥٤) .

(٥٣) انظر جريدة العراق - في أعدادها الصادرة في ١٠ ، ١٢ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢٠ ، من شهر آذار ١٩٢٤ .

(٥٤) David Howarth (The Desert King) - London 1964- P. 141.

الفصل الخامس

عبدالعزیز بن سعود

من سوء حظ الحسين وأسرته أن يظهر من بين خصومه رجل يُعد من دهاة التاريخ وجبابرته ، هو عبدالعزيز بن سعود * فلولا ظهور هذا الرجل لكان التاريخ المعاصر للجزيرة العربية غير ما عهدناه ، ولربما بقي الحسين وأسرته يحكمون الحجاز حتى يومنا هذا *

سنحاول في هذا الفصل دراسة سيرة هذا الرجل منذ بداية حياته حتى فتحه مكة ، وسوف تتم دراسة سيرته في فصل آخر *

بداية حياته :

هو عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل بن تركي من أسرة آل سعود المشهورة * ولد في الرياض في أوائل عام ١٨٧٧ (١) ، وحين كان صبيّاً لجأ مع أبيه وأخيه الأصغر محمد وابن عمه جلوي الى قبيلة بني مرة وهي قبيلة بدوية موغلة في البداوة تعيش على حافة الربع الخالي * فنشأ ابن سعود في تلك البيئة البدوية الخشنة وتعلم منها قيمها وثقافتها الاجتماعية (٢) *

كان عبدالرحمن والد ابن سعود شديد التدين ، ولم تعجبه الحياة في بني مرة لانه وجدهم متساهلين في دينهم غير طاهرين * فتركهم ولجأ الى الكويت مع عائلته ، وكان ذلك في أواخر عام ١٨٩٢ ، وسكن في بيت صغير بجوار الميناء مؤلف من طابق واحد يضم ثلاث غرف *

كانت الحكومة العثمانية قد خصصت لعبدالرحمن راتباً شهرياً قدره

(١) خيرالدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز) - بيروت ١٩٧٧ - ص ٥٨ *

(2) Armstrong (Lord of Arabia) - London 1938 - P. 33-32.

ستون ليرة ، اذ كانت تأمل أن تستفيد منه في يوم من الايام * وكان هذا الراتب ذا قوة شرائية لأبأس بها يومذاك ، ولكن مشكلته أنه لم يكن يُدفع بانتظام كما جرت عليه العادة في الدولة العثمانية * وقد عانى عبدالرحمن من جراء ذلك كثيراً من الضيق ، واضطر في بعض الاحيان الى الاستدانة من الاصدقاء وأصحاب الدكاكين .

كان الصبي عبدالعزيز بن عبدالرحمن في بداية حياته في الكويت يلعب مع أقرانه في الازقة ، كما هو ديدن الصبيان في الاحياء الفقيرة * وقد لوحظ عليه في تلك الفترة انه كان يتميز عن أقرانه بقوة الشخصية والميل الى الزعامة * يروي حافظ وهبة عن بعض المسنين من أهل الكويت الذين رافقوا عبدالعزيز في صباه : انه كان يفوق الصبيان من أقرانه نشاطاً وذكاءً ، وكان يتزعمهم في اللعب * ولوحظ عليه أيضاً انه كان يحسب الاستماع الى ما يتحدث به المسنون عن مجد جده فيصل بن تركي وعسن منامراته في سبيل اعادة مجد أسرته (٣) .

ويروي أرمسترونج : أن ابن سعود حين بلغ طور الشباب كان يتفاخر أمام أقرانه بأنه الوارث لدولة الرياض ونجد ، وانه لا بد في يوم من الايام أن يطرد ابن رشيد منها ويعيد مجد الاجداد * فكان أقرانه يضحكون عليه ويسخرون منه ، وكان هو يغضب منهم ، غير أنه بالرغم من ذلك لم يكن يفقد ثقته بنفسه (٤) .

في أواخر ١٩٠١ قرر ابن سعود أن يقوم بمغامرة خطيرة آملاً أن يعيد بها مجد أسرته أو يموت دونه * فقد خرج من الكويت ومعه أربعون فارساً من اقربائه وأعوانه ، ونحو عشرين من اتباعهم ، فتوجه بهم نحو الرياض

(٣) حافظ وهبة (خمسون عاماً في جزيرة العرب) - القاهرة ١٩٦٠ - ص ٢٧ .

(٤) Armstrong (op. cit.) P. 40

بغية استخلاصها من حكم ابن رشيد أمير حائل • وفي ١٥ كانون الثاني ١٩٠٢ استطاع بضربة بارعة أن يحتل الرياض • فكان ذلك بداية صعود نجم هذا الشاب الطموح •

يقول الباحث البريطاني ترويلر : « ان قصة احتلال ابن سعود للرياض صارت اسطورة في التراث الشعبي البدوي ، فقد أثبت ابن سعود بها أنه يملك الصفات التي تؤهله للشيخوخة وهي الشجاعة والزعامة والحظ ، ويجب أن نذكر ان الجرأة التي أبداهها ابن سعود في تلك المغامرة استهوت خيال سكان المنطقة الوسطى من الجزيرة العربية » (٥) .

توالت انتصارات ابن سعود بعد تلك المغامرة ، كما توالت هزائمه أيضا • ولكن الهزائم لم تكن لتثنيه عن عزمه ، ولعله كان يزداد مضياءً وعزيمة عندما تحل به الهزيمة - وتلك صفة لا يملكها الا القليل من البشر ! •

عوامل النجاح :

هناك عدة عوامل ساعدت ابن سعود على النجاح نذكر فيما يلي أهمها :

أولاً : انه كان ذا دهاء فطري يدرك أن السياسة هي فن الممكن • ويقال انه تلقى دروساً عملية في السياسة من مبارك الصباح شيخ الكويت المشهور . والمعروف عن مبارك انه كان يحب ابن سعود ويشركه في مجالسه ومؤتمراته . يقول ارمسترونج : ان مبارك علم ابن سعود كثيراً من فن الحكم ، وقد تعلم ابن سعود منه بسرعة واستعداد ، فعندما كان يحضر مجالس مبارك ومؤتمراته كان يجلس في الزاوية متربحاً ويده مسبحة من الكهرب ويصغي الى ما يقال ويتعلم (٦) •

(5) Troeller (The Birth of Saudi Arabia) - London 1976-P.21.

(6) Armstrong (op. cit.) - P. 40-41.

ثانياً : اجتذب ابن سعود اليه بعض المستشارين من البلاد العربية المختلفة ، لكي يطلع عن طريقهم على أحابيل السياسة العالمية • ولكنه لم يكن يقبل كل ما يقوله له المستشارون ، بل كان يستمع الى كل واحد منهم ، ويوازن بين أقوالهم ، ثم يصدر حكمه النهائي بعد التروي • ولوحظ انه لم يكن يحب من مستشاريه أن يؤيدوه في كل ما يقول ، بل كان يريد منهم أن يصارحوه الرأي^(٧) • ان ابن سعود يختلف في هذا عن بعض رجال الحكم الذين اعتادوا على تقريب المداحين والمتزلفين فضاعت بذلك عليهم حقائق الحياة •

ثالثاً : كان ابن سعود كثير السخاء ينفق الاموال التي تتوافر لديه على الاعوان وعلى من يريد اجتذاب قلوبهم • انه كان يسير في ذلك على المبدأ البدوي القائل : « اصرف ما في اليد يأتيك ما في الغد » • وكان في ذلك على النقيض من خصمه الحسين الذي كان يتبع المبدأ الحضري القائل : « القرش الابيض ينفع في اليوم الاسود » • كان شعار الحسين « ان المال يفسد الرجال »^(٨) ، بينما كان شعار ابن سعود : « ان المال يجذب الرجال » • والواقع ان الشعار الثاني أدعى للنجاح في هذه الحياة من الشعار الاول •

رابعاً : كان ابن سعود يملك موهبة نفسية تجعله قادراً على التأثير في من يقابله وعلى اجتذابه ، وهي الموهبة التي تسمى في علم الاجتماع بـ « الكارisma » • يقول ترويلر في وصف ابن سعود : ان معظم المؤرخين اتفقوا على أنه يملك « الكارisma » ، فهو طويل عريض المنكين وسييم يمثل الرجولة العربية ، وله جاذبية لاحظها كثير من الذين قابلوه •••^(٩)

(٧) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص ٤٨ •

(٨) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) - بيروت ١٩٥٤ - ص ٣٤٧ •

(٩) Troeller (op. cit.) - P. 21.

خامسا : من الممكن القول ان ابن سعود كان يملك موهبة التمثيل وهي الموهبة التي يحتاج اليها رجل السياسة في كير من الاحيان • فابن سعود قد يقابل عدواً له تفصي السياسة أن يبدي له الحب ، وتراد عند ذلك يقوم بدور المحب الذي لاسك في اخلاصه • وهو قد يتظاهر بالبكاء وتنهسر دموعه فعلا اذا وجد من المصلحة أن بفعل ذلك • ويقال ان الملك فيصل الاول كان يشبه ابن سعود في موهبة التمثيل هذه الى حد غير قدل •

سادسا : المظنون ان سعود كان يملك ما يسميه العوام ب « الحظ » • ومن الجدير بالذكر ان موضوع « الحظ » موضوع نائك معقد لامجال لتحدث عنه ها ، مكفي أن نقول ان البحوث « البارالوجية » الحديثة بدأت تكتشف وجود قوى خفية في بعض الافراد يستطيعون بها السيطرة على المصدي وتوجيهها نحو مصالحتهم قليلا او كثيرا • ان العلم لايعرف كنه تلك القوى ، ولكنه اكتشف بعض مظاهرها وتأثيراتها • ومن يدري فلعل العلم يكتشف كنهها في المستقبل^(١٠) • ومهما يكن الحال فاننا نستطيع أن نضع ابن سعود في فائمه اولئك الذين يملكون قسطاً غير قليل من تلك القوى • وقد خصص خيرالدين الزركلي في كتابه عن ابن سعود فصلا ذكر فيه الحوادث التي تدل على وجود موهبة « الحظ » لديه ، وهو سسبه ب « التوفيق »^(١١) •

نشأة الاخوان :

كان جيش ابن سعود في أول أمره مؤلفاً من البدو في الغالب ، وكان

(١٠) انظر في موضوع علم « البارالوجيا » كتاب (لمحات اجتماعية من

تاريخ العراق الحديث) للمؤلف - ج ٥ ف ٢ م ٤ •

(١١) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٥٨١ - ٥٨٥ •

علم ان البدو ليس لهم قيمة حربية كبيرة لانهم يحبون الغزو والنهب ،
وهم لذلك ينضمون الى اية حركة جديدة حين يتوقعون الغنيمة فيها ،
وسرعان ما يتركونها عندما يلمحون فيها بوادر الانكسار • يقول حافظ
وهبة : « ليس للبدوي قيمة حربية تذكر ••• وكثيرا ما كان البدو سرآ
على الامير المصاحيين له ، فان ذلك الامير اذا بدت منه الهزيمة كانوا هم
البادئين بالنهب والسلب ، ويحتجون بأنهم أولى من الاعداء المحاربين •••
واكن البادية لاتعرف غير النهب والسلب وعندها الغنيمة مقدمة على كل
سوى ••• والبدوي اذا لم يجد سلطة تردعه او تضرب على يده يرى من
حقه نهب الغادي والرائح ، فالحق عنده هو القوة يخضع لها ويخضع
عمره بها ••• » (١٢) •

فكر ابن سعود وأطال التفكير ، لاييجاد حل لهذه المشكلة • انه يريد
جنودا يطيعونه في السراء والضراء لكي يبني بهم دولته العتيقة ويعيد
مجد الآباء • وقد تفنق ذهنه أخيراً عن حل مستمد من تاريخ الاسلام ،
وهو ما كان يسمى بـ « الهجرة » • فقد كان المسلمون في عهد الرسول
فريقين : اعراب ومهاجرين • وكان المقصود بالاعراب البدو ، وقد ذمهم
القرآن ووصفهم بأنهم « أشد كفراً ونفاقاً وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل
الله على رسوله » (١٣) • ولهذا كان المفروض فيمن يريد أن يكون مسلماً حقيقياً
أن يترك البداوة وينظم الى زمرة المهاجرين في المدينة • وقد اعتاد المسلمون
أن ينظروا الى المسلم الذي يغود الى البادية بعد اسلامه نظرة استنكار
سديد ، ويقولون عنه انه « تغرب » ، أي صار اعسارياً وارتد الى
عقبيه (١٤) • والواقع ان « الهجرة » كان لها أثرها في تغيير شخصية البدوي

(١٢) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) - القاهرة ١٩٦٧
- ص ١٠ •

(١٣) القرآن ، سورة التوبة ، آية ٩٨ •

(١٤) علي الوردي (منطق بن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته) -
القاهرة ١٩٦٢ - ص ١٠١ - ١٠٢ •

قليلا او كثيراً ، فان البدوي حين ينضم الى البيئة الجديدة التى خلقها الاسلام في المدينة يجد نفسه مضطراً الى ترك قيمه القديمة والى اتخاذ القيم الجديدة التى جاء بها الاسلام •

شجع ابن سعود قيام قرى ثابتة في نجد لكي يهاجر اليها البدو ويستقروا فيها • وقد أطلق على تلك القرى اسم « الهجر » ، وكانت أول هجرة ظهرت للوجود في عام ١٩١١ في موضع يدعى « الارطاوية » يقع في منتصف الطريق بين الكويت والقصيم • وتلا ذلك ظهور هجر أخرى تدريجياً حتى بلغ عددها بعد ثمانية عشر عاماً ١٢٢ هجرة ، وبلغ عدد رجالها ٧٦٥٠٠ رجلاً •

أرسل ابن سعود الى الهجر « المطوعين » - أي الوعاظ - كما جهزها بما تحتاج اليه من مواد وأموال لتكون قرى زراعية ناجحة • وقد سادت الهجر حياة جديدة لم يعهدها البدو من قبل ، فهم قد باعوا ابلهم واحترفوا الزراعة والتجارة كما تركوا سكنى الخيام وسكنوا بيوتاً مبنية من اللبن ، وابسوا العمامة البيضاء بدلا من العقال ، وأطلقوا على انفسهم اسم « الاخوان » باعتبار أن المؤمنين أخوة ، وانصرفوا الى الصلاة والعبادة وتدارس السيرة النبوية • وكانت كل هجرة تضم مسجداً في وسطها ، وكان المسجد يفص المصلين والدارسين في معظم الاوقات •

أراد الاخوان أن يتشبهوا بالمسلمين الاولين في كل شيء ، وهذا أمر لا بد أن يؤدي بهم الى التطرف لعدم وجود قائد حكيم بينهم من طراز محمد يردهم الى جادة الاعتدال • وقد أعطانا حافظ وهبة صورة لبعض مظاهر التطرف الذى انتشر بينهم فيقول : « لقد تشرب هؤلاء كثيراً من المبادئ والتعاليم الناقصة حتى اعتقدوا انها هي الدين وما سواها ضلالة ... » وكان كثير منهم يعتقد ان لا اسلام لمن لم يسكن الهجرة ، مهما كان عليه من الاسلام ، وترك شرور البادية وعوائدها ، فلا يبدأون غيرهم من هؤلاء

بسلام ، ولا يردون عليهم السلام ، ولا يأكلون ذبائحهم • وذب هؤلاء
عندهم هو عدم سكنى الهجرة • وكان من عوائد الإخوان اذا قدموا زائرين
قاموا في المسجد وقالوا : السلام عليكم يا الاخوان اخواننا يسلمون عليكم •
وكانوا يعتقدون ان الحضر ضالون وغزو المجاورين واجب وأنه أُلقي
عليهم هذا الواجب من قبل الله ، فلا يسمعون كلام أحد في منع الغزو •••
الى غير ذلك من ضروب الجهالة ، وأصبحوا يحرمون كل مالا يتفق
وهوهم • وان سريان هذه الروح المتمردة يرجع الى هؤلاء الجهلة انصاف
المتعلمين الذين انتشروا في قرى الإخوان باسم العلم ولقنوهم هذه التعاليم
وحبوا اليهم التعصب الذميم» (١٥) •

صار الإخوان يعتبرون حياة البادية هي حياة الجاهلية بعينها ، واعتقدوا
ان الاسلام الحقيقي هو في التخلص من كل ما يُشم منه رائحة الجاهلية ،
والتمسك بسنة النبي وأصحابه • فالعقال مثلاً أصبح في نظرهم من البدع
المنكرة ، وغالى بعضهم فجعله من لباس الكفار وأوجب مقاطعة لابسيه •
واعتبروا أن السنة في لبس العمامة البيضاء بدلاً من العقال • وكانوا يخاطبون
الرجل الذي ظل على بداوته : « أنت يابدوي مشرك ••• أنت يا أبو
العقال من الكفار ، أنا أخو من طاع الله ، وأنت أخو من طاع الشيطان» (١٦) •
واعتبروا الشارب الطويل والثوب الطويل مخالفين للسنة ، وكان بعضهم
يحملون المقص معهم فاذا وجدوا رجلاً طويلاً الشارب أو طويلاً الثوب
عمدوا الى قصها بالمقص (١٧) •

يجب أن لا ننسى ان هذا التطرف الذي صاحب حركة الإخوان كان
على الرغم من جوانبه السلبية له جانب ايجابي هو أنه خلق من الإخوان

(١٥) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص ٢٩٠ •

(١٦) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٢٦٥ •

(١٧) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص ٢٩٢ - ٢٩٣ •

جنوداً فدائيين برسور بأنفسهم إلى الموت وهم واثقون أنهم ذاهبون إلى الجنة • يقول حافظ وهبه : « أصبح الإخوان لا يهابون الموت بل يندفعون فيه اندفاعاً طلباً للشهادة ولقاء الله » ، وأصبحت الأم حينما تودع ابنها تودعه بهذه الكلمات : « جمعنا الله وإياك في الجنة » ، وأصبحت كلمة التشجيع على الحرب : « هبت هبوب الجنة ويسن أنت يا باغيها » ، وكلماتهم عند الهجوم : « إياك نعبد وإياك نستعين » • ولقد شاهدت بعض مواقعهم الحربية فوجدتهم يقذفون بأنفسهم إلى الموت قذفاً ويتقدمون إلى أعدائهم صفّاً صفّاً ، ولا يفكر أحدهم في شيء إلا هزيمة العدو وقتله • والإخوان على العموم لا تعرف قلوبهم الرحمة على الأعداء ، ولا يفلت من تحت يدهم أحد ، فهم رسل الموت أينما رحلوا » (١٨) •

ويروي حافظ وهبة قصة رجل من الإخوان جاء إلى أحد شيوخ الدين يسأله عن النفاق وعن الخوف في الحرب ، وأخذ يشكو إليه من أن في قلبه نفاقاً حيث قال له : « انني حينما كنت أهاجم وجدت في نفسي شيئاً من التردد بسبب أزيز الرصاص ، ولا بد أن يكون النفاق في جنبي • أخسرج النفاق بعصاك أيها الأخ » • فقال له الشيخ : ان هذا ليس من النفاق أو الفرار من الزحف ، وأفهمه : انه اذا لم يعط العدو ظهره فلا يسمى ذلك نفاقاً أو فراراً • فقال الرجل : لا ، ان شاء الله لأعطي العدو ظهري ، ان هذا كفر يا شيخ !

ويروي حافظ وهبة قصة أخرى هو ان رجلاً من الإخوان وجد صرة فيها نقود ذهبية عقب إحدى المعارك الحربية التي خاضها الإخوان ، فجاء بها إلى أحد شيوخ الدين يسأله : هل هي حلال له ؟ فقال الشيخ له : انها من الغنيمة ولا يحل له من الغنيمة إلا ما يصيبه بعد القسمة • فأسرع الرجل

(١٨) المصدر السابق - ص ٢٩١ •

الى متولي الغنيمة فسلم الصرة اليه قائلاً : « لا والله لاستحقها » (١٩) .

ان هذه الروح الفدائية التي سيطرت على الاخوان جعلت منهم قوة
حربية كبرى في يد ابن سعود أخذ يهدد بها الاقطار المجاورة . وقد صار
الاخوان ابتداءً من عام ١٩١٩ بشنون الغارات على الكويت والعراق
والاردن والحجاز ، فأثاروا الرعب في تلك الاقطار . وقد رأينا نموذجاً
من أفعالهم في واقعة تربة .

الفرصة المؤاتية :

كان ابن سعود بعد أن تنامت لديه قوة الاخوان يطمح لغزو الحجاز .
ان آل سعود قد فتحوا الحجاز في حركتهم الاولى ، وهو يريد ان يسير
على أثرهم ، ولكنه كان يخشى أن يمنعه الانكليز من ذلك ، وهو لم يكن
يحب أن يصطدم بالانكليز على أي حال .

ظل ابن سعود يتربص الفرصة للقيام بحركته تجاه الحجاز . وقد
جاءته الفرصة أخيراً في ٥ آذار ١٩٢٤ عندما أعلن الحسين الخلافة في
عمان . فقد أدى هذا الاعلان الى غضب بعض الاوساط الاسلامية في الهند
ومصر وغيرها . أضف الى ذلك ان الانكليز قاموا في ٣٠ منه بقطع
المعونة المالية التي كانوا يدفعونها لابن سعود ، فكان ذلك عاملاً إضافياً جعل
ابن سعود يصمم على غزو الحجاز . يقول الباحث ترويلر : ان حادثين
حدثا في شهر آذار ١٩٢٤ كان لهما بلا شك أثرهما القوي في دفع ابن
سعود الى مهاجمة الحجاز : أولهما انتقال الحسين الخلافة في ٥ منه ،
والثاني قطع بريطانيا في ٣٠ منه للمعونة المالية التي كانت تدفعها لابن سعود ،
وقد شعر ابن سعود على اثر ذلك انه سوف لا يخسر كثيراً لو غضبت عليه

(١٩) المصدر السابق - ص ٢٩٢ .

بريطانيا ، ولم يبق لديه مانع قوي يسنعه من اطلاق اتباعه المتحمسين علي
الحجاز (٢٠) .

وقد أشار حافظ وهبة الي مثل ذلك في مذكراته ، فهو يقول : ان
الظروف كانت حينذاك ملائمة لاطلاق سيوف الاسلام - ويقصد بهسم
الاخوان - علي الحجاز ، فان اعلان الحسين الخلافة أغضب عليه اكثريه
العالم الاسلامي ، كما أن موقف الحسين من فلسطين أغضب عليه الانكليز ،
فلم يبق لدى الحسين من يعتمد عليه سوى أخيلة لم تحققها الايام . ويضيف
حافظ وهبة الي ذلك قائلاً : ان ابن سعود كان متهيأ من القيام بغزو الحجاز
لانه لم ينس انذار بريطانيا له في عام ١٩١٩ عقب واقعة تربة ، ولكنه
- أي حافظ - أوضح له ان الظروف تختلف عنها في أيام تربة ، وذكر له
كيف أن الحسين كان في أيام تربة حليفا مطوعا لبريطانيا أما الآن فقد أصبح
مناوئاً لها . وأخذ يؤكد له أنها فرصة ثمينة يجب انتهازها وقال ان الفرص
لايوجد بها الزمن الا مرة واحدة (٢١) .

تأجيل الغزو :

في الوقت الذي صمم فيه ابن سعود علي غزو الحجاز أصيب بمرض
غريب جعله يؤجل الغزو فترة من الزمن .

بدأ المرض بورم في الوجه عقب ليلة قضاها ابن سعود مع إحدى
زوجاته . وكانت امرأة شمريه من آل الرشيد . وأخذ الورم يشتد عليه ،
وتسمم بدنه وارتفعت درجة حرارته ارتفاعاً خطراً (٢٢) . وانتشرت
الاشاعات عنه أنه مات ، غير ان المرض خف عنه تدريجياً بمرور الايام .

(20) Troeller (op. cit.) - P. 216.

(٢١) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) - ص ٥٥ - ٥٦ .
(22) Armstrong (op. cit.) - P. 159.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان عبدالرحمن والد ابن سعود كان معتقداً بان المرض نشأ من البخور الذي تبخر ابنه به في تلك الليلة ، واتهم الزوجة الشمريّة بأنها قد وضعت السم في البخور لكي تنتقم لقومها منه . وأمر ابنه بأن يطلقها . فطلقها ابن سعود طاعة لامر أبيه على الرغم من اعتقاده ببراءتها . ويروى عن ابن سعود انه قال عن تطليقه لتلك الزوجة : « لقد طلقته وهي تبكي وأنا أبكي ، لاني كنت واثقاً بأن التورم حصل صدفة وانها بريئة من اى سوء نية او سوء قصد ، ولكنني نزولا عند أوامر والدي طلقته » . وقد ظل ابن سعود بعد ذلك يزور تلك المرأة لانه كان يحترمها ويودها كثيراً (٢٣) .

والغريب أنه بعد مرور أربعة أشهر على هذا المرض ظهرت بوادر الرمد على عينه اليسرى ، والمنظنون انه الرمد الصديدي . فجيء له بأطباء شعيين فلم ينفعوه شيئاً وأخذ الرمد يشتد عليه ، وظهرت على عينه لطفخة بيضاء أفقدته البصر فيها . فجيء له بطبيب سوري استطاع أن يخفف من التهاب العين ، ولكن اللطفخة البيضاء ظلت باقية . وفي كانون الثاني ١٩٢٦ عندما تم لابن سعود فتح الحجاز استدعي له من مصر بعض أطباء العيون المعروفين كان من بينهم سالم الهنداوي وجلال أبو السعود ، فأجروا له عملية جراحية تمكنوا بها من اعادة شيء من البصر الى عينه المصابة عن طريق فتحة صغيرة في القرنية ينفذ منها الضوء . أما اللطفخة فلم يتمكنوا من ازالتها .

مؤتمر الرياض :

عندما شعر ابن سعود بان صحته تمكنه من القيام بغزو الحجاز أوعز بعقد مؤتمر في الرياض يحضره رجال الدين وزعماء الاخوان للمداولة في

(٢٣) أمين المميز (المملكة العربية السعودية كما عرفت) - بيروت ١٩٦٣
- ص ٣٣٨ - ٣٣٩ .

الامر • وقد انعقد المؤتمر في ٤ حزيران ١٩٢٤ برئاسة عبدالرحمن والد ابن سعود •

افتتح عبدالرحمن المؤتمر فذكر كيف ان الحسين منع الاخوان من الحج ، وقال ان كتباً عديدة وردته من الاخوان وهم بغفون الحج ، وأنه ارسل تلك الكتب الى ولده عبدالعزيز ، وها هو عبدالعزيز أمامكم فاسألوه عما تريدون • وعند هذا قام ابن سعود وقال للحاضرين : ان كتبهم وصلته وان الامور مرهونة بأوقاتها وان لكل شيء نهاية • فقام سلطان بن بجاد أحد زعماء الاخوان الاقوياء وقال بلهجته النجدية : « يا الامام حنا نبغسي الحج ولا نريد أن نصبر أكثر مما صبرنا على ترك ركن من اركان الاسلام مع قدرتنا عليه • ليست مكة ملكاً لاحد ، ولا يحق لاحد أن يمنع المسلمين أو يصد المؤمنين عن أداء فريضة الحج • نريد أن نحج يا عبدالعزيز ، فاذا منعنا الشربف حسين دخلنا مكة بالقوة • واذا كنتم ترون من المصلحة تأجيل الحج في هذا العام فلا بد من غزو الحجاز لنخلص البيت الحرام من أيدي الظالمين المفسدين » •

علق ابن سعود على هذا الكلام قائلاً بأن مسألة الحج هي من المسائل التي يرجع الفصل فيها الى علماء الدين ، وها هم العلماء حاضرون فليتكلموا فتكلم أحدهم وهو الشيخ سعد بن عتيق ، فذكر ان من أصول الشريعة النظر الى المصالح والمفاسد ، واذا كان الحج يؤدي الى ضرر او مفسدة وجب تأجيله ، وهذا أمر يعود الفصل فيه الى الواقفين على السياسة ، وهو ما نريد أن نسألهم عنه • وعند هذا تكلم ابن سعود فقال ما يلي :

« نحن لانود أن نحارب من يسلمنا ، ولا نمتنع عن موالة من يوالينا • ولكن شريف مكة كان دائماً كما تعلمون يزرع بذور الشقاق بين عشائرناء وهو الوارث من أسلافه بغضنا • ومع ذلك فقد بذلت كل مافي وسعي لحل

المشاكل التي بيننا وبين الحجاز التي هي أحسن • وكنت كلما دنوت من الحسين تباعد ، وكلما لنت له تجافى ، أي ورب الكعبة ! ولست أرى في تطور الامور ما ينعش الامل ، بل أرى الامور تزداد شدة وارتباكاً • ولا يحسن الاستمرار في خطة لاتعزز حقوقنا ومصالحنا •

لم يكد ابن سعود يتوقف عن الكلام حتى هتف الجميع توكلنا على الله ! الى الحجاز ! الى الحجاز ! (٢٤) •

غارة الاردن :

أعد ابن سعود رتلين : أحدهما وهو الرئيسي وجهه الى الحجاز ، والثاني وجهه الى شرقي الاردن • والظاهر ان الرتل الثاني كان المقصود منه صرف الاذهان عن حركة الرتل الاول •

وصل الرتل الثاني الى مقربة من عمان في ١٤ آب ١٩٢٤ • وفي صباح ذلك اليوم بينما كان الكولونيل بيك قائد القوات الاردنية يتجول على فرسه بالقرب من عمان فوجىء بمجموعة من النساء قادمات نحوه وهن يعصرخن : « اخوان •• اخوان ! » ، ولما سألهن بيك عن الخبر قلن له ان الاخوان هاجموا قرية طنب وذبخوا معظم سكانها وهم متوجهون الآن نحو عمان • فأسرع الكولونيل بيك الى ثكنات الجنود وأمرهم بالتحرك بمصفحاتهم لقتال الاخوان ، كما ذهب الى مقر القوة الجوية طالباً اعداد الطائرات لقصفهم • ثم ركب بيك طائرة استكشافية لكي يشرف على المعركة من الجو •

بوغت الاخوان بالنيران تنصب عليهم من المصفحات والطائرات معاً ، فتكبدوا من جراء ذلك خسائر فادحة ، وفروا لايلون على شيء بعد أن تركوا وراءهم خمسمائة قتيل ونحو ستمائة أسير كان كثير منهم جرحى •

(٢٤) امين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٣٢٦ - ٣٢٧ •

انها في الواقع لم تكن معركة بل كانت بالمدبحة أشبه • وقد انتقد بعض الكتاب في بريطانيا هذه القسوة البالغة في مواجهة الاخـوان ، ووصفوها بأنها كانت أكثر مما ينبغي • فرد عليهم الميجر جارفز قائلاً : ان هذه القسوة كانت ضرورية لانقاذ سكان الاردن من الرعب الذي كان مسيطرا عليهم لان الاخوان في غاراتهم لا يرحمون حتى النساء والاطفال • ويقول جارفز : ان الانسان حين يواجه عدواً اعتدائياً سفاكاً يجب أن يأخذ بعين الاعتبار كيف سيعامله العدو لو انتصر عليه (٢٥) •

كان الامير عبدالله في تلك الآونة في الحجاز ، وقد عاد الى عمان في ١٩ آب - أي بعد وقوع المذبحة بخمسة أيام - فقدم له الكولونيل بيك أربع من الرايات الخمس التي كان قد غنمها من الاخوان • فسأله الامير عن مصدر الراية الخامسة ، فأجابه بيك أنه أخذها لنفسه اذ هي حصته من الغنائم • فضحك الامير وقال : احتفظ بها فأنت تستحقها (٢٦) •

أرسل ابن سعود الى بريطانيا احتجاجاً على ما فعلت قواتها بالاخوان ، وكانت حجته ان القبائل الاردنية هي التي بدأت بالعدوان • فردت عليه بريطانيا ببرقية أرسلتها عن طريق قنصلها في بوشهر ، حيث قالت للقنصل ما يلي :

« يجب أن تخبر ابن سعود بأن الحكومة البريطانية قد تسلمت احتجاجه بكل دهشة • انها تعتبر نفسها هي صاحبة الحق في الاحتجاج على ما جرى في شهر آب الماضي حين قام جمع من القبائل الوهابية بغارة مسلحة على منطقة تقع تحت الانتداب البريطاني • ان الحكومة البريطانية مانزومة بأن تصد مثل هذه الغارة بكل وسيلة تقع في يدها • ان ابن سعود

(25) Jarvis (Arab Command) London 1924 — P. 115—118.

(26) Ibid. P. 118.

يمكن أن يكون واثقاً من أن الحكومة البريطانية ستفعل تجاه أية غارة أخرى بعمل ما فعلت تجاه الغارة الأولى ... انه يجب ان يفهم بوضوح ان الحكومة البريطانية لن تتساهل تجاه أي هجوم على منطقة تقع تحت مسؤوليتها . أما بالنظر الى شكواه حول الباديء بالعدوان فيجب أن تذكر بالرسالة المرسلة ببرقبتنا في الاول من آب الماضي . فالوهايون بدلا من أن يطالبوا بالتحقيق حول الغارة التي زعموا انها نسبت عليهم من شرقي الاردن اخبروا أن . أخذوا القانون بأيديهم . انهم يجب أن لا يلوموا غير أنفسهم لما قاموا به من عمل عدواني سيء التوجيه أدى بهم الى الاصطدام مع القوات البريطانية ... » (٢٧) .

واقعة الطائف :

حين بلغ الحسين خبر المذبحة التي حلت بالاخوان في شرقي الاردن استبشر بها كثيراً . انه لم يكن يدري ان ابن سعود يعد العدة له وهو على وشك مهاجمته . لقد كان الحسين واثقاً ان الاخوان لو هاجموا سيحل بهم منلما حل بهم في شرقي الاردن . يقول أمين الريحاني : ان الحسين كان حينذاك في قصره متوسداً وسادة الخلافة مطمئن البال واثقاً بما تضمنه الايام وهو يدبج المقالات لجريدة « القبلة » ، حيث يقول : « نحن نشكر كمالات حكومة بريطانيا العظمى على ما أظهرته من الحمية في الشرق العربي . يفتصد شرقي الاردن - ولكننا مع ذلك لا نتنازل عن حق من حقوقنا . ان سوريا جزء من المبلاد العربية وان فلسطين للعرب . ولا نوقع معاهدة فيها ما ينفي هذا القول بل هذا الحق ... ومن أعرف منا بالبدو وبالتدينية - يقصد الاخوان - ان قبلة من يدفع تبدهم ، وطيارة واحدة تشتت شملهم . والبرهان في الشرق العربي » (٢٨) .

(٢٧) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . او . ٣٧١ - ١٠٠١٣) .

(٢٨) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٣٣٠ .

كان الاخوان يتجمعون في تربة وقد بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف ، وكانوا برئاسة الشريف خالد بن لؤي وسلطان بن بجاد . وفي أواخر شهر آب ١٩٢٤ تحركوا نحو الطائف فاجتازوا حدود الحجاز ، وفي اليوم الاول من ايلول وصلت طلائعهم قرية « الحوية » التي تبعد بضعة أميال عن الطائف . وهناك جوبهوا بقوة نظامية كانت قد أرسلت من الطائف ، فنشبت بين الفريقين معركة دامت بضع ساعات كانت الغلبة فيها للاخسوان .

انسحبت القوة النظامية نحو الطائف ، ورابطت في الهضاب الغربية منها ، وقد انضم اليها عدد من البدو . وفي مساء ٥ ايلول وصل الى الطائف الامير علي ومعه سرية من الخيالة وأخرى من الهجانة . ولكنه لم يمكث فيها طويلا ، بل خرج منها في عصر اليوم التالي وعسكر في موضع يدعى « الهدا » قريب منها .

وفي ظهر ٧ ايلول اقرب الاخوان من الطائف وصار رصاصهم يقع داخل السور . فساد الذعر في البلدة ، وأخذ بعض سكانها والمصطافون فيها يفرون منها ، كما انسحب منها وزير الحرية صبري باشا مع جنوده حيث التحقوا بالامير علي في الهدا ، وانسحب كذلك أمير الطائف الشريف شرف مع موظفيه .

وعلى أثر ذلك دخل الاخوان الى البلدة كالسيل الجارف وهم يكبرون ويطلقون ينادقهم في الفضاء ، ثم أخذوا يطوفون في اسواق البلدة وأزقتها وهم يطلقون النيران على كل من يشاهدونه في طريقهم . ثم تطور الحال بعدئذ فصار الاخوان يحطمون أبواب البيوت ويدخلونها فهراً ، فينهبون ويقتلون . انهم يعتبرون جميع الناس غيرهم كفارا حلال دماءهم وأموالهم . وكان من جملة قتلاهم الشيخ الزواوي مفتي الشافعية وأبناء الشيخ عبدالقادر الشيبني سادن الكعبة . ويروي أمين الريحاني

أنهم ظفروا بالشيبي نفسه وأرادوا قتله ، ولكنه نجا منهم بحيلة ، فهو عندما وقع في أيديهم واستل أحدهم سيفه عليه ليقتله أخذ يبكي ، فسأله الاخواني : « وليش تبكي يا كافر » • فأجابه الشيخ : « أبكي والله من شدة الفرح • أبكي يا أخوان لانني قضيت حياتي كلها في الشرك والكفر ، ولم يشأ الله أن أموت الا مؤمناً موحداً • الله اكبر ! لا اله الا الله ! » • وقد أثر هذا الكلام في الاخوان وبكوا لبكاء الشيخ ، ثم صاروا يقبلونه ويهتونه بالاسلام (٢٩) •

كان الامير علي ومن معه قد انسحبوا الى عرفات ، وحين علم الحسين بذلك غضب على الامير غضباً شديداً ، وأمره بالعودة لاسترجاع الطائف • وفي ٢٦ ايلول التقى الفريقان في الهدا ف وقعت معركة عنيفة استمرت بضع ساعات كانت الغلبة فيها للاخوان •

الحسين يتنازل :

عندما وصل الى مكة خبر الهزيمة التي حلت بجيش الحسين فسي هذا انتشر الرعب والذعر بين الاهالي اذ كانوا يخشون ان تحل بهم مذبحة كمذبحة الطائف ، وأخذوا يفرون الى جدة ، وسار الكثير منهم على الاقدام لكثرة الفارين وقلة وسائل النقل • فاكتملت بهم جدة •

كان الحسين يظن ان الانكليز سيدخلون لانقاذه على نحو ما فعلوا في شرقي الاردن في الشهر الماضي • فأرسل في ٢٦ ايلول برقية الى المستر بولارد القنصل البريطاني في جدة ذكر فيها : ان الحالة حرجية ، وان علاقته بالحكومة البريطانية تجعله يطلب منها الاهتمام بصد ابن سمعود لتجنب ما وقع في الطائف ، وهو يأمل منها النظر في طلبه بأسرع ما يمكن • فأبرق القنصل بهذا الطلب الى حكومته في لندن ، فعاد الجواب منها في

(٢٩) المصدر السابق - ص ٣٣٣ •

٢٨ - مثله بمعاذ : ان الحكومة البريطانية ممسكة بسياستها التقليدية في عدم التدخل في الامور الدينية ، وهي لذلك لاتريد أن تتدخل في أي نزاع بشأن امتلاك الاماكن المقدسة في الاسلام (٣٠) .

وفي الوقت نفسه كتب الدكتور ناجي الاصيل مندوب الحسين في لندن الى وزارة الخارجية البريطانية يقول لها : ان صاحب الجلالة الهاشمية يناشد الحكومة البريطانية طبقاً لروح المعاهدة التي هي تحت المفاوضة أن تتدخل لوضع حد للاعتداء الوحشي الذي يقوم به الوهابيون ضد الاماكن المقدسة واخراجهم من الطائف . فأجابته وزارة الخارجية البريطانية قائلة : ان الحكومة البريطانية لاتريد أن تتورط في النزاع القائم بين أمراء عرب مستقلين حول امتلاك الاماكن المقدسة في الاسلام . وقد ألقى رئيس الوزارة البريطانية بياناً بهذا المعنى في مجلس العموم البريطاني .

رد الاصيل على جواب وزارة الخارجية في ٢ تشرين الاول أشار فيه الى ما قام به شعب الحجاز من مخاطرة كبرى في تأييد بريطانيا في الحرب العامة ، وهو لذلك يتوقع من بريطانيا مساعدته في انقاذ مكة من ويلات الحرب . وذكر الاصيل كذلك ان العالم الاسلامي لا يرضى أن تقع الاماكن المقدسة ، ولو لفترة قصيرة جداً ، في أيدي طائفة كالوهابية ، وهو ينظر بعين الخشية الى احتمال غزو مكة من قبل سلطان نجد واتباعه (٣١) .

والغريب انه بينما كان الحسين يناشد بريطانيا لانقاذها من الوهابيين ، كان بعض الاهالي في جدة يناشدونها لانقاذهم من الحسين نفسه . يقول القنصل البريطاني في جدة في تقريره السري الى حكومته : أن اثنين من

(٣٠) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (ألف . أو ٣٧٦ - ١٠٠١٤)

(٣١) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو ٣٧٨ - ١٠٠١٤)

نبار تجار جدة جاء اليه مطالبين بان يكون الحجاز تحت حماية بريطانيا
أو انتدابها ، فرفض القنصل تلبية طلبهما + ثم يقول القنصل : أن الرأي
السائد بين أهالي جدة هو أنهم كانوا في العهد التركي مرتاحين على الرغم
من تعسف الاتراك ، اذ كان لديهم شيء من الحرية في ممارسة حرفتهم
لاستغلال الحجاج ، ولم يكن لديهم أي اهتمام فيما يخص شؤون الدفاع
عن البلاد ، ثم جاءت بريطانيا أخيراً فطردت الاتراك من البلاد وأقامت
فيها حكماً أشد تعسفاً من الاتراك كما وضعت مسؤولية الدفاع عنها على
أهلها + ان الأهالي يريدون الآن من بريطانيا أن تدافع عنهم بمسبب أن
تحطمت وسائل دفاعهم ، وأن تنقذهم من حكم الحسين الذي كان السبب
المباشر لهجوم الوهابيين (٣٢) .

وفي ٣ تشرين الاول وصل الى جدة الامير علي مرسلًا من أبيه
فدعا اليه أعيان جدة وأعيان مكة الذين لجأوا اليها . وقال لهم: ان الموقف
يدعو الى اليأس وان أباه مستعد للتنازل عن العرش اذا كان ذلك يؤدي
الى تحسين الموقف + فطلب الاعيان مهلة ساعة للتداول في الامر ، وبعد
المداولة قرروا قبول تنازل الحسين عن العرش وتولية ابنه علي مكانه +
وقد رفض الامير علي قبول العرش ، فأصروا عليه ، وأبرقوا حالا الى
الحسين يطلبون منه التنازل لابنه علي وذلك لانقاذ الحرمين الشريفين من
الكارثة وانقاذ الشعب من الفوضى + فأجابهم الحسين بهذه البرقية : « مع
المنونية والشكر + وهذا اساس رغبتنا التي أصرح بها منذ التهضة
والى تاريخه + وقد صرحت قبله بدقائق اني مستعد لذلك بكل ارتياح اذا
عينتم غير علي + واني منتظر هذا بكل سرعة وارتياح - حسين » +

كان الاعيان لا يزالون مجتمعين عندها وصلتهم البرقية + فقرروا
الاتصال به مباشرة بالهاتفون + فتناول أحدهم الهاتفون ، وأخذ يخاطب

الحسين ، ولكن الحسين رفض التكلم معه قائلا له : « انت من رجال حكومتى فليكلمني غيرك » . ولما تناول رجل آخر منهم التلفون رفض الحسين التكلم معه كذلك . وعند هذا تناول التلفون طاهر الدباغ فجرت بينهما المحاوره التالية :

الدباغ : « مولاي بناءً على المركز الحرج الذى وصلت اليه البلاد قررت الامة تنازل جلالتك لسمو الامير علي » .

الحسين (مقاطعاً) : « أنا وابني شيء واحد . واذا كنت أنا قد صرت عندكم بطلًا فلا بأس . ولكن لأفهم ما القصد من هذا . لايهمني أمر الملك في أي شخص كان . ولكني لا أتنازل لولدي علي أبداً . لانني اذا كنت أنا بطلًا فولدي بطل » .

الدباغ : « كلا يامولاي . لانسب لجلالتكم شيئاً من ذلك . وانما نريد أن نسلك سياسة غير السياسة التي سرتهم عليها ، عسى أن تتمكن من تخليص البلاد من مأزقها الحرج . والامة قد أجمعت على طلب ذلك من جلالتك ، ونرجو اجابة رغبتهما » .

الحسين : « يا ابني لكم ان تفعلوا ما تشاؤون . أما أنا فلا اتنازل لولدي أبداً . عندكم الشريف علي أمير مكة السابق ، وأخي ناصر ، وعندكم خديوي مصر عباس حلمي ، وعندكم الاشراف كثيرون . اختاروا اى واحد تشاؤون ، وأنا مستعد للتنازل له . أما ولدي فلا يمكن لانني أنا وهو شيء واحد . خيره وشره عائدان لي » .

الدباغ : « قد أجمعت الامة يامولاي على اختيار الامير علي ولا ترغب » .

الحسين (مقاطعاً) : « لا يمكن أن اتنازل لولدي أقول لايمكن قطعاً » .

الدباغ : « سأخبر الهيئه ثم نعلم جلاتكم » (٣٣) .

كان الامير علي في اثناء ذلك قد زار القنصل البريطاني وسأله هل في مقدوره الاعتماد على مساعدة الحكومة البريطانية في حالة قبوله العرش ، فكان جواب القنصل له بالنفي . وعاد الامير علي الى هيئة الاعيان وأعلن لهم انه لن يقبل العرش لان الوضع لا أمل فيه وانه لا يرغب أن يكون ملكاً لمدة يومين أو ثلاثة . وعند هذا قرر الاعيان انتداب اربعة منهم لمقابلة القنصل البريطاني ، وكان الوقت آنذاك في ساعة متأخرة من الليل فسار المندوبون الاربعة نحو القنصلية وخلفهم جمهور غفير من الناس . وحين اجتمعوا بالقنصل ذكروا له أن الامير علي رفض قبول العرش ، وأنهم لهذا لا يملكون وسيلة سوى طلب الرحمة من بريطانيا ، وعرضوا على القنصل : اما ان تضع بريطانيا الحجاز تحت حمايتها او انتدابها ، أو تتدخل لمنع ابن سعود من احتلال مكة ، أو تؤيد الاعيان في مفاوضاتهم مع الوهابيين لكي يمتنعوا عن المذابح ، أو تقوم بأي عمل ينقذهم « باسم الانسانية » . فأجابهم القنصل انه غير مخول من قبل حكومته أن يفعل أي شيء مما ذكروه (٣٤) .

عاد المندوبون الاربعة من القنصلية خائنين ، واضطروا الى الالاحاق من جديد على الامير علي لكي يقبل العرش . فوافق الامير أخيراً على طلبهم . وأرسلوا الى الحسين في مكة برقية تتضمن ما يشبه الانذار له . وهذا نصها : « الحالة خرجة جداً ، وليس الوقت وقت مفاوضات . فإذا كنتم لاتنازلون للامير علي فنسترحم بلسان الانسانية أن تنازلوا جلاتكم لتمكن الامة من تشكيل حكومة مؤقتة . وإذا تأخرتم عن اجابة هذا الطلب فدماء المسلمون ملقاة على عاتقكم » .

(٣٣) أمين الريحاني (المصلح السابق) - ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .

(٣٤) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف - ٠ أو - ٣٧١ - ١٠٠١٥)

حل الاعاص ساهرين في تلك الليلة ينتظرون الجواب • وفي الساعة
الرابعة من صباح ٤ تشرين الاول وصل الجواب وفيه يقول الحسين :
انه قل التنازل بكل ارتياح ، واذا قبل الامر علي فيجب أن تعنوه رأساً ،
والحال يقتضي السرعة واذا تأخرنم فاتم المسؤولون ! (٣٥)

سقوط مكة :

حرى الاحتفال في جدة بمبايعه الامير علي ملكاً للحجاز ، وكان
الاحتمال بسيطاً للغاية ، وقد تقرر فيه أن يكون علي ملكاً دستوريا ينزل
على رأي الامة في تحقيق آمالها ورغباتها ، وأن يكون للبلاد مجلس نيابي
ينتخب أعضاؤه من جميع أنحاء الحجاز بموجب قانون أساسي تضعه
جمعية تأسيسية كما هو جاري في البلاد المتمدنة •

وأوعز الملك علي بتأليف وزارة على الطريقة الدستورية ، فجرى
تأليفها بالشكل التالي : عبدالله سراج رئيساً • تحسين الفقير وزيراً
للحربية ، طاهر الدباغ وزيراً للمالية ، خالد الخطيب وزيراً للصحة ،
محمد طويل وزيراً للرسوم ، عبدالقادر غزاوي وزيراً للمواصلات
عارف الأدلبي وزيراً للبحرية ، محمد بن منصور وزيراً للداخلية ، فؤاد
الخطيب وزيراً للخارجية (٣٦) •

غادر الملك علي الى مكة على أثر تأليف الوزارة ، لاعداد قواته
للدفاع عنها • أما أبوه الحسين فكان قد قرر مغادرة البلاد ، ولهذا أرسل
في مقدمته قافلة من الجمال تحمل أمتعه واهواله بحراسة عدد من عبيده
المخلصين ، وقيل انها كانت تحمل مائة وستين ألف ليرة ذهب موزوعة

(٣٥) أمين الريحاني (المصدر لسابق) - ص ٣٣٩ •

(٣٦) صلاح الدين المختار (تاريخ المملكة العربية السعودية) - بيروت -

ج ٢ ص ٣٠٤ •

في أربعين صفيحة من صمغ النبط (٣٧) . وحين خرجت القافلة من مكة أخذ بعض الفوغاء يودعونها بكلمات نابية (٣٨) .

وفي ٩ تشرين الاول غادر الحسين مع خرمه وعبيده الى جدة ، ومكث فيها ستة أيام معتزلاً الناس لم يقابل أحداً منهم . وعند انتهاء الايام الستة أرسل الى رئيس الوزارة الجديدة بلاغا احتج فيه على الحكومة الدستورية قائلاً : « أما الحكومة الدستورية ، سيما في الحرمين الشريفين ، فالعمل فيها ينبذ أحكام كتاب الله وسنة رسوله . ان العمل في البلاد لا تقدره بالقوانين البشرية لما تأبى سائر الاسلام وفرائض الدين والاخلاق الشريفة مادة ومعنى » .

وفي مساء ١٥ منه غادر الحسين جدة على ظهر باخرة له تدعى الرقمتين ، وهي باخرة صغيرة تشبه باليخت كان قد اشتراها من اليونان منذ وقت ليس ببعيد . يروى انه عندما شاهدتها لأول مرة عقب شرائها أعجب بها وقال : سوف نسافر بها في يوم من الايام سسفرة بعيدة (٣٩) . وقد تحققت نبوءته .

لم يبق الملك علي في مكة سوى اسبوع واحد . انه أدرك ان القوات التي لديه في مكة لا تكفي للدفاع عنها فقرر الانسحاب منها الى جدة . وفي مساء ١٤ تشرين الاول غادر مكة مع قواته التي لم تكن سوى مائتين من الجنود ومثلهم من الشرطة .

كان قائد الجيش الهاشمي رجل عراقي هو صبرى باشا العزاوي وقد اختلفت الاقوال في مصيره . فمنهم من يقول انه انسحب مع الحسين ، ولكن فيلبي يخالف ذلك حيث يقول : « لقد ذاب جيش الملك حسين في

(٣٧) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٣٤٠ .

(٣٨) صلاح الدين المختار (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٣٠٦ .

(٣٩) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٣٤٠ - ٣٤١ .

الهواء منذ المعركة الاولى وكان قائده السابق صبرى باشا البغدادي الاصل أول من فر من المدان « (٤٠) » . ويقول القنصل البريطاني في تقريره : ان صبرى باشا كان مكلفاً بتعطيل المدافع الموجودة في مكة لكي لا يستفيد منها العدو ، غير أنه تركها من غير تعطيل وهرب ، وقد وقعت المدافع بعدئذ غنيمة باردة في أيدي الاخوان فاستفادوا منها فائدة كبرى (٤١) .

حين علم الاخوان بانسحاب الملك علي من مكة ، أرسلوا اليها أربعة رجال منهم وهم عزل من السلاح . ولما وصل هؤلاء الأربعة الى مكة وجدوا شوارعها خالية ، وقد سدت مداخلها بالحواجز ، كما وجدوا الحوانيت مقفلة . فأخذوا يطوفون البلدة على خيولهم وهم ينادون « الامان - الامان ! » . وفي ١٦ تشرين الاول دخل الاخوان الى مكة وهم بلباس الاحرام ، فطافوا حول البيت وسعوا بين الصفا والمروة . فاستقبلهم أهل مكة بالحفاوة والترحيب ! (٤٢)

عين خالد بن لؤي حاكماً على مكة ، وانطلق الاخوان الى دور الحكومة والاسراف فنهبوا وعرضوها للبيع . وجاء بعض أهل مكة اليهم يدلونهم على دور أخرى كان أصحابها قد فروا من مكة ، فصار الاخوان ينهبونها ويعرضونها للبيع أيضاً (٤٣) .

ثم انطلق الاخوان الى القباب المقدسة فهدموها ، كالثقة المقامة على قبر خديجة ودار النبي . وفرضوا على السكان حضور صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم ، كما منعوا التدخين وقراءة المولد النبوي ، وزيارة القبور ، ومن يشاهدونه يفعل ذلك يشتمونه ويضربونه ، وربما ساقوه الى الحبس أو فرضوا عليه الغرامة . وحين نصب الجاويون

(٤٠) خيرى حماد (عبدالله فيلبي) - بيروت ١٩٦١ - ص ١٦٠ .

(٤١) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٧)

(٤٢) صلاح الدين المختار (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٣١٠ .

(٤٣) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٣٧٠ .

سرادق لتلاوة المولد النبوي كعادتهم في كل عام ، جاء الاخوان اليهم فطردوهم ونعتوهم بـ « المشركين » ، وهدموا السرادق . وحين ذهب اثنان من الهنود لزيارة قبر بخديجة ألقي القبض عليهما وأودعا الحبس ، ولم يُطلق سراحهما الا بعد أن جاء المنشئ احسان الله كاتب القنصلية البريطانية في جدة فدفع غرامة خمسة دولارات عن كل واحد منهما ، فأطلق سراحهما (٤٤) .

ابن سعود يتردد :

كان ابن سعود في الرياض عندما وصلته اخبار سقوط الطائف في أيدي الاخوان . وفي ١١ تشرين الثاني ١٩٢٤ غادر الرياض متوجها الى الحجاز على رأس جيش يبلغ تعدادة خمسة آلاف رجل ، ولكنه كان قلقاً متردداً ، اذ كان يخشى أن يأتيه انذار من بريطانيا على نحو ما حدث في عام ١٩١٩ عقب واقعة تربة . انه لم يكن يرغب في محاربة الانكليز على أي حال ، لانهم يملكون الطائرات والمصفحات بينما هو لا يملكها ، وربما جرى عليه في الحجاز مثلما جرى على الاخوان في شرقي الاردن .

وبينما كان ابن سعود في طريقه الى الحجاز وصلته صحف من العراق وفيها خبر سقوط وزارة العمال في إنكلترا ، وتشكيل وزارة جديدة من المحافظين . فأسرع أحد مستشاريه - والمظنون أنه يوسف ياسين - فاختمى به وذكر له أن وزارة المحافظين الجديدة سوف تتبع تجاه القضايا العربية سياسة جديدة تختلف عن سياسة الوزارة العمالية السابقة ، وأن أول أعمالها سيكون المحافظة على حكم الاشراف في الحجاز . اضطرب ابن سعود عند سماعه هذا القول ، وأرسل يستدعي اليه مستشاريه الآخرين اللذين كانوا يرافقانه في الحملة وهما : حافظ وهبة

(٤٤) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٨)

المصري وعبدالله الدملوجي العراقي • وحين دخل عليه هذان الرجلان وجداه واجماً مغموماً فسألهما عن الاخبار ثم قال : « هل للمحافظين تأثير في موقفنا ؟ هل يؤيدون الاسراف ؟ » • فأجابه حافظ وهبة : ان السياسة الخارجية الانكليزية ثابتة تقرباً لان الذين يصنعونها موظفون دائميون وان الاحزاب الانكليزية على اختلافها تنفذ ما يصنعه أولئك الموظفون وفلما تغيره تغييراً تاماً • لم يقتنع ابن سعود بصحة هذا القول وبدأت عليه امارات الشك والتردد ، وسأل حافظ وهبة : « هل انت متحقق مما تقول ؟ » ، فأجابه حافظ بأنه متحقق كل التحقق •

وأخذ حافظ يحاول اقناع ابن سعود بأن لا يتردد في عزمه وان يواصل الزحف نحو الحجاز ، حيث قال له : « اذا كنت في شك من أمرك فخير لك أن ترجع الى بلدك ، وان كنت واثقاً بالله الذي وعد المؤمنين بالظفر والتأييد فسر في طريقك ولا تتردد • لا تشغل بالك يا مولاي بهذه الشكوك • ان بريطانيا لا يهملها الا المحافظة على رعاياها ومصالحها ، وسيان عندها الشريف حسين أو ابن سعود • لقد كانت لها آمال كبيرة في الملك حسين ، فأندرتك في سنة ١٩١٩ ، أما الآن فقد تغيرت الحال ، وخابت جميع آمالها فيه ، فسر على بركة الله ولا تتردد ، ان الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » • فقال ابن سعود : « توكلنا على الله ، ولعنة الله على فلان - يقصد المستشار الاول - الذي بلبل أفكاري ، وأسلمني الى الشك والتردد » •

وبعد مرور أربعة ايام من ذلك وصل الى ابن سعود يريد الحجاز وهو يحمل كتباً من جميع قناصل الدول في جدة يعلنون فيها حيساد دولهم في الحرب القائمة في الحجاز ويحملون الفريقين مسؤولية ما يقع على رعاياهم من ضرر او اعتداء • فكان لهذه الكتب وقع حسن لدى ابن سعود وبشارة خير للمستقبل (٤٥) •

(٤٥) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص ٦١ - ٦٣ •

علماء مكة يوافقون :

وصل ابن سعود مع جيشه الى مكة في ٤ كانون الاول ١٩٢٤ • وفي اليوم التالي استعرض الجيش ، ثم جاء الاخوان لتحيته فقبلوا أنفسه وجيئنه على عادتهم ، وجاء من بعدهم أعيان مكة وتجارها وأرادوا تقيل يده على عادتهم فمنعهم من ذلك وقال : « المصافحه من عادات العرب ، أما عادة التقيل فقد جاءتنا من الاجانب ونحن لا نقبلها » (٤٦) •

وبعد أن انتهى ابن سعود من النظر في مشاكله الآتية ، استدعى اليه الشيخ عبدالقادر الشيبني وطلب منه دعوة علماء مكة للاجتماع به • فاجتمع العلماء به في اليوم التالي وألقى ابن سعود عليهم كلمة قال في ختامها ما يلي :

« والآن أنا بدمتكم وأنتم بدمتي • ان الدين نصيحة • وأنا منكم وأنتم مني • وهذه عقيدتنا في الكتب بين أيديكم • فان كان فيها ما يخالف كتاب الله فردونا عنه ، وسلونا عما يشكل عليكم فيها • والحكم بيننا وبينكم كتاب الله وما جاء في كتب الحديث والسنة ••••• انا لم نطع ابن عبدالوهاب وغيره الا في ما أيده بقول من كتاب الله وسنة رسوله • أما أحكامنا فهي طبق اجتهاد الامام أحمد بن حنبل • اذا كان هذا مقبولا عندكم تعالوا نتابع على العمل بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين من بعده » •

حين انتهى ابن سعود من كلامه صاح بعض الحاضرين : « كلنسا نبايع » • فرد عليهم ابن سعود : « قولوا لنا بصريح القول ما عندكم » • فقالوا « ما عندنا غير هذا » • فقال ابن سعود : « أعيدكم بالله من التقيّة ، فلا تكتموا علينا شيئاً » • فقال أحد الحاضرين : « اجمعنا بعلماء نجد يا حضرة الامام فنتباحث وايهاهم في الأصول والفروع ونقرر ما تتفق عليه

(٤٦) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٣٧٣ •

ان شاء الله * فوافق ابن سمود على هذا الرأي وقال : « زين » قريباً
تجتمعون * »

وفي ٨ كانون الاول اجتمع خمسة عشر من علماء مكة ، وسبعة من
علماء نجد ، وبعد المناقشة والمباحثة فيما بينهم اتفقوا على صحة المذهب
الوهابي * ثم أصدر علماء مكة بياناً ورد فيه ما نصه :

« قد حصل الاتفاق بيننا وبين علماء نجد في مسائل أصولية ، منها :
من جعل بينه وبين الله وسائط من خلقه يدعوهم ويرجوهم في جلب نفع
او دفع ضرر ، فهذا كافر يستتاب ثلاثاً فان تاب والا قتل * ومنها : من
سأل الله بجاه أحد من خلقه فهو مبتدع مرتكب حراماً * في هذه المسائل
تباحثنا واتفقنا فاتفقت بذلك العقيدة بيننا معاشر علماء الحرم الشريف وبين
اخواننا علماء نجد » (٤٧) *

ان هذا الاتفاق الذي حصل في مكة يشبه من بعض الوجوه ذلك
الاتفاق الذي حصل بين علماء الشيعة والسنة في مؤتمر النجف عوام
١٧٤٣ * فكلاهما قد حصل وفقاً لرغبة سلطان قاهر ، ولولا رغبة السلطان
لاختلف العلماء فيما بينهم وتنازعوا وكفر بعضهم بعضاً * ان الانسان
لا يتنازل عن رأي او عقيدة تحت تأثير الجدل والدليل المنطقي وحده *
فالدليل المنطقي لا يقنع الا صاحبه ، أما في نظر خصمه فهو دليل تافه
سخيف (٤٨) *

(٤٧) المصدر السابق - ص ٣٧٢ - ٤٧٤ *

(٤٨) أنظر الجزء الاول من هذا الكتاب - بغداد ١٩٦٩ - ص ١٣٤ -

١٣٧ *

الفصل السادس

أيام الملك عليّ

استغرق حكم الملك عليّ في الحجاز نحو خمسة عشر شهراً ، وهو يمثل فترة عجيبة من الزمن مليئة بالعبر والدروس الاجتماعية وسنحاول في هذا الفصل ذكر بعض هذه الدروس بإيجاز .

خط الدفاع :

يذهب الخبراء العسكريون الى القول بأن الاخوان لو كانوا قد زحفوا على جدة عقب احتلالهم مكة لاستولوا عليها بكل سهولة ، ولسقطت حكومة الملك عليّ وتم الأمر لابن سعود في الحجاز كله ، ولكن الاخوان توقفوا عن الزحف بناءً على الأوامر التي وصلتهم من ابن سعود . فقد كان ابن سعود يخشى أن تقع مذبحه في جدة كالتّي وقعت في الطائف وربما أدى ذلك الى تدخل الدول الاجنبية وانتكاس الأمر عليه . يقول حافظ وهبة في مذكراته : « وعندما وصلت الينا الاخبار عن دخول الاخوان مكة ، وقد كان دخول مكة خارجاً عن الخطة المرسومة لهم ، أخبرت الملك عبدالعزيز ان الواجب يقضي عليه أولاً بمنع الاخوان من الهجوم على جدة خشية أن يقع في جدة ما وقع في الطائف فتكون العاقبة وخيمة ، وان الواجب يقضي عليه ثانياً بأن يسافر حالاً الى الحجاز ليشرف بنفسه على الحالة هنالك ، ويعرف الناس بنفسه ، وليطمئن الحجازيين ، ويزيل من نفوسهم الاثر السيء من مأساة الطائف » (١) .

كان توقف الاخوان عن الزحف على جدة فرصة ثمينة للملك عليّ لكي يحصن بها جدة ويقوى وسائل الدفاع فيها . والواقع ان الملك عليّ

(١) حافظ وهبة (خمسون عاماً في جزيرة العرب) - القاهرة ١٩٦٠
- ص ٦٠ .

استغل تلك الفرصة بأقصى جهده ، وقد ساعده في ذلك رجلان ، أولهما تحسين باشا الفقير وزير الحربية ، وهو ضابط شامي أرسله الامير عبدالله لمساعدة أخيه ، وكان من ضباط الجيش العثماني وقد قاتل في خط « شطالجة » لحماية اسطنبول في حرب البلقان ، ولما وصل الى جدة أخذ يبذل جهده لانشاء خط دفاعي حولها على شاكلة خط « شطالجة » . أما الرجل الثاني فهو نورس بك ، وهو مهندس عسكري تركي ، وقد أبدى براعة ودأباً في اقامة الخط الدفاعي ، واعتبر في حينه « دماغ الجيش المفكر » .

تم اعداد الخط الدفاعي على شكل قوس يبتديء من ساحل البحر في شمال جدة . ويتتهي اليه في جنوبها . وقد بلغ طوله ستة أميال ، يحرسه عشرون مدفعاً وما يزيد على الثلاثين رشاشاً . ونصبت الاسلاك الشائكة أمامه على أعمدة قصيرة تحيط بها الالغام المدفونة ، كما وضعت فوقها الانوار الكشافه .

كان الجيش الهاشمي في جدة خليطاً من فئات شتى ، فكان فيه حجازيون من البدو ومن بعض القرى ، كما كان فيه يمانيون وهم من سكة الحجاز ولكنهم من أصل يمني . وأخذ الامير عبدالله يرسل الى جدة المتطوعين الذين جمعهم في شرقي الاردن . فوصلوا على دفعات ، وكان معظمهم من الفلسطينيين والسوريين والاردنيين ، وقليل منهم مصريون وهم من بقايا فرقة العمل الذين خدموا الجيش البريطاني خلال الحرب وبقوا في فلسطين بعدها . وقد انضم الي هؤلاء بعدئذ عدد من الصعاليك من سكان جدة وهم من السودانيين والصوماليين والزنوج . وقد بلغ مجموع أفراد الجيش الهاشمي في جدة - حسب تقدير خير الدين الزركلي - نحو ١٦٥٠ رجلاً (٢) .

(٢) خيرالدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز) - بيروت ١٩٧٧ - ج ١ ص ٣٤٥ .

كان الاخوان يحيطون بجدة من جهاتها البرية الثلاث • وكان عددهم بين خمسة وستة آلاف • وجاء ابن سعود لكي يشرف بنفسه على سير القتال ، فخيم في شمال الرغامة التي تبعد عن جدة بخمسة وعشرين دقيقة • لم يجلب ابن سعود معه مدافعه من الرياض ، ولكنه انتفع من المدافع التي استحوذ عليها في مكة ، وكانت عشرين مدفعاً وذات مدى أبعد من مدافع جدة وقد استخدم لتثغيلها الضباط الذين كانوا في خدمة الجيش الهاشمي سابقاً^(٣) • فوجهها على جدة وصار يقصفها ويقصف الخنادق المحيطة بها • وقد سقطت إحدى القنابل على دار القنصل البريطاني فاخرقت حدار غرفه نومه ، ودخلت أخرى الى مكتبه ، وأصابته ثلاثة دار القنصل السوفيتي وكسرت العلم المنسوب فوقها^(٤) •

اعتاد الاخوان أن يهاجموا الخط الدفاعي في الليالي المظلمة ، وذلك لغرضين : ليلقوا الرعب والذعر في قلوب الاهالي بغية اثارتهم على الحكومة أولاً ، وليجملوا الجنود على الاسراف بالذخيرة ثانياً • وكان بعض الاخوان حين يقتربون في هجومهم من الخط ينادون حراسه قائلين : « يا اخوانا يا أهل الشام ، ويا شمر ، ويا حرب ، ويا عقيلات ، اخرجوا من الخط واتم في وجه الله ووجه ابن سعود • لا تخافوا • والله ما نريد لكم الا الخير ، تعالوا الينا ونحن أخوانكم ، والله والله »^(٥) •

كان الملك علي في بداية الامر متفائلاً وواثقاً من أنه بما لديه من طائرات ومصفحات قادر على قهر الاخوان وطردهم من الحجاز • وكان وزير حربيته تحسين باشا أكثر تفاؤلاً وثقة منه • يروي أمين الريحاني قصة شهدا بنفسه في أوائل كانون الثاني ١٩٢٥ حين بدأت طلائع الاخوان

(٣) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف • أو • ٣٧١ - ١٠٨٠٧) •

(٤) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) - بيروت ١٩٥٤ - ص ٤٠٩ •

(٥) المصدر السابق - ص ٤٠٧ •

تقترب من جدة ، فقد دخل تحسين باشا ومعه زميله وزير البحرية عارف باشا الادلبي على الملك علي ، وكانت سيماء الغضب والاضطراب تبدو على وجهيهما ، فقال أحدهما : « علمنا ان الاخوان مشوا من بحرة وقريباً يصلون الى الرغامة » . وقال الآخر : « يجب ان نرسل عليهم الطيارات ، اعنهم الله ولعن أجدادهم » . ثم قالاً معاً : « غدا صباحاً نرسل الطيارات كلها عليهم فتمطرهم النار والرصاص وتقتلهم ان شاء الله » . ثم أخذ الوزيران ينتقدان بشدة محاولات الصالح التي كان الريحاني وغيره يقومون بها . فقال تحسين باشا : « هذه المساعي السلمية تحول دون تنفيذ خططنا العسكرية » . وقال عارف باشا يخاطب الملك : « بل أفسدت علينا خططنا وأضررت بمصلحة جلالتك ومصالح البلاد » (٦) .

كان في معية الملك علي ضابط عراقي كبير هو جميل باشا الراوي ، وهو ابن عم ابراهيم الراوي الذي تحدثنا عنه في واقعة تربة . والمعروف عن هذا الضابط انه كان يختلف عن تحسين باشا الفقير بكونه اكثر واقعية منه ، وكان كثيراً ما ينصح الملك علي بخلاف ما ينصحه به تحسين باشا . يقول القنصل البريطاني في تقريره السري الى حكومته حول هذا الموضوع ما يلي : « كانت القيادة الحجازية العسكرية مؤلفة من ثلاثة أشخاص بصورة رئيسية هم : تحسين باشا السوري الذي كان وزيراً للحرية وقائداً للجيش ، وجميل باشا القائد البغدادي الذي كان ملحقاً بالملك علي ، والملك نفسه . والظاهر أنه ليس هناك اي بغدادي يوافق اي سوري . وكان الملك يتمايل من جانب الى آخر يمثل السرعة والانتظام الذي يتحرك به بندوق الساعة ، ولهذا كان هناك ضعف في الانسجام والهدف لدى القيادة » (٧) . صدرت في مجلة جريدة باسم « أم القرى » بدلا عن جريدة « القبلة »

(٦) المصدر السابق - ص ٣٩٣ .

(٧) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٧) .

التي كانت تصدر في عهد الحسين * وكان يحررها يوسف ياسين ، والغرض منها الدعاية لابن سعود وتشويه سمعة الاشراف وذكر مثالبهم ومثالب الحسين بوجه خاص * وفي كانون الاول ١٩٢٤ أصدرت الحكومة الهاشمية في جدة جريدة باسم « بريد الحجاز » لكي ترد على جريدة « أم القرى » وتكيل لها بصاعها * وفي ١٨ كانون الثاني ١٩٢٥ نشرت جريدة « بريد الحجاز » بياناً طويلاً من الملك علي ذكر فيه أنه موشك على الزحف على مكة لتحريرها ، وطلب من أهل مكة الصبر قليلاً وتحمل مشقة الحصار الذي ستفرضه الحكومة الهاشمية عليهم^(٨) * .

الاصيل مثابرا :

ان الدكتور ناجي الاصيل ظل يمثل الحجاز في لندن في عهد الملك علي ، كما ظل يواصل السعي لعقد المعاهدة مع بريطانيا ويطلب منها انتجاد الحكومة الهاشمية ضد ابن سعود * كتب القنصل البريطاني في جدة الى حكومته يقول : ان الملك علي لم يكن يحمل انطباعاً حسناً عن ناجي الاصيل ، وكان يعتقد أن لا فائدة منه في لندن ولكن لا بأس من بقاءه فيها الى ان ينفذ المال الذي أخذه من الحسين^(٩) * ويقول القنصل : ان مجموع ما أخذه الاصيل من الحسين بلغ خمسة عشر ألف باون ، وهو مبلغ ضخم يكفيه نحو ثلاث سنوات^(١٠) * .

في ١٣ تشرين الاول ١٩٢٤ كتبت وزارة الخارجية البريطانية الى ناجي الاصيل كتاباً تقول فيه : ان الحكومة البريطانية ليست مستعدة للدخول في مفاوضات جديدة مع الحكومة الهاشمية حول تعديل مسودة المعاهدة * فأجابها الاصيل في كتاب قال فيه انه مخول بسلطة تامة للتوقيع على المعاهدة التي أراد الملك السابق ادخال تعديلات عليها ، وذكر الاصيل ان تعديلات

-
- (٨) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٧)
(٩) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٨)
(١٠) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٧)

الملك السابق أصبحت الآن لا أهمية لها ، وان الملك علي غير ملزم بها ، ولذلك فهو يرجو من الحكومة البريطانية ان تتدخل لانتهاء النزاع القائم الآن بين الحجاز ونجد ، وانه يرجو أن يحصل على الجواب بالسرعة الممكنة (١١) .

وبعد خمسة أيام من كتابة هذا الكتاب كتب الاصيل كتاباً آخر أطول منه الى وزارة الخارجية البريطانية ذكر فيه أن الملك علي خوله لكي يرجو من الحكومة البريطانية التدخل لردع الوهابيين حسب روح المعاهدة . و اشار الاصيل الى ان المعاهدة التي جرى التفاوض حولها أصبحت ملزمة وان لم يتم التوقيع عليها ، كما أشار الى الحلف الذي قام سابقاً بين بريطانيا ومؤسس البيت الهاشمي ، وكيف تعهدت فيه بريطانيا باحترام استقلال العرب وتأييده . وذكر الاصيل كيف أن بريطانيا أعلنت الحرب على ألمانيا في عام ١٩١٤ لمجرد ان ألمانيا انتهكت معاهدة كانت بريطانيا قد وقعت عليها ، فهي انما قامت بهذا العمل العظيم في سبيل الشرف والعدالة . ثم تطرق الاصيل الى الحجة التي تذرعت بها بريطانيا لعدم التدخل في النزاع القائم في الحجاز باعتبار أنه نزاع حول قضايا دينية ، فقال ان النزاع في الواقع ليس دينياً ، فليس هناك دين على وجه الارض يسمح بسفك الدماء البريئة وقطع الطرق والقيام بالمذابح الجماعية . ان الوهابية هي حركة سياسية وليست دينية ، انها بلشفية في أبشع صورها ، وغريبة عن الاسلام في كل وجه من الوجوه . ثم ذكر الاصيل أن الملك علي انما انسحب من مكة ليس من جراء هزيمة حلت بجيشه بل انه أراد حقن الدماء في تلك البلدة المقدسة ، ولهذا فهو يناشد الحكومة البريطانية بحقوق المعاهدة التي بينه وبينها ، والمواعيد السابقة التي أعطيت لصاحب الجلالة الهاشمية ، أن تتخذ الاجراءات العاجلة لانقاذ أرواح الآلاف من الانفس البريئة ، ولضمان انسحاب الوهابيين من مكة والطائف (١٢) .

(١١) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٠١٤) .

(١٢) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٠١٥) .

لم تتمر هذه الجهود التي بذلها ناجي الاصيل شيئاً ، وظلت الحكومة البريطانية متمسكة بموقفها الحيادي تجاه النزاع القائم في الحجاز لم تنزع عنه . وقد أصبح موقف الاصيل حرجاً ، فهو لا يستطيع أن يؤثر في الحكومة البريطانية من جهة ، وهو لم يتسلم من الملك علي أي مبلغ من ائمال من الجهة الاخرى . وفي شهر نيسان ١٩٢٥ أبرق الى الملك علي يقول : « أتوسل الى جلالتيكم أن ترسلوا لي من النقود ما تقدرتون عليه . ان المصير السياسي للبلاد في يد جلالتيكم » (١٣) . فلم يرسل الملك اليه شيئاً ، والواقع أنه لم يكن لديه فضل من المال يرسله اليه . وفي شهر أيار أعلن الاصيل في لندن أنه سوف يحتكم الى عصبة الامم لانتهاء النزاع القائم الآن في الحجاز ، كما أعلن انه سيذهب بنفسه الى جدة ليستعمل نفوذه الشخصي في هذا السيل . وقد فوجئت الحكومة الهاشمية في جدة بهذا الاعلان الذي نشرته وكالة رويتر ، فأذاعت بياناً ذكرت فيه أنها لم توقع الى الاصيل باتخاذ هذه الخطوة وان الاصيل انما قام بها من تلقاء نفسه . وعند هذا أبرق الاصيل الى جدة مقدماً استقالته ، فقبلت الحكومة الهاشمية استقالته فوراً .

وفي شهر تموز ١٩٢٥ أراد الملك علي تعيين رجل مصري - هو المحامي حسن صبري - ليكون ممثلاً له في لندن بدلاً من الاصيل . ولكنه عندما استفسر من الحكومة البريطانية حول هذا الامر أجابته بأنها غير مستعدة في الظروف الحالية لقبول اي ممثل له في لندن رسمي أو غير رسمي (١٤) .

أما ناجي الاصيل فقد بقي في لندن حتى نفذ ما لديه من مال ، وصار في حالة يُرْنى لها (١٥) . وقد اضطر الى العودة الى بغداد في عام ١٩٢٨ ،

(١٣) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٧) .

(١٤) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٩) .

(١٥) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ١٠ أيار ١٩٢٥ .

وكان توفيق السويدي حينذاك قد تولى وزارة المعارف ، وهو يشير في مذكراته الى أن نبوءته التي كان قد تنبأ بها في عام ١٩٢٢ عن ناجي الاصيل قد تحققت . فقد جاء اليه الاصيل يطلب منه الحصول على وظيفة ، فعينه في وظيفة لايزيد راتبها على خمسة وعشرين دينارا . ويعلق السويدي على ذلك قائلاً : « فما أعجب الصدف والاقدار » (١٦) .

فيلبي يتوسط :

جاء الى جدة ثلاثة رجال للتوسط في الصلح باعتبار أنهم اصدقاء للفريقين ، وهم : فيلبي وأمين الريحاني والسيد طالب النقيب . ولكل واحد من هؤلاء في توسطه قصة جديرة بالذكر هنا .

كان فيلبي أول القادمين الى جدة ، وهو قد جاء بصفته الشخصية ولم تكن له أية صفة رسمية ، وقد أعلن الملك علي عن مجيئه قبل وصوله ، فأحدث ذلك ابتهاجاً بين أهل جدة ظناً منهم انه مكلف من حكومته للصلح بين الفريقين المتحاربين . ذهب القنصل البريطاني الى الملك علي ليخبره بأن فيلبي ليست له أية صفة رسمية تخوله التوسط او التفاوض باسم الحكومة البريطانية ، ولكن الاهالي ظلوا بالرغم من ذلك يبنون الآمال على وجود فيلبي في جدة وعلى نتائج مسعاه في الصلح .

كان وصول فيلبي الى جدة في ٢٨ تشرين الاول ١٩٢٤ ، وكانت طريقة وصوله غريبة مما قوى الاشاعة المنتشرة حوله بين الاهالي من أنه جاء بمهمة رسمية . فهو عندما كان في السويس فاتته باخرة البريد فاضطر الى ركوب زورق شحن بغية الاسراع . وحين وصل الى مياه جدة أرسل اليه الملك علي زورقاً بخارياً لنقله الى الشاطئ (١٧) . وقد قابله الملك فور وصوله ، وكان استقباله له ودياً وحاراً .

(١٦) توفيق السويدي (مذكراتي) - بيروت ١٩٦٩ - ص ٨٩ - ٩٠ .

(١٧) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف ٠ أو ٣٧١ - ١٠٠١٥) .

يقول فيلبي في مذكراته : « كان من المنتظر أن أقوم بدور رئيسي في المسرحية ، ولكن متاعبي سرعان ما بدأت بعد وصولي بساعات قليلة ، فقد تلقيت من المستر بولارد قنصل حكومة صاحب الجلالة البريطانية ومعتمدها الرسالة التالية : « أرجو ان ابلغك ياسيدي ان حكومة جلالته عندما نما الى علمها خبر مجيئك الى جدة قد أمرتني بإبلاغك أنه بالنسبة الى الاوضاع المضطربة في أواسط الجزيرة العربية فانها لايسمحها أن تسمح لك بالدخول الى داخل الجزيرة + أكون ممتناً اذا اشعرتني بوصول هذا الكتاب اليك » (١٨) .

ومن الجدير بالذكر ان الصحف في بعض البلاد الاسلامية أخذت تهاجم فيلبي لذهابه الى جدة وتتهمه بأنه عميل بريطاني متستر . وفي الوقت نفسه أخذت بعض الصحف البريطانية تصف فيلبي بالانتهازي الذي يحاول الدخول الى المسرح الذي خرجت منه بريطانيا قانطة يائسة (١٩) .

أرسل فيلبي رسالتين احدهما موجهة الى خالد بن لؤي حاكم مكة ، والثانية موجهة الى ابن سعود الذي كان حينذاك في الرياض . وقد وصل اليه الجواب من خالد فحواه انه يريد ازاحة علي بن الحسين من جدة . ثم وصل اليه بعدئذ جواب ابن سعود وهو يقول فيه : « ان الموضوع من أوله الى آخره متوقف على رأي العالم الاسلامي الذي يقف كله معارضاً معارضة قوية لابناء الحسين ... سنصل بمشيئة الله قريباً الى مكة ، وسنجتمع بك بكل تأكيد ان شاء الله لتبادل الرأي . نرجو لك العافية والسلام » (٢٠) .

انتظر فيلبي وصول ابن سعود الى مكة . وقد ابتلى أثناء ذلك بالزحار كما ابتلى به فيما بعد زميله الآخرون . وعندما وصل ابن سعود

(١٨) خيرى حماد (عبدالله فيلبي) - بيروت ١٩٦١ - ص ١٥٧ .

(١٩) المصدر السابق - ص ١٥٨ .

(٢٠) المصدر السابق - ص ١٧٤ .

الى مكة في ٥ كانون الاول كتب اليه فيلبي وزميلاه بطلبون منه السماح بمقابلتهم • وفي ٢٢ منه وصل الجواب الى كل منهم على حدة • وكان جواب ابن سعود الى فيلبي على النحو التالي :

« الى الصديق العزيز المستر فيلبي • اذا كنتم حضرتكم لمقابلتنا ومباحثتنا في بعض الشؤون الخاصة بنا فعلى الرحب والسعة ، وسنسهل الطريق للاجتماع بكم خارج الحرم • أما اذا كنتم تنوون التدخل في مسائل الحجاز فلا أرى في البحث فائدة ••• وانه ليس من مصلحتي الخاصة ومصلحتك يا صديقنا جعلكم وسيطاً في هذه المسألة الاسلامية المحضنة » (٢١) •

اتضح لفيلبي خلال مكوثه في جدة ان انتصار ابن سعود محتوم لإبد منه • فهو يقول في مذكراته ان موضوع الصلح أو اية تسوية سلمية أصبح أمراً مستحيلاً ، فقد تقرر مصير عرش الهاشميين في الحجاز ، ولم يكن في وسع أية قوة بشرية انقاذه ، ولكن وزير الحربية تحسين باشا الفقير كان على الرغم من ذلك يتصور انه قادر على انقاذ عرش مولاه • ويقول فيلبي في وصف تحسين باشا : « كان هذا القائد العسكري مقترراً بالدور الذي لعبه في معركة شطالجة في البلقان ••• وخيل اليه أن في وسعه أن يصمد أمام الجيوش الوهابية البالية السلاح على حد تعبيره ، فطاف بي بالمراكز الدفاعية التي أقامها بالاشتراك مع رئيس مهندسيه التركي الاصل نورس بك حول المدينة » (٢٢) •

كان في نية فيلبي مغادرة جدة في أواخر كانون الاول ١٩٢٤ ولكن الملك علي أصر عليه في البقاء • ويقول القنصل البريطاني في تقرير الى حكومته : ان سبب هذا الاصرار من الملك هو ان القيادة العسكرية كانت

(٢١) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٣٨١ •

(٢٢) خيرى حماد (المصدر السابق) - ص ١٥٩ •

تخشى أن يذهب فيلبي الى ابن سعود بعد مغادرته جدة ويطلعه على أسرار
خط الدفاع عنها ، علماً ان فيلبي كان قد ساعد الضابط التركي في وضع
خطة الخنادق (٢٣) .

غادر فيلبي جدة أخيراً في ٣ كانون الثاني ١٩٢٥ متوجها الى عدن .
وكان لايزال مريضاً بالزحار ، وكان يأمل أن ينال علاجه على أيدي
الاطباء فيها .

وساطة السيد طالب :

كان السيد طالب النقيب في الاسكندرية عندما وصل فيلبي الى جدة ،
فأبرق اليه الملك علي يخبره بوجود فيلبي في جدة ويدعوه للمجيء اليها .
وحين تسلم السيد طالب برقية الملك علي أبرق الى المستر بولارد القنصل
البريطاني في جدة يطلب منه الرأي ، فكتب اليه القنصل جواباً بالبريد
يقول فيه : أن ليس في وسعه ابداء أي رأي وان فيلبي ليس مخولاً رسمياً
للتوسط في الصلح (٢٤) .

قرر السيد طالب الذهاب الى جدة على اي حال ، وقد وصلها في ٢٥
تشرين الثاني ١٩٢٤ . والظاهر انه لم يكن مهتماً بأمر الوساطة بقدر
اهتمامه بنفسه ، فهو - كما عرفناه من قبل - رجل شديد الطموح يريد
الوصول الى العلا بأية وسيلة وفي أي طريق .

كان ابن سعود يعرف السيد طالب معرفة شخصية جيدة ، ولما كتب
اليه السيد طالب يطلب مقابلته للتوسط في الصلح أجابه قائلاً : ان التوسط
لافادة فيه ، واذا كان الشريف علي يريد حقن الدماء فعليه أن يتخلى
عن جدة ، أما اذا قبله العالم الاسلامي واختاره حاكماً للحجاز فمحله غير
مجهول (٢٥) .

(٢٣) . دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٧) .

(٢٤) . دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٠١٥) .

(٢٥) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٣٨١ - ٣٨٢ .

أمضى السيد طالب في جدة سبعة وثلاثين يوماً كان يلتقي فيها بزميله
فيلبي وأمين الريحاني ، وكان كثيراً ما يقضي المساء مع فيلبي تارة ، ومع
الريحاني تارة أخرى . والمعروف انه كان مولعاً بشرب الويسكي ، فاذا
تناول منه كثيراً انطلق يكشف عن خفايا نفسه . يصف الريحاني اجتماعه
بالسيد طالب في جدة ، ويشير الى شيء من ملامح شخصيته ، حيث يقول
ما نصه :

« الا في سبيل المجد ما أنا فاعل - وفي سبيل الوطن . فقد كان السيد
طالب مغواراً في وطنيته ، جباراً في أعماله ، طياراً في آرائه ، وكان شديد
الايمان حتى في ساعات شربه بما حواه ذلك الرأس القائم بين كتفيه
كبرج العاج . اني لاذكر اجتماعنا في جدة في خريف ١٩٢٤ ، وأذكر
من الاحاديث حديثاً عن العراق . فقد قص علينا بعض وقائع أيامه تلك ،
ونحن نشرب الويسكي والصودا ، ثم وضع الكأس على المائدة ورفع يده
الى ذلك الرأس اللامع الشريف يمسحه ويربته : « ان ها هنا شيئاً لا يغلب
- لا يغلب » . وكان يفكر بالعودة الى العراق والى السياسة . كان لايزال
يحلم الاحلام الذهبية . فقال يستأنف الحديث : « الامور مرهونة بأوقاتها ،
وستسمعون عندما أعود ما يدهش ويسر ان شاء الله . وسأطلبك يومئذ
يا استاذ وأعينك وزير المعارف ... » (٢٦) .

وقد تطرق فيلبي في مذكراته الى السيد طالب كذلك . فهو يقول :
ان السيد طالب صارحه عن سبب قدومه الى جدة ، فهو لم يأت في الواقع
من أجل التوسط في الصلح ، بل من أجل الاتصال بابن سعود لكي يساعده
هذا في نيل اماره شرقي الاردن . ان السيد طالب كان قد علم قبل قدومه
الى جدة بأن الانكليز غير راضين عن الامير عبدالله ويريدون استبداله
بغيره . وذكر السيد طالب لفيلبي ان ابن سعود لا يستطيع التسامح بوجود
عدوه عبدالله في شرقي الاردن ، وطلب من فيلبي أن يقابل ابن سعود

(٢٦) أمين الريحاني (فيصل الاول) - بيروت ١٩٥٨ - ص ٨٤ .

لكي يقنعه بجدارته لامارة شرقي الاردن • وتعهد السيد طالب انه اذا تولى تلك الامارة فسوف يتخلى لابن سعود عن وادي السرحان وقريات الملح • ثم قال لفيلبي انه في حالة توليه الامارة سيطلبه ليكون المعتمد البريطاني فيها ... (٢٧) •

في ٣١ كانون الاول ١٩٢٤ غادر السيد طالب جدة الى مصر وهو خالي الوفاض من نيل العلا - مع الاسف الشديد ! •

وساطة الريحاني :

وصل امين الريحاني الى جدة في ٥ تشرين الثاني ١٩٢٤ بناءً على دعوة تلقاها من وزير الخارجية فؤاد الخطيب • ولما كتب الى ابن سعود يطلب منه مقابلته من أجل الصلح كان جواب ابن سعود له يختلف عن جوابه لزميله اذ هو لم يقطع في وجهه الامل بل ترك له باباً مفتوحة يمكن الولوج منها الى المفاوضة • وقد استند الريحاني على هذا الجواب فأرسل الى ابن سعود رسولا يحمل رسالة منه • فغادر الرسول جدة في مساء ٢٢ كانون الاول ، وفي ٢٥ منه عاد الرسول وهو يحمل جواب ابن سعود •

كان الريحاني في مجلس الملك علي عند عودة الرسول حاملاً جواب ابن سعود • ولما قرأ الملك الجواب بدت على وجهه علامات الفرح ، وقال : « قضى الامر • وما تبقى غير الجزئيات • بارك الله فيك يا حسين - يقصد الرسول - وبارك الله فيك يا أمين » • وقبّل الملك أمين الريحاني كما قبّل الرسول لشدة فرحه • ثم نزع العقال والكوفية عن رأسه ونادى : « هاتوا شاي ... • يشهد الله أنني لا أحب أن تهرق نقطة دم واحدة من دم العرب » ... (٢٨) •

(٢٧) خيرى حماد (المصدر السابق) - ص ١٧٣ •

(٢٨) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) - ص ٣٨٧ •

لم تدم هذه الفرحة طويلاً ، ذلك ان طائفة هاشمية حلقت فوق مكة في نفس الوقت الذي كان الرسول فيه يغادرها حاملاً جواب ابن سعود ، فألقت منشورات تؤكد لاهل مكة ان الاستعداد قد تم لضرب العدو المغتصب وتطهير البلاد منه ، وتعهدهم بأن الطائرات سوف تبدأ بقصف العدو ، وتطلب منهم منع العدو من الفرار • ومن الجدير بالذكر ان هذه المنشورات كانت قد أعدت من قبل ، وكان الملك قد أوعد بتأجيل القائنها فوق مكة الى حين ظهور نتيجة التوسط • ولكن بعض العسكريين الذين لم يكونوا راغبين في التوسط أرسلوا الطائرة بغير علم الملك •

انزعج الريحاني مما وقع ، وذهب الى الملك ليستوضح الامر منه ، وقد دهش حين وجد الملك ووزرائه لا يعلمون عن الامر شيئاً • ولما أخبر الريحاني الملك بما وقع ، قرع الملك الجرس الموضوع امامه على المنضدة وطلب حضور تحسين باشا وزير الحربية حالاً • ولما حضر وزير الحربية وواجهه الملك بالخبر أخذ يعتذر ببعض المعاذير ، فقال له الريحاني وفي صدره غضب مكبوم : « لا أظن يا باشا ان هذا السبب كاف لتبرير التجاوز ، وأنت أدري بنتيجة المخالفة للأوامر العالية في أيام الحرب » • فقال وزير الحربية : « ما هو بالامر المهم » • فرد عليه الريحاني قائلاً : « كل أمر ملكي مهم يا باشا » • وعند هذا أخذ الملك يتكلم مع وزير الحربية بالتركية ، ثم نهض مسلماً وخرج • وفي اليوم التالي عندما قابل الريحاني الملك وشرح له تأثير المنشورات على ابن سعود ، قال له الملك : « اني اميل الى حسن الظن بالناس ، ولا أسيء الظن الا بعد التثبت والتحقيق • وقد تحققت أشياء ، تحققتها يا أمين ، وسياسر فلان وفلان وفلان في الباخرة القادمة • وسأوضح تحسين باشا ، ولكنني أفضل أن يكون ذلك في مجلس خاص له » (٢٩) •

(٢٩) المصدر السابق - ص ٣٩٠ •

نشاط القنصل السوفياتي :

ان العلاقات الدبلوماسية بين الاتحاد السوفياتي والحكومة الهاشمية بدأت منذ أواخر عهد الحسين ، فقد تم الاتفاق بينهما في نيسان ١٩٢٤ على أن يكون للاتحاد السوفياتي في الحجاز ممثلة وقنصلية عامة ، وان يكون للحجاز بالمقابل بعثة رسمية في الاتحاد السوفياتي .

عين الحسين حبيب لطف الله مبعوثاً له في موسكو ، وقد وصل هذا الرجل إليها في بداية تشرين الاول . أما الاتحاد السوفياتي فقد عين لتمثيله في الحجاز رجلاً مسلماً اسمه « كريم عبدالغفور حكيموف » ، وقد وصل هذا الرجل الى جدة في شهر آب ١٩٢٤ ، وكان معه نحو أربعة عشر رجلاً كلهم مسلمون ماعدا واحداً . واستأجر داراً له في جدة لتكون مقراً له ولموظفيه . ويقال انه أخذ منذ بداية وصوله الى جدة يبدى نشاطاً ملحوظاً في الدعاية للشيوعية ، وكان الحسين يفض النظر عن نشاطه كناية بالانكليز .

ولما تولى الملك علي الحكم بعد تنازل أبيه اتخذ تجاه الشيوعية موقفاً مغايراً لموقف أبيه ، ولعله فعل ذلك تقريباً للانكليز . وقد نشرت جريدة « المفيد » البغدادية في عددها الصادر في ١٧ حزيران ١٩٢٥ صورة الملك علي وكتبت تحتها العبارة التالية : « صاحب الجلالة الملك علي المعظم ننشر رسمه لمناسبة تصريحه ضد الشيوعية التي قيل انها انتشرت في الحجاز » .

عندما حل شهر رمضان في ٢٦ آذار ١٩٢٥ عزم القنصل السوفياتي كريم حكيموف على الذهاب الى مكة للقيام بشعائر العمرة . وقد رافقه في ذلك القنصل الايراني بالوكالة أحمد لاري ، ونائب القنصل الهولندي الشيخ برافيره الجاوي . ومن الجدير بالذكر ان هؤلاء القناصل الثلاثة كانوا أول جماعة من الاجانب يدخلون مكة بعد احتلال الاخوان لها . فصار الاخوان ينظرون اليهم بعين الريبة ويحسبونهم كفاراً جساؤوا يندسون البلد المقدس . يقول حانظ وهبة : ان الاخوان حاولوا قتلهم على

الرغم من أنهم كانوا يحملون الاذن من ابن سعود ، ولكن عناية الله هي التي أنقذتهم من موت محقق (٣٠) .

كان ذهاب القنصل السوفياتي الى مكة قد أثار اهتمام القنصل البريطاني ، ولهذا نجده يكتب في تقريره السري الى حكومته قائلاً : « ان حكيموف الوكيل السوفياتي في جدة يقوم بزيارة الى مكة بصفته مسلماً يرغب في أداء الحج الصغير . انه يسخر علانية من الدين الاسلامي ، ولهذا نفترض ان زيارته لمكة لم تكن بدافع التقوى . انه أخذ معه شاباً ايرانياً هو ابن تاجر يقوم حالياً بإدارة المصالح الايرانية . وهذا الشاب هو في جيب حكيموف ويردد العبارات البلشفية في أن ايران قد انقذتها الحكومة السوفياتية النيلة من مخالب الامبريالية البريطانية » (٣١) .

ويقول القنصل البريطاني في تقرير آخر له : « ان حكيموف استقبل من ابن سعود بصفته الشخصية ، وكان ابن سعود يسميه « الشيخ كريم » ، ولم ينل هناك احتراماً كبيراً . فان عبدالله الدملوجي ، وهو من رجال ابن سعود الرئيسيين ، سأل الشيخ برافيره على مسمع من الناس : كيف يسمح لنفسه بمرافقة شخص قاصر يدعي انه قنصل عام . وكان الدملوجي يتكلم بصوت عالي بحيث كان في مقدور حكيموف أن يسمعه . أما من الناحية السياسية فقد أقام ابن سعود وليمة للقناصل الثلاثة وتطرق في كلامه اثناء الوليمة بطريقة تأكيدية الى الكلام عن نفسه وقال انه ليست له أية خصومة مع الدول الاوربية وهي الدول التي يفكر هو ان يتعلم منها كثيراً » .

ويقول القنصل البريطاني في هذا التقرير أيضاً : ان هناك دليلاً قوياً على أن حكيموف كان في مكة مشغولاً بالدعاية العلنية العنيفة ضد

(٣٠) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) - القاهرة ١٩٦٧ - ص ٢٨٣ .

(٣١) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٧) .

الحكومات الامبريالية ، ولا سيما الحكومة البريطانية * ويذكر القنصل : ان حكيموف قضى في مكة خمسة او ستة ايام ، ولما عاد الى جدة انهمك في تعاطي الخمرة لمدة اربع وعشرين ساعة ، وذلك بمثابة رد فعل شديد للثقوى المصطنعة التي أظهرها في مكة ، وظل ثمانى واربعين ساعة بعد ذلك غير واعي قليلا او كثيراً (٣٢) .

لم يكن القنصل البريطاني قادراً أن يذهب الى مكة لكونه غير مسلم ، ولعله شعر ان من الضروري له أن يرسل من ينوب عنه الى مكة لاذالة الاثر الذى ربما أحدثه حكيموف فيها * وقد اختار القنصل البريطاني للقيام بهذه المهمة كاتبه الهندي المنشى احسان الله * ويصف القنصل هذا الكاتب بأنه كان تاجراً في المدينة قبل الحرب العامة ، وكانت له فيها سمعة عالية ، ولكن الحرب حطمت تجارتها وأصبح منذ ذلك الحين موظفاً في القنصلية البريطانية * ويقول القنصل عنه : أنه خير بشعائر الحج كما أنه موثوق كمصدر للاستخبارات ، فهو متصل بمختلف الطبقات ويعرف الاشخاص المهمين في مكة ، يضاف الى ذلك انه يجمع بين عقيدته الاسلامية القوية واخلاصه للحكومة البريطانية اذ هو يعتبرها أفضل حارسة لحقوق ومصالح المسلمين في الهند .

سافر المنشى الى مكة وقام بالمهمة التى كلفه القنصل بها * ويقول القنصل في تقريره الى حكومته : ان المنشى قابل ابن سعود ، وأخذ ابن سعود يتحدث اليه عن علاقته بالحكومة البريطانية ، وتطرق الى موضوع العلاقة التى قامت بين بريطانيا والحسين أثناء الحرب العامة ، وصار يشكو من الاعتماد الذى وضعته بريطانيا على الحسين ، وهو الاعتماد الذى لا مبرر له في نظره ، ثم قال ابن سعود : انه كان قادراً ان يفعل أكثر جداً مما فعله الحسين لقاء نصف المبالغ التى دفعتها بريطانيا للحسين (٣٣) .

(٣٢) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٧) .

(٣٣) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٧) .

قصة الطائرات :

ذكرنا من قبل ان الحكومة الهاشمية في جدة كانت معترزة بما لديها من طائرات ومصفحات ، وكانت واثقة من قهر الاخوان بها وطردهم من البلاد • والواقع ان هذه الطائرات والمصفحات لم تكن في حالة يمكن الاعتماد عليها في قتال جدي • ومن الممكن القول ان الحكومة الهاشمية وقعت من هذه الناحية في مثل الورطة التي تقع فيها الشعوب النامية عادة حين تشتري الآلات التكنولوجية الحديثة اعتقاداً منها انها تستطيع أن ترتفع فوراً الى مستوى الشعوب المتقدمة • انها تنسى ان تلك الآلات لا أهمية لها في ذاتها بل في الايدي الفنية التي تحركها وتشرف عليها •

كان لدى الحسين قبل بدء القتال في الحجاز ست طائرات ايطالية لم يكن يصلح للطيران منها سوى اثنتين ، وكان لديه طياران روسيان من بقايا العهد القيصري • وقد سقطت احدي الطائرتين الصالحتين بين الاخوان اثناء معركة الطائف فذبح الاخوان طيارها • ولم يبق لدى الحسين سوى طيار واحد اسمه شيركوف • وقد ترك هذا الطيار الحجاز على أثر تنازل الحسين عن الملك ، وذهب الى مصر •

وفي تشرين الثاني ١٩٢٤ استطاع مندوب الملك علي في مصر اقناع شيركوف بالعودة الى الحجاز ، فعاد معه أربعة ميكانيكيين روس • وقد اشترط شيركوف لقاء عودته أن يُعطى قنينة ويسكي في كل يوم مع راتب شهري قدره ستون ليرة ذهب • فوافقوا على شرطه هذا •

وفي ٢٢ منه وصلت الى جدة الباخرة « نور » وهي تحمل على ظهرها ثلاث طائرات اشترت من انكترا ، وكانت طائرات قديمة حسن بقايا الحرب • وفي ٢ كانون الاول قام شيركوف بتجربة احداها ، وعند هبوطه بها ارتطم جناحها بشجرة فتعطلت عن العمل وظهر فيما بعد ان طائرة أخرى من الطائرات الثلاث لاتصلح للطيران • أما الثالثة فكانت صالحة الى حد ما •

أخذ شيركوف يقوم بتحليلات استطلاعية على مواقع العدو في كل يوم صباحاً ومساءً • ويقول القنصل البريطاني في تقريره الى حكومته : ان نتائج استطلاعات شيركوف لم تكن ذات قيمة كبيرة لانه كان يرفض التحليق على ارتفاع يقل عن تسعة آلاف قدم ، كما ان المراقب السذى يصحبه في الطائرة كان أعور وكان يلبس النظارات الداكنة دائماً (٣٤) •

كان وزير الحربية تحسين باشا يصر على شيركوف أن يقذف بالقنابل على تجمعات العدو ، ولكن شيركوف كان يرفض ذلك لسبب وجيه هو عدم وجود قنابل جوية لديهم • فطلب تحسين باشا منه أن يستعمل القنابل اليدوية في القصف ، فأوضح له شيركوف ان هذه القنابل قد تنفجر قبل وصولها الى الارض وربما نسفت الطائرة بمن فيها • اقترح تحسين باشا استعمال قنابل المدافع ، وجربها بنفسه مرتين فلم ينجح في التجربة (٣٥) •

كانت قد اقيمت في جدة ورشة عسكرية لتصليح الاسلحة • واخذت هذه الورشة بايعاز من تحسين باشا تعمل على تحويل قنابل المدافع الى قنابل جوية ، فصنعت نوعاً من القنابل توقد بعود الثقاب • وارثاى تحسين باشا قصف تجمعات العدو قرب مكة بتلك القنابل • ولكن شيركوف أظهر للملك علي خطأ هذا الرأي ، لان قصف مكة بالقنابل على يد طيار «كافر» سيتخذ ابن سعود دعاية قوية له في العالم الاسلامى ضد العائلة الهاشمية • والظاهر ان الملك علي كان مترددا لايدري الى أي جانب يميل ، جانب تحسين باشا او جانب شيركوف •

في أوائل كانون الاول ١٩٢٤ وصل الى جدة طياران جديدان ، وميكانيكيان ، وكلهم روس • فأصبح لدى الحكومة الهاشمية ثلاثة طيارين وستة ميكانيكيين ، مع طائرتين صالحتين • وأخذت الطائرتان تطيران بين آونة

(٣٤) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف • أو • ٣٧١ - ١٠٨٠٧) •

(٣٥) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف • أو • ٣٧١ - ١٠٨٠٧) •

وأخرى فتسقط بعض القنابل على تجمعات العدو بالقرب من جدة وفي منتصف الطريق بين جدة ومكة .

في ١٨ كانون الثاني ١٩٢٥ حدثت خادثة مؤسفة انفجرت فيها احدى الطائرتين وقتل شيركوف . وخلاصة الحادثة : أن شابا سوريا اسمه عمر شاكر كان لاجئا في الحجاز منذ عهد الحسين ، وحين اشتدت الحرب حول جدة أصبح هذا الشاب متحمساً في بغضه لابن سعود والايخوان وكان يتمنى أن يرميهم من الجو ولو بقنبلة واحدة . وفي ذلك اليوم صدر الامر الى شيركوف بالتحليق لقصف تجمعات الاخوان في الرغامة . فاتهز عمر الفرصة وحشر نفسه في الطائرة مع المراقب ، وكان يحمل معه قنبلتين من تلك القنابل التي توقد بعود الثقاب ، وسمعه أحد الحاضرين يقول : « سألقبها على رأس عبدالعزيز » . ولما وصلت الطائرة فوق الرغامة ، وكانت على ارتفاع ألفي قدم ، شاهد من فيها معسكر الاخوان وهو يضم الخيمة التي كان ابن سعود يجلس فيها . وكان من السهل القاء القنبلتين على ابن سعود وقتله ، ولكن عمر لم يكذب يوقد عود الثقاب لتفجير احدى القنبلتين حتى انفجرت القنبلة في يده ، وانفجرت الطائرة في الجو ، ثم هوت الى الارض مشتعلة أمام خيمة ابن سعود . ويعد خير الدين الزركلي هذه الحادثة من جملة الحوادث التي تدل على وجود موهبة « الحظ » لدى ابن سعود (٣٦) .

في شهر تموز ١٩٢٥ وصل الى جدة من مصر أربع طيارين ألمان (٣٧) . ثم وصلت بعد ذلك ستة طائرات ألمانية وكانت طائرات جديدة مجهزة بالرشاشات ومعها قنابلها الخاصة بها . وكان من الممكن ان يكون لهذه الطائرات أثرها الحاسم في الحرب ، غير أنها جوبهت بمشككتين ، احدهما ان الحكومة الهاشمية لم يكن لديها ما يكفيها من البنزين (٣٨) ،

(٣٦) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٥٨٤ - ٥٨٥ .

(٣٧) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٩) .

(٣٨) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

والنانية ان الطيارين امتنعوا عن التحليق بها لانقطاع الراتب عنهم ، وغادروا جدة . وبقيت الطائرات عاطلة عن العمل الى أن سقطت جدة في كانون الاول ١٩٢٥ ، فاستحوذ عليها ابن سعود غنيمة باردة (٣٩) .

قصة المصفحات :

لم تكن حالة المصفحات بأفضل من حالة الطائرات . ففي ٣١ كانون الثاني ١٩٢٥ وصلت من المانيا خمس سيارات لوري ، ولكنها كانت قديمة وفي حالة سيئة ، وقد وصفها أحد الميكانيكيين الروس بأنها ربما كانت من مخلفات الجيش الأمريكي بيعت في المانيا على شكل خردة بسعر خمسة باونات لكل واحدة منها (٤٠)

وصلت مع السيارات أربعة عشر صندوقاً تضم صفائح من الحديد . وصار عمال الورشة يعملون في تصفيح السيارات بها ، واستمروا على ذلك شهرا . وعندما تم تصفيح السيارات تبين أنها تحتاج الى الماء كثيراً ، اذ هي تكاد لاتسير ساعتين حتى يظهر عليها العطش (٤١) . أضف الى ذلك ان محركات السيارات لم تكن قادرة على السير كثيراً لثقل الصفائح عليها . وقد جربت واحدة منها على طرق جدة فكانت تسير بسرعة ثمانية الى عشرة اميال في الساعة (٤٢) . وشوهدت احدى السيارات وقد تعطلت عن السير ، فاضطروا الى سحبها بواسطة الابعار (٤٣) .

في ٢٥ كانون الاول وصل الى جدة ستة ألمان مختصين بسياسة السيارات المصفحة ، وكانوا مرسلين من الامير عبدالله . ولكنهم لم يبقوا في جدة طويلا ، والظاهر ان عبدالله كان قد وعدهم برواتب ضخمة أكثر

(٣٩) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) - القاهرة ١٣٤٩ - ج ١ ص ١٩٨ .

(٤٠) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٧) .

(٤١) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٤٠٢ .

(٤٢) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٧) .

(٤٣) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) - ج ١ ص ١٩٨ (حاشية) .

مما تستطيع حكومة جدة توفيرها لهم • ولهذا تركوا جدة في ٩ كانون
الناني ١٩٢٥ (٤٤) •

في ٨ آذار ١٩٢٥ عم الابتهاج والتفاؤل جدة حين وصلت اليها باخرة
ايطالية وهى تحمل سيارتين مصفحتين وألف بندقية ونحو سبعمائة
صندوق من العتاد • يقول القنصل البريطاني في تقريره الى حكومته : ان
هذه الشحنة قد أضافت قوة كبيرة الى الجيش الهاشمي ، وكانت
للسيارتين المصفحتين أهمية خاصة فهما لم تكونا زائفتين كالسيارات الخمس
التي وصلت من المانيا قبل ذلك ، انهما كانتا صغيرتان ولكنهما سريعتان
وخفيفتان وكل منهما مجهزة بثلاثة رشاشات ، اثنتان في المؤخرة وواحدة
في المقدمة • وقد وصل من مصر ثلاثة سواق لسياقة هاتين السيارتين
والمظنون أنهم سوريون (٤٥) •

كان لهاتين المصفحتين دور لا يستهان به في المعركة التى نشبت حول
جدة في ١٤ آذار ، ولكنهما مع ذلك لم يكن لهما أثر حاسم فيها •

معركة ١٤ آذار :

كانت معركة ١٤ آذار ١٩٢٥ اكبر معركة خاضها الجيش الهاشمي
حول جدة • وكانت الحكومة الهاشمية قد استعدت لها كثيراً ، وكانت
متفائلة من نتائجها ، اذ كانت تظن أنها ستنزل بالاخوان ضربة ساحقة ،
وستعيد احتلال مكة والطائف قريباً •

وصلت الى جدة من المدينة عن طريق معان والعقبة أربعة مدافع
كبيرة • وأخذت هذه المدافع تقصف مواقع الاخوان طيلة اليوم السابق
للمعركة • وفي الساعة العاشرة من صباح يوم المعركة خرجت من جدة
أربعة أرتال من الجنود في جبهة عرضها ميلان ، وكان في صحبتها خمس

(٤٤) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف • أو • ٣٧١ - ١٠٨٠٧) •

(٤٥) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف • أو • ٣٧١ - ١٠٨٠٧) •

مصفحات من ضمنها المصفحتان الجديدتان^(٤٦) ، فنسبَ بينها وبين قوات
الاخوان قتال استمر نحو خمس ساعات •

كان الاخوان يقاتلون بالروح الفدائية التي عرفوا بها ، وصار
بعضهم يدورون حول المصفحات وهم يطلقون نيران بنادقهم غير مباليين
برصاص الرشاشات الذي كان ينهال عليهم كالمطر • وشوهد أحدهم ،
وهو زنجي من العيد ، يصعد على احدى المصفحات وهو يطلق النار من
مسدسه ، فأصابته رصاصة اسقطته على الارض^(٤٧) •

كانت المعركة تُشاهد من فوق سطوح الدور في جدة ، وكان من
بين الذين شاهدوها القنصل البريطاني وأمين الريحاني ، وكذلك كان
الملك علي يراقبها بناظوره • وقد انتهت المعركة في الثالثة بعد الظهر ،
بعد أن سقط من الفريقين نحو ثلاثمائة قتيل • وتراجعت المصفحات الى
داخل الاسلاك الشائكة وقد تمزقت وتكسرت جوانب بعضها ، واصيب
اثنان من سواقها بجروح بليغة^(٤٨) •

كتب القنصل البريطاني الى حكومته في وصف المعركة يقول : ان
الوهابيين حاربوا بكل ضراوة ، أما جنود الحكومة الهاشمية فلم يكونوا
مقبليين على المعركة بكل قلوبهم ، وقد دل على ذلك ان نسبة عالية من
جروحهم كانت في ظهورهم وأردانهم • وكانت أكثر الخسائر في الجنود
الحجازيين واليمانيين وهم من بقايا جيش الحسين القديم • أما الفلسطينيون
وهم من المتطوعين الجدد وكانوا مدعومين بالمصفحات فكانوا يقاتلون بحذر
شديد • ويقول القنصل عن نتيجة المعركة بوجه عام : انها أوهنت عزيمة
القيادة الهاشمية وقوت عزيمة القيادة السعودية ، فهي كانت ضربة قوية
على القيادة الهاشمية ، والظاهر ان هذه القيادة أدركت أنها بحاجة الى

(٤٦) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف • أو • ٣٧١ - ١٠٨٠٧) •

(٤٧) امين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٤١١ •

(٤٨) المصدر السابق - ص ٤١١ •

هوات أكبر وأفضل لكي تتسكن من طرد الوهابيين من البلاد^(٤٩) .

خمدت حدة القتال بعد معركة ١٤ آذار . وعندما حل شهر رمضان في ٢٦ منه حصل فيه ما يشبه الهدنة . وقد أشيع في جدة ان المعركة الفاصلة ستكون في شوال ، ولكن شوال جاء ولم يقع فيه شيء^(٥٠) .
وحين اقترب موسم الحج في أواخر حزيران أخذ الاخوان الذين كانوا يحاصرون جدة يغادرون مواضعهم بغية الذهاب الى الحج ، فظننت الحكومة الهاشمية ان الاخوان انسحبوا من القتال نهائياً . وأرسل الملك علي الى اخيه فيصل في بغداد برقية مؤرخة في ٢١ حزيران يقول فيها : ان ابن سعود اضطر الى اخلاء مواقعه من حول جدة وانه انسحب الى أطراف مكة . فكان لهذه البرقية تأثير سار على الملك فيصل ، وأصدرت الحكومة العراقية بياناً رسمياً تبشر الامة بهذا النصر . وعلقت جريدة « العراق » على هذا البيان قائلة : « فالعراق ترفع التهاني للامة العربية بهذا الفوز المبين وتبتهل الى الله أن يكمل هذا الفوز باخراج العدو من جميع البلاد الحجازية وينصر الجيش الهاشمي على خصوم الوحدة العربية واعداً لها »^(٥١) .

تبين أخيراً أن بشارة النصر كانت قائمة على اساس من الوهم ، فقد عاد الاخوان الى مواضعهم السابقة بعد انتهاء موسم الحج .

حالة السكان :

عانى سكان جدة كثيراً من المشقة والضيق والاذى خلال أشهر الحرب . وكان نصيب الفقراء من ذلك أكبر جداً من نصيب غيرهم - كما هو حظ الفقراء دائماً . فقد ارتفعت أسعار الاغذية في البلدة ، ولاسيما أسعار الخضروات والفواكه ، وانتشرت بين السكان الملاريا والزحار

(٤٩) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٧) .

(٥٠) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٤١٠ - ٤١٢ .

(٥١) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ٢٣ حزيران ١٩٢٥ .

وأعراض نقص الفيتامين كالاسقريوط والبريبري * ويساء تعدد الوفيات في البلدة يزداد يوماً بعد يوم *

تعتمد جدة في ماء شربها على ماكينة لتقطير الماء تسمى عندهم بـ « الكونداسة » * وصارت هذه الماكينة تعمل خلال الحرب فوق طاقتها ، وكان معظم انتاجها يخصص لحاجات الجيش ، وبدأ العطش ينتابها بين فترة وأخرى * وأخذ الناس يعانون من العطش مثلما عانوا من الجوع * وبيعت صفيحة الماء بعشرة قروش ، وهذا سعر يصعب على الفقير تحمله (٥٢) * يقول فيلبي في التعليق على ذلك : « ان سياسة الحياد المطلق التي اتبعتها بريطانيا قد كلفت مدينة جدة غاليا اذ فقد فيها ما يربو على الخمسة والعشرين ألفا ، ذهبوا ضحية المرض والجوع والشقاء في سنة كاملة من الحصار ، انتهت وقد ركع أهل المدينة يتوسلون طالين الماء وباحثين عن الشعير والعلف ليأكلوه بدلا من طعام الانسان » (٥٣) *

وظهرت في جدة مشكلة أخرى بالإضافة الى مشاكل الجوع والعطش ، هي مشكلة العيد * فقد كان في جدة كما في غيرها من مدن الجزيرة العربية كثير من العيد ، وكان بعض هؤلاء العيد في الايام الماضية يهربون من اسيادهم ويلجأون الى القنصلية البريطانية لتسفرهم الى مواطنهم في أفريقيا * وعندما اشتدت المجاعة في جدة ازداد عدد اللاجئين الى القنصلية ، ففي شهر تموز سفرت القنصلية ستة وعشرين عبداً كان معظمهم سودانيين ، وفيهم بعض الاحباش * وقد غضب اهالي جدة من ذلك وذهب وفد منهم الى وزير الخارجية الهاشمية فؤاد الخطيب يحتجون على ما فعلته القنصلية ، وكانت حجبتهم أن العيد الهاربين سارقون ويجب أن ينفذ حكم الشرع فيهم * واضطر الملك علي أن يتدخل في الامر فطلب من القنصلية أن تكف عن تسفير العيد متذرعاً بحالة التذمر

(٥٢) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٩) *

(٥٣) خيرى حماد (المصدر السابق) - ص ١٥٨ *

العام انوجود في جدة ، فان هذا العمل قد يزيد من تدمير الاهالي وربما أدى الى ثورتهم • فاستجاب القنصل لرجاء الملك مؤقتاً (٥٤) •

أعيان جدة :

كان اعيان جدة خلال أشهر الحرب فريقين ، أحدهما هاشمي الهوى والاخر سعودي الهوى • وكان بينهما صراع مكتوم •

كان على رأس الفريق الهاشمي رجل اسمه محمد طويل ، وكان في الواقع شديد الولاء للملك علي ولييت الهاشمي ، وقد انفق معظم ثروته في مساعدة الملك علي في اثناء الحرب • ويفسر خصومه هذا الولاء منه بأن البيت الهاشمي كان سبب ثروته (٥٥) • ومهما كان السبب فإن ثبات هذا الرجل في ولائه يدل على وفائه ، ومن النادر أن يكون الانسان وفياً في مثل تلك الظروف •

أما الفريق ذو الهوى السعودي فكان على رأسه قاسم زينل ، وكان هذا الرجل يعلن مراراً ان مصلحة جدة تقتضي بأن تستسلم لابن سعود وان يغادرها الملك علي • وقد وصل الى علم الملك علي ان هذا الرجل مع أعوان له أربعة على اتصال بابن سعود وانهم يمدونه بالاسرار ، فأوعز الملك الى وزير الحربية باحالتهم الى محكمة عسكرية ، فحكمت عليهم المحكمة بالسجن • وفي ٧ تشرين الثاني ١٩٢٤ أعادت المحكمة محاكمتهم وحكمت عليهم بالاعدام • وقد أصر وزير الحربية على تنفيذ الحكم فيهم ، غير أن الملك دعاهم الى قصره في ١٤ منه وأعلن عفوه عنهم بعد أن نصحهم بعدم التعرض للحكومة أو التكلم في السياسة (٥٦) • ويقول فيلبي : ان المتهمين دفعوا للملك علي ثمناً للعتف عنهم ، حيث تبرع كل واحد منهم بألفي جنيه لمشروع الدفاع عن جدة (٥٧) •

(٥٤) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف • أو • ٣٧١ - ١٠٨٠٩) •

(٥٥) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) - ج ١ ص ١٦٣ •

(٥٦) المصدر السابق - ص ١٦٧ •

(٥٧) خيرى حماد (المصدر السابق) - ص ١٦٣ •

لم يمض على ذلك سوى شهر ، أو أقل منه ، حتى بدأ قاسم زينل
يجهر برأيه المعارض للحكومة الهاشمية مرة أخرى ، واخذ يدعو الى
وجوب اخراج الملك علي من جدة . والظاهر ان هذا الرجل كان واثقا
من طيبة قلب الملك علي وتسامحه ، فصار يتجرأ عليه . يقول فيلبي في
وصف الملك علي : انه كان سليم الطوية الى الحد الذي يصل الى درجة
السذاجة (٥٨) .

مشكلة البشر أنهم يكونون اجرياء في مجابهة الطيب المتسامح ، ولا
يكادون يلقون القوي الصارم حتى يستخذوا له . وهذا أمر لاحظناه
واضحاً في التلاميذ تجاه معلمهم ، وهو أوضح في عامة الناس تجاه
حكامهم .

قصة الجنود :

حين تقارن بين جنود ابن سعود وجنود الملك علي نجد فرقا واضحا .
فأولئك كانوا مستميتين في القتال - كما ذكرناه من قبل - يعتقدون أنهم
اذا قتلوا دخلوا الجنة ، بينما هؤلاء كانوا مرتزقة متنازحين . وقد وصفهم
القنصل البريطاني في تقريره السرى الى حكومته بقوله : انهم باستثناء
عدد قليل منهم ليسوا سوى زمرة من المرتزقة السفاكين ، كل فئة منهم
ترتاب من الفئة الاخرى ، وهم بوجه عام يتحدون في الشغب ولكنهم في
النفع متفرون (٥٩) .

كان أكثر فئات الجنود شغباً واثارة للمشاكل هم الفلسطينيون ، وبإيهم
السوريون وهم من الدروز في الغالب . وقد بدأ الفلسطينيون يعلنون
تدميرهم بعد فترة قصيرة من وصولهم الى جدة ، وصاروا يذهبون الى
القنصل البريطاني يشكون اليه من سوء حالهم ورداءة لباسهم وطعامهم ،

(٥٨) المصدر السابق - ص ١٦٢ .

(٥٩) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١١٤٣٢) .

وادعوا اليهم لم يتطوعوا للقتال بل للعمل في سكة حديد معان غير انهم نقلوا الى حدة رغم ارادتهم * وقد بدأ ندمهم يزداد عندما عجزت الحكومة الهاشمية عن دفع رواتبهم منذ أواخر عام ١٩٢٤ * وفي ١٥ شباط أضربت جماعة من الفلسطينيين بلغ عددهم مائة وخمسين ، وأعلنوا رفضهم طاعة الاوامر الى ان تدفع لهم الحكومة رواتبهم المتأخرة * فجاء اليهم بعض ضباطهم ليتكلموا معهم ، فرفضوا الكلام معهم وأخذوا يوجهون نيران بنادقهم فوق رؤوس الضباط * ثم جاء الملك علي اليهم ووعدهم بدفع رواتبهم خلال خمسة او ستة ايام * فعادوا الى الطاعة ، وتم دفع الرواتب لهم في الوقت المحدد (٦٠) .

تفاقت المشكلة من جديد في شهر نيسان ١٩٢٥ حين أعلن الفلسطينيون والمصريون تدميرهم لتأخر دفع رواتبهم ، وطالبوا بتسفيرهم الى بلادهم * وقد اضطرت الحكومة الى تسفير خمسة وثلاثين رجلا منهم * وأدى هذا التسفير الى تشجيع آخرين لاعلان التذمر والمطالبة بالتسفير ، وذهب بعضهم الى القنصلية البريطانية طالبين تدخلها * وذُكرت الحكومة ، وخشيت أن ينهار نظام جيشها ، فاعتقلت عدة جنود من الذين ذهبوا الى القنصلية ، وجلدتهم وابتعدتهم الى ينبع والوجه * وقد احتج القنصل لدى الملك على ذلك ، وأكد له الملك ان الجلد لم يكن بعلمه وانه أصدر أوامر مشددة بعدم جلد الجنود في المستقبل (٦١) .

تحسنت حاله في شهر أيار ، وذلك على أثر وصول عشرين ألف ليرة من الحسين في العقبة * وقد وصل من العراق أيضا مبلغ خمسة عشر ألف روبيه ، وهو المبلغ الذي أرسله الملك فيصل من واردات الاوقاف النبوية * فتمكن الملك علي بهذين المبلغين من دفع رواتب شهر واحد للجنود ، فهدأوا أملاً بالحصول على جميع رواتبهم المتأخرة بعدئذٍ * .

(٦٠) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو ٣٧١ - ١٠٨٠٧) .

(٦١) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو ٣٧١ - ١٠٨٠٨) .

في أواخر تموز استدعى قائمقام جدة كبار التجار الى اجتماع ،
وطلب منهم قرضاً للحكومة قدره عشرون ألف ليرة ، فرفضوا طلبه .
وبعد مجادلات معهم أنزل المبلغ الى أربعة آلاف ليرة ، فدفعوه . وفي
شهر آب باع الملك علي عدداً من الدكاكين العائدة له في جدة بمبلغ خمسة
آلاف ليرة ، وقد اشتراها منه سليمان قابيل أحد تجار جدة الاغنياء^(٦٢) .
واضطر الملك أخيراً الى رهن أطيانه الخاصة في مصر لقاء قرض قدره
خمس عشرة ألف جنيه^(٦٣) . وقيل انه اضطر أيضاً الى بيع بعض مقتنيات
عائلته الشخصية حتى حلي زوجته وجواهرها^(٦٤) .

ان هذه المبالغ التي حصلت عليها الحكومة لم تكن تكفي لسد طلبات
الجنود المتزايدة . فاضطرت الحكومة في ١٢ آب الى تسفير ٤٧٥ جندي
من الفلسطينيين حيث أرسلتهم الى العقبة على الباخرة « طويل »^(٦٥) .
وأخذ الجنود الباقون يتخذون شتى الوسائل للحصول على المال . يقول
حسين محمد نصيف وهو من أهل جدة : ان بعض الجنود أخذوا ينهبون
ما يجدونه أمامهم ، وعمد فريق آخر منهم الى اقتحام بعض الدور الخالية
فهدموها وانتزعوا أخشابها وباعوها ، وقد بلغ قيمة ما خربوه بهذه الطريقة
عشرين ألف جنيه . ولجأ بعض الجنود الى الاستجداء في الشوارع^(٦٦) .

اشتدت الازمة في عصر ٢٨ تشرين الثاني ، وذلك حين اجتمع الجنود
وقرروا نهب البلدة في اليوم التالي . فعلم الملك بالخبر في منتصف الليل ،
وأرسل يستدعي اليه شيوخ القبائل الحجازية واليمانية التي ينتمي اليها
فريق من الجنود ، ورجا منهم أن يمنعوا أتباعهم من الاشتراك في التمرد .
فاستجاب الشيوخ له ومنعوا أتباعهم . أما الفلسطينيون والسوريون فظلوا

(٦٢) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٩٠٩) .

(٦٣) أمين الربحاني (المصدر السابق) - ص ٤٠١ .

(٦٤) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) - بيروت - ج ٢ ص ١٧٧ .

(٦٥) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٩) .

(٦٦) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) - ج ١ ص ١٩٩ .

مصريين على موقفهم^(٦٧) . وفي صباح اليوم التالي تظاهر نحو ٢٢٠ رجل منهم ، فخرجوا يسرون في الاسواق وهم يطلقون الرصاص ، حتى انتهوا الى المسجد الكبير ، فدخلوه وتحصنوا فيه ، وأخرجوا فوهات بنادقهم من منافذه ، مهددين كل من يقترب منهم بالقتل . وجاء اليهم وزير الحرية فهددوه بالقتل فعاد من حيث أتى^(٦٨) .

أحاط بالمسجد حرس الملك وعييده المسلحون وتدخل القنصل البريطاني في الأمر ، يؤيده القنصل الايطالي الذي كان في ذلك الحين نائباً عن القنصل الفرنسي ، وطلبوا الكف عن الفلسطينيين والسوريين بحجة أنهم رعايا بلاد واقعة تحت انتداب حكومتيهما . فانسحب الحرس والعبيد من حول المسجد .

تم الاتفاق مع الجنود المتمردين على تسفيرهم بعد عشرة أيام ودفع ليرة واحدة لكل واحد منهم مع تموين يكفيهم خمسة عشر يوماً . وفي ١٢ كانون الاول جرى تسفيرهم على الباخرة الصغيرة « رشدي » الى العقبة^(٦٩) . ولكن المشكلة لم تقف عند هذا الحد ، لأن الجنود الباقين شعروا بأنهم حرموا من العطاء لسكوتهم وطاعتهم ، وبدأ التذمر ينتشر بينهم ، وخيف على البلدة من النهب^(٧٠) .

اصبح الوضع في جدة خطراً ، وأدرك الملك علي أنه في موقف يائس لا أمل فيه . ومما زاد في يأسه وصول الخبر اليه بسقوط المدينة المنورة في أيدي القوات السعودية منذ ٦ كانون الاول . واتضح لديه ان ابن سعود ربما تمكن من نقل مدافعه من المدينة الى ما حول جدة في وقت قريب . وعند هذا قرر الملك علي التسليم لابن سعود ومغادرة البلاد - لكي يريح ويستريح^١

-
- (٦٧) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١١٤٤٢) .
(٦٨) حسين محمد نصيف (المصدر السابق) - ج ١ ص ١٩٩ .
(٦٩) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١١٤٤٣) .
(٧٠) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١١٤٤٢) .

كيف جرى التسليم :

يقول القنصل البريطاني في تقريره السري الى حكومته : « زارني الملك علي برفقة وزير خارجيته فؤاد في مساء ٩ كانون الاول ، وذلك بعد أيام من وصول الخبر اليه بسقوط المدينة ، وأخذ يتحدث في شؤون شتى . ولكنه قبل مغادرته القنصلية طلب مني النصيحة حول ما ينبغي أن يفعل في الأيام القادمة . فأخبرته اني غير قادر على اعطائه أية نصيحة بالنظر للموقف الجبدي الشديد الذي اتخذته حكومة صاحب الجلالة . فغادر الملك القنصلية ، وفي صباح اليوم التالي طلب مني مقابلته ، فذهبت اليه ، وسألني نفس السؤال وأعدت عليه نفس الجواب . وفي مساء ١٣ منه ، عندما ازداد الوضع تأزماً ، طلب مني الملك عليّ شفهيّاً أن أتوسط لتسليم البلدة . فأخبرته اني سوف اتصل بحكومتي في هذا الشأن وأبلغه بالنتيجة حال وصول جوابها . انه طلب مني أيضاً السماح بالاقامة في فلسطين أو شرقي الاردن أو العراق ، وقال انه عربي ويرغب أن يعيش في بلاد عربية ان امكن وبالقرب من أحد اخويه فيصل أو عبدالله . وفي صباح اليوم التالي أكد الملك عليّ طلبه الشفهي السابق بطلب تحريري ، وقدم لي قائمة بالشروط التي يمكن أن تكون أساساً للتوسط . . . » (٧١)

أبرق القنصل البريطاني الى حكومته يطلب منها الاذن بالتوسط ، فوصل الجواب منها في صباح الاربعاء ١٦ منه تسمح له بذلك . فأسرع القنصل فكتب كتاباً الى ابن سعود يطلب منه التفضل بمقابلته في الرغبة في ضحي اليوم التالي ، وأرسل الكتاب مع كاتبه الهندي المنشئي احسان الله . وغادرت سيارة القنصلية جدة تحمل الكاتب الهندي ويرفرق فوقها علم أبيض . والتقت السيارة بموكب ابن سعود بالقرب من بحرة ، وقدم الكاتب له كتاب القنصل . فلما قرأ ابن سعود الكتاب قال للكاتب : انك جئت في اللحظة المناسبة لانك لو كنت قد تأخرت يوماً واحداً لكان الوقت قد فات .

(٧١) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (٠.١.٠ أو ٣٧١ - ١١٤٣٢) .

وأخبره ابن سعود بأنه كان متوجهاً الى الرغبة لتوجيه الهجوم على جدة بناء على طلب أهالي جدة الذين وعدوه بالمساعدة عند الهجوم .

يروى خير الدين الزركلي : أن ابن سعود كان في ذلك الوقت الذي جاء فيه كاتب القنصل في ساعة من أخرج ساعات حياته ، ذلك ان رؤساء الاخوان كانوا آنذاك قد سُموا المقام في حصار جدة وصاروا يجادلون ابن سعود جدالاً عنيفاً حيث خيروه بين أمرين : اما ان يأذن لهم في فتح جدة عنوة ، أو يرحلوا عنها الى ديارهم في نجد . فأجابهم ابن سعود قائلاً : « لن أدخل جدة في قتال ، وسأبقى على أبوابها ، ولكم أن تقيموا أو ترحلوا » . وبينما كان الاخوان يتهاون للرحيل وصل الخبر الى ابن سعود بعزم الملك علي على التسليم . وفي رأي الزركلي ان هذا الحادث هو دليل آخر على وجود موهبة « الحظ » لدى ابن سعود (٧٢) .

وافق ابن سعود على مقابلة القنصل البريطاني في اليوم التالي الخميس . وفي الساعة العاشرة من صباح الخميس التقى القنصل بابن سعود في الرغبة ، وكانت تلك أول مقابلة له معه . وكتب القنصل في تقريره الى حكومته يبدي اعجابه بما شاهد في ابن سعود من جاذبية في الخلق وتسامح كريم في ساعة النصر . وذكر القنصل ان ابن سعود وافق على معظم الشروط التي طلبها الملك علي ، وكان ذلك عملاً كريماً منه (٧٣) .

كانت الشروط مؤلفة من سبعة عشر مادة ملخصها أن ابن سعود يجب أن يعفون عن جميع من عاون الملك علي من الموظفين والضباط والأعيان ، ويضمن سلامتهم وسلامة عائلاتهم وأموالهم ، وأن يوزع على الضباط والجنود مبلغ خمسة آلاف جنيه ، ويتعهد بترحيل من يرغب منهم الى أوطانهم مع ابقاء من يجد الكفاءة فيهم من الموظفين ، ويمنح عائلة

(٧٢) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٥٨٥ .

(٧٣) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١١٤٣٢) .

آل الحسين جميع ممتلكاتهم الشخصية التي ورثوها من آبائهم ، ويمنح الملك علي الحق في أن يأخذ معه عند خروجه جميع أمتعه الشخصية بما فيها سيارته الخاصة وسجاداته وخيوله • ويتعهد الملك علي من جانبه بتسليم جميع الاسلحة والرشاشات والطائرات والمدافع والمصفحات سالمة من غير تخريب ، وكذلك تسليم البواخر الحجازية الاربعة وهي «طويل» و «رشدي» و «الرقمتين» و «رضوى» ، مع السماح للملك علي باستعمال الباكسة «الرقمتين» لنقل أمتعه الشخصية ثم تعود بعد ذلك (٧٤) •

عاد القنصل الى جدة بعد الغروب في اليوم نفسه ، وقابل الملك علي بعد العشاء • وقد اعترض الملك بمرارة على التعديلات التي أجراها ابن سعود على شروطه • ولكنه وافق عليها أخيراً ووقعها • وأخذ الملك علي بعدئذ يسعد لمغادرة جدة في أقرب وقت ممكن •

وفي صباح ٢٢ منه غادر الملك علي جدة على ظهر البارجة البريطانية « كورن فلاور » • وقد اعتق قبل مغادرته واحداً وعشرين عبداً من عبيده ، وسلمهم الى القنصلية البريطانية لكي تسفرهم الى مواطنهم في أفريقيا (٧٥) • ويقال انه أخذ معه عند مغادرته جدة جميع ما كان في دوائرها من طوابع البريد (٧٦) •

أبحرت البارجة بالملك علي وحاشيته متجهة بهم نحو عدن ، وعند وصولهم اليها نزلوا فيها • وقد حاول المقيم البريطاني في عدن الحصول على باخرة تنقلهم الى البصرة ، فلم يجد • فاضطر الى حجز أماكن لهم في باخرة تحملهم الى بومبي • وقد غادروا عدن في ٢٧ منه • وحين وصلوا الى بومبي لم يتمكنوا من النزول فيها لعدم وجود جوازات سفر لديهم ،

(٧٤) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) - القاهرة - مج ٣ ص ٢١٨ - ٢١٩

(٧٥) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف • أو • ٣٧١ - ١١٤٤٢) •

(٧٦) أنيس صائغ (الهاشميون والثورة العربية الكبرى) - بيروت ١٩٦٦ - ص ٢٤٦ •

فُنقلوا الى باخرة أخرى حملتهم الى البصرة (٧٧) • ومن هناك ركبوا
القطار الى بغداد فوصلوها في ٨ كانون الثاني ١٩٢٦ ، وكان في استقبالهم في
المحطة الملك فيصل وابنه غازي (٧٨) •

دخول ابن سعود جدة :

كانت قد تشكلت في جدة حكومة مؤقتة للمحافظة على الأمن خلال
الفترة بين الحكّمين • وعلى أثر مغادرة الملك عليّ جدة توجه القنصل
البريطاني الى الرغامة ومعه رئيس الحكومة المؤقتة ، فقدمه الى ابن سعود •
ثم أخذ القنصل يشكر ابن سعود على قبوله وساطته في الصلح ، وذكر له
أن حكومته انما سمحت له بالتوسط من أجل حقن الدماء في البلاد المقدسة ،
وجلب السلام والرخاء لها ، وتأمين سلامة ملايين الحجاج الذين هم من
رعايا صاحب الجلالة البريطانية المفخمة • فأجابه ابن سعود قائلاً :
أمام الحاضرين : انه يشكر الحكومة البريطانية بحرارة على ذلك بالأصالة
عن نفسه وبالنّياية عن قومه وجميع العالم الاسلامي • وذكر أنه يعتبر
بريطانيا الصديقة الوحيدة المخلصة له في العالم ، وأنه ليس له أية علاقة
صغيرة أو كبيرة مع غيرها من الدول • ويقول القنصل البريطاني في تقريره
السري الى حكومته : ان ابن سعود أعاد هذا الكلام عدة مرات وبكل حماس
واخلاص ، وكان يدعم كلامه بإشارة من يده اذ كان يحرك قبضة يده مع
كل كلمة يفوه بها • وقد واصل ابن سعود كلامه مع القنصل فقال : انه
بناءً على قدسية الكلمة وما يأمر به دينه وعقيدته ملتزم ومنفذ للمعاهدة
المعقودة بينه وبين بريطانيا العظمى ، وانه على تمام الوفاق مع صديقه
وحليفته الامة البريطانية ، فسياستها هي سياسته ما دامت لا تتعرض لأمرين
هما أعز عليه من حياته وهو مستعد أن يريق آخر قطرة من دمه في سبيلهما

(٧٧) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف • أو • ٣٧١ - ١١٤٣٣) •

(٧٨) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ٩ كانون الثاني ١٩٢٦ •

هما : دينه وشرفه * ان اوثق روابط الصداقة موجودة دائما بين شعبه وبربطانيا العظمى « ان شاء الله ! » (٧٩) .

تحرك ابن سعود في صباح اليوم التالي من الرغبة في موكب كبير متوجهاً الى جدة * ولما وصل الى الكندرة نزل في دار الضيافة فيها * وكان قد رفع العلم التجدي فوق الدار كما أطلقت المدافع مائة طلقة وطلقة * وجاء القناصل والاعيان والضباط يسلمون على ابن سعود ، وتقدم القنصل الايطالي نحوه فتكلم باللغة العربية قائلاً : « نظراً لكوني كبير القناصل سناً أقدم بالنبابة عن نفسي وبالوكالة عن رفاقي بتقديم تهنئتنا لعظمتكم بدخولكم جدة في هذه الطريقة السلمية التي حققت بها الدماء ، وتمنى لعظمتكم التوفيق الدائم والسعادة » * فأجابه ابن سعود قائلاً : انه لم يتباطأ في الأعمال الحربية الا لهذه النتائج السلمية * ثم أبدى ابن سعود شكره للمعتمد البريطاني على مسعاه ، كما شكر جميع القناصل (٨٠) .

أقام ابن سعود يوماً واحداً في الكندرة ، وفي صباح اليوم التالي انتقل الى داخل جدة ، فنزل في دار الشيخ محمد أفندي نصيف ، وجاء الاهالي بمختلف طبقاتهم يسلمون عليه ، كما ألقى الشعراء بين يديه القصائد الرنانة - كما هو ديدنهم في هذه المناسبات !

(٧٩) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (٠ أف ٠ أو ٠ ٣٧١ - ١١٤٣٣) .

(٨٠) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٤٢٥ - ٤٢٦ .

الفصل السابع

الحسين في سنواته الاخيرة

ان الحسين بعد مغادرته جدة في ١٥ تشرين الاول ١٩٢٤ ذهب الى العقبة ، فأمضى فيها ثمانية أشهر ، ثم أجبره الانكليز على مغادرتها الى قبرص . وقد ظل الحسين في قبرص حتى تشرين الثاني ١٩٣٠ عندما أصيب بشلل نصفي ، فنقل الى عمان حيث مات في ٤ حزيران ١٩٣١ . وسنحاول في هذا الفصل ذكر ما جرى له خلال تلك الفترة بمقدار ما حصلنا عليه من معلومات .

اين يقيم :

لم يكد الحسين يغادر جدة متوجهاً الى العقبة حتى صارت البرقيات تتوالى بين لندن وبغداد والقدس للبحث عن المكان المناسب الذي يجب أن يقيم فيه الحسين . تقول المس بيل في رسالة لها في ١٥ تشرين الاول : « هناك تنافس شديد بينا وبين حكومة فلسطين كل يحاول أن يبعد عنه الحسين . لاشك ان الحسين سيكون ثقل الظل في فلسطين غير أنه لا يقدر أن يسيء كثيراً في البلد الذي ليس ابنه حاكماً فيه . اني أسلي نفسي في أنه مهما فعل من استفزازاته المعهودة في هذا الكون فهو لن يفعل ذلك بصفته ملك الحجاز وخليفة المسلمين » (١) .

وصل الحسين الى العقبة في ١٨ منه ، وقبل وصوله بيوم واحد ذهب المعتمد البريطاني في عمان المستر كركبرايد لمقابلة الامير عبدالله ، وأخبره بأن الحكومة البريطانية قررت السماح لايه الحسين بالبقاء في العقبة مؤقتاً الى أن تجد له مقراً آخر . وحين وصل الحسين الى العقبة ذهب اليه

(1) Burgoyne (Gertrude Beli) - London 1961 - vol. 2, p. 356.

المستر كر كبرايد وأخبره بقرار الحكومة البريطانية على نحو ما أخبر به ابنه عبدالله بالأمس * ثم كتب كر كبرايد بعدئذ تقريراً سريراً الى حكومته في لندن حول مقابلته للحسين وابنه ، نقل فيما يلي أهم ما ورد فيه :

« تحدثت مع سمو الامير عبدالله في الساعة النانية بعد الظهر فسي ١٧ تشرين الاول ، وأخبرته بقرار الحكومة البريطانية ، فتأثر الامير من هذا القرار تأثراً شديداً ، ومن الواضح أنه كان راغباً في مجيء أبيه الى عمان قبل أن تتخذ الحكومة البريطانية قرارها * وأخذ الامير يتكلم بمرارة حول الحكومة البريطانية وكيف خذلت أصدقاءها العرب ، وأبدى ندمه (ربما بصورة غير رسمية) لانهم لم يبقوا على ولائهم للاتراك * فطلبت من الامير أن يبلغ أباه الحسين في العقبة بقرار الحكومة البريطانية على وجه السرعة * فأرسل الامير برقية في مساء ذلك اليوم يخبره بالقرار ويخبره أيضاً أنه قادم الى العقبة ...»

« توجهت الى العقبة في الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة والعشرين من صباح ١٨ منه ، فوصلت اليها في اليوم التالي في الساعة النانية والدقيقة الخامسة والخمسين بعد الظهر ... فنزل الحسين من الباخرة في الساعة الثالثة والنصف ، وأخبرته حالا بقرار الحكومة البريطانية ... فقال الحسين ان ابنه عبدالله قد أخبره به بالأمس ، وأنه يأسف لان الحكومة البريطانية لم يبق لديها سوى ثقة قليلة به ، وهي لذلك تخشى أن يبقى في بلد أراق العرب دماءهم من أجله في سبيل القضية المشتركة بينهم وبين بريطانيا * أوضحت له أن مصلحة الجميع تقتضي بأن لا يتسرع فسي أفعاله ، وأن الحكومة البريطانية مشغولة للعثور على مقرر له في المستقبل ، وأنها بالتأكيد سوف تعمل جهدها لحل القضية بأسرع ما يمكن .

« تكلم الملك السابق الحسين باسهاب في موضوع علاقته ببريطانيا منذ بداية الثورة العربية ضد الاتراك ، وأشار الى الاتفاق القديم والوعود ، والى الدواعي التي جعلته يرفض المعاهدة التي قدمتها بريطانيا ، كما أشار بشيء كثير من التأكيد الى المؤامرات التي قام بها ضده القنصل البريطاني

الخطالي في بجدّة واتهمه بأنه كان يسعى منعهداً لانسقاطه • وذكر الحسين بشكل محدد أن السبب الوحيد الذي جعله يترك مملكته هو ادراكه ان الحكومة البريطانية غير راضية عنه ، وقد تأكد لديه أنها ستكون مسرورة للتخلص منه • انه يمتد بان الحكومة البريطانية انما انقلبت عليه سعياً لترضية الاتراك والهنود والمصريين • ولما كانت عواطف الصداقة منه لبريطانيا لم تتغير ، فانه ارتأى ان من الأصح له أن ينسحب •

« وصل الامير عبدالله الى العقبة في صباح اليوم التالي مبكراً • أخبرته بان الملك السابق وافق على رغبة الحكومة البريطانية ، وأعربت له عن أمله بأن لا يقول له شيئاً يغير من رأيه • أظهر الامير بروداً حول هذه القضية كلها ، وأظن أنه يشعر بأن كرامته قد حُرحت لعدم تمكنه من دعوة أيه للإقامة في بلاده •

« في الساعة السابعة والنصف من ذلك الصباح رافقت الامير فسي الصعود الى الباخرة « الرقمتين » فقابلنا الملك السابق فيها ، وأخذ الملك يتحدث مرة أخرى بتفصيل عن ماضيه ، وكان يؤيد حديثه بوثائق موقعة من مكماهون وآخرين • والظاهر أنه يحمل معه كثيراً من الوثائق الرسمية • ولعل من الممل أن أكتب في تقريرى جميع ما قاله الملك السابق بالتفصيل • فان معظم حججه قديمة ، وهي لا بد معروفة لحكومة صاحب الجلالة ، ولكن في مقدورى تقديم تقرير منفصل عنها عند الحاجة • وقد قال الملك السابق في ختام حديثه انه راغب كل الرغبة في مقابلة السر جلبرت كلايتون ويبحث الامور معه • • • • (٢)

تم الاتفاق بين العراق وبريطانيا أخيراً على أن يكون مقر الحسين في البصرة ، واشترطت بريطانيا أن لا يتدخل اثناء اقامته فيها في الامور السياسية • كتبت المس بيل في رسالة لها في ٢٢ تشرين الاول تقول : « • • • • اننا مقبلون على تحمل مسؤولية الملك الحسين • انه سيقوم فسي

(٢) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف • أو • ٣٧١ - ١٠٠١٦) •

البصرة ويبقى ساكناً لا يتدخل في السياسة • وهل في مقدور البرغوث أن يبقى ساكناً ... (٣)

أبرق الملك فيصل الى أبيه يدعو للاقامة في العراق باسم الشعب والحكومة • وفي ١٠ تشرين الثاني وصل الى العقبة المستر كركرايد وقابل الحسين ، ثم كتب الى حكومته التقرير التالي :

« في العاشر من الشهر الجاري قابلت الملك السابق الحسين في العقبة وأخبرته ان الحكومة البريطانية ليس لديها مانع لقبوله دعوة العراق بشرط أن يوافق على الشروط التي وضعتها الحكومة العراقية من حيث محل اقامته وأن لا يتدخل في السياسة • وأخبرته أيضا ان الحكومة البريطانية ترغب في أن يذهب عن طريق البحر الى البصرة • ثم سألته هل تسلم الدعوة مع تفاصيل الشروط التي وضعتها الحكومة العراقية •

« أجاب الملك السابق أنه تسلم رسالة من الملك فيصل يخبره بأن العراق حكومة وشعباً سيكون مسروراً باقامته فيه ، ولكن الرسالة لسم تتضمن أية شروط من هذه التي ذكرتها ، غير أنه سمع من مصادر أخرى بأن الحكومة العراقية تخشى من تدخله في الامور السياسية والدينية ، وهي لذلك ترغب منه أن يعطي تعهداً محدداً في أنه لن يتدخل في هذه الامور • انه أكد لي أنه سوف لا يقبل الدعوة على أي حال في الوقت الحاضر • لانه مرتاح في العقبة وليس لديه رغبة في القيام برحلة غير ضرورية قد تؤدي الى اتعاب عائلته ، وانه حتى لو كان قد قبل الدعوة فان عدم ثقة الحكومة العراقية به قد مس كرامته مما يجعله يرفض الذهاب الى هناك • انه يدرك أن ليس من اللائق به أن يتدخل في السياسة عندما يقيم في العراق ضيفاً على حكومته ، واذا كانوا لا يستطيعون الوثوق به من غير تعهد مسبق فانه يفضل أن لا يذهب ... »

« دعاني الحسين لمقابلته في صباح اليوم التالي ، ولكنه لم يكن لديه

(3) Burgoyne (op. cit.) - vol. 2, pi 357.

ما يقوله سوى تكرار ما كان قد قاله من قبل ، وأعرب عن رأيه في أن الوقت قد حان لكي تتدخل الحكومة البريطانية من أجل وقف اراقصة الدماء في البلاد العربية ...» (٤)

ارسال المساعدات :

كانت الحرب حول جدة في بدايتها عند وصول الحسين الى العقبة ، فأرسل الى ابنه علي في جدة يحثه على الصمود ويتعهد له بارسال المعونة له نقداً ومعدات حربية • وقد حقق الحسين لابنه ما تعهد به • ففتح صفائح النقود التي حملها معه من مكة ، وأخذ يرسل مبالغ منها الى جدة على دفعات ، كما أرسل مبالغ منها الى عبدالله لكي يشتري بها الطائرات والمصفحات ويستأجر المتطوعين •

بذل عبد الله جهوداً كثيرة في جمع المتطوعين وشراء المعدات والاسلحة • ولكن الذي يؤسف له ان كثيراً من الذين كلفوا بالقيام بذلك كانوا ممن نشأوا في العهد العثماني وتشبعوا بقيمه وعاداته ، ولهذا رأيناهم ينتهزون الفرصة للاثراء السريع ، وضاعت من جراء ذلك معظم أموال الحسين عبثاً • يقول صلاح الدين المختار الذي كان شاهداً عياناً لما جرى :

« لقد تلقى الامير عبدالله بن الحسين من والده في العقبة أربعين ألف ليرة ذهباً لقاء ارسال المتطوعين وشراء بعض الاسلحة الآلية والطائرات في طرد ابن سعود من الحجاز ... ولكنني أقرر هنا ... أن جل هذا المبلغ قد تسرب الى جيوب المنافقين والمستغلين واللصوص ومدخولي الضمير • ولن أقرر هذه الحقيقة اعتباطاً ، فلقد تحركت من عمان الى معان على رأس ١٤٥ جندياً دون أن نستلم قرشاً واحداً باستثناء كمية من الخبز والمواد الغذائية الاخرى التي لا بد منها فلا نهلك جوعاً بين عمان ومعان ! » (٥) •

(٤) دائرة الوثائق العامة. في لندن - رقم (أف ٠ أو ٠ ٣٧١ - ١٠٨٠٧) •

(٥) صلاح الدين المختار (تاريخ المملكة العربية السعودية) - بيروت - ج ٢ ص ٣١٣ •

ويقول صلاح الدين المختار أيضاً : إن المستودعات العسكرية فسي معان كانت مليئة بالسلاح والعتاد ، كما كان فيها ثلاثة مدافع • فجاء الأمير عبدالله بنفسه الى معان وأمر بنقل المدافع والأسلحة الى جدة ، وتقرر دفع عشرة ريالات مجيديه أجرة لكل جمل يعمل في نقل الأسلحة الى العقبة • وقد اتضح فيما بعد أن قسماً كبيراً من الأسلحة بيع للعشائر القريبة • وشاهد المختار بنفسه أحد المدافع الثلاثة ، وكان أضخمها ، ملقى في قعر أحد الوديان بين معان والعقبة^(٦) •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان الحسين لم يترك عادته القديمة في تقريب انتزلفين والمداحين ، وفي تصديق أقوالهم • وقد حُف به في العقبة نفر منهم^(٧) يشبهون أولئك الذين كانوا يحفون به في مكة ، وصاروا يختلفون له الاخبار التي يرغب فيها ، وكان هو من جانبه يقدم لهم المبالغ الكبيرة لجمع انتطوعين وشراء السلاح ، فيضعون معظمها أو كلها فسي جيوبهم •

يروى أمين الريحاني : ان الحسين أعطى قبل خروجه من مكة لرجل من هؤلاء انتزلفين عشرة آلاف ليرة لكي يشتري بها الطائرات والمصفحات من أوروبا ، ولكن الرجل ذهب الى مصر واشترى بالمبلغ عقارات لنفسه • ويروي الريحاني أيضاً : ان ثلاث طائرات قديمة اشترت من انكلترا بسبعة آلاف باون ، وأرسلت الى جدة ، فبين أنها لا تسوى غير ألف وخمسمائة باون ، أما الباقي فقد ذهب الى جيوب الساسرة والوكلاء^(٨) •

مشكلة العقبة :

كانت منطقة العقبة ومعان قبل الحرب ضمن حدود ولاية الشام ، ولكن الحسين ضمها الى الحجاز بعد الحرب • ولما نشبت الحرب فسي

(٦) المصدر السابق - ج ٢ ص ٣١٨
(7) Storrs (Orientations) - London 1989 - p. 518.

(٨) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) - بيروت ١٩٥٤ - ص ٢٤٦ ، ٤٠١ •

الحجاز شعر الانكليز بوحوب اخراج هذه المنطقة من حدود الحجاز
وضمها الى شرفي الاردن . فقد كان الانكليز يعتبرونها ذات موقع
استراتيجي مهم ، ولهذا أرادوا إلحاقها بشرفي الاردن لكي تكون تحت
انتدابهم فلا تقع في يد ابن سعود (٩) .

وفي منتصف شهر أيار ١٩٢٥ أرسل ابن سعود كتابا الى الحكومة
البريطانية يخبرها بأنه مرسل قوة لمهاجمة العقبة ليقينه بان إقامة الحسين
فيها هو السبب الرئيسي لإطالة الحرب في الحجاز ، لان الحسين يمد جده
بالمال والسلاح والجنود (١٠) . وقد أثار هذا الكتاب عند وصوله أزمة
في الوزارة البريطانية ، فقد ارتأى وزير المستعمرات المستر ايمري وجوب
توجيه انذار الى ابن سعود بعدم مهاجمة العقبة ، ولكن وزير الخارجية
المستر تشامبرلن خالفه في الرأي ودافع عن ابن سعود قائلاً ان هجومه
على العقبة له ما يبرره لوجود الحسين فيها ولهذا يجب اخراج الحسين
منها باللطف أو بالقوة وبأقصى سرعه ممكنة . وكان من رأي تشامبرلن
ان الحسين لا يستحق أن تدخل بريطانيا في حرب مع ابن سعود من
أجله (١١) .

قررت الحكومة البريطانية أخيراً بأن تحسم المشكلة بضم العقبة
ومعان الى شرقي الاردن وينقل الحسين الى قبرص . وأخبرت ابن سعود
بذلك عن طريق قنصلها في جدة . وأنذرت به بأن العقبة أصبحت تحت
مسؤوليتها . وفي ٢٨ أيار وصلت الى مياه العقبة البارجة البريطانية
« كورن فلاور » ، وقدم ربانها الى الحسين انذاراً من الحكومة البريطانية
تطلب منه مغادرة العقبة في خلال ثلاثة أسابيع . ولما تسلم الحسين الانذار
خاطب الربان قائلاً : « أنا لا أذهب من هنا ولو هلكت أنا وعائلي بقنابل

(9) Jarvis (Arab Command) - London 1942 - p. 119.

(١٠) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٩) .

(11) Troeller (The Birth of Saudi Arabia) - London 1976 - p. 225.

حليفتي بالأمس « . فرد عليه الربان فاثلاً ما معناه أنه رسول منكسب بالتبليغ فقط وأنه سيعود في صباح الغد لتسلم الجواب . ثم خرج دون أن يجلس . وعندما عاد الربان في الموعد المعين سلمه إلحسين كتاباً طويلاً يتضمن رفضه للانداز . وفيما يلي نقل جزءاً كبيراً منه :

« انني منذ ابتداء النهضة العربية حتى هذه الساعة وأنا مخلص في ولائي لحكومة جلالة ملك بريطانيا ، ثابت على مبدأي اعتماداً على شرفها . وبناءً على عهودها ومواثيقها الرسمية واني ضحيت بكل شيء وتخلت عن الملك وغادرت وطني حباً بالسلم وحقق الدماء ، وأتيت العقبة لابرهن للعالم أجمع بأن لا مطمح لي سوى اسعاد أقوامي وتحرير بلادتي بعد أن فست بواجباتي وها اني اليوم مقيم في احدى قري الحجاز معتزلاً عن العالم ومبتعداً عن كل ما من شأنه أن يوجب الشغب وسوء التفاهم . ولما كان هذا الاعتزال والابتعاد لم يخلصني من أمثال هذه الشوائب فلا شك بأنني أينما ذهبت لا يخلو الامر من حدوث شيء كما في التبليغات الاخيرة . وربما كانت أسد هولاء من موقفني الحالي اذ لا أضمن هياج الشعب العربي وقتئذٍ وحدث ما لا تحمد عقباه نحو الحليفة وغيرها . ولهذا فاني لا أرى مندوحة عن بقائي في مكاني ، وان شامت حكومة جلالة الملك فلتبعت بسي الى عالم المريخ فاني مستعد لانفاذ رأيها في هذه البشة في أول دقيقة التبليغ ، أو أنها اذا نسبت ورأت عظمتها أن تبعت احدى وسائطها الحربية لتهلكني وعائلتي وخلص الجميع من هذه الغوائل فلتفعل لاني آليت على نفسي بأن لا أحجم عن مساعدة أبناء وطني وقومي . واني أفخر أمامكم بكوني ما زلت ولن أزال أساعد الحكومة الحجازية بمالي الخاص الذي ادخرته لمستقبلي المجهول ، لأن من لا خير فيه لوطنه لا يريجي منه خير لحلفائه واصدقائه . ولي الشرف أيضاً بكوني ثبت على مبدأي وأخلصت في عملي وقمت بواجباتي ، فما عليّ من غيري فيما اذا لم يف بوعده ولم يقم بانجاز عهده ، ونفذ مطامعه بقوة مدرعاته وبرؤوس حرايه ، فهناك يكون الحكم لمن غلب وفضلاً عن ذلك فاني لم أعترف بالانتداب على البلاد العربية من أساسه ، وما زلت احتج على الحكومة البريطانية التي

جعلت فلسطين وطناً قومياً لليهود ، وشمالى سوريا تحت الانتداب ومأوى للأرمن . واني لأعجب من تفاؤل الحكومة البريطانية عما حل بالحجاز بل بمكة المكرمة من السحق والمحق في الاموال والانفس ، والدمار الذي لا يمكن تلافيه الا بعد عشرات من السنين ، ثم اهتمامها بمحافضة معان والعقبة الامر الذي لا يبقى محل لا طالة البحث فيه ، لان ذلك كاف لاقل تأمل ... اني لا أبرح العقبة مهما كانت النتيجة ولو أدى الامر لهلاكى ومحو عائلتي من الوجود . واني لا أقصد بهذا معاداة بريطانيا وسواها ، وانما هو في سبيل انقاذ وطني وبني قومي . وكلما تفعله بي الحكومة البريطانية لما يزيدني شرفاً وفخراً بين شعبي وأقوامي، حيث يسجل التاريخ لكل منا عمله . وفي هذا بلاغ » (١٢) .

يدو ان هذا الرد الشديد من الحسين وضع الحكومة البريطانية في موقف دقيق ، فقد كان من الصعب عليها تنفيذ انذارها الى الحسين بالقوة لان ذلك سيكون سبباً في تشويه سمعتها امام الرأي العام العالمي ، فماذا تفعل ؟

لجأت الحكومة البريطانية الى الامير عبدالله طالبة منه أن يقنع أياه بمعادرة العقبة الى قبرص . وذهب الامير الى العقبة ، فدخل على أبيه مقبلاً يديه وقال : « يا ولي النعم ، ان سياسة العنف والشدة لا تفيد تجاه القوة . الآن وقد قمتم بواجباتكم تجاه أمتكم وأديتم رسالتكم فعلى الامة العربية أن تقوم بواجباتها » (١٣) . ويقال ان عبدالله ذكر لايه أن عرشه في شرقي الاردن وعرش فيصل في العراق مهددان بالزوال اذا ظل هو مصراً على الرفض (١٤) . فاضطر الحسين تجاه توسلات عبدالله السى الاستجابة للانذار البريطاني .

(١٢) أمين سعيد (الثورة العربية الكبرى) - القاهرة - ج ٣ ص ٢٠٩ - ٢١١ .

(١٣) سليمان موسى (صفحات مطوية) - عمان ١٩٧٧ - ص ١٩٣ .

(١٤) صلاح الدين المختار (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٣١٥ .

وصلت الى مياه العقبة بارجة ثانية تدعى « دلهي » وانضمت الى البارجة الاولى * وفي الساعة الخامسة من عصر الخميس ١٨ حزيران نزل الحسين مع حاشيته وحرمه وعيده الى زورق البارجة « دلهي » * ويروي أحد الذين شاهدوه عند ركوبه أنه أخذ يتمتم قائلاً : « لا وفكك الله يا عبدالله » (١٥) * ويروي أيضا أنه كان طيلة المدة التي قضاها في البارجة بين العقبة وقبرص يردد مع نفسه البيت التالي :

مشيناها خطىً كتبت علينا ومن كتبت عليه خطىً مشاها (١٦)

وفي ٢٤ حزيران - أي بعد أسبوع واحد من مغادرة الحسين العقبة - أصدر الأمير عبدالله بياناً رسمياً أعلن فيه انضمام العقبة ومعان الى شرقي الاردن وانفصالها عن الحجاز ، وذكر البيان ان ذلك جرى « نظراً لتسبب صاحب الجلالة الهاشمية علي المعظم ملك البلاد الحجازية أيده الله وأدام نصره » (١٧) * وفي اليوم التالي جرى في معان احتفال رسمي فخم لرفع علم الامارة فيها حضره الأمير عبدالله ومعه رئيس وزرائه رضا باشا الركابي (١٨) *

كان لانضمام العقبة ومعان الى شرقي الاردن وقع سيء على حكومة جدة ، لانه يؤدي الى قطع الامداد عن المدينة المنورة ، وقد يؤدي بالتالي الى سقوطها في ايدي القوات السعودية * أما الملك علي فكان تأثير الخبر عليه مزدوجاً * يقول القنصل البريطاني في جدة في تقريره الى حكومته : « ان الملك علي أعرب عن سروره لابتعاد أبيه عن طريقه ، ولكن سروره كان مختلطاً لان ابتعاد أبيه يؤدي الى توقف المعونة المالية عن جدة * فهو يحب مال أبيه دون أبيه طبعاً ، ولكنه بالتأكد يفضل بقاء أبيه مع المال على خسارته للمال » (١٩) *

(١٥) المصدر السابق - ج ٢ ص ٣١٥ *

(١٦) أمين سعيد (أسرار الثورة العربية الكبرى) - بيروت - ص ٣٨٥ *

(١٧) عبدالله بن الحسين (مذكراتي) - القدس ١٩٤٥ - ص ٢٠٥ *

(١٨) حسين محمد نصيف (تاريخ الحجاز) - القاهرة ١٣٤٩هـ - ص ١٨٥ *

(١٩) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف - أو - ٣٧١ - ١٠٨٠٩) *

الحسين في قبرص :

في الساعة السابعة من صباح الاثنين ٢٢ حزيران ١٩٢٥ وصلت البارجه « دلهي » الى ميناء « لارناكا » في قبرص ، وهي تحمل الحسين ومن معه ، وكان في استقباله هناك مدير الشرطة الميجر نورثكوت . وقد نزل الحسين الى رصيف الميناء في الساعة الحادية عشرة ، وكان معه ١٩٢ بالة كبيرة مع سيارات ثيات ليموزين كبيرة ، كما كانت ترافقه زوجته الملكة عادلة هانم وابنتاه ، وسكرتيره الخاص صالح ، ومرافقه العسكري كامل باسا ، ونحو ٢٥ عبداً وعبد (٢٠) .

أقام الحسين في أول الامر في فندق في نيقوسيا يدعى «بلاس هوتيل» ، ثم استأجر له بعدئذ داراً في نيقوسيا سكن فيها . وكانت الدار مؤلفة من بناتين بينهما حديقة ، فخصص احدهما للحرم والاخرى لاعماله وزواره . وفي ١٩٢٨ انتحى به ولده الاصغر الامير زيد للعناية به فسي سيخوخته ، وقد بذل زيد في الواقع جهداً مشكوراً في خدمة أبيه ، وظل معه حتى آخر أيامه في قبرص . وقد ماتت أمه عادلة هانم في قبرص ، ودفنت فيها .

عندما كان الحسين في العقبة - قبل نقله الى قبرص - كان لديه بقية من الامل في أن تأتي بريطانيا لنجدته وطرده ابن سعود من الحجاز . فهو لم يكن يتصور أن بريطانيا تنكر لصدقتها معه بمثل هذه السهولة . ولم يكتشف خطأه الا عندما حملته بريطانيا قهراً على مغادرة العقبة والانتقال الى قبرص . يروى عنه أنه صرخ لاحد الذين رافقوه في البارجة بعد مغادرته العقبة قائلاً : انه كان مخطئاً وأنه لم يكن يعرف أخلاق الاوربيين وما ينطوون عليه (٢١)

حدثت للحسين في قبرص حادثتان جعلته يفقد أمله من بريطانيا

(٢٠) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٩) .

(٢١) أمين سعيد (النورة العربية الكبرى) - ج ٣ ص ٢١١ .

نهائياً ويحقد عليها حقداً شديداً ، أولاهما أن الصحف البريطانية دأبت على الاستهانة به ووصفه بالأوصاف المستهجنة . وقد غضب الحسين حين وجد جريدة « التايمس » المعروفة باتزانها تسلك مسلك الصحف الأخرى فتتقدمه انتقاداً لاذعاً وتهكم عليه . وفي ٢٤ آب ١٩٢٦ كتب رسالة الى وزير الخارجية البريطانية يشكو اليه من نقذات الصحف ويقول انها أهانت شرفه وعزته واحترامه الذاتي ، وذكر الحسين في رسالته كيف انه اعتمد على بريطانيا وسعى للحفاظ على شرفها وتقدمها ، وخاطر بنفسه حين دخل الحرب العظمى من أجلها في الوقت الذي كانت فيه بريطانيا مهددة بالخطر في الكويت والدردنيل وباريس . ثم قال ان هذا الهجوم من الصحف البريطانية عليه سيعتبره الجميع دليلاً على أن بريطانيا أصبحت ضده وأنها تساعد خصومه عليه . وأشار الحسين في ختام رسالته الى ما ورد في أحد المراجع البريطانية التاريخية حول الحركة الصهيونية من أن وعد مكماهون للحسين جرى تفسيره خطأ ، وقد رد الحسين على ذلك طالباً من وزير الخارجية الرجوع الى رسالة مكماهون المؤرخة في ١٥ آب ١٩١٥ (٢٢) .

أما الحادثة الثانية التي أثارت حقداً الحسين على بريطانيا فهي حادثة الدار التي سكن فيها في نيقوسيا ، فهو بعد ان أقام فيها ثمانية أشهر أراد الانتقال منها الى دار أخرى ، ولكن صاحب الدار حاول ابتزازه وأقام عليه الدعوى في المحكمة وأظهر عقداً كتبه الحسين له يتعهد فيه بدفع تسعة آلاف باون في حالة تركه للدار . ولما عرضت القضية في المحكمة طلبت المحكمة حضور زوجة الحسين أمامها للشهادة . فغضب الحسين من ذلك غضباً شديداً ولم يسمح لزوجته بحضور المحكمة .

وكتب الحسين في ٢٧ ايلول ١٩٢٦ رسالة الى رئيس الوزراء البريطانية يشكو اليه من معاملة المحكمة له ، وذكر أنه يعتبر نفسه ضيقاً على الملك جورج الخامس وهو يتوقع معاملة تتناسب مع شرف جلالته وعزته .

(٢٢) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١١٤٥٠) .

فلم يجب عليه رئيس الوزراء بشيء * وفي أواخر تشرين الاول وصل كتاب الى حاكم قبرص من وزير الخارجية البريطانية فحواه أن الحسين ليست له أية حقوق وامتيازات قانونية تميزه عن غيره من الاجانب فسي قبرص ، وهو انسا أعطي حق اللجوء في قبرص لحمايته من أعدائه ، ولكن وزير الخارجية مع ذلك يوصي الحاكم قائلاً بأنه بالاتفاق مع وزير المستعمرات يرى أن مقتضيات المجاملة والانسانية تفرض عليه أن يعامل الحسين بشيء من المرونة على قدر الامكان من حيث وساوسه الدينية أو غيرها في حضور المحكمة (٢٣) .

الشكوى الى عصبة الامم :

بلغ حقد الحسين على بريطانيا أوجه في تشرين الثاني ١٩٢٦ ، مما دفعه الى أن يكتب الى رئيس عصبة الأمم في جنيف كتاباً يستغيث به ويشكو اليه من بريطانيا * وهو كتاب طويل تنقل صورة مختزلة عنه فيما يلي :

يا صاحب الرئاسة

انني أنا الموقع بذيله أدناه انك حسين بن علي ملك الحجاز وعضو مؤسس في جمعية الامم وحليف الحلفاء في الحرب الكبرى أبين لجنابكم ما يأتي :

اولاً - ان جمعية الامم لم تخلق الا لامر واحد وهو منع تعدي أية دولة مستقلة على أخرى * ومن الغريب المدهش ان هذا القانون الاساسي لم يطبق في مسألتني مع الوهابيين الذين اجتاحت بلادهم وبلاد آبائي وأجدادي حتى محمد بن عبدالله النبي العربي الهاشمي صلى عليه وعلى آله وسلم * ولذلك فاني احتج أشد الاحتجاج أولاً على هذا العمل من قبل قائد الوهابيين ، وثانياً على الجمعية لعدم معاملتي بموجب قانونها الاساسي * واني اطلب بالحاح من الجمعية الموقرة اخراج الوهابيين من بلادهم بقوة الدول أعضاء جمعية الامم .

(٢٣) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . ٠ أو . ٣٧١ - ١١٤٥٠) .

ثانية - تتذكر جمعية الامم ان قادة الوهابيين كانوا قبل ذلك قد دخلوا اماره الكويت مما حمل الدولة البريطانية على ارسال الجنود الانكليزية المقيمة في العراق مع طائراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة الى الكويت وارجاع الوهابيين بالفشل عن مقاصدهم .

ثالثاً - اقتحمت عصابات الوهابيين بعدئذ مملكة شرق الاردن فوقف في وجههم ولدي الامير عبدالله بكل ما عنده من القوات الحربية والرجال الاشداء ، وانضمت اليه فرف من الجنود الانكليزية بطائراتها ودباباتها وسياراتها المسلحة ، فتغلب على هذه العصابات وردّها . وقد رأى وشاهد بالعين بعض كبار القوم ، وهم شهود عدول ، أن الوهابيين بعد فرارهم كانوا اذا وجدوا جريحاً ترجلوا عن خيولهم وأغمدوا خناجرهم في قلبه .

رابعة - أما أنا الموقع بذيله ملك الحجاز وعضو جمعية الامم وحليف المنتصرين في الحرب الكبرى فلم أعن بشأن هذه العصابات عناية الخائف من تعديها على ملكي لاني كنت أدري بأننا لسنا اليوم في العصور الوسطى ، ولاني كنت على أكثر من اليقين بأنها لا تتجاسر أن تهاجم بلاداً يقدها ثلاثمائة مليون من المسلمين الموحدين ، وتضمن استقلالها جمعية الامم ، وتحمي وتحترم استقلالها جميع دول الحلفاء . وما كنت لأظن أن واحدة من هذه الدول العظمى - يقصد بريطانيا - توغر الى رجال هذه العصابات بواسطة بعض ساستها الاغبياء ، فيدخلون الاراضي المقدسة ويدمرون الاضرحة والمعابد والمشاعر الدينية . أجل ما كنت لأتصور ان الحليفة الكبرى تأتي من وراء اكبر حليف لها في الشرق ، وأعظم ساعد لها في الحرب الكبرى ، فتطعنه في ظهره دون أن يكون لها ضمير يوبخها أو مروءة ووفاء يمنعانها عن هذا العمل الفظيع الظالم . أما الحليفة الكبرى فانها شعرت بمظاعة عملها هذا على الأخص عندما رأت اشمئزاز الشعب البريطاني النبيل من سياستها المتخبطة المضطربة بل السقيمة الخرقاء ، ومن حرمان الانكليز من حليف شريف ، وملك عريق في الحسب والنسب ، ومسالمة لم يفكر قط في الاضرار بالآخرين . أجل ان رجال الحكومة

الانكليزية الذين أتوا بهذا الغلط الفاضح وهذا الخطأ الفادح يقفون مطأطيء الرؤوس خائفين العيون أدام الرأي العام الانكليزي النيل الذي سيحاسبهم أشد الحساب عند عودة افتتاح البرلمان الانكليزي ...

خامسة - اني أطلب من جمعية الامم الموقرة اخلاء البلاد المقدسة من الوهابيين واستثناء اهاليها ، لكي ترى ان ما فوق التسعين في المائة من هؤلاء الاهالي يصوتون ضدهم • انني أطلب اطلاق يدي في العمل لاعادة ملكي وملك آبائي واجدادي المنتصب ، ورفع حكم رجال الحكومة الانكليزية الجائر عني • انني أطلب ابلاغ صوتي الساكني من منفاي في جزيرة قبرص الى جميع رجال الدول ، وعلى الاخص كافة الشعب الانكليزي النيل لافهمهم الحقيقة بكل صدق وصراحة بأن سياسة حكومتهم غير الشريفة لا تمر غير الضغائن والبغضاء بين الانكليز والمسلمين الأصحاء - أقول المسلمين الأصحاء أي عامة المسلمين الذين يغارون على دينهم وعلى نبيهم وآله ، ولا عبرة بأفراد لا يعدون الا القليل من المسلمين الذين هم جهلة أغبياء يضللهم المضالمون وعمال السوء فلا يعلمون من دينهم شيئاً ولا يسيرون على النهج الذي أوصاهم به الكتاب العظيم ، فهم مسلمون بالاسم فقط ، ولو كانوا أصحاء الاسلام لاحترموا آل نبيهم صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وقد أوصاهم بهم خيراً ، ولوقفوا جميعاً وقفة واحدة كوقفة البطل المغوار والمسلم الصحيح المغفور له ساكن الجنان كبير العائلة العلوية الكريمة في مصر وباقي أركان الدولة المصرية عندما بعث بأولاده ثم ذهب بالذات الى الحجاز لقتال الوهابيين واخراجهم من الاراضي المقدسة الحجازية من بدعهم في الدين •

اني اكتب هذا الاحتجاج الشديد لرئاسة جمعيتكم لكي تعلم الدول كافة ، ويعلم الشعب الانكليزي النيل خاصة ، ان أعمال رجال حكومته في الحجاز غير العادلة وغير الحقّة تحط من مقامها ومن مقامه السامي في أعين عامة المسلمين الأصحاء ، خصوصاً في الهند وفي جميع المستعمرات البريطانية والدولية أيضاً ، لان هؤلاء يريدون بكل قواهم المحافظة على

شعائهم الدينية في أراضيهم المقدسة • نعم فليعلم الشعب الانكليزي النيل هذه الحقائق وليتحرك من جموده وليقف موقف المنقذ العادل الشريف ، ليضع حداً بين الظالم والمظلوم ، ويرفع الظلامة التي سببتها حكومته عن المظلوم • وعندئذ فقط يجوز أن نقول بأن الشعب الانكليزي هو نيل عادل ويحب العدالة والحق ، وان الدول العظمى تحترم رعاياها المسلمين وتحترم شعائهم الدينية •

مغتتماً هذه المناسبة يا جناب الرئيس لتقديم احتراماتي الفائقة الحد لشخصكم المحترم وودتهم •

الحسين بن علي (٢٤)

أقوال ستورز :

لم تمض سوى أيام معدودة على كتابة الحسين كتابه الآنف الذكر الى عصبة الامم حتى عينت الحكومة البريطانية السررونالد ستورز حاكماً على قبرص • ولا ندري هل كان ذلك مجرد مصادفة أم كان أمراً مبيتاً • ومهما يكن الحال فقد لوحظ ان ستورز أخذ يعامل الحسين معاملة لا تخلو من لؤم • يقول الامير زيد : « ... وفي قبرص أظهر ستورس الكثير من قلة الوفاء بعد أن كنا نعتقد أنه صديق لنا ولسيدي عبدالله خاصة » (٢٥) •

تطرق ستورز في مذكراته الى ذكر حياة الحسين في قبرص ، وجاؤل أن يكون موضوعاً في كتابته عنه ، ولكننا نجس مما كتب أنه كان لا يميل اليه قليلاً • انه يقول عنه ما نصه : « لم يكن - في قبرص - معروفاً من أحد أو يعرفه أحد • وكان بالنسبة للموظفين الكبار في الجزيرة بمثابة سجين ، وللموظفين الصغار نكرة • وجدته يسكن في دارة صغيرة يحيطه ابنه الاصغر زيد باخلاص بنوي • وكان منظرًا مؤثراً أن أشاهد هذا الامير الشاب ، وهو الذي قاد الكتائب في الحرب وأمضى سنة في

(٢٤) أمين سعيد (المصدر السابق) - ج ٣ ص ٢١٣ - ٢١٧ •

(٢٥) سليمان موسى (مذكرات الامير زيد) - عمان ١٩٧٦ - ص ٢٠١ •

كلية باليول ، يقرأ لآبيه بصوت مرتفع التعليقات المملة لصالح البخاري
على القرآن - يقصد صحيح البخاري - ويخدمه ليلاً نهاراً •

ويقول ستورز : ان المسرة الوحيدة التي بقيت لدى الحسين ! قبرص
انحصرت في ثلاث من المهرات العربية الاصيله ، وكانت أجملها وألطفها
تدعى « زهرة » ، فهي تصعد برشاقة الدرجات الموصلة بين الحديقة وقاعة
الضيوف ، وكان الحسين يهتف لها قائلاً : « أهلاً » ، « ماشاء الله » ،
« الله اكبر » ، « قربي يا بنت العم » • وكان الحسين يدعو هذه المهره
« قرة العين » ، وكان يقدم لها التمر فتأكله ببطء ثم تلفظ النوى في الصحن •
ولكن مسرة الحسين هذه انتهت بخاتمة محزنة ، فان سائس هذه المهرات
طرده الحسين من خدمته ، فانتقم السائس منه بأن بقر بطونها • ويقول
ستورز : بينما كنت في صباح أحد الايام في مقري الرسمي جاء الحسين طالباً
الاذن بالدخول عليّ حالاً ، ولما دخل رمى بنفسه بين ذراعي ودموعه
تهمر •

ويذكر ستورز ان الحكومة البريطانية كانت قد منحت الحسين عندما
كان حليفاً لها في الحرب وسام الصليب الاكبر مع وشاح ، ولكن الوسام
وصل متأخراً حينما كان الحسين مبعداً في قبرص ، وقد قدمه ستورز اليه
عند افتتاح مكتبة قبرص العامة • ويعلق ستورز على ذلك قائلاً : اني رأيت
وعرفت كثيراً من تقلبات الزمان ولكني لم أعرف مثل هذا الحدث المليء
بسخرية القدر ، وذلك حين قدمت اليه الوسام الذي يتمناه السفراء والقواد
العظام وملوك أوروبا • لقد كان الحسين حينئذٍ عجوزاً مطروداً غير أنسه
مازال مهيباً !

ويشير ستورز الى الاشاعات التي راجت بين الناس حول ما لدى
الحسين من مئات الالوف من جنيئات الذهب موضوعة في صفائح النفط ،
وهي الجنيئات التي أعطتها بريطانيا له عند قيامه بالثورة على الاتراك ،
فيقول ان الباقي منها الآن أقل مما ذكرته الاشاعات التي هي من
شأنها المبالغة في مثل هذه الامور • ويذكر ستورز ان الفلسطينيين الذين

أحاطوا بالحسين في العقبة استطاعوا أن يستخلصوا منه قسماً كبيراً من تلك الجنيهاً لأنهم في ذلك خبراء حاذقون . وكذلك فعل معه بعض التجار الماكريين في قبرص ، ولهذا كان الحسين يأتي إليه - أي إلى ستورز - يريد منه أن يتدخل في المحاكم لمصلحته على طريقة مكة . ويذكر ستورز : أن أبناء الحسين كانوا يأتون إلى الحسين يطلبون منه بعض المبالغ ولكنه كان يخيب ظنهم قبل أن يفتحوه وذلك بأن يطلبهم بتقديم قرض له . ويقول ستورز : أن الملك فيصل اشتكى إليه من ذلك عندما كان يلعب معه « الروكيت » في جبل « ترودوس » (٢٦) .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الذي ذكره ستورز عن أموال الحسين لا يؤيده فيه الأمير زيد . يقول زيد : « عندما وصل الحسين إلى قبرص كنا نعتقد أنه يملك مالاً كثيراً ، ولكنه تبين أنه لم يكن يملك سوى أربعة آلاف ليرة . وبعد ذلك أخذ سيدي عبدالله وسيدي فيصل يرسلان له مبالغ محدودة ، ولكن حتى هذه لم تكن تصل بانتظام . » (٢٧) .

أيامه الأخيرة :

كان الحسين مصاباً بمرض تصلب الشرايين ، وقد بدأ به المرض في عام ١٩١٩ على أثر واقعة تربة - كما أشرنا إليه في حينه . وفي تشرين الثاني ١٩٣٠ حدث له نزيف خفيف في المخ أدى إلى إصابته بشلل نصفي ، وقد حصل له هذا النزيف عقب اهانة وجهها إليه ستورز . وفيما يلي أذكر ملخصاً للحادثة كما رواها لي رجل أثق به نقلاً عن الأمير زيد :

كان الحسين قد نفذ ما لديه من مال في أيامه الأخيرة ، ولهذا كان ابنه الملك فيصل يرسل إليه من العراق في كل شهر حوالة بمبلغ مائة باون . ولسبب غير معروف تأخرت هذه الحوالة في شهر آب ١٩٣٠ ، واستمر التأخر أكثر من شهرين ، فأبرقوا إلى بغداد يستوضحون عن سبب التأخر،

(26) Storrs (op. cit.) — p. 518 — 519 .

(٢٧) سليمان موسى (المصدر السابق) - ص ٢٠١ .

فلم يصلهم من بغداد أي جواب • ويعزو الأمير زيد ذلك الى كيد الانكليز
ورغبتهم في ايداء ابيه • وقد أدى تأخر الحوالة الى امتناع البقال المجاور لهم
عن تزويدهم بمواد المعيشة التي اعتاد أن يزودهم بها من قبل • واضطر
الحسين أن يذهب بصحبة ابنه زيد الى ستورز آملاً أن يجد له حلاً
للمشكلة •

يقول زيد : انهما حين دخلا على ستورز في مكتبه لم يقيم لهما بما
ينبغي من مقتضيات المجاملة ، ولم يطلب منهما الجلوس • فجلس الحسين
على أحد المقاعد من غير اذن ، وتابعه في ذلك زيد • وأخذ الحسين يحدث
ستورز عن مشكلته ثم طلب منه قرضاً الى أن تأتي الحوالة اليه من بغداد •
فجابه ستورز بوقاحة قائلاً : « ما هو الضمان لهذا القرض ؟ » • فقدم
الحسين خنجره المحلى بالذهب الى ستورز وقال له : « هذا هو الضمان » •
وكان ستورز ممسكاً في يده بقلم رصاص ، فحرك الخنجر بقلمه مع شيء
من الاستهانة كأنه يقول ان هذا لا ينفذ • ثم استدعى كاتبه وأمره أن يقدم
للحسين القرض الذي طلبه • ولكن الحسين لم يتحمل تلك الاهانة ،
وصارت يده ترتجف من شدة التأثر ، ثم غادر مكتب ستورز حالاً • ولم
يكذ يصل الى البيت حتى أصيب بالنزيف في المخ •

في ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٠ غادر الملك فيصل بغداد الى قبرص
بالطائرة • وتمكن فيصل من الحصول على موافقة الحكومة البريطانية على
نقل أبيه الى عمان ، وبعد نقله عاد الى بغداد • وتألّفت في عمان لجنة طبية
لفحص الحسين من خمسة أطباء هم : جميل التوتونجي وحسام الدين أبو
السعود وتوفيق كنعان وعزت طنوس وولح • وبعد الفحص كتبوا التقرير
التالي :

« لقد تشرفنا باجراء الكشف الطبي على حضرة صاحب الجلالة
الهاشمية الملك حسين بن علي في قصر رغدان بعمان ، فوجدنا ان جلالاته
نظراً لتقدم سنه مصاب بتصلب الشرايين ، ومن ذلك حصل له قبل شهر
تقريباً نزيف خفيف في الدماغ ، الا ان صحته العمومية تحسنت بواسطة

التدابير الصحية التي اتخذت له ولا يزال التحسن مستمرًا ، والذي يزيد في اطمئناننا اننا وجدنا جميع أجهزة الجسم بحالة حسنة ، (٢٨) .

وفي ١٥ كانون الاول وافق مجلس النواب العراقي على ارسال وفد الى عمان باسم الحكومة العراقية لتحية الحسين ودعوته للاقامة في بغداد . وكان الوفد مألّفًا من السيد محمد الصدر رئيساً ومن علي الامام ورؤوف اللوس عضوين . وسافر الوفد الى عمان في ٢٩ منه . وقد شكرهم الحسين على الدعوة ووعد بتليتها عند تحسن صحته . ولكن صحته لم تتحسن . وفي ٤ حزيران لفظ أنفاسه الاخيرة . فنُقل جثمانه الى القدس ودفن في ساحة الحرم الشريف بالقرب من المسجد الأقصى .

الواقع أن الحسين أخفق في أمور كثيرة ، ولكنه نجح في أمر واحد هو أنه جعل من حياته دعاية صارخة ضد بريطانيا . فلقد كان في مقدور بريطانيا أن تداري الحسين في سنواته الاخيرة ، وتراعي شيخوخته - لغرض الدعاية على الاقل . ولكنها لم تفعل . ودلت بذلك على أنها لا تعرف مصلحتها أحياناً !

الشعراء يهيمون :

أقيمت لتأبين الحسين حفلاتان كبيرتان ، احدهما في القدس في ١٢ تموز ١٩٣١ ، والاخرى في الاعظمية في ١٤ آب . وقد ساهم في هاتين الحفلاتين كثير من الشعراء والخطباء ، ففي الاولى ساهم أحمد شوقي وخليل مطران وشبلي ملاط وعبد الحميد الرافعي وشفيق جبري وفؤاد الخطيب ومحمد علي الحوماني ومصطفى الفلايني وسليمان الظاهر وغيرهم . وفي الثانية ساهم معروف الرصافي ورضا الشيباني وحبيب العبيدي وعبد الحسين الازري وكاظم الدجيلي وغيرهم . ولا حاجة بنا الى القول ان هؤلاء الشعراء لم يخرجوا في قصائدهم عن القوالب التقليدية في الرثاء حيث أصبحت الدنيا - حسب قولهم - في ظلام دامس ، وضاع العرب ،

(٢٨) نقلاً عن الكتاب المخطوط للسيد هبة الدين الشهرستاني .

واهد ركن الاسلام ، وما شاكل ذلك • ولم يكن من فرق بينهم الا في
صياغة الالفاظ والتفنن في الأخلة •

كانت قصيدة الرصافي في حمله الاعظمية ملته للنظر لأنها جاءت على
النقيض من قصيدته المشهورة التي نظمها في هجاء الحسين في عام ١٩١٦
على أثر اعلان الحسين ثورته على الاتراك • نعرض فيما يلي آياتاً
نموذجية من كلتا القصيدتين لكي يقارن القارئ بينهما • فقد ورد في
قصيدة الرثاء الآيات التالية :

بدا وجهه العروبة في حلولك	غداة قضى الحسين أبو الملوك
قضى متسارلاً بعد اعتلاء	كذاك الشمس تنجح للدلوك
قضى في المجد ليس بذئير	وفي العزمات ليس بذئير شريك
وقد سلك الطريق الى المعالي	الى أن مات محمود السلوك
وجدد للعروبة عرس مجد	قديم كان كالعذق التريك
وأحدث نهضة في العرب هزت	جنوب الأرض كالريح السهوك
وأثبت بالسبوف لهم حقوقاً	مؤيدة بكل دم سفك
قرين القبتين عليك نبكي	وما بالدمع من طرف مسك
فقدنا منك خير زعيم قوم	وخير نضيج تجربة حنيك
فقد نأح العراق عليك حزناً	وضيح من الخليج الى دهوك
ونأح المسجد الأقصى جميعاً	الى أرض الشام الى تبوك
لقد نزلت من غمز ولمز	كما نزلت من شعر ريك ^(٢٩)

أما قصيدة الهجاء التي نظمها الرصافي في عام ١٩١٦ فقد وردت فيها
الآيات التالية :

قد كنت أحس أن اللؤم أجمعه
على الحسينين في مصر قد انقسما

(٢٩) مصطفى علي (ديوان الرصافي) - بغداد - ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٤ •

حتى بدت مخزبات اللسوم مشرقة
 من الحجاز حسياً ثالثاً بهما
 لكنهما ذاك قد أربت جريمته
 عليهما فهو أخزى جارم جرماً
 فذان قد أخجل الأهرام بغيرها
 وبغي هذاك أبكى البيت والحرماً
 هذا الذي منه تنشق السماء أسي
 والارض ترتج حتى تقذف الحمماً
 فانت يا قدرة الله التي عظمت
 خذي حسياً بذنب منه قد عظماً
 وانت يا أرض مجي نحوه ضرماً
 ويا سماء عليه امطري نقماً
 بغي ففرق شملاً كان مجتمعاً
 للمسلمين وشعباً كان ملتصقاً
 قالوا الشريف ولو صحت شرافته
 لم ينقض العهد أو لم يخفر الذمماً
 وكيف لا وهو الذي بانت خيافته
 فصرحت عن طباع تخجل الكرماء
 لم تكفه في مجال البغي فتته
 حتى غدا بعدو الله متمماً
 اذ راح بالانكليز اليوم متمماً
 فضاعف الشرف بما جر واجترماً (٣٠)

(٣٠) مصطفى علي (المصدر السابق) - بغداد ١٩٧٥ - ج ٣ ص ٦٠-٦٢ .

الفصل الثامن

ابن سعود يعاني المشاكل

في الوقت الذي كان فيه الحسين يجتر همومه في قبرص كان خصمه ابن سعود يعاني مشاكل الحكم ، وهي المشاكل التي أقضت مضجعه وأشقتة كثيراً .

من طبيعة الانسان أنه يفضل أن يعاني المشاكل وهو في صعود على أن يكون خالياً منها وهو في توقف أو نزول . وهذا دليل على أن طبيعة الانسان حركية تميل الى الارتفاع ، وان السكون المريح لا يلائمها .

سنحاول في هذا الفصل استعراض بعض المشاكل التي واجهها ابن سعود في وضعه الجديد عقب احتلاله الحجاز ، وهي مشاكل قد يجد القاري فيها دروساً اجتماعية غير قليلة .

مبايعة ابن سعود :

كان ابن سعود منذ بداية الحرب في الحجاز قد أعلن مراراً بأنه لا يطمح في ملك الحجاز بل سيجعل أمره شورى بين المسلمين ، وأنه سينزل على ما يقرره ذلك المؤتمر^(١) .

وحين تم لابن سعود احتلال الحجاز كله وجد نفسه ملزماً بانجاز ما وعد به ، وكانت بعض الوفود الاسلامية قد بدأت تصل الى الحجاز تلبية للدعوة التي أرسلت اليها من قبل ، كان من بينها وفد جمعية الخلافة الاسلامية في الهند ، ووفود تمثل سوريا ولبنان وشمالى أفريقيا وجاوة وسومطرة . ولوحظ أن وفد الخلافة الاسلامية كان متحمساً لإنشاء حكم جمهوري في الحجاز يشارك فيه المسلمون جميعاً على أساس ان الحجاز

(١) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) - القاهرة ١٩٦٧ - ص ٢٦٨ - ٢٧٥ .

• بلد يهتم المسلمين كلهم ولا يجوز أن ينفرد بالحكم فيه فريق دون فريق •
• وصار هذا الوفد يدعو لهذا الرأي ويسعى لتحقيقه •

شعر ابن سعود بأنه أصبح في ورطة لا يدري كيف يخرج منها •
وأخذ رجاله ينشطون لإيجاد حل لها • وقد وجدوا الحل أخيراً ، حيث
تألفت لجنة من أعيان مكة وجدة ، وقررت هذه اللجنة مبايعة ابن سعود
ملكاً على الحجاز • وعرضوا الأمر على ابن سعود فوافق عليه ، ونشر هو
بياناً أعلن فيه الناء المؤتمر الاسلامي الذي وعد به ، وذكر انه استجاب
لطلب أهل الحجاز في منح الحرية التي وعدهم بها لتقرير مصيرهم •

جرى الاحتفال بالبيعة عند باب الصفا في المسجد الحرام عقب صلاة الجمعة
في ٧ كانون الثاني ١٩٢٦ ، وتقدم عبدالله الدملاجي قتلا صيغة البيعة
وفحواها انهم يبايعون عظمة السلطان عبدالعزيز آل سعود ملكاً للحجاز
على كتاب الله وسنة رسوله وما كان عليه الصحابة والسلف الصالح
والأئمة الأربعة ، وأن أهله هم الذين يقومون بإدارة شؤونه • فتقدم
الحاضرون يبايعون ابن سعود طبقة بعد طبقة ، وكانت المدافع تطلق طلقات
التحية المعتادة •

وبعد انتهاء البيعة سار ابن سعود نحو الكعبة ، فطاف حولها سبعا ،
وصلى في المقام ، ثم انتقل الى سرادق كبير لاستقبال المهشين • وقام
الخطباء يمجدون ابن سعود ، فقال أحدهم : « ما أعطاك الله هذا العطاء
يا عبدالعزيز الا لأنك سائر في مرضاته » • وقال آخر كلمة أخرى •
فتكلم ابن سعود وقال : « اسمع خطباءكم يقولون : هذا امام عادل ، وهذا
كذا وكذا • فاعلموا ان ما من رجل ، مهما بلغ من المنازل العالية ، يستطيع
أن يكون له أثر . وأن يقوم بعمل جيد اذا كان لا يخشى الله • واني
أحذركم من اتباع الشهوات التي فيها خراب الدين والدنيا ، واحثكم على
الصراحة والصدق في القول ، وعلى ترك الرياء والملق في الحديث • لم
يفسد الملك الا الملوك وأحقادهم وخدامهم والعلماء المملقون وأعوانهم ... »

اني أنصح لكم كما أنصح لنفسي وأولادي » • فهتف الحاضرون :
« جزاك الله خيراً • • جزاك الله خيراً ! » (٢)

أثارتبيعة ابن سعود استياءً في مصر والهند وبعض الاقطار
الاسلامية الاخرى ، حيث عدوا ذلك نكثاً من ابن سعود بوعوده الكثيرة
التي أعلنها من قبل في شأن المؤتمر الاسلامي والانصياع لقراراته • يقول
حافظ وهبة في مذكراته : انه كان في مصر عند مبايعة ابن سعود وقد شعر
بحرج عظيم حين بلغه الخبر ، فأبرق الى ابن سعود يطلب منه التفاصيل ،
كما كتب اليه كتاباً قال فيه ما نصه : « • • • ان روتر اليوم نشر بأنكم ناديتم
بأنفسكم ملكاً على الحجاز ، فان كان هذا الأمر صحيحاً فقد غشكم من
أشار عليكم بذلك لأن هذه المسألة أثارت الرأي العام في الخارج ضدكم •
هذا من جهة ، ومن الجهة الاخرى أنه لا ينطبق مع العهود التي قطعتموها على
أنفسكم أمام العالم الاسلامي وملوك المسلمين في تشكيل حكومة الحجاز ،
ولو تريثتم قليلاً لحين انعقاد المؤتمر الاسلامي وتقريره مصير البلاد
لكان خيراً وأبقى ، والنتيجة كانت لكم على كل حال • ويظهر ان هناك
ايدياً أئيمة حسنت في نظركم هذا الأمر حتى تقضي على فكرة المؤتمر
الاسلامي وتقضي في الوقت نفسه على سمعتكم في الخارج • • • » • فكتب
ابن سعود الى حافظ وهبة جواباً قال فيه ما معناه : انه انما قبل البيعة بهذه
السرعة اضطراراً لأن أهل الحجاز قاموا قومة رجل واحد ليلزموه بذلك ،
كما قامت قيامة أهل نجد ، وكلما طلب منهم التريث أبوا • وختم ابن سعود
جوابه قائلاً : « فازاء هذا الموقف الحرج الذي يتوقف عليه أمن الحجاز
الحاضر واستقرار الأمر فيه لم أجد بداً من تلبية البيعة متوكلاً على الله •
واني لا أزال على عهدي من رعاية ما للمسلمين من الحقوق المشروعة في
هذه الديار المقدسة » (٣) •

(٢) أمين الريحاني (تاريخ نجد الحديث وملحقاته) - بيروت ١٩٥٤ -
ص ٤٢٧ - ٤٣٠ •

(٣) حافظ وهبة (خمسون عاماً في جزيرة العرب) - القاهرة ١٩٦٠ -
ص ١٣٤ - ١٣٥ •

أما في الهند فقد أعلنت بعض الجمعيات الإسلامية استنكارها لبيعة ابن سعود • وكان أشد تلك الجمعيات استنكاراً جمعية خدام الحرمين ، ويليهما في ذلك جمعية الخلافة الإسلامية • وأعلن شوكت علي رئيس جمعية الخلافة استنكاره للبيعة وقال : لا يجوز لبضعة عشر حجازياً من أعداء الشريف حسين أن يقرروا مصير الحجاز الذي يجب أن يقرره العالم الإسلامي كله (٤) •

قررت كل من جمعية الخلافة وجمعية خدام الحرمين إرسال وفد منها إلى الحجاز للتحقيق حول ما أشيع من هدم القبور المقدسة فيه • وقد وصل الوفدان إلى جدة في ٢٢ كانون الثاني ١٩٢٦ • فقبلاً فيها بسرود • واتخذ وفد جمعية خدام الحرمين موقفاً انتقادياً صلباً تجاه ابن سعود وال الإخوان ، وحاول ابن سعود مجاملتهم والتلطف معهم دون جدوى • انهم قدموا لابن سعود أسئلة في بعض الأمور الدينية ، وكانت أجوبته غير مرضية أو مقنعة لهم • وطلبوا منه رجلاً للمناظرة معه ، كما طلبوا منه شخصياً أن يصلي أمامهم خلف إمام من أحد المذاهب الأربعة لكي تزول شكوكهم حوله • فلم يلب ابن سعود طلبهم (٥) •

نفذ صبر ابن سعود أخيراً من هذا الموقف الانتقادي الشديد الذي اتخذته الوفد ، فأمر بإخراجه من الحجاز بدعوى أنه من دعاة الفتنة • وفي ٣ آذار ١٩٢٦ ، غادر الوفد جدة متوجهاً إلى مصر (٦) •

وفي شهر تشرين الثاني ١٩٢٦ عقد مؤتمر إسلامي في لكنو في الهند تحت إشراف جمعية خدام الحرمين ، واتخذ قرارات مضادة لابن سعود كما أوصى بعدم تشجيع الحج ما دام الحكم الوهابي قائماً في الحجاز • وقد هاجمت جريدة « أم القرى » هذا المؤتمر وانتقدت قراراته ، ووصفت

(٤) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ١٧ شباط ١٩٢٦ •

(٥) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ٢٢ آذار ١٩٢٦ •

(٦) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ٢٢ آذار ١٩٢٦ •

جمعية خدام الحرمين بأنها جمعية أعداء الحرمين (٧) .

المجتمع الجديد :

يتميز العهد الجديد في الحجاز عن العهد الهاشمي البائد بأمور كثيرة نذكر أهمها فيما يلي :

أولاً : هبوط مكانة الاشراف بحيث صاروا لا يتميزون عن غيرهم بنسب ، وربما عمد بعض العامة الى اهانتهم انتقاماً لما سلف منهم . يروي حافظ وهبة قصة لها دلالتها في هذا الشأن خلاصتها : أن أحد الاشراف أعطى ناظوراً له الى رجل ساعتى في مكة لاصلاحه ، ثم ادعى بعدئذ ان الساعاتى لم يصلح الناظور طبق الشرط ، وأقام عليه الدعوى لدى قاضي مكة . ولما جرت المحاكمة كان حاكم مكة خالد بن لؤي حاضراً فيها ، وأراد الشريف ان يجلس الى جانبه فانتهره القاضي وأمره أن يقف أمامه مع خصمه . وقال الساعاتى يخاطب خصمه : « ان وقوفي معك جنباً الى جنب أمام القاضي يساوي عندي الدنيا وما فيها . لقد مضى وقت الظلم ، فلقد كانوا يكلفوننا بعمل الأشياء ولا يعطوننا أجره ، بل لايتنازلون أن يكلمونا ، بل كانوا يضربوننا في بعض الأحيان ، الحمد لله » . فعلق القاضي على هذا الكلام قائلاً : « ان الناس جميعاً أمام الشرع سواء ، وان الاشراف أولى الناس باتباع جدهم سيد الرسل محمد صلى الله عليه وسلم الذي يقول : يا فاطمة بنت محمد اني لا أملك لك من الله شيئاً . والله يقول : ان أكرمكم عند الله أتقاكم . ويقول : فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون » . وحين كان القاضي يتكلم كان الاخوان الواقفون قريباً منه يؤمنون على كلامه ويسمعون الشريف همساً ما يكره من قوارص الكلم ... (٨) .

(٧) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١١٤٤٢) .

(٨) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) - ص ١٠٥ - ١٠٦ .

ثانياً : زوالعادة السرقة وقطع الطريق التي كانت شائعة في العهد البائد . وفي أواخر نيسان ١٩٢٦ أُلقي القبض في جدة على لص فقطعت إحدى يديه طبقاً لحكم الشرع ، ثم غُمست في الدهن المغلى ، و طُيف به بعدئذ في الاسواق ليكون عبرة لغيره^(٩) . وفي أحد الايام اعترضت إحدى القبائل البدوية قافلة للحجاج فنهبتهما وقتلت بعض أفرادها ، فأرسل اليها ابن سعود قوة أحاطت بمقر القبيلة وقتلت كل رجل فيها . وقد استغرب أحد القناصل من هذه القسوة وأبدى استغرابه لابن سعود ، فقال له ابن سعود : ان هذه ليست قسوة بل هي رحمة ، فهي الطريقة الوحيدة لمعاملة البدو ، اذ هي ستشيع أخبارها بين القبائل البدوية وسوف يمتنعون عن نهب القوافل بعدئذ^(١٠) .

ثالثاً : تشدد الاخوان تجساه من يخالف السنة في نظرهم كالتدخين أو زيارة القبور والإماكن المقدسة . ففي شهر شباط ١٩٢٦ ذهب أربعة افغانيين لزيارة غار حراء ، وبينما كانوا يصلون عنده لمحهم بعض الاخوان ورموهم بالرصاص ، فاصيب اثنان منهم بجروح بسيطة . وفي شهر شباط نفسه حدث حادث آخر كان مشيراً خلاصته : ان سائقاً مصرياً كان جالساً في مقهى بالقرب من الكعبة وهو يدخن ، فاقرب منه رجل من الاخوان واختطف السيكرة من فمه وضربه بالعصا . فغضب السائق ونهض واقفاً وانهال على الرجل بلكمات أصابت احداها عينه . وتبين بعدئذ ان هذا الرجل من آل الشيخ أي من سلالة مؤسس المذهب الوهابي ، فسيق السائق الى القاضي فأمر القاضي بجلده ، وقد مات السائق تحت الجلد^(١١) .

وفي شهر نيسان ١٩٢٦ عندها اشتط الاخوان في نشاطهم ضد من يخالف السنة في نظرهم اضطر ابن سعود الى اصدار تعليمات لتحديد

(٩) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف.أو. ٣٧١ - ١١٤٤٢)
(10) David Hawarth (The Desert King) - London 1964 - P. 148.

(١١) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف.أو. ٣٧١ - ١١٤٤٢)

المخالفات وتعيين عقوبة لكل منها • وقد نشرت جريدة « أم القرى » تلك التعليمات ، وهي كما يلي :

(١) كل من لا يحضر صلاة الجماعة عن قصد يُعاقب بالسجن من يوم واحد الى عشرة أيام مع الغرامة •

(٢) كل من يشرب الخمرة يُعاقب طبقاً لحكم الشرع ، ثم يُسجن من شهر الى ستة أشهر مع الغرامة ، واذا عاد الى ذلك مرة أخرى يُنفي من البلد الحرام سنتين •

(٣) كل من يصنع الخمر أو يبيعه أو يهبيء محلاً لشربه يُسجن من ستة أشهر الى سنتين ، كما يُصادر محله • واذا عاد الى ذلك مرة أخرى يُنفي من البلد الحرام من سنتين الى ثلاث سنين •

(٤) ان التدخين أمر سيء ومضر للبدن والمال والعقل ، وقد حرمه بعض العلماء ، ولهذا وجب تطهير الأماكن المقدسة من هذا الشر • فكل من يُدخن علانية يُسجن من يوم واحد الى ثلاثة أيام مع الغرامة •

(٥) كل من يشارك في اجتماع لغرض ترويح الاشاعات الكاذبة ، أو التآمر ضد سياسة الحكومة ، يُسجن من سنتين الى خمس سنين ، أو يُنفي من الحجاز •

(٦) كل من يساعد على اخفاء المجرمين المذكورين في المادة السابقة يُعتبر مثلهم ويُعاقب مثل عقوبتهم •

(٧) كل من يشارك في اجتماع مخالف للشرع يُسجن من ثلاثة الى ستة أشهر مع الغرامة •

(٨) كل اجتماع مقصود به الفائدة يجب أن تُخبر به الحكومة وبموضعه للحصول على الاذن منها •

(٩) ان الموظفين المعنيين يجب أن ينفذوا هذه المواد باهتمام بالغ ، ومن يهمل منهم يُعاقب بشدة (١٢) •

(١٢) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف .أو . ٣٧١ - ١١٤٤٢) •

هدم قبور البقيع :

كان البقيع مقبرة المدينة في عهد النبي وما بعده ، ولهذا دُفن فيه العباس عم النبي ، والخليفة عثمان ، وزوجات النبي ، والكثير من الصحابة والتابعين ، كما دُفن فيه أربعة من أئمة أهل البيت هم : الحسن بن علي ، وعلي بن الحسين ، ومحمد بن علي ، وجعفر بن محمد ، وقد صنع الشيعة لقبور هؤلاء الأربعة ضريحاً باهراً يشبه الأضرحة المعروفة في العراق وإيران ، لكن على نطاق أصغر . واعتاد الشيعة أن يزوروا هذا الضريح فيقبلونه ويتبركون به ويصلون عنده على نحو ما يفعلون في أضرحة العراق وإيران .

ظلت هذه القبور سليمة في العهد السعودي أكثر من أربعة أشهر دون أن يمسه أحد بسوء ، وقد بدأ التدمير ينتشر بين الإخوان من جراء ذلك ، وصاروا يتقدمون ابن سعود ويتهمون به بالتساهل في تنفيذ أوامر الله (١٣) . فاضطر ابن سعود في أواسط نيسان ١٩٢٦ إلى إرسال كبير علماء نجد الشيخ عبدالله بن بليهد إلى المدينة للعمل على هدم القبور . وعندما وصل ابن بليهد إلى المدينة اجتمع بعلمائها ووجه اليهم الاستفتاء التالي :

« ما قول علماء المدينة زادهم الله فهماً وعلماً في البناء على القبور واتخاذها مساجد ، هل هو جائز أم لا ؟ وإذا كان غير جائز بل ممنوع منهى عنه نهياً شديداً ، فهل يجب هدمها ومنع الصلاة عندها أم لا ؟ وإذا كان البناء في مسيلة كالبقيع ، وهو مانع من الانتفاع بالمقدار المبني عليها ، فهل هو غصب يجب رفعه لما فيه من ظلم المستحقين ومنعهم استحقاقهم أم لا ؟ وما يفعله الجاهل عند هذه الضرائح من التمسح بها ودعائها مع الله والتقرب بالذبح والنذر لها وإيقاد السرج عليها ، هل هو جائز أم لا ؟ وما يُفعل عند حجرة النبي (ص) من التوجه إليها عند الدعاء وغيره والطواف بها وتقييلها والتمسح بها ، وكذلك ما يُفعل في المسجد من الترحيم والتذكير بين

(١٣) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١١٤٤٢) .

الأذان والاقامة وقبل الفجر ويوم الجمعة ، هل هو مشروع أم لا ؟ أفتونا
مأجورين وبنينا لنا الادلة المستند اليها لا زلتم ملجأً للمستفيدين » .
وافق سبعة عشر رجلاً من الحاضرين على وجوب هدم القبور ،
وكتبوا في ذلك فتواهم ووقعوا عليها . وهذا هو نص الفتوى :

« أما البناء على القبور فهو ممنوع اجماعاً لصحة الاحاديث الواردة
في منعه ، ولهذا أفتى كثير من العلماء بوجوب هدمه مستنديين على ذلك
بحديث عليّ انه قال لأبي الهياج : « ألا أبغضك علي ما بعثني عليه رسول
الله (ص) أن لا تدع تمثالاً الا طمسته ولا قبراً مشرفاً الا سويته » ،
رواه مسلم . وأما اتخاذ القبور مساجد والصلاة فيها وإيقاد السرج عليها
فممنوع لحديث ابن عباس : « لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها
المساجد والسرج » ، رواه أهل السنن . وأما ما يفعله الجهال عند الضرائح
من التمسح بها والتقرب اليها بالذبائح والنذور ودعاء أهلها مع الله فهو
حرام ممنوع شرعاً لا يجوز فعله أصلاً . وأما التوجه الى حجرة النبي
(ص) عند الدعاء فالأولى منعه كما هو معروف من معتبرات كتب المذهب
ولأن أفضل الجهات جهة القبلة . واما الطواف والتمسح بها وتقبيلها فهو
ممنوع مطلقاً . وأما ما يُفعل من التذكير والترجيم والتسليم في الاوقات
المذكورة فهو محدث . هذا ما وصل اليه علمنا ، (١٤) .

وعلى أثر صدور هذه الفتوى شرع بهدم قبور البقيع . فأحدث
هدمها ضجة في أقطار العالم الاسلامي . وكانت الضجة في الاقطار الشيعية
أشد مما في غيرها طبعاً .

صدى الحادث في العراق :

وصلت الى أحد علماء الشيعة في العراق رسالة من رجل شيعي كان
في المدينة عند هدم القبور ، وهي مؤرخة في ٨ شوال ١٣٤٤ هـ ، الموافق
ليوم ٢١ نيسان ١٩٢٦ ، كان هذا نصها :

(١٤) محسن الأمين (كشف الارتياح) - ط ٣ - ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

« أعرض لكم أن جميع البلاد الحجازية مقهورة تحت سيطرة ابن سعود وحكمه المطلق فيها ، ولا يوجد في هذه البلاد من أقصاها الى أذناها فرد واحد سواء من سكان المدن او البوادي بسعه أن يقف دون أوامره واراذه النافذة . » ومنذ أيام ورد المدينة قاضي قضاة الوهابيين - يقصد الشيخ عبدالله بن بليهد - وبينما كان مجلسه غاصاً بعلمائها صرح أمامهم بتحريم زيارة القبور وانها بدعة في الدين وشرك بالله وأنه يلزم تحصيل الاتفاق من جميع علماء المذاهب الاربعة على تخريبها تماماً ومحو آخر أثر من آثارها على وجه الارض . ونظراً لذلك فقد منعت زيارة جميع المراقد المطهرة وأغلقت أبوابها . ومنذ عشرين يوماً لم نجرأ على قصد هذه المشاهد المشرفة وزيارتها ، اذ أن جنود الوهابيين (الاخوان) قد رصدوا الحرم المطهر النبوي ومنعوا أي زائر من التشرف بزيارة سيدة نساء العالمين عليها السلام ومن التقرب الى ضريح رسول الله (صلى الله عليه وسلم) . ثم ان قاضي قضاة الوهابيين لم يتمكن من تحصيل الاتفاق المطلوب من علماء المدينة الا بعد أيام اذ استعمل معهم الوسائل الاخرى المخوفة من القوة ، والبعض الآخر وافق ابتداءً ، فحكموا جميعاً طبق رغبته بتحريم زيارة القبور مطلقاً والتمسح بها الى الله والاستشفاع بها اليه وتلاوة الزيارة فيها . ثم صدر الأمر بهدم وتخريب المراقد الشريفة ، فشرع الجند أولاً بنهب جميع ما تحتويه تلك البنايات المقدسة في البقيع من الفرش والسائر والمعلقات والسرج وغير ذلك . ثم بدأوا يخربون تلك المشاهد المقدسة وفرضوا على جميع بنائي المدينة الاشتراك في التخريب والتهديم . والغرض الآن أن يقف على خبر هذه الفاجعة جميع المؤمنين الذين يأملون بواسطة هؤلاء الائمة الطاهرين الشفاعة والزلفى من الله تعالى . ويشتركوا جميعاً سواء العربي والفارسي والهندي والتركي ، فيضج كل منهم الى حكومته للتدخل في رفع هذه الغائلة العظمى وتدارك ما وقع . اليوم وهو نامن شوال وقع التخريب والهدم في القبة المقدسة في البقيع ، ولا حول ولا قوة

الا بالله العلي العظيم • يلزم عليكم أن تبادروا الى اخبار علماء العراق جميعاً بهذه الحادثة الفجيعة ، (١٥) •

وفي الوقت نفسه بدأت البرقيات ترد تباعاً الى علماء الشيعة في العراق ،
ننقل فيما يلي البرقية التي وصلت الى السيد حسن الصدر في الكاظمية
وهي : « عظم الله أجوركم في مصيبة الرسول وأهل بيته • الوهابيون خربوا
القبور المقدسة » •

قرر علماء الشيعة على أثر تلقيهم هذه الاخبار اعلان الحزن واظهار
الحداد وترك التدريس واقامة صلاة الجماعة • وعُقد في صحن الكاظمية
اجتماع حضره جمهور كبير من الناس ، وتليت فيه البرقيات والرسائل
الواردة في هذا الشأن ، كما نظمت البرقيات التي تقرر ارسالها الى ملوك
وعلماء العالم الاسلامي في أقطارهم المختلفة • وجرى مثل ذلك في كربلاء
والنجف • ننقل فيما يلي نص البرقية التي أبرقها علماء النجف الى رضا
شاه في طهران :

« حسب الأنباء الموثوقة ان الوهابية بعد نهبهم حرم أئمة البقيع حكم
قاضي القضاة بهدم وتخريب البقيع الشريف بما فيه من القباب والضرائح
المقدسة • وقد بوشر بالعمل في الثامن من شوال • ومن المتيقن ان حفظ
نواميس الدين الاسلامي بوجه عام والمذهب الجعفري على الاخص في ذمة
الملك الجعفري • وآمال العموم معقودة ومقصودة على غيرة وحماية
جلالتكم • ونحن منتظرون بفارغ الصبر قيامكم باكبر الواجبات في أسرع
وقت ان شاء الله » (١٦) •

وأخذت الجرائد العراقية تنشر المقالات في التنديد بابن سعود وشجب
أعماله • فقد كتبت جريدة « العراق » في مقالة افتتاحية لها تقول : « قضى
الأمر وأصدر ابن بليهد الفتوى المعلومة فقام باكبر خدمة لسيد ابن سعود
ولم يعلم بأن مسعاه كان سهماً أصاب كبد العالم الاسلامي فألمه أيما

(١٥) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ٢٥ أيار ١٩٢٦ •

(١٦) مجلة (المرشد) - في عددها الصادر في حزيران ١٩٢٦ •

السم» (١٧) . كما نشرت مقالة أخرى بقلم اسماعيل آل ياسين من الكاظمية عنوانها « الطاغية الكبرى والاماكن المقدسة في الحجاز » ورد فيها ما نصه : « ايها المسلمون ما هذا السبات وما هذا الجمود الذي أدى بكم الى السكون والى عدم الاكتراث بهذه القضايا المؤلمة والادوار المخزية التي يمثلها ذلك الطاغية في البلاد المقدسة ... » (١٨) .

وفي ٤ حزيران ١٩٢٦ نشرت جريدة «العراق» حديثاً جرى بين أحد محرريها والسيد محمود الكيلاني نقيب أشرف بغداد أعلن فيه السيد محمود انتقاده لما قام به الوهابيون من هدم قبور البقيع ، وذكر أن بناء القبر على القبور ليس مخالفاً للسنة النبوية لأن النبي نفسه دُفن في حجرة عائشة وهي حجرة ذات جدران وسقف كالقبة . وذكر أيضاً أن تقويل الاضرحة هو من باب تقويل المحبوب وهو أمر غير ممنوع في الاسلام .

ونشرت «العراق» بعدئذٍ ثلاثة أبيات من الشعر طالبة من الشعراء تشطيرها وتخميسها ، وهي :

لعمري ان فاجعة البقيع
يشيب لهولها فود الرضيع
وسوف تكون فاتحة الرزايا
اذا لم نصح من هذا الهجوع
فهل من مسلم لله يرعى
حقوق نبيه الهادي الشفيع

وقد شارك في تشطير هذه الابيات وتخميسها عدد من الشعراء كان من بينهم مصطفى جواد واسماعيل آل ياسين وكمال نصرت وعبدالمهدي الازري ومسلم متفجع من الكاظمية (١٩) .

-
- (١٧) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ٢٧ أيار ١٩٢٦ .
(١٨) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ٢٩ أيار ١٩٢٦ .
(١٩) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ٢ ايلول ١٩٢٦ ، وعددها الصادر في ١٦ ايلول ١٩٢٦ .

حل شهر محرم عامذاك في ١٢ تموز ، فكانت خطب مجالس التعزية ونوحيات المواكب الحسينية تدور في معظمها حول « فاجعه » البقيع ، وتناشد الامام الغائب للظهور للانتقام من ابن سعود .

ومن الجدير بالذكر أن يوم ٨ شوال - وهو اليوم الذي هُدمت فيه قبور البقيع - أصبح يوم حداد في السنوات التالية في النجف وكربلا ، حيث تُغلق فيه الاسواق وتخرج مواكب اللطم ، على نحو ما اعتادوا عليه في وفيات الائمة . ويقال ان أهل كربلا ظلوا مستمرين على ذلك بضع سنوات ، وقد أطلقوا على النامن من شوال اسم « وفاة البقيع » .

ما زال الشيعة حتى الآن يأملون أن تسنح لهم الفرصة لكي يعيدوا بناء قبور البقيع . ولو أُتيحت لهم الفرصة لبنوها خيراً مما كانت أضعافاً . حدثني أحد القات ان شيعة البهرة في الهند جمعوا الاموال الوفيرة ووضعوا التصاميم لاعادة بناء القبور . وأذكر أنني عند زيارتي لجامع الشيعة الاثنى عشرية في كراچي عام ١٩٥٨ شاهدت فيه ضريحاً ذهبياً ثميناً . وحين سألت عنه قيل لي انه ضريح قبور البقيع ، وقد صُنِع من تبرعات الشيعة في باكستان والهند بانتظار السماح له بنقله الى المدينة عندما تتاح الفرصة . ولست أدري متى سوف تتاح هذه الفرصة ؟

في موسم الحج :

في شهر حزيران ١٩٢٦ حل أول موسم للحج في العهد السعودي ، وقد جاء الى الحجاز فيه حجاج كثيرون يقرب عددهم من عدد الذين حجوا في الموسم الأسبق . وقد أدى ذلك الى اصطدامات ومشاحنات كثيرة بين الحجاج والاخوان . فالحجاج كانوا يريدون القيام بشعائهم حسب عاداتهم القديمة بينما كان الاخوان يعدّون ذلك مخالفاً للسنة ويقاومونه .

كان ابن سعود قد عين حافظ وهبة نائباً عنه في ادارة شؤون مكة للحد من غلواء الاخوان . ويقول حافظ وهبة في كتابه : ان الاخوان كانوا قساة في معاملتهم لمن يرتكب في نظرهم معصية أو يخالف أمراً من

أوامر الله ، اذ كان كل واحد منهم يعتبر نفسه حاكماً تجاه ذلك ، وكانت العصا تعمل عملها باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر + ويروي حافظ وهبة : انه في يوم من أواخر شهر ذي القعدة في عام ١٩٢٦ بينما كان في دار الحكومة في مكة حضر الى الدار قنصل مصر ونائب قنصل الهند ونائب قنصل هولندا ومعهم نحو عشرة من الحجاج والدماء تسيل منهم بسبب اعتداء الاخوان عليهم ، فوعدهم حافظ بمعالجة الموضوع وأكد لهم أن مثل هذه الأمور لا يخلو منها بلد في العالم ، ولكنهم احتجوا بأن هذا التعدي كان باسم الدين وبأيدي الحكومة وأنه حدث على مرأى من رجال الشرطة ، فأكد لهم حافظ أن الحكومة لا علم لها بأمثال هذه الحوادث وأنها لا تقر هذا التعدي . ويقول حافظ وهبة : انه ذهب الى ابن سعود ليشرح له خطورة الأمر وما سوف تؤدي اليه أعمال الاخوان من الفوضى . فلم يهتم ابن سعود بكلامه مما اضطره الى الاستقالة من منصبه . وقد أدرك ابن سعود فيما بعد مبلغ تطرف الاخوان فكلف رجال حرسه لتأديب الاخوان ، وعين قاضياً للنظر في المشاكل التي تنتج عنهم (٢٠) .

كانت حادثة المحمل المصري أهم ما حدث في ذلك الموسم من نزاع بين الاخوان والحجاج ، وهي كادت تؤدي الى مذبحه عامة . وخلاصة الحادثة : أن الحكومة المصرية اعتادت منذ زمن بعيد أن ترسل في كل موسم محملاً يدعى « المحمل النبوي » ومع جنود ومدافع وموسيقى عسكرية وقائد يدعى « أمير الحج » . وتلك أمور يستنكرها الاخوان استنكاراً شديداً ، اذ هم يعتبرون المحمل وثناً يُعبد من دون الله ، كما يسمون البوق الذي يتقدمه بـ « صوت الشيطان » .

ولما اقترب موسم الحج في عام ١٩٢٦ كتبت الحكومة السعودية الى الحكومة المصرية تطلب منها الالتزام بثلاثة شروط عند مجيء المحمل والحجاج الى الحجاز ، وهي : (١) عدم مصاحبة الموسيقى للمحمل بعد

(٢٠) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص ٣٠٦ - ٣٠٨ .

جدة ، (٢) عدم التدخين ، (٣) عدم ربة القبور والطواف حولها • فكتب
الحكومة المصرية الى شيخ الازهر ومفتي الديار المصرية تستقيهما في
ذلك ، فأفتى هذان الرجلان بأن الامور الثلاثة التي ذكرتها الحكومة
السعودية ليست مخالفة للكتاب والسنة ، وذكر الادلة الشرعية التي تؤيد
فتواهما (٢١) •

ظهرت أولى بوادر الأزمة عند وصول المحمل الى ساحة الحرم في
مكة • فقد أنزل المحمل في الساحة وجاء اليه بعض الحجاج يتبركون به •
فارت ثائرة الاخوان • فأرسل ابن سعود الى أمير الحج محمود عزمي
بأنه يرجوه أن يدخل المحمل في موضع محجوب تجنباً للفتنة ، فلبى
الباشا الرجاء بعد الالحاح الشديد من قبل بعض الوسطاء •

وفي عصر ٨ ذي الحجة ١٣٤٤ هـ ، الموافق ليوم ١٩ حزيران ١٩٢٦ م ،
خرج المحمل من مكة متوجهاً الى جبل عرفات ، وفي الساعة السابعة والنصف
من مساء ذلك اليوم حين توقف المحمل بالقرب من منى اقترب منه جمع
من الاخوان وأخذوا بسبونه صارخين : « هبل ، هبل » ، وقذفوه بالحصى
والاحجار • فأمر محمود عزمي باشا جنوده بالاصطفاف العسكري ، وطلب
من الاخوان التفرق ، فلم يأبهوا له • فأمر الباشا جنوده باطلاق القنابل
والرصاص في الهواء ارهاباً للاخوان ، فلم يؤثر ذلك فيهم • وقيل ان
الاخوان أطلقوا الرصاص على جنوده (٢٢) • وعند هذا أمر الباشا باطلاق
القنابل والرصاص على الاخوان مباشرة ، فسقط منهم خمسة وعشرون
قتيلاً وعدداً أكبر من الجرحى (٢٣) •

كان قد حج في ذلك العام نحو ستين ألف شخص من نجد ، وكانوا
قد خيموا في منى • وحين بلغ هؤلاء ما حل باخوانهم هرعوا الى موضع

(٢١) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف.أو. ٣٧١ - ١١٤٤٢) •

(٢٢) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف.أو. ٣٧١ - ١١٤٤٢) •

(23) Armstrong (Lord of Arabia) - London 1938 - P. 193.

الحادثه وهم يحملون بنادقهم • وبلغ ذلك ابن سعود ، وكان مخيباً بالقرب من الموضع ، فجاء يعدو ، ثم وقف بين الفريقين وهو ينادي فيهم : « أنا عبدالعزيز ! أنا عبدالعزيز ! » • فتوقف اطلاق النار • وأمر ابن سعود جنوده باخفاء المحمل وحمايته ، ثم أرسله بعدئذ الى جدة بحراسة جنود سعوديين تحت قيادة الأمير مشاري بن سعود بن جلوي (٢٤) •

ويروي أرمسترونج : ان ابن سعود اقترب عقب الحادثة من أمير الحج المصري محمود عزمي باشا ، وأخذ يعتفه على ما فعل ، فرد عليه الباشا قائلاً مع شيء من الزهو والعجرفة : « احتراماً لجلالتكم توقفت عن الضرب ، ولولا ذلك لأفنت هؤلاء الغوغاء كلهم » • فسيطر ابن سعود على أعصابه وقال له : « ليس هذا وقت التفاخر ، فهنا مكان مقدس أمر الله أن لا يُقتل فيه أحد ، وأنتم ضيوفنا وتحت حمايتنا ، ولولا ذلك لعاقبتك » (٢٥) •

حين وصل الخبر الى الملك فؤاد ، ملك مصر ، اشتد غضبه ، وأمر بالانقطاع عن ارسال كسوة الكعبة التي اعتادت مصر ارسالها في كل عام ، كما أمر بالانقطاع عن ارسال المال الى الحجاز من ريع اوقاف الحرمين في مصر • وفي ١٣ أيار ١٩٢٧ - عندما اقترب موسم الحج التالي - نشرت جريدة « الاهرام » المصرية بلاغاً رسمياً ورد فيه : ان الحكومة المصرية قررت العدول عن ارسال المحمل في هذا العام وهي تعلن للحجاج المصريين بأنهم قد يستهدفون لبعض المخاطر عند سفرهم الى الحجاز ، وانها غير مسؤولة عن حمايتهم ، فاذا أرادوا السفر كان ذلك على مسؤوليتهم •

ظلت الحكومة المصرية تتبع هذه السياسة تجاه الحج حتى آخر أيام الملك فؤاد • ويروى أن الملك فؤاد عندما كان على فراش الموت في عام ١٩٣٦ دخل عليه رئيس ديوانه علي ماهر باشا وقال له : « ألا تجعل في

(٢٤) خيرالدين الزركلي (شبه الجزيرة في عهد الملك عبدالعزيز) - بيروت ١٩٧٧ - ج ٢ ص ٦٦٣ - ٦٦٤ •

(25) Armstrong (op. cit.) - P. 198

صحيفة عمالك الدخول في مفاوضة مع بلاد الحرمين الشريفين ؟ » • فأشار الملك بما معناه : « لا بأس » •

عادت العلاقات الودية بين مصر والمملكة السعودية بعد موت الملك فؤاد ، وسُمح للمصريين بالحج ، كما عاد ارسال الكسوة الى الكعبة في كل عام • غير أن المحمل ظل ممنوعاً من الدخول الى الحجاز • وصار المصريون يحتفلون بالمحمل في كل سنة لكنهم لا يتجاوزون به مدينة السويس (٢٦) •

عقد المؤتمر الاسلامي :

كانت الرسائل والبرقيات ترد الى ابن سعود من الهند وغيرها تطالبه بعقد المؤتمر الاسلامي الذي وعده من قبل • وكان حافظ وهبة من جانبه يكرر الحاحه على ابن سعود في سبيل ذلك • وقد وافق ابن سعود أخيراً على عقد المؤتمر بشرط أن لا يتعرض المؤتمر لموضوع نظام الحكم في الحجاز • وفي ٢٦ اذار ١٩٢٦ وجهت الدعوة الى جميع الهيئات والحكومات الاسلامية لحضور المؤتمر الذي سيعقد في ٢٠ ذي القعدة ١٣٤٤ هـ الموافق ليوم ٢ حزيران ١٩٢٦ •

استجاب للدعوة ممثلون من مختلف الاقطار الاسلامية ما عدا ايران والعراق • ووصل الأخوان محمد علي وشوكت علي لتمثيل جمعية الخلافة الاسلامية ، كما وصل ضياء الدين بن فريد الدين لتمثيل مسلمي الاتحاد السوفياتي • وكان يمثل الجانب السعودي فيه أربعة هم : حافظ وهبة ويوسف ياسين وعبد العزيز العتيقي وعبد الله بن بليهد كبير علماء نجد •

جرى افتتاح المؤتمر في مكة في ٧ حزيران • وألقى حافظ وهبة خطبة الافتتاح بالنيابة عن ابن سعود • وقد تضمنت الخطبة الاسباب التي حثت بابن سعود لقبول البيعة بملك الحجاز ، وخلاصتها : ان أهل الحل والعقد في الحجاز ونجد اضطروه الى ذلك ، وهو قد رفض طلبهم في أول الأمر

(٢٦) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٦٦٩ •

ثم وافق استجابة لحكم الشرع « لأننا آل سعود لسنا ملوكاً مستبدين ، ولا حكاماً شخصيين ، بل نحن في بلادنا مقيدون بأحكام الشرع ورأي أهل الحل والعقد ... » وإذا أنا خالفتم بغير حجة شرعية يقبلونها فانهم لا يطيعونني ، وفي ذلك من الفساد ما لا يخفى . وقد بايعني جمهور الحضر ورؤساء قبائل البادية وهؤلاء يعدّون من أهل الحل والعقد لأن قبائلهم تتبعهم سلماً وحرباً . . . ثم طلب ابن سعود من الحاضرين في المؤتمر أن يتشاوروا في مصالح الحجاز الدينية والعمرانية ، وفي تطهيره من البدع والخرافات والفواحش والمنكرات التي كانت فاشية فيه بدون نكير ، ثم قال لهم : ان لهم الحرية المطلقة فيما يتناقشون فيه الا في أمرين يجب أن يتعدوا عنهما أحدهما : الخوض في السياسة الدولية ، والثاني : ما بين بعض الشعوب الاسلامية وحكوماتها من خلاف ، فان هذا من المصالح الموضوعية الخاصة بتلك الشعوب . وختم ابن سعود الخطبة قائلاً : « ان المسلمين قد أهلكهم التفرق في المذاهب والمشارب ، فاثمروا في التأليف بينهم والتعاون على مصالحهم ومنافعهم العامة المشتركة ، وعدم جعل اختلاف المذاهب والاجناس سبباً للعداوة بينهم ... » (٢٧) .

استمرت جلسات المؤتمر عشرة أيام . وفي ١٧ حزيران تأجلت جلساته لاتاحة الفرصة للوفود للقيام بشعائر الحج . وفي أثناء ذلك وصل الى مكة وفدا مصر وتركيا ، فاستؤنفت جلسات المؤتمر من جديد في ٢٢ منه ، وقد شهدت الجلسات الاخيرة مجادلات حادة ومشاجرات قام الوفد المصري بالدور الاول فيها .

نشاط الوفد المصري في المؤتمر :

كانت الحكومة المصرية قد تجاهلت دعوة المؤتمر في بداية الأمر ، وذلك حينما كانت وزارة زيور باشا في الحكم ، فلما سقطت تلك الوزارة وتشكلت وزارة جديدة برئاسة عدلي باشا تقرر ارسال وفد يمثل مصر في المؤتمر . فتألف الوفد من الشيخ محمد الطواهري رئيساً ومن محمد

(٢٧) حافظ وهبة . (خمسون عاماً في جزيرة العرب) - ص ١٤٠-١٤٤ .

المسيري بك ومحمد توفيق بك عضوين • وقد وجد الوفد مشكلة في الوصول الى مكة لتأخر الوقت وسفر جميع بواخر الحجاج ، فأوعز عدلي باشا بأعداد باخرة الحكومة المصرية « عائدة » لنقل الوفد الى الحجاز بالسرعة الممكنة • وقد تمكن الوفد من الوصول الى مكة والاشتراك في الجلسات الاخيرة للمؤتمر - كما ذكرناه آنفاً •

يبدو ان الشيخ محمد الظواهري رئيس الوفد المصري انما أرسل الى المؤتمر لغرض معين هو انتقاد تطرف الوهابيين وشجب أعمالهم ، ولذا رأيناه يأتي الى المؤتمر وهو مشحون بالادلة النقلية والعقلية التي تناقض أدلة الوهابيين • فكان أول عمل قام به في المؤتمر هو أنه قدم اقتراحاً مكتوباً وطلب من الوفود تأييده ، وهذا نصه :

« نظراً الى أن الحجاز الشريف مركز ديني عام لأهل القبلة جميعاً يفد عليه المسلمون من كل فج على اختلاف مذاهبهم الفقهية والكلامية ليعبدوا ربهم وليقضوا مناسكهم ، يقرر المؤتمر أن يُمكنوا جميعاً من أن يؤدوا عباداتهم ومناسكهم وفق مذاهبهم المذكورة وأن لا يُمنعوا الا ما يمس كرامة أحد من الأحياء او الأموات او يخالف الاجماع المعبر عند علماء أصول الفقه ، ويقرر أن الحكم بأن ما يأتي به الحاج موافق للمذهب الذي يتسبب اليه أو غير موافق انما يكون لعلماء ذلك المذهب لا لغيرهم » •

وقد ألقى الشيخ الظواهري كلمة ارتجالية حث بها الوفود على قبول قراره ، حيث قال : « ... سأقول بصراحة وأرجو أن لا يتألم أحد • كم قال القائلون ان النجديين يكفرونكم في كذا وكذا ، وقد جئنا لتبيين الأمور ولتتألف ولتتصافى ... لقد رأيت بعيني هنا أمراً آلم نفسي • فقد كنت بالحرَم أمرّ خلف المقام بعد الطواف فشاهدت جماعة يلتفون حول شخص مصري ويقولون له بعنف شديد وقسوة : « أنت قلت يا رسول الله » • هنا خاف الشخص في نفسه وأنكر وانكمش وذعر الى درجة أفاضت عيني • وقد جاءني بعد ذلك ومعه كثيرون من المصريين يقولون لي : « أرايت كيف ينكرون علينا » ، فهدأت روع من جاءني وقلت لهم :

« اطمئنوا ولا تفزعوا واصبروا حتى يتبين الحق انما الهدى هدى الله » .
هذا ايها السادة بعض ما يدعونني الى اقرار هذا الاقتراح الذي اطلب
الموافقة عليه . أناشدكم الله ورسوله . واذا قلت « رسوله » فأرجو أن
لا يعترض عليّ معترض ، فإن هذا اعتقادي الذي أدين الله عليه . أناشدكم
الله ورسوله أن تعملوا بالتسامح وسعة الصدر وعسائنا نقضي على أسباب
هذه الخلافات التي أضرت بالمسلمين ضرراً بليغاً » .

ناقش المؤتمر اقتراح الظواهري ، وبعد مجادلات حوله وافق عليه
مما أدى الى امتناع ابن سعود وحاشيته ، وقد حدا ذلك بابن سعود الى
النقاء خطاب أوضح فيه موقفه حيث قال : « ... لا أريد أن أتدخل في
أعمالكم ولا أقيد حرية المؤتمر في البحث كما وعدت بذلك في خطبة
الافتتاح ، ولكنني أريد أن ألفت نظركم الى بعض الأمور بصفتي زعيماً
من زعماء الاسلام الذين أُلقيت اليهم مقاليد أمور هذه البلاد ... انني
لا أريد علواً في الأرض ولا فساداً ، ولكن أريد الرجوع بالمسلمين الى
عهدهم الاول عهد السعادة والقوة ، عهد الصحابة ومن تبعهم باحسان ...
اننا لا نكره أحداً على اعتناق مذهب معين او السير في طريق معين في
الدين ، فذلك موكول أمره لعلماء الدين وحملة الشريعة . ولكنني لا أقبل
بحال من الاحوال التظاهر بالبدع والخرافات التي لا يعتبرها الشرع
وتأباها الفطرة السليمة . لا يسأل أحد عن مذهبه وعقيدته ، ولكن
لا يصح أن يتظاهر أحد بما يخالف اجماع المسلمين أو يثير فتنة عمياء
بين المسلمين ، وخير لنا أن ننظر الى صالح المسلمين ونترك هذه الامور
الجزئية للعلماء فهم أحرص منا على ذلك ... » .

كتب الشيخ الظواهري مذكرة في الرد على خطاب ابن سعود ، وهي
مذكرة طويلة ، ننقل فيما يلي بعض المقتطفات منها :

(١) أعرب جلالة الملك عن رغبته في ترك المسائل الدينية للعلماء ،
ولكن هذا غير ممكن لان العلماء مختلفون فاذا اجتمعوا تجادلوا وأيقظوا
بذلك التعصب المذهبي .

(٢) قال جلالتة أنه لا يقبل التظاهر بالبدع والخرافات ، وهذا قول حق اذا كان المراد به ما يقرره جميع علماء المذاهب الاسلامية ، لا ما يقرره فريق منهم دون فريق .

(٣) قال جلالتة انه لا يصح أن يتظاهر أحد بما يخالف اجماع المسلمين أو يسير فتنة عمياء ، ولكن هذا التعبير واسع النطاق غير محدد المعنى وقد يفهم قومه منه أن منع الناس من أمور جائزة في مذهبهم هو الذي يؤدي الى اثارة فتنة عمياء . فخذ مثلاً منع انتدخين ، فان الشيخ ابن بليهد يقول : « نحن لا نمنعه لانه حرام ... وانما نمنعه لان النجدين اذا رأوا من يشربه ذبحوه » . فمن هم الذين يثيرون الفتنة العمياء ؟ هل هم الذين يفعلون ما يبيحه مذهبهم ، أم الذين يذبحونهم ؟ ! .

(٤) قال جلالتة : خير لنا أن ننظر الى مصالح المسلمين وتسربله هذه الامور الجزئية للعلماء ، وقد كنا نود ان يراعى هذا المبدأ من أول الأمر فلا تهدم المآثر وغيرها حتى يرى علماء المذاهب الاسلامية رأيهم فيها
شاع أمر هذه المذكرة بين الوفود قبل عرضها على المؤتمر ، واستحسنوها كلهم ما عدا الوفد السعودي . وجاء أعضاء هذا الوفد الى الشيخ الظواهري يرجونه عدم تقديم المذكرة الى المؤتمر ، فقال لهم الظواهري انه يفعل ذلك بشرط أن يسحب الملك خطابه . وقد تم الاتفاق على ذلك ، وسحب الملك خطابه من المؤتمر فعلاً .

كان اليوم الأخير من المؤتمر حافلاً بالمناقشات الحادة . ففي ذلك اليوم طلب شوكت علي المداولة في اقتراح كان قد قدمه سابقاً وهو يتضمن أموراً ثلاثة : (١) اعادة بناء القباب والمآثر المهدومة في أقرب وقت ممكن ، (٢) حفظ وصيانة القبور التي لم تهدم ، (٣) اناطة أمر بناء القبور التي هُدمت الى لجنة علماء المذاهب السنية والشيعة ، ويكون رأي هذه اللجنة نهائياً .

تكلم الشيخ محمد الظواهري حول هذا الاقتراح قائلاً : « اليوم آخر يوم من أيام المؤتمر ونريد أن ننصرف على سلام وصفاء ، وأرى

حركة من جانب اخواننا الهنود تدل على شيء من الامتناع ، كما أرى حركة تقابلها من الجانب الحكومي تدل على شيء من الشدة ، فأرجو ان لا يكون ذلك • فلينظر الاقتراح الخاص بالقبور: والمآثر • فانبرى للرد عليه يوسف ياسين حيث قال : « اذا كنتم لا تريدون خلافاً وتودون أن ينتهي الأمر بسلام فارجو أن لا ينظر في هذا الاقتراح لانه هو نفسه يفتح باباً للشقاق والخلاف » • فقال الظواهري ردأ عليه : « اتنا نريد ازالة سوء التفاهم ، أما السكوت على ما نحن عليه فضار ونريد أن يصل الصفاء الى قرارات القلوب • والحق حق مشاع بين الجميع • ومن الحق ما هو حق مرّ ويجب تلطيفه • وأنتم أدري وأبصر بعواقب اغضاء القلوب • فاطلب عرض الاقتراح وقراءته » • وهنا قام سكرتير المؤتمر فتلا نص الاقتراح ، وتكلم سوكت علي في شرحه ، ثم وافق المؤتمر على أن يحال الاقتراح على هيئة من العلماء ليروا رأيهم فيه • فقام الشيخ عبدالعزيز العتيقي وقال : « أريد التنبيه الى أننا لا نوافق على اتخاذ القبور أوثاناً ، وان الذي جرى ما مس رفاتنا وانما كان المساس بالاحجار » • فرد عليه الظواهري قائلاً : « معاذ الله أن يقول أحد أن المسلمين اتخذوا القبور أوثاناً ، ونريد أن لا يتشدد قوماً منا ويتغالون فيما لا فائدة فيه » •

انتهى المؤتمر دون أن يتوصل المشاركون فيه الى نتيجة حاسمة • وفي مساء اليوم الاخير من المؤتمر أقام ابن سعود وليمة للوفود ، وقد انتهز الظواهري الفرصة فألقى فيها كلمة طالب فيها باعادة بناء المآثر التي هُدمت باعتبار انها كانت مساجد بينما هي الآن تبول فيها الكلاب • وحين سمع ابن سعود هذا الكلام نهض وغادر المكان ... (٢٨)

يقول القنصل البريطاني في تقريره السري الى حكومته : المظنون ان المؤتمر كلف ابن سعود ما لا يقل عن العشرين ألف جنيه كان بعضها نفقات للوفود والبعض الآخر رشوات لهم • وذكر القنصل أن أعضاء

(٢٨) فخرالدين الظواهري (السياسة والازهر) - القاهرة ١٩٤٥ - ص ٢٤٠ - ٢٥٠ •

الوفود باستثناء القليل منهم قبضوا الرشوات من ابن سعود كل حسب أهميته . فالشيخ رشيد رضا مثلاً قبض ألفي جنيه ، وأمين الحسيني قبض ألفاً ، وأبو العزائم قبض ثلاثمائة . وكان قصد ابن سعود من ذلك أن يجتذب قلوبهم ويضمن دعاية حسنة له في بلادهم (٢٩) .

مأزق ابن سعود :

رأينا ابن سعود في المؤتمر يدافع عن الاخوان ويبرر أعمالهم ، ولكنه في أعماق نفسه لم يكن راضياً عنهم . ومن الممكن القول ان ابن سعود كان تجسأه الاخوان في مأزق ذي حدين ، وهو ما يسمى في الاصطلاح العلمي بالـ (Dilemma) ، أي الوقوف بين خيارين كلاهما سيء . . انه كان من جهة مديناً للاخوان بما قدموه له من تضحيات وما خاضوا في سبيله من حروب ، ولكنه كان من الجهة الاخرى رجل سياسة يسير وفق ما يمليه عليه فن الممكن ، وهو لذلك كان يرى في الاخوان حركة تعصية تثير المشاكل وتعرقل نمو الدولة . وقد يصح أن نقول بعبارة أخرى : ان ابن سعود كان يعاني صراعاً نفسياً تجاه الاخوان ، فهو لا يستطيع أن يتحمل تعصبهم من جهة ، ولا يستطيع أن يستغني عنهم من الجهة الاخرى .

قلنا ان ابن سعود لم يكن في أعماق نفسه راضياً عن الاخوان . والواقع أنهم هم أيضاً لم يكونوا راضين عنه . انهم كانوا منذ بدايته حركتهم ينتقدون ابن سعود لكونه يلبس العقال بدلاً من العمامة ويطيّل ناربته وملابسه . وكانوا كذلك ينتقدون المشايخ - أي علماء الدين النجديين - حيث يهتمونهم بأنهم مقصرون في دينهم يداهنون ابن سعود ويكتمون الحق عنه .

اتبع ابن سعود مع الاخوان في البداية مبدأ التسامح والتساهل ، فكان يقول دائماً : « ان الاخوان يجب احتمالهم . ومهما فعلوا فحالتهم الآن

(٢٩) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١١٤٤٢) .

خير من حالتهم الاولى * وأما العصية والشدة فالزمن كفيل بتخفيف
حدثها * وحين نصحه بعض أصحابه بوجوب الحد من غلو الاخوان
قال لهم : « هؤلاء أولادي وواجبي احتمالهم والتجاوز عن سيئاتهم وخطئهم ،
وبذل النصح لهم ، واني لا أنسى أعمالهم وأعتقد أنهم حسنو النية
وسينكشف الحق لهم » (٣٠) .

كان ابن سعود يظن ان الاخوان سيخف تطرفهم بمرور الزمن ،
ولكنه وجد أخيراً ان تطرفهم قد اشتد بدلاً من أن يخف * وفي عام
١٩١٤ اضطر ابن سعود الى عقد اجتماع لعلماء نجد للبحث في هذا
الأمر * وقد اجتمع العلماء في ٣٠ ايلول ، وبعد المناقشة أصدروا منشوراً
ينصحون الاخوان فيه بالاعتدال * وقد تضمن المنشور الأمور التي جرت
المناقشة حولها ، والتي اعتاد الاخوان تكفير الناس بها ، وهي خمسة نذكرها
فيما يلي :

الاول : هل يطلق الكفر على بدو المسلمين الثابتين على دينهم
القائمين بأوامر الله ونواهيه ؟ أم لا ؟

الثاني : هل من فرق بين لابس العقال ولابس العمامة اذا كان
معتقدهما واحداً ؟ أم لا ؟

الثالث : هل في الحضرة الأولين وفي المهاجرين الآخرين فرق ؟
أم لا ؟

الرابع : هل في ذبيحة البدوي الذي هو في ولاية المسلمين ، ودربه
دربهم ، ومعتقده معتقدهم ، وفي ذبيحة الحضرة الأولين أو المهاجرين فرق
حلال أو حرام ؟ أم لا ؟

الخامس : هل للمهاجرين أمر أو رخصة في اعتدائهم على الذين
لم يهاجروا ، فيضربونهم أو يؤذونهم أو يهددونهم أو يلزمونهم بالهجرة ؟
أم لا ؟ وهل لأحد أن يهجر أحداً ، بدوياً كان أو حضرياً ، بغير أمر

(٣٠) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) - ص ٢٩٣-٢٩٤ .

واضح أو كفر صريح أو شيء من الأعمال التي يجب هجره عليها بغير اذن من ولي الأمر أو الحاكم الشرعي ؟

وجاء في ختام المنشور ان العلماء أفتوا بما نصه : « ان كل هذه الأمور مخالفة للشرع وما أمرت به الشريعة ، وان الذي يفعلها ينهى عنها وينزجر ، فان تاب وأقر بخطئه فيُعفى عنه ، وان استمر على أمره وعاند فيجب عليه تأديب ظاهر بين المسلمين ، وان لا يعادي ولا يصادق الا على ما أمرت به الولاية أو حكم به حاكم الشرع • والذي يفعل ما يخالف ذلك فطريقته غير طريق المسلمين • وهذا الذي ندين به ونشهد الله عليه ، ونرجو أن يوفقنا وإياكم للخير ، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم - سنة ١٣٣٧ - الامضاءات والاختام » (٣١) •

وزع هذا المنشور في قرى الاخوان ، كما وزع معه منشور آخر موقع من ابن سعود ينصحهم باتباع ما افتى به علماء الدين باعتبارهم أعلم بالشريعة منهم • والظاهر ان هذين المنشورين لم يكن لهما أي تأثير جدي في الاخوان • وعلى أي حال فان الاخوان قد ازداد تطرفهم عند فتح الحجاز • يقول حافظ وهبة : ان تطرف الاخوان قد ازداد بعد فتح جدة واستسلام الحجاز كله ، وكثيراً ما كان ابن سعود يشتد عليهم ويتبرأ من غلوئهم ولكن تعديهم لم ينقطع وقسوتهم كانت مستمرة (٣٢) •

والواقع ان الاخوان لم يقفوا عند حد التدخل في شؤون الناس ، بل صاروا يتدخلون في شؤون ابن سعود نفسه • ففي شهر تشرين الاول ١٩٢٥ عندما كان السر جلبرت كلايتون يفاوض ابن سعود في بحرة بالقرب من جدة خرج مساعدوه يتمشون خارج المخيم ، وكان هناك جماعة من الاخوان يصلون ، فانبرى لهم رئيسهم وأخذ يهددهم ، وقال لهم انهم قد نجسوا الارض المقدسة التي كانوا يصلون عليها • ولما بلغ ابن سعود ذلك استدعى اليه رئيس الجماعة وأخذ يعنفه قائلاً : « بأي حق تكلم ضيوفي بهذه

(٣١) أمين الريحاني (المصدر السابق) - ص ٤٣٣ - ٤٣٤ •

(٣٢) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص ٣٢٧ - ٣٠٨ •

الطريقة ، وبأي حق تحتكر الأرض المقدسة لك ولأصحابك . أيها الكلب ، ان الأرض كلها لله ، وكلها للصلاة ، . ثم أمر بجلد الرجل ليكون عبرة لغيره (٣٣) .

وعندما بدأ ابن سعود يستعمل بعض المخترعات الحديثة في مكة ، كالتلفون والدراجة الهوائية استنكر الاخوان منه ذلك . فالدراجة فسي نظروهم تسير بقوة السحر وعمل الشيطان ، بدليل أن الراكب اذا نزل عنها لا تقف ، وهم يسمونها بـ « عربية الشيطان » أو « عربية ابليس » . وحدث مرة ان خادماً لابن سعود كان راكباً دراجة في حاجة له فأعترضه أحد الاخوان وضربه .

وحين أمر ابن سعود بمد أسلاك التلفون بين مكة ومعسكره خارجها أخذ الاخوان يقطعون الاسلاك بحجة أنها منكر يجب ازالته (٣٤) . وقد اضطر ابن سعود الى تأجيل مد الاسلاك بضعة أسابيع ، وظل يعمل في اقناعهم بأن التلفون ليس من عمل الشيطان بدليل انه ينقل آيات القرآن حين تتلى فيه مع العلم أن الشيطان يفر من تلاوة القرآن حسب معتقدهم . وقد اقتنعوا أخيراً بصحة ما قال ، وتم مد الاسلاك (٣٥) .

فيصل الدويش :

ان فيصل الدويش رئيس قبيلة المطير كان من أكثر الاخوان تطرفاً وتعصباً ، وكان أول من أعلن التذمر من ابن سعود حيث اعتبره متساهلاً في دينه ليناً مع الكفار . وقد ظهرت أولى بوادر تدمره في عيد الفطر من عام ١٣٤٣ هـ ، ويوافق ٢٥ نيسان ١٩٢٥ م . يقول حافظ وهبة : انه ذهب في ذلك اليوم هو وعبدالله الدملاجي لمعايدة حاكم مكة خالد بن لؤي ، فوجد عنده فيصل الدويش وجماعة من الاخوان ، وأخذ فيصل يتكلم كلاماً فيه معنى الانذار حيث قال : « نحمد الله يا خالد ويا الاخوان

(33) Armstrong (op. cit.) - P. 199 - 200.

(٣٤) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص ٢٩٣ .

(٣٥) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٧٤٢ .

على نعمته ، فقد دخلنا بلد الله الحرام وطررنا الشريف من هذا البيت •
اننا جند الله وخدام لدينه ، لا نريد الا أن تكون كلمة الله هي العليا
ودينه هو الظاهر ، ولا نريد الا رفع المظالم وازالة البدع والمنكرات • وان
هذا السيف وهذا الجند سيعمل هذا العمل في كل من يسير في طريق
الشريف ويعمل عمله • • فأمن الاخوان على كلامه (٣٦) ...

كان فيصل الدويش قد نيط به أمر حصار المدينة • فهاجم قرية
« العوالي » القريبة من المدينة ، وأخذ يقتل سكانها وينهبهم على عادته في
كل بلدة يفتحها • ويقال انه كان عازماً على هدم قبة النبي في المدينة حيث
وجه عليها مدافعه ، فقد كان يعتقد بأن هذه القبة لا تختلف عن غيرها
من القباب المقدسة ويجب هدمها • وهو كاد يفعل ذلك لو لم يتدارك أمره
ابن سعود ، فأوعز اليه بترك المدينة والعودة الى قريته « الارطاوية » •
ثم ناط أمر حصار المدينة بآبائه محمد •

عاد فيصل الى الارطاوية وهو حائق حاقداً على ابن سعود ، وصار يث
الاشاعات في قرى الاخوان متهماً ابن سعود بأنه باع نفسه الى الانكليز
الكفار • وأخذ يلتفت حوله الكثير من الاخوان المتذمرين مثله • وفي
خريف ١٩٢٦ عقد الاخوان المتذمرون في الارطاوية مؤتمراً لهم تعهدوا
فيه بنصرة دين الله والجهاد في سبيله ، وأعلنوا استنكارهم للأعمال التي
قام بها ابن سعود والتي هي في نظرهم مناقضة لدين الله ، وكانت سبعة
هي : (١) ارسال ولده سعود الى مصر • (٢) ارسال ولده الثاني فيصل
الى لندن بلد الشرك • (٣) استخدام السيارات والتلغرافات والتليفونات •
(٤) فرض الضرائب في نجد والحجاز • (٥) اذنه لعشائر العراق وشرقي
الأردن بالرعي في أراضي المسلمين • (٦) منع المتاجرة مع الكويت ، فاذا
كان أهل الكويت كفاراً حوربوا واذا كانوا مسلمين فلماذا مقاطعتهم •
(٧) التساهل مع روافض الاحساء والقطيف وعدم اجبارهم على الدخول
في دين أهل السنة والجماعة •

(٣٦) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص ٢٩٤ - ٢٩٥ •

كان ابن سعود في مكة حين وصلتته أخبار مؤتمر الارطاوية ، فأسرع عائداً الى الرياض ، واستدعى اليه رؤساء الاخوان لعقد مؤتمر يجتمعون فيه مع علماء الدين • وقد انعقد المؤتمر في ٧ كانون الثاني ١٩٢٧ وحضره فيصل الدويش وجميع التذمرين ما عدا واحداً منهم هو سلطان بن بجاد رئيس قبيلة عتيبة • وتكلم ابن سعود فقال عن نفسه انه مازال خادماً للشريعة يحافظ عليها كل المحافظة ، وأنه لم يتغير عما كان عليه من قبل كما يتوهم بعض الناس • وانهى المؤتمر بفتوى أصدرها العلماء يجيبون فيها على المسائل التي أثارها الاخوان • تنقل فيما يلي أهم جزء من الفتوى :

« أما مسألة البرقي - يقصدون التلغراف - فهو أمر حادث في آخر الزمان ، ولا نعلم حقيقته ، ولا رأينا فيه كلاماً لأحد من أهل العلم ، فتوقفنا في مسألته ، ولا نقول على الله ورسوله بغير علم ، والجزم بالاباحة والتحرير يحتاج الى الوقوف على حقيقته • وأما مسجد حمزة وأبي رشيد فأفتينا الامام ، وفقه الله ، بهدمهما على الفور • وأما القوانين فان كان موجوداً منها شيء في الحجاز فيزال فوراً ولا يحكم الا بالشرع المطهر • • • وأما الرافضة فأفتينا الامام ان يلزمهم البيعة على الاسلام ويمنعهم من اظهار شعائر دينهم الباطل ، وعلى الامام أيضاً أن يلزم نائبه على الاحساء ان يحضرهم عند الشيخ ابن بشر ويبايعوه على دين الله ورسوله وترك دعاء الصالحين من أهل البيت وغيرهم ، وعلى ترك سائر البدع من اجتماعهم على مآثمهم وغيرها مما يقيمون به مذهبهم الباطل ، ويمنعون من زيارة المشاهد ، وكذلك يلزمون بالاجتماع على الصلوات الخمس هم وغيرهم في المساجد ، ويرتب فيهم أئمة ومؤذنون من أهل السنة ، ويلزمون بتعليم ثلاثة الاصول ، وكذلك ان كان لهم محال مبنية لاقامة البدع تهدم ، ويمنعون من اقامة البدع في المساجد وغيرها • ومن أبى قبول ما ذكرسر ينفي من بلاد المسلمين • • • وأما رافضة العراق الذين انتشروا وخالطوا بادية المسلمين فأفتينا الامام بكفهم عن الدخول في مراعي المسلمين وأرضهم • وأما المكوس فأفتينا أنها من المحرمات الظاهرة فان تركها فهو الواجب عليه وان امتنع فلا يجوز شق عصا طاعة المسلمين والخروج

عن طاعته من أجلها • وأما الجهاد فهو محول الى نظر الامام وعليه أن يراعي ما هو الأصلح للإسلام والمسلمين على حسب ما تقتضيه الشريعة الفراء • ونسأل الله لنا وله ولهم ولكافة المسلمين التوفيق والهداية ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم • حرر في ٨ شعبان سنة ١٣٤٥ هـ ، (٣٧) •

حاول ابن سعود تنفيذ هذه الفتوى ترضية للاخوان ، وكان من جملة ما فعله من أجل ذلك انه أمر بهدم مسجد حمزة الواقع عند جبل أحد بالقرب من المدينة وهو مشيد على قبر حمزة عم النبي • وكذلك أمر بالتضييق على شيعة الاحساء والقطيف ، فهم كانوا قبلئذ يقومون بشعائهم الحسينية في داخل دورهم وحسينياتهم ، فمنعوا من ذلك منعاً باتاً وأغلقت حسينياتهم • وقد شمل هذا المنع أيضاً الشيعة الذين يسكنون في حارة النخالة في المدينة •

الاخوان يهاجمون العراق :

في عام ١٩٢٧ قررت الحكومة العراقية بالتفاهم مع الحكومة البريطانية اقامة مخافر للشرطة مجهزة باللاسلكي والسيارات المصفحة بالقرب من الحدود النجدية للاشراف على تنقلات البدو ومنع الغزو • وفي تشرين الاول بدأ ببناء أول مخفر في موضع يدعى « البصية » يقع على بعد ١٢٥ كيلو متراً من حدود نجد • وحين بلغ ابن سعود ذلك تخوف منه ، وظن أن الملك فيصل انما يبني تلك المخافر بالتفاهم مع الانكليز ليجعلها حصوناً أمامية في الصحراء تمهيداً لغزو بلاده في المستقبل •

وفي مساء ٥ تشرين الثاني هاجمت جماعة من الاخوان مخفر « البصية » وكان لا يزال قيد الانشاء ، فقتلوا عدداً من العمال والشرطة الذين كانوا فيه ، ثم عادوا من حيث أتوا • وتقدر المصادر البريطانية عدد القتلى بعشرين كان من بينهم امرأة واحدة (٣٨) •

(٣٧) المصدر السابق - ص ٢٩٦ - ٢٩٧ •

(38) Report on Iraq Administration, 1927, London 1928, P. 57.

ضج الرأي العام العراقي لهذا الاعتداء ، واضطربت الحكومة العراقية • وأرسل المندوب السامي السر هنري دوبس احتجاجاً على ابن سعود ، فأجاب ابن سعود يقول بأن غزو الإخوان سببه « القصر المشؤوم » - يقصد به مخفر البصية - فهو لم يشيد الا لايقاد الفتنة وايجاد الشرور ، وقد أدى تشييده الى اثاره الاخوان بحيث أصبح من الصعب السيطرة عليهم وكبح جماحهم • وأبدى ابن سعود أسفه لما وقع ووعد بمنع الغزو بكل الوسائل المتيسرة لديه ، ولكنه طالب بهدم المخفر وقال : ان أهل نجد يفضلون أن يغزوهم أهل العراق كل صباح ومساء ولا يرضون ببناء « قصر » واحد (٣٩) ***

صار الاخوان يشنون غاراتهم على العشائر العراقية ، ويعيثون فيها نهباً وتقتيلاً • وغضب السر هنري دوبس ، وهو المعروف بسرعة الغضب ، فأبرق الى حكومته في لندن يطلب منها فرض الحصار على ابن سعود لكي يقوم بتأديب المعتدين ودفع التعويضات عن القتلى • ولكن الحكومة البريطانية لم توافق على هذا الاقتراح • فقدم اليها دوبس اقتراحاً آخرأ هو أن تقوم الطائرات بالقاء المنشورات على البادية تنذر الاخوان بالابتعاد عن الحدود العراقية بمسافة اربعمائة ميل ، فاذا رفضوا الانصياع لهذا الطلب فان الطائرات تقصفهم بالقنابل • وقد وافقت الحكومة البريطانية على هذا الاقتراح •

وفي منتصف كانون الثاني ١٩٣٨ بدأت الطائرات الانكليزية تلقي المنشورات على البادية ، فلم يعرھا الاخوان أي اهتمام ، أو لعلهم لسم يفهموها • وفي شهر شباط بدأت الطائرات بقصف تجمعات الاخوان وقراهم • وقد أحدث هذا القصف جدالا في مجلس العموم البريطاني حيث وجهت الاسئلة الى وزير المستعمرات عن الاسباب التي دعت الى قصف الطائرات للاراضي السعودية ، فرد الوزير قائلاً ان ابن سعود قد

(٣٩) صادق حسن السوداني (العلاقات العراقية السعودية) - بغداد

١٩٧٥ - ص ٢٧١ •

أعلن بأنه لم يعد يسيطر على رعاياه (٤٠) ...

يقول حافظ وهبة : انه كان حينذاك في مصر فأبرق اليه ابن سعود في ٢٤ شباط ١٩٢٨ قائلاً : « الحالة في نجد مضطربة لأن العهود نقضت من قبل العراق • الطائرات ضربت الحدود في الشرق والغرب ، الانسانية لم تحترم ، الحالة خطيرة جداً ، والهمة مبذولة لتسكين الاحوال ، والنتيجة مجهولة (٤١) » .

نلاحظ هنا ان ابن سعود يقول : « الانسانية لم تحترم » ، فهو ينسى ما فعل الاخوان من تقتيل ونهب بينما هو يذكر ما فعلت الطائرات بهم من قصف • وهذا هو ديدن البشر دائماً حين يتخاصمون ، اذ هم ينسون الاعتداء الذي وقع منهم بينما هم يبالغون في ذكر الاعتداء الذي وقع عليهم •

مؤتمر الرياض :

ان قصف الطائرات وضع ابن سعود بين نارين : نار الانكليز ونار الاخوان • أولئك يطلبون منه ردع الاخوان ومنعهم من الغزو ، وهؤلاء يطلبون منه اعلان الجهاد على الكفار • وقد وجد ابن سعود أخيراً أن من الافضل له أن يتفاوض مع الانكليز بدلا من محاربتهم • وبعد مفاوضات معهم تم الاتفاق على التفاوض معهم في جدة في أيار ١٩٢٨ • ارتأى ابن سعود أن يجتمع برؤساء الاخوان قبل التفاوض مع بريطانيا لطمأنتهم وتهديتهم • فاجتمع بهم في شهر نيسان في بلدة بريدة وأفهمهم أنه يشاركهم في السخط على بناء المخافر على الحدود ولكنسه بمصل حل المشكلة عن طريق المفاوضات • وأخبرهم أنه مسافر الى جدة للالتقاء بالمفاوض البريطاني ، ووعدهم بالاجتماع بهم مرة أخرى فسي الرياض بعد عودته من جدة لاطلاعهم على نتيجة المفاوضات (٤٢) •

(٤٠) عبدالله فيلبي (تاريخ نجد) - ترجمة عمر الديراوي - بيروت - ص ٣٥٩ •

(٤١) حافظ وهبة (خمسون عاما في جزيرة العرب) - ص ٩١ •

(٤٢) حافظ وهبة (جزيرة العرب في القرن العشرين) - ص ٢٩٧ •

جرت المفاوضات في جدة مرتين ، أولاها في أيار والثانية في آب .
وكان يمثل الجانب البريطاني فيها السر جلبرت كلايتون . وقد شارك
فيها في المرة الثانية توفيق السويدي وبهاء الدين نوري ومعهما أحمد حامد
الصراف بصفته كاتباً . وكان مصير المفاوضات في المرتين فاشلاً .

غادر ابن سعود جدة بعد هذا الى الرياض لكي يجتمع بالاخوان
حسب وعده لهم . وحين وصلها دعى الاخوان الى مؤتمر يحضرونه مع
المشايخ أي علماء الدين . وقد انعقد المؤتمر في ٢٥ تشرين الاول ١٩٢٨ ،
وحضره نحو ثمانمائة شخص ، ولكن ثلاثة من رؤساء الاخوان لسم
يحضروه هم فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن خيلين ، غير
أنهم أرسلوا بعض أبناءهم وأقرباءهم ليحضروه بالنيابة عنهم .

افتتح ابن سعود المؤتمر قائلاً : « لا يخطرن ببال أحد منكم أن الخوف
منكم هو الذي حملني على عقد هذا الاجتماع . اسمعوا ، لقد بنيت ملكي
بعون الله وقوة ساعدي ، وهو جلت قدرته قد منحني النصر ، وان خوفي
منه وحده هو الذي حملني على جمعكم هنا لاستير بأرائكم ونقضي أمره
بيننا بالشورى ، فلا يملكني ما يملك بني البشر من غرور و صلف » .
ثم أخذ ابن سعود يتحدث عن فضله عليهم اذ هم كانوا متفرقين يقتل بعضهم
بعضاً ، وينهب بعضهم من بعض ، فوحدهم وجعل منهم أمة عظيمة قوية .
ثم قال : ان الكثيرين منهم غير راضين عنه ، وأنه قد بلغه عنهم شكاوي
كثيرة ، ولكنه ليس من الذين يتنازلون عن ملكهم تحت الضغط والاكراه
وهو كذلك لا يرغب في حكم رعية غير راضية عنه . وهو لذلك يعرض
عليهم ان يختاروا أي واحد من أفراد أسرته ليكون ملكاً عليهم ، وهو
يتعهد أمام الله أن يحمل هذا الرجل الى العرش ، ويخدمه بأمانة واخلاص .
وعند هذا ارتفعت الاصوات من الحاضرين : « لا .. لا .. لا تريد ملكاً
سواك يا عبد العزيز ! » (٤٣) .

(٤٣) صلاح الدين المختار (تاريخ المملكة العربية السعودية) - بيروت
- ج ٢ ص ٤٤٢ .

وبعد هذا عرض عليهم أن يتكلموا بصراحة عن كل ما يشكون منه ،
وتعهد لهم بأنه سوف لا يلوم أو يعاقب أحداً على ما يقول • فبدأوا يعرضون
شكاويهم ، وذكروا منها علاقته بالكفار و صداقته مع الانكليز واستعمال
مخترعاتهم الشيطانية كالسيارات و « الأتال » - أي التلفون والتلغراف -
وتساهله تجاه المخافر التي بنىها الكفار على الحدود ومنع المسلمين من
الجهاد لاعلاء كلمة الله ونصر دينه •

رد ابن سعود على شكاويهم بالتروي وعلى قدر عقولهم ، وذكر لهم
أنه لا يحب الكفار أو النصارى أو الانكليز ولكنه وجد في صداقتهم
مصلحة للمسلمين ، وكانت سياسته معهم أن يستحصل منهم كل ما هو
ممكن من فائدة للمسلمين الحقيقيين ، فهو يستعمل معهم سياسة « خذ
واعط » ولكن فيصل الدويش هو الذي أربك الوضع عليه (٤٤) •

ثم تطرق ابن سعود الى « الأتال » فقال : ان الشريعة الاسلامية ليس
فيها ما يمنع استعمالها ، وانها ليست من السحر أو عمل الشيطان • والتفت
الى المشايخ الحاضرين سائلاً لهم : هل تجدون في أقوال النبي ما يعارض
الانتفاع بهذه المخترعات الحديثة ؟ فأجاب المشايخ : كلا (٤٥) •

وحين جرى النقاش حول المخافر قال ابن سعود انها انما بُنيت لمنع
التعديات التي قام بها فيصل الدويش على العراق فان فيصل هو السبب
وعليه تقع التبعة • فأعلن الحاضرون براءتهم من فيصل الدويش ، وذكروا
أنهم قطعوا علاقتهم به ، ولكنهم ظلوا مصرين على وجوب هدم المخافر •
وقد أيدهم المشايخ في ذلك وأفتوا أن المخافر مضرّة بالمسلمين والعرب
وخاصة بسكان نجد ، وأن هدمها هو من باب دفاع المسلم عن ماله ودينه •
فقال ابن سعود : ان ما أفتى به المشايخ هو حق ، وأنه هو نفسه يعتقد
بأن المخافر خطر على المسلمين ، ولكنه يرغب في أن تكون المناقشة حول

(٤٤) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف ١٠٠٧١ - ١٣٧١٣) •

(٤٥) عمر ابو النصر (ابن سعود) - بيروت ١٩٣٥ - ص ١٠٥ •

هذا الموضوع وحول موضوع الجهاد في اجتماع خاص ، وطلب منهم ان يختاروا خمسين رجلاً منهم لكي يوضح لهم الأمور كلها فوافق الحاضرون على ذلك ، وجددوا البيعة له (٤٦) .

وعلى أثر انفضاض المؤتمر عُقد اجتماع خاص مساءً بعد صلاة العشاء ، حضره الخمسون الذين اختيروا للمداولة مع ابن سعود . واستمرت المداولة من الساعة الثانية بعد الغروب حتى السادسة . ولا نعرف ما جرى فيها ، والمظنون ان ابن سعود استطاع أن يقنعهم بأن جهاد الكفار لا يجوز ان يكون مطلقاً بل يجب ان يكون ضمن حدود الطاقة والمقدرة لدى المسلمين والاّ حلت بهم الكارثة . فخرجوا من عنده راضين .

ثورة الاخوان :

ان النتيجة التي انتهى اليها مؤتمر الرياض لم يرض عنها رؤساء الاخوان الثلاثة فيصل الدويش وسلطان بن بجاد وضيدان بن خثيلين ، فصاروا ينشرون الاشاعات السيئة في قرى الاخوان ضد ابن سعود متهمين اياه بهدم الدين وموالاته الكفار وطلب الملك ، وأخذوا يقطعون الطرق على القوافل ويفرضون الاتاوة على القرى ويهاجمون عشائر العراق ونجد .

كان عدد الاخوان الثائرين نحو خمسة آلاف رجل ، فأعد ابن سعود جيشاً كبيراً لقتالهم بلغ عدد رجاله خمسة عشر ألف . وتقابل الفريقان في موضع يدعى « السبلة » يقع قريباً من الزلفي الى الشرق من بريدة . وقبل أن يبدأ القتال بينهما أرسل الاخوان الى ابن سعود رسولاً اسمه ماجد بن خثيلة ومعه كتاب . وحين دخل الرسول على ابن سعود لم يسلم عليه ، فغضب ابن سعود من هذه الاهانة ، وقال للرسول مؤنباً : « من أنت ؟ ألسنت ماجد بن خثيلة ... » ، ثم أخذ يسرد عليه تاريخه مع التقريع ، ثم قال له : « أتدخل عليّ ولا تسلم ؟ ! اذهب من فورك الى

(٤٦) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف.أو. ٣٧١-١٣٧١٣) .

من أرسلك وأخبره أننا قادمون للهجوم عليهم غداً ، فإذا أرادوا أن يحققوا
دماءهم فليستسلموا بلا قيد ولا شرط ، والشريعة هي الحكم بيني وبينهم ،
وهؤلاء العلماء حاضرون • قم واذهب الى رفيقك • •

عاد الرسول الى الاخوان ينصحهم بتقديم خضوعهم الى ابن سعود
قبل فوات الاوان • فارتأى فيصل الدويش أن يذهب بنفسه الى ابن سعود
ليرى مبلغ قوته • وحين دخل فيصل على ابن سعود أخذ يتملقه وأظهر
استعداده للتسليم وانه سيقضي الليلة عنده ، ولكن ابن سعود قال له :
« قم فقم عند قومك وموعدكم غداً بعد شروق الشمس • • • » • وعاد
فيصل الى أصحابه ، فلما سأله بعضهم عما رأى من قوة ابن سعود أجابهم
قائلاً : « ماذا رأيت ! رأيت حضرياً ترتعد فرائضه من الخوف ، وليس
حوله الا طبايخ لا يعرفون الا النوم على الدواشج • ابشروا يا اخوان ،
لقد وجدت لديهم حلالاً كبيراً وأموالاً عظيمة • فابشروا بالكسب
والغنيمة • وسنقهر هذا الطاغوت غداً ونستولي على ماله » (٤٧) •

وقعت المعركة بين الفريقين في صباح اليوم التالي - ٣٠ آذار ١٩٢٩ -
واستمرت بضع ساعات ، وانتهت بهزيمة الاخوان • ويبدو أن من عوامل
هزيمتهم هو وجود علماء الدين الى جانب ابن سعود ، فهذا لا بد أن يؤدي
الى الوهن في عزيمة الاخوان ويقلل من فدائيتهم وحماسهم الديني •

كان فيصل الدويش قد أصيب بجروح شديدة في المعركة ، فجيء
به الى ابن سعود محمولاً على نقالة من سعف النخيل وكانت تحيط به
زوجته وبناته وهن يبكين ويستشفعن فيه • فتأثر ابن سعود من هذا المنظر
وعفا عنه ، وأوعز بنقله الى بيته في الأرطاوية ، كما بعث طبيبه الخاص
مدحت شيخ الأرض لمعالجته •

وبعد ثلاثة أيام استسلم سلطان بن بجاد الى ابن سعود ، فأمر ابن

(٤٧) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص ٢٩٩ - ٣٠٠ •

سعود بتقديمه الى محكمة مؤلفة من قضاة الشرع ، فحكمت عليه بالسجن المؤبد في قلعة الرياض • أما ضيدان بن حثيلين فقد تمكن من الفرار الى الكويت •

القضاء على الاخوان :

سافر ابن سعود الى الحجاز لحضور موسم الحج الذي حل في شهر أيار ولكن اقامته في الحجاز لم تطل كثيراً ، فقد بلغه ان فيصل الدويش شفي من جراحه وأعلن الثورة من جديد • فعاد ابن سعود مسرعاً الى الرياض في شهر تموز وهناك أعد قواته وكان فيها سيارات مجهزة بالرشاشات • وتوجه بها نحو فيصل الدويش •

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد ان فيصل الدويش كتب في ١٥ كانون الاول ١٩٢٩ الى الملك فيصل في بغداد يخاطبه بـ « سلطان المسلمين » ويدعوه للتعاون معه في محاربة ابن سعود • وكذلك كتب الى الكاتبين كلوب مفتش البادية الجنوبية في العراق مبدياً رغبته في أن يكون من رعايا الحكومة العراقية وتحت تصرفها (٤٨) •

في أوائل كانون الثاني ١٩٣٠ وقعت المعركة الفاصلة بين ابن سعود و فيصل الدويش في موقع قريب من الحدود الكويتية العراقية • وحلت الهزيمة بـ فيصل فصر مع بعض أصحابه الى داخل حدود العراق ، واستسلموا للانكليز • فنقلهم الانكليز الى الشعبية • وبعد مفاوضات جرت بين ابن سعود والانكليز قرر الانكليز تسليم فيصل الدويش وأصحابه الى ابن سعود على شرط أن يبقى على حياتهم وأن يتعهد بتسليم المنهوبات التي نهبها من أهل الكويت والعراق (٤٩) •

وفي ٢٨ كانون الثاني نُقل فيصل الدويش وأصحابه بطائرة الى ابن سعود الذي كان مخيماً في موضع يدعى « خباري وضحة » على بعد مائة

(٤٨) صادق حسن السوداني (المصدر السابق) - ص ٣٠٨ - ٣٠٩ •

(٤٩) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص ٣٠٣ •

ميل من جنوب الكويت • وجيء بفصيل في سيارة الى خيمة ابن سعود ،
وكانت اللعنات تنصب عليه من الجانبين أثناء نقله • فشكر ابن سعود الضباط
البريطانيين الذين جاؤا معه ، كما شكر الحكومة البريطانية على صداقتها
ومودتها ، وقال : « انها في كل يوم تقيم له برهانا جديداً على مودتها
الوطيدة » •

وبعد أن انصرف الضباط تقدم فيصل الدويش نحو ابن سعود وهو
ذليل ، فخطبه ابن سعود قائلاً : « أنت تعلم يا فيصل ما عملت معك في
الماضي ، ما قصرت في شيء نحوكم ، لقد كنت في حرب دائمة مع أهل
نجد من أجلكم ، فهل هذا جزائي منكم ؟ هل كنتم تريدون الملك ؟ لقد
كنتم ملوكاً في الجهات التي كنتم فيها • من منكم له الفضل عليّ ؟ الفضل
لله وحده • من منكم لم آخذه بسيفي ؟ ليس منكم الا من قتل أباء أو
أخاء ، ولم أخضعكم الا بالله ثم بالسيف • قد كنت أنفذ رغائبكم ، فكنت
أشقي لأجلكم ، وأواصل الليل والنهار لراحتكم وسعادتكم • ألا تخاف
الله حينما تكتب لجلوب - يقصد الكابتن كلوب - أنك تريد الهجرة للعراق
وأنت تحب أن تكون تابعاً له ؟ فهل تظن أنك كنت ستكون في منزلة أعلى
من منزلتك التي كنت عندي فيها ؟ » •

أجابه فيصل : « يعلم الله يا عبدالعزيز أنك لم تقصر معنا وقد فعلت
كل ما يبيض وجهك ، وقد قابلنا معروفك بالاساءة ، لقد فررنا من وجهك
الى الكفار ، فحملونا اليك في طيارة من طياراتهم • ويكفي ما أشعر به من
الهوان والصغار أمام الاخوان بعد ما كنت عزيزاً محترماً • قاتل الله
الشیطان ، لقد أغرانا وزين لنا سوء أعمالنا فأوصلنا الى ما أصبحنا فيه
الآن » (٥٠) •

نقل فيصل الى الرياض في سيارة ، وقدم الى محكمة شرعية
كصاحبه سلطان بن بجاد ، فحكمت عليه المحكمة بالسجن المؤبد في قلعة

(٥٠) المصدر السابق - ص ٣٠٣ - ٣٠٤ •

الرياض • وبعد بضعة أشهر مات فيصل في سجنه ، كما مات صاحبه ابن بجناد •

كان ذلك ايذاناً بانتهاء حركة الاخوان ، تلك الحركة التي أثارت دهشة الناس بأمريين : بفدائيتها في الحرب وتعصبها الشديد في السلم • يقول فيليبي « لقد كان خلق ابن سعود لحركة الاخوان في سنة ١٩١٢ ضربة معلم عبقرى لا يوازيها غير تصفيته لهذه الحركة بعد ثمانية عشر عاماً حينما ثبت لديه أننا لم تعد الاّ عقبة كأداء في سبيل استقرار الاوضاع التي بناها بطول صبره وجهده • فلقد كان يمكن لهذه الحركة التي أوجدها ابن سعود من العدم أن تدمره وتتهكه لو لم يبادر هو الى تدميرها بنفسه » (٥١) •

دل التاريخ على أن معظم بناء الدول يقتلون من ساعدتهم على بنائها ، وسبب ذلك أن أولئك المساعدين يريدون أن يشاركوا الباني في ثمرة بنائه ، بينما هو لا يريد أن يتنازل لهم عن تلك الثمرة ، فينشب النزاع بينهم ، وقد ينتهي النزاع الى القضاء على أولئك المساعدين • وقد صدق من قال : « السياسة لا قلب لها » •

مشكلة المشايخ :

بعد الانتهاء من القضاء على حركة الاخوان قال ابن سعود معبراً عن ابتهاجه : « من اليوم سنحيا حياة جديدة » • انه في الواقع بدأ حياة جديدة ، حيث صار يفتح المدارس الحديثة في بلاده ، وأنشأ جيشاً نظامياً من الحضر تحت اشراف بعض الضباط العرب من بقايا الجيش العثماني ، كما استورد السيارات وأجهزة اللاسلكي لربط أنحاء مملكته الواسعة • وقد عاونه في ذلك فيليبي معاونة كبيرة •

ان هذه الحركة التجديدية التي قام بها ابن سعود جوبهت بمعارضة

(٥١) عبدالله فيليبي (المصدر السابق) - ص ٣٦٧ - ٣٦٨ •

من المشايخ أي علماء الدين التجديدين • فهو قد تخلص من معارضة الاخوان لبيتلي من جديد بمعارضة المشايخ • ولكن معارضة المشايخ تختلف عن معارضة الاخوان بكونها هادئة تخلو من العنف أو التدخل في شؤون الناس •

أول بادرة من معارضة المشايخ ظهرت في حزيران ١٩٢٨ ، وذلك عندما فتح ابن سعود بعض المدارس الابتدائية في الحجاز • فقد قامت ضجة بين المشايخ من جراء ذلك ، وعقدوا اجتماعاً لهم في مكة وضعوا فيه قراراً يحتجون فيه على فتح تلك المدارس لما يجري فيها من تعليم الرسم أولاً ، وتعليم اللغات الاجنبية ثانياً ، وتعليم الجغرافيا ثالثاً •

أرسل ابن سعود اليهم حافظ وهبة لكي يباحثهم في الموضوع • وحين اجتمع بهم حافظ أخذوا يذكرون له الاسباب التي دعتهم الى تحريم الرسم واللغات الاجنبية والجغرافيا ، حيث قالوا : « • • • لقد بينا للامام عبدالعزيز الأدلة والمفاسد التي تترتب على هذه العلوم • أما الرسم فهو التصوير وهو محرم قطعاً • وأما اللغات فانها ذريعة للوقوف على عقائد الكفار وعلومهم الفاسدة ، وفي ذلك ما فيه الخطر على عقائدنا وعلى اخلاق أبنائنا • وأما الجغرافية ففيها كروية الارض ودورانها والكلام على النجوم والكواكب مما أخذ به علماء اليونان وأنكره علماء السلف » •

أخذ حافظ وهبة يجادلهم في هذا الموضوع ويذكر لهم الأدلة التي تبيح تعليم الرسم واللغات والجغرافيا • ولما رأى المشايخ أن الجدل قد طال قالوا : « لقد قررنا ما نعتقد ورفعناه الى الامام ، ولسنا في حاجة الى الجدل المنهي عنه شرعاً • فان قبل الامام ما رأينا فالحمد لله ، وان خالفنا فليست هذه أول مرة يخالفنا فيها » (٥٢) •

وبعد أن انتهت مشكلة المدارس بدأت مشكلة اللاسلكي • فقد اعترض

(٥٢) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ١٢٦ - ١٢٧ •

المشايخ على هذا الاختراع اعتقاداً منهم أنه لا بد أن يكون من السحر وعمل الشيطان ، ودليلهم في ذلك ان اللاسلكي ينقل الخبر بين مكة والرياض في لحظة واحدة مع العلم أن الابل تقطع المسافة بينهما في عشرين يوماً . وهذا عمل لا يمكن أن يقوم به البشر الا بمعونة الشيطان ، وهم لا بد أن يقدموا للشيطان قرباناً لقاء خدمته لهم .

عندما أنشأت أول محطة للاسلكي في الرياض ، أخذ بعض المشايخ يذهبون الى المحطة ويسألون العامل فيها عن موعد زيارة الشياطين ، وهل الشيطان الكبير في مكة أو الرياض ، وكم عدد أولاده الذين يساعدونه في مهمة نقل الاخبار ؟ وكان بعض المشايخ يغرون العامل بالنقود ويتعهدون له بكتمان السر اذا أفشاه لهم .

ويحدثنا حافظ وهبة عن محاورة جرت بينه وبين أحد المشايخ حول اللاسلكي في المدينة ، فقال الشيخ : « لا شك ان هذه الاشياء ناشئة عن استخدام الجن ، وقد أخبرني ثقة ان التلغراف اللاسلكي لا يتحرك الا بعد أن تذبح عنده ذبيحة ويذكر عليها اسم الشيطان » . ثم أخذ الشيخ يذكر بعض القصص عن استخدام بني آدم للشيطان . وقد حاول حافظ وهبة اقناعه بان اللاسلكي اختراع فيزيائي لا صلة له بالجن والشيطان ، ولكنه لم ينجح في اقناع الشيخ ، بل سكت الشيخ على مضض (٥٣) .

ظل المشايخ يستنكرون المخترعات الحديثة التي ترد الى البلاد ، فاستنكروا الحاكي والسينما والانوار الكشافية والطائرات . فهم يعتقدون في الطائرات مثلاً ان ركابها يتحدون ربهم بها (٥٤) . وحين بدأ الامر يكون ينقبون عن النفط في منطقة الظهران قال المشايخ لابن سعود . « لا يجوز دخول الكفار الى داخل البلاد لانهم يفسدون الرجال والنساء ويدخلون

(٥٣) المصدر السابق - ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٥٤) عبدالله فيلبي (المصدر السابق) - ص ٣٥٦ .

الخمر والفونوغراف وما شاكل ذلك من الامور الشيطانية الى داخل البلاد (٥٥) ، .

كان ابن سعود يدار بهم أحيانا ويتغافل عنهم أحيانا أخرى . اعترضوا عليه في ١٩٣٠ لانه أذن باقامة الاحتفالات بمناسبة عيد جلوسه على عرش الحجاز اذ اعتبروها مخالفة للسنة ، فنزل ابن سعود عند رأيهم وألغى الاحتفالات (٥٦) . وحدث مثل هذا في عام ١٩٥٠ عندما قررت الحكومة السعودية الاحتفال بمناسبة مرور خمسين سنة على فتح الرياض ، فقد صدر بيان من وزارة الخارجية السعودية هذا نصه : « كانت الحكومة قد قررت الاحتفال بالذكرى الذهبية لدخول جلالة الملك الى الرياض منذ ٥٠ سنة ، وقد استفتي علماء الدين مؤخرا في ذلك ، فافتوا بأنه ليس من سنن المسلمين ولا يجوز أن يتخذ المسلمون عيداً الا في عيدي الفطر والاضحى . ونزولاً من جلالته على حكم الشريعة أمر بالغاء المراسيم والترتيبات (٥٧) ، .

ويروى أن أحد المشايخ دخل على ابن سعود في قصره في الرياض ، وهو يتمشى وعليه ثوب طويل يمس الارض ، فقال له : « الله الله يا عبد العزيز ! لقد دخلك الكبر ، وصرت تجر ذيلك وراءك ! » . فالتفت ابن سعود نحو الخدم وقال : « هاتوا المقص ! » . فلما جاؤوا به أعطاه السي الشيخ وقال له : « قص ما تراه مخالفا للدين (٥٨) » . ويروي أرمسترونج قصة مشابهة مفادها ان أحد المشايخ جابه ابن سعود ذات يوم على مشهد من الناس قائلاً له : ان شواربك طويلة أكثر مما تجيزها السنة . فتقبل ابن

(٥٥) أمين المميز (المملكة العربية السعودية كما عرفتھا) - بيروت ١٩٦٣ - ص ٢٢٩ .

(٥٦) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص ٢٨٤ .

(٥٧) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٧٤٢ - ٧٤٤ .

(٥٨) المصدر السابق - ج ٢ ص ٧٤٤ .

سعود ذلك برحابة صدر ، وطلب مقصا ثم قص شواربه في الحال (٥٩) .

بدو أن ابن سعود كان يصبر على انتقادات المشايخ له حين تكون تلك الانتقادات شخصية بسيطة حيث يجد من اللباقة السياسية أن يستجيب لها لتحسين سمعته بين الناس . انما هو لا يصبر عليها حين يراها تضر بمصلحة الدولة ومستقبلها . يروي حافظ وهبة : أن بعض كبار المشايخ اجتمعوا ذات يوم في عام ١٩٣١ بـ ابن سعود وأخذوا يلومونه على ادخاله اللاسلكي في بلاده حيث قالوا له : « ما طويل العمر ، لقد غشك من أنسار عليك باستعمال التلغراف وادخاله الى بلادنا ، وان فيلبي سيجر علينا المصائب ونخشى أن يسلم بلادنا للانجليز » . فرد عليهم ابن سعود قائلاً : « لقد أخطأتم ، فلم يغشنا أحد ، ولست - ولله الحمد - بضعيف العقل ، أو قصير النظر ، لاخدع بخداع المخادعين ، وما فيلبي الا تاجر وكان وسيطا في هذه الصفقة ، وان بلادنا عزيزة علينا لا نسلمها لاحد الا بالتمن الذي استلمناها به . اخواني المشايخ ، اتم الآن فوق رأسي ، تماسكوا بعضكم ببعض لا تدعوني أهز رأسي فيقع بعضكم أو اكركم ، وأتم تعلمون أن من وقع على الارض لا يمكن أن يوضع فوق رأسي مرة ثانية . مسألتان لا أسمع فيها كلام أحد لظهور فائدتها لي ولبلادي ، وليس هناك من دليل من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله وسلم يمنع من احداث اللاسلكي والسيارات (٦٠) » .

ومن الطرائف التي تروى في هذا الصدد ان جماعة من البريطانيين زاروا ابن سعود في قصره في الرياض ، وبينما هم في القصر حل وقت الصلاة ، فقام ابن سعود وحاشيته يصلون خلف امام لهم . فقرأ الامام في الركعة الاولى هذه الآية : « ولا تركنوا الى الذين كفروا فتمسكم النار » . ثم أعاد قراءة الآية في الركعة الثانية ، ولما انتهت الصلاة زحف ابن سعود

(59) Armstrong (op. cit.) - P. 208.

(٦٠) حافظ وهبة (المصدر السابق) - ص ٢٨٧ .

من مكانه نحو الامام وأشبعه وخزا وركلا وهو يؤنبه قائلا : « مالك بالسياسة يا خبيث ، وما الذي تقصده من ترديد هذه الآية في كل ركعة ؟ أنلا توجد آيات غيرها ؟ » (٦١) .

اجتماع لوبن :

على أثر القضاء على حركة الاخوان أخذ المندوب السامي الجديد في بغداد السر فرنسيس همفريز يبذل جهده للجمع بين فيصل بن الحسين وابن سعود واحلال الصفاء بينهما بدلا من الخصام . وبعد مفاوضات كثيرة تم الاتفاق على أن يجتمع الملكان على ظهر بارجة بريطانية في مياه الخليج العربي .

غادر الملك فيصل بغداد بقطار خاص في ٢٠ شباط ١٩٣٠ تصحبه حاشية مؤلفة من ناجي السويدي وكورنواليس ورستم حيدر وعبدالله المتصايفي و خليل اسماعيل والكابتن كلوب والدكتور سندرسن مع مرافقين وكاتب وهصور . وكان في صحبته أيضا أربعة صحفيين هم : رفائيل بطي عن جريدة « البلاد » ، والمستر كرمي عن جريدة « الاوقات العراقية » ، وسليم حسون عن جريدة « العالم العربي » ، وعبدالرزاق الحسيني عن جريدة « الاهرام » المصرية .

كانت البارجة البريطانية « لوبن » راسية في مياه الخليج على بعد خمسة عشر ميلا من الفاو ، وفيها السر فرنسيس همفريز مع حاشيته . وبعد قليل اقتربت منها باخرتان احدهما تحمل فيصل ، والاخرى تحمل ابن سعود . وكانت حاشية ابن سعود مؤلفة من حافظ وهبة ويوسف ياسين وعبدالعزیز القصيبي والدكتور مدحت شيخ الارض والكاتبين محمد المانع وابراهيم المعمر . ولوحظ وجود مائة وخمسين رجلا مسلحا مع ابن سعود لحمايته (٦٢) .

(٦١) أمين المميز (المصدر السابق) - ص ٦٠٩ .

(٦٢) صادق حسن السوداني (المصدر السابق) - ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

كان ابن سعود قد اشترط لاجتماعه بفصل شرطين ، أولهما : ان يكون الحديث بينهما قاصرا على تصفية الجو ، وابداء المودة والصداقة ، دون التطرق الى مسائل الخلاف بين الحكومتين • والثاني : أن يكون الاجتماع خاليا من الموسيقى ومن التدخين • وكانت الحكومة السعودية قد أبلغت هذين الشرطين الى المندوب السامي في بغداد السر فرنسيس همفريز ، والى رئيس الوزارة العراقية ناجي السويدي • ولكن ابن سعود حين اجتمع بفصل على البارجة « لوبن » وجده يتطرق في حديثه الى مسائل الخلاف بين الحكومتين • فصبر ابن سعود حتى انتهى فيصل من حديثه ، وعند هذا أشار ابن سعود الى ما كان له من شرط مسبق في عدم التطرق الى مثل تلك المسائل • فتكلم المندوب السامي قائلا بأنه يأسف لأنه لم يخبر الملك فيصل بهذا الشرط • وكذلك تكلم ناجي السويدي فقال انه رأى المصلحة تقضي باجتماع الملكين وان لا مانع من التطرق الى مسائل الخلاف بين الحكومتين • فالتفت الملك فيصل نحو ناجي السويدي وأخذ يؤنبه على ما فعل • واستدرك ابن سعود الامر حيث قال : ان الامر متروك لجلالة الملك فيصل ان شاء بحث مسائل الخلاف وان شاء تركها • فكان جواب فيصل انه يرى احالة تلك المسائل الى مندوبي الحكومتين للتداول فيها • وعند هذا انسحب المندوبون الى جانب من الباخرة وصاروا يتداولون في الموضوع (٦٣) ***

عاد الملكان بعد هذا الى الحديث الخاص بينهما ، وكان حديثاً مليئاً بالجملة ، فكان يخاطب أحدهما الآخر بـ «أخي» أو «خوي» (٦٤) • وقد اوضح ابن سعود كيف بدأت العداوة بينه وبين الحسين ، وذكر أن السبب فيها لم يكن منه • وهنا لم يتردد فيصل في توجيه بعض اللوم الى أبيه ، كما أشار الى أن المحرض الاول له كان خالد بن لؤي (٦٥) ***

- (٦٣) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٥١٠ - ٥١٢ •
 (٦٤) صادق حسن السوداني (المصدر السابق) - ص ٣٣٦ •
 (٦٥) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٥١٣ •

والواقع أن هذا الاجتماع بين الملكين كان فاتحة عهد جديد فسي العلاقات بين الدولتين ، فلم يقع بعده ما يعكس صفو العلاقات بينهما • ويجب أن لا ننسى في هذا الصدد ان كلا الرجلين كانا من أولي السياسة الواقعية ، وقد رأيا أن من المصلحة أن تناسيا الاحقاد ، فسن شأن الحق انــــه لا يؤذي الا صاحبه •

حرب اليمن :

كان هناك خلاف بين ابن سعود وامام اليمن يحيى حميد الدين حول منطقة نجران التي تقع بين اليمن ونجد ، كل منهما يدعي أنه أحق بها من الآخر • وقد جرت مفاوضات بين الفريقين مدة طويلة دون جدوى • وفي شهر آذار ١٩٣٤ نفذ صهر ابن سعود ، فأنذر الامام يحيى • وفي ٢١ منه أعلن ابن سعود الحرب على اليمن ، وزحفت قواته عبر الحدود اليمنية •

كانت القوات السعودية تعتمد على السيارات في تنقلها ، وكانت مؤلفة من رتلين : أحدهما زحف بمحاذاة الساحل تحمله نحو ثمانمائة سيارة بقيادة الامير فيصل بن عبدالعزيز ، والثاني زحف باتجاه العاصمة صنعاء عن طريق صعدة بقيادة الامير سعود بن عبدالعزيز • ولم يلق الرتل الاول أية مقاومة في زحفه ، فقد كانت خطة الامام يحيى أن تسحب قواته من الساحل وتتحصن في الجبال • وفي ٦ أيار تمكن الرتل من احتلال ميناء الحديد من غير مقاومة • أما الرتل الثاني فكان زحفه بطيئاً جداً ولم يستطع ان يحقق أهدافه لوعورة الطريق وكثرة الجبال والوديان فيه •

أثارت هذه الحرب اهتماما كبيرا في البلاد العربية واوروبا ، وألف المجلس الاسلامي الاعلى في فلسطين وفداً للتوسط في الصلح بين الفريقين من الحاج أمين الحسيني رئيسا ، والامير شبيب أرسلان ومحمد علي علوبة باشا وهاشم بك الاتاسي أعضاء ، وعلي افندي رشدي سكرتيرا • وكان المتوقع أن ينضم الى الوفد ياسين الهاشمي ونوري

السعيد ، ولكن مواع خالت دون ذلك • وفي ١٣ نيسان غادر الوفد
السويس متوجهاً الى مكة ، وحين وصلها قابل ابن سعود ، ثم سافروا
جميعاً الى الطائف •

وصلت الى ابن سعود البرقية التالية من الامام يحيى : « يكفي ما قد
كان ، ونعوذ بالله من شرور المتربصين بالاسلام الدوائر لتحقيق مطامعهم •
بلاد يام تحت حكمكم وقد أمرنا برفع جندنا من بلاد نجران • وتفضلوا
بطلب السيد عبدالله بن الوزير الى حضرتكم لاستكمال المعاهدة الاخوية ،
عافاكم الله • وقد كان سحب هذه البرقية بواسطة أسيرة لاختلاط طائر
الهواء لدينا - يقصد جهاز اللاسلكي - ويجري العمل على اصلاحه •
فتفضلوا بالجواب عن طريق أسيرة » (٦٦) •

رد ابن سعود على برقية الامام يحيى مبدئياً استعداداً للصلح على
شروط معينة • فأبرق الامام قبوله للشروط • وفي ١ أيار وصل الى
الطائف عبدالله بن الوزير مندوب الامام يحيى • وقد بذل أعضاء وفد
المجلس الاسلامي جهوداً لا يستهان بها في التوفيق بين الفريقين • وفي ٢١
أيار تم التوقيع على معاهدة الصلح ، وانتهت الحرب •

أثار هذا الصلح السريع انتباه الرأي العام العالمي واستغرابه ، لان
ابن سعود وافق بهذا الصلح على انسحاب قواته من الاراضي اليمنية
 لقاء شروط اعتبرت بسيطة جداً هي : (١) جلاء القوات اليمنية عن
نجران ، (٢) تسليم الادارة اللاجئين في اليمن الى ابن سعود ، (٣) اطلاق
سراح الرهائن المعتقلين عند الامام يحيى •

المظنون أن هناك سببين رئيسيين دفعا ابن سعود الى الصلح هما :

أولاً : كان ابن سعود يخشى من تدخل الدول الأجنبية في اليمن ،
والظاهر أنه كان يخشى بوجه خاص من ايطاليا ، اذ المعروف عن هذه

(٦٦) أمين سعيد (تاريخ الدولة السعودية) - بيروت - ج ٢ ص ٣٧٦
- ٣٧٧ •

الدولة انها كانت ترنو بعين الطمع الى اليمن • ولما احتلت القوات السعودية ميناء الحديد في ٦ أيار وصلت ثلاث سفن حربية ايطالية الى الميناء بحجة المحافظة على الرعايا الايطاليين ، وحاول القائد الايطالي انزال بعض جنوده الى البر ولكن القوات السعودية منعتهم من ذلك • ويقال ان وزارة الخارجية الايطالية أعلنت في ذلك الحين ان ايطاليا لن توافق على انتقال اليمن الى حكومة غير يمانية^(٦٧) •

ثانياً : كانت القوات السعودية ليس لها تمرس في حرب الجبال ، بينما كانت القوات اليمنية على النقيض منها قد اعتادت على حروب الجبال زماناً طويلاً • وقد أذاعت بعض وكالات الانباء من القاهرة ان رتل الامير سعود تكبد في بعض معاركه الجبلية خسائر فادحة^(٦٨) • ومن الممكن القول ان ابن سعود كان يخشى أن تحل بقواته في الجبال هزيمة ساحقة لا يعلم مغبتها الا الله •

يروى أن ابن سعود صرح لاحد الاشخاص الذين يثق بهم عن السبب الذي حدا به الى الصلح قائلاً : « كثيرون في بلدي وفي غيرها من بلاد العرب والمسلمين هم الذين أساروا علي بحماس وايمان بمتابعة العمل العسكري في اليمن وضمه الى المملكة لاقامة الدولة العربية الموحدة في شبه الجزيرة العربية ، ولكنني لم أصغ لكل هذه المشورات والنصائح ، لاني عندما كنت أجيل النظر في شواطيء شبه الجزيرة في الجنوب العربي كنت أرى ان بريطانيا قد احتلت كل هذه المناطق عسكريا وفرضت حمايتها عليها ، في حين أنها لم تجرب اختلال اليمن عسكريا لتفرض حمايتها عليه • ومن الواضح ان الحكومة البريطانية لم تعف عن اليمن زهداً فيه ، وانما فعلت ذلك لانها تعرف اليمنيين معرفتها لليمن وطبيعته • ولذلك فقد كان من خطئ الرأي أن أقدم على انجاز خطوة ابتعدت عنها بريطانيا وهي

(٦٧) أمين سعيد (المصدر السابق) - ص ٢٧٨ - ٣٧٩ •

(٦٨) جريدة (العراق) - في عددها الصادر في ١٠ أيار ١٩٣٤ •

في أوج قوتها العسكرية والسياسية والمالية ، وأن أعرض نفسي وبلدي
الناشيء لمغامرة تهيتها بريطانيا وهي امبراطورية عظمى ، بالاضافة
الى الخلاف الاساسي بين أهدافي العربية الاسلامية والاهداف
البريطانية » (٦٩) *

ان هذا القول يفصح عن طبيعة ابن سعود في تجنب المغامرات ،
فهو لا يقدم على خطوة الا بعد تمحيص وتروي ، وكأنه كان يخشى أن
يحل به ما حل بأسلافه حين غامروا وتوسعوا في الفتح من غير توقف ،
وكان مصيرهم الاسر والقتل وضياع المملكة .

صدى الحرب في العراق :

كان الشيعة في العراق اكثر الناس تحسناً بحرب اليمن واهتماماً
بها . فهم قد تحمسوا في تأييد الامام يحيى تحمساً عظيماً ، وكانوا يأملون
منه أن يفتح الحجاز ويعيد تعمير قبور البقيع . وصادف أن حل شهر
محرم في نفس الوقت الذي كانت فيه الحرب ناشبة في اليمن ، فصارت
نوحيات المواكب الحسينية وأهازيجها تدور حول تأييد الامام يحيى والدعاء
له بالنصر المبين . *

ومما يلفت النظر ان الجرائد العراقية أخذت تنشر الاخبار المثيرة
حول انتصارات القوات السعودية ، وأصدرت بعض الجرائد عقب اختلال
الحديدة في ٦ أيار ملاحق خاصة ذكرت فيها أن ثورة قامت في اليمن على
الامام يحيى ، وهجمت الجماهير على قصره في صنعاء ، واضطر هو الى
التنازل عن العرش لابنه . وذكرت الجرائد أيضاً أن القوات السعودية
احتلت صنعاء ونودي بالامير فيصل بن عبدالعزيز ملكاً على اليمن الخ . . .

ولم يهن على الشيعة قبول هذه الاخبار ، فصاروا من جانبهم يخلقون
الاخبار المضادة . وانتشرت الاشاعات بينهم عن ضخامة الجيوش اليمنية
وكيف أنها سوف تصل الى مكة قريباً وتسحق الجيوش السعودية وتفنيها

(٦٩) أحمد عسه (معجزة فوق الرمال) - بيروت ١٩٦٦ - ص ١٢٣ .

عن بكره أبيها • وأبرق بعضهم الى الامام يحيى يعربون عن تأييدهم له ، فأجابهم شاكرًا بواسطة « طائر الهواء » •

مشكلة أخبار حرب اليمن أنها كانت من مصدر واحد تقريباً ، هو المصدر السعودي • فقد كان لابن سعود وكلاء وأعوان منتشرون في البلاد العربية وبعض البلاد الأخرى ، وكانوا ينشرون الأخبار المبالغ فيها حول انتصارات الجيوش السعودية • أضف الى ذلك ان الصحف الأوربية كانت تجد في تلك الأخبار ما يجذب القراء خاصة فيما يتعلق بابن سعود وصعود نجمه وشخصيته البدوية الرومانتيكية • أما امام اليمن فكان قد اتخذ سياسة العزلة عن العالم ، ولم يكن له في العالم معجبون أو دعاة • ولهذا اتخذت وكالات الأنباء العالمية موقف التحيز الى جانب ابن سعود وأهملت جانب الامام يحيى • ولكنها عقب اعلان الصلح صارت تنفي كثيراً من الأخبار التي نشرتها من قبل •

محاولة اغتيال ابن سعود :

بعد مرور عشرة أشهر على توقيع معاهدة الصلح جرت في مكة محاولة لاغتيال ابن سعود قام بها ثلاثة يمنيون • وخلاصة الحادثة : ان ابن سعود بينما كان يطوف حول الكعبة في اليوم الأول من عيد الاضحى من عام ١٣٥٣ هـ - الموافق ليوم ١٦ آذار ١٩٣٥ م - خرج اليه من حجر اسماعيل رجل يمني وهو شاهر خنجره ويصيح : « الله اكبر ، الله اكبر » ، فاعترضه أحد رجال الشرطة ، ولكن اليمني تغلب عليه حيث طعنه بالخنجر وأرداه قتيلاً ، وعند هذا أسرع اليه أحد عبيد ابن سعود فصوب نحوه بندقيته وقتله • وفي الوقت نفسه ظهر رجل يمني آخر وبسده خنجر ، فاقرب من ابن سعود ، ولكن الامير سعود الذي كان يطوف خلف أبيه وقاه بجسمه ، وقد أصيب الامير من جراء ذلك بطعنة في أسفل كتفه اليسرى • وأسرع اليه أحد عبيده فأطلق على اليمني رصاصة من الخلف أردته قتيلاً • وكان هناك رجل يمني ثالث كامناً في حجر اسماعيل ، وقد

خرج جازياً يريد العراق بعد ما رأى مصير صاحبيه ، فأطلق عليه أحد رجال الشرطة النار من بندقيته ، فأصابه • وقد ألقى عليه القبض وفيه رمق من الحياة ، ولكنه مات قبل أن يصلوا به الى المخفر •

كان في مكة يومذاك كثير من الحجاج اليمانيين ، وقد خيف عليهم أن يهاجمهم النجديون للانتقام منهم ، ولكن ابن سعود أصدر أمره بعدم التعرض لأحد منهم ، وأنذر بالعقوبة الرادعة كل من يعتدي عليهم • وأصدرت جريدة « أم القرى » ملحقاً خاصاً طبعت منه كميات كبيرة ووزعته بين الحجاج مجاناً لتهذئة الخواطر وتسكين الاعصاب (٧٠) •

وكان في مكة أيضاً وفد كشافى عراقي مؤلف من المعلمين والطلاب برئاسة يوسف عز الدين الناصري • وقد ذهب هذا الوفد مع الوفود مع الوفود الأخرى لتهنئة ابن سعود بنجاحاته ولعائده ، وهتف بحياته وحياة مملكته عدة مرات • ثم ذهب الوفد لتهنئة الأمير سعود ، وألقى عبدالهادي الشماع من أعضاء الوفد قصيدة لتحية ابن سعود باسم الشعب العراقي ، كما ألقى عضو آخر هو يحيى قاف كلمة قصيرة •

دعي الوفد العراقي مع غيره من الوفود والشخصيات البارزة لحضور استعراض الجيش السعودي • وحدث آنذاك حادث كاد يؤدي الى قتل أحد أعضاء الوفد • وخلاصة الحادث ان عبدالكريم عسيان ، وهو من أعضاء الوفد ، حاول أن يأخذ صورة فوتوغرافية لابن سعود عند قدومه الى الاستعراض • فظن أحد عبيد ابن سعود المرافقين له ان آلة التصوير نوع من السلاح يراد قتل سيده به ، فصبوب بندقيته نحو عبدالكريم بغية قتله ، ولكن ابن سعود صاح بالعبد : « حلي ! حلي ! » • ونجس عبدالكريم (٧١) •

(٧٠) نعمان الامين العاني (في المملكة العربية السعودية) - بغداد ١٩٣٧ - ص ٧٨ •

(٧١) مجلة (التربية البدنية والكشافة) البغدادية - في عددها الخاص في ١٥ أيار ١٩٣٥ •

تولى التحقيق في حادثة محاولة الاغتيال مدير الأمن العام ، وهو عراقي الاصل اسمه « مهدي بك » . وبعد جهد عنيف استمر ثلاثة أيام اتضح له أن اليمانيين الثلاثة ينتمون الى قرية بيت حاضر في اليمن ، وهم علي بن علي ، وأخوه صالح ، ومبخوت بن مبخوت . وقد أرسل الامام يحيى الى ابن سعود برقية يستنكر فيها الحادث ويستفضعه ويبرأ السى الله منه (٧٢) . وصرح ابن سعود قائلاً : « والذي اعتقده في الامام أنه رجل شريف ولا يمكنني مطلقاً أن اتهمه بأن له يدأ في هـــــ المؤامرة . . » (٧٣) . وقد دار التهامس بين الناس في مكة مؤداه أن سيف الاسلام أحمد كبير أبناء الامام يحيى له ضلع في تدبير المؤامرة (٧٤) والله أعلم !

من البشة الى الرخاء :

كانت سنة ١٩٣٠ وما بعدها سنوات منحوسة على ابن سعود وعلى سكان الحجاز بوجه عام . ففيها كانت الازمة الاقتصادية الكبرى قد خيمت بكابوسها على معظم أقطار العالم ، وبذا قل مجيء الحجاج الى الحجاز . فبعدها كان معدل عدد الحجاج في السنوات السابقة يقدر بمائة ألف ، انخفض الى أربعين ألف في عام ١٩٣١ ، والى ثلاثين ألف في عام ١٩٣٢ ، والى عشرين ألف في ١٩٣٣ (٧٥) . فساد البؤس والحرمان في أنحاء الحجاز ، وأصبح الكثير من سكانه على حافة المجاعة ، وصار الحجاج أينما ساروا يحيط بهم المتسولون والاطفال من كل جانب يلحفون عليهم في الاستجداء ، واذا رمى أحد الحجاج بفضلات الطعام أو قشور الفواكه تهافت عليها الاطفال متكالبين من شدة الجوع .

وانخفضت عائدات الحكومة السعودية في عام ١٩٣٠ من خمسة ملايين

(٧٢) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٦٢١ .

(٧٣) نعمان الامين العاني (المصدر السابق) - ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٧٤) خيرالدين الزركلي (المصدر السابق) - ج ٢ ص ٦٢١ .

(75) Monroe (Philly of Arabia) London 1973 - P. 173.

جنيه الى مليونين^(٧٦) • وقد عانى وزير المالية السعودي عبدالله السليمان من ذلك أشد العناء فهو أصبح بين نارين : طلبات ابن سعود التي لا يمكن ردها من جهة ، وشحة الموارد من الجهة الاخرى • ويقال انه أبدى حذقاً عجيباً في اجتياز تلك الازمة •

وقد تحمل الموظفون من ذوي الرواتب القليلة قسطاً غير قليل من هذا العناء • فقد فرض عليهم أن يساهموا في قرض كبير للحكومة ، وممرت فترة تأخر فيها دفع الرواتب للموظفين ثمانية أشهر • واضطر الموظفون أن يشركوا أصحاب الدكاكين في مصيبتهم اذ كانوا يتعاون منهم ضروريات الحياة على الحساب واعدن اباهم أن يدفعوا لهم عند تسلم رواتبهم^(٧٧) •

كان فيليبي يومذاك قوي الصلة بابن سعود ، وهو يحدثنا في مذكراته عن الحالة النفسية السيئة التي سيطرت على ابن سعود في عام ١٩٣٠ حيث يقول : « بدأ القلق يستحوذ على الملك عبدالعزيز ، وبدأت أرى معالم اليأس تتسلط على نفسه فتضعف من حيويته ومن تفاؤله • وكنت في ذات يوم أستقل السيارة الملكية في معيته في جولة قمنا بها بعد الظهر ، عندما انطلق يتحدث عن آمال بلاده وأوضاعها ، فأعرب عن قلقه بأن ضعف موسم الحج في السنة التالية سيؤدي الى كارثة اقتصادية تحل بالبلاد ، بالنظر الى عدم وجود موارد أخرى لها » • ويقول فيليبي انه انتهز الفرصة وقال لابن سعود : « ليس ثمة من داع لليأس شريطة أن تكون على استعداد للسعي بدلاً من الاتكال على مشيئة الله لانقاذك ، اذ أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم • فأنت تنام على كنوز مدفونة في الارض ثم تشكو من الفقر بينما لا تحاول القيام بأي عمل لاستغلالها » • فسأله ابن سعود : « ماذا تعني ؟ » ، فأجابه فيليبي : « أعني أن بلادك ملأى بالكنوز

(٧٦) خيرى حماد (عبدالله فيليبي) - بيروت ١٩٦١ - ص ٢٠٨ •

(٧٧) عبدالله فيليبي (المصدر السابق) - ص ٣٦٩ •

الدفينة من نفط وذهب وأنت عاجز عن استغلالها بنفسك ولا تسمح في الوقت نفسه للآخرين باستغلالها بالنيابة عنك ، ، فقال ابن سعود وقد بدا عليه الجهد : « اسمع يا فيلبي ، لو وجدت من يدفع لي مليون جنيه الآن فأنني سأمنحه كل ما يريد من امتيازات في بلادي ، ، فقال له فيلبي : « ان هذه الامتيازات تساوي أكثر من هذا المبلغ بكثير ، وإذا كنت تعني حقاً ما تقول فأنا أعرف رجلاً يستطيع أن يساعدك ، لقد جاء لزيارتك قبل عدة سنوات ولكنك رفضت أن تقابله ، وهذا الرجل موجود في القاهرة الآن ، وإذا حددت لي الموعد الذي ستكون فيه في جدة فسأبرق اليه ، وأنا أضمن لك أنه سيحيي ، ، انه على استعداد للتضحية بأحدى عينيه فسي سبل لقائك ، (٧٨) .

ان الرجل الذي أشار اليه فيلبي هو الثري الامريكي المستر كرين الذي ترأس لجنة الاستفتاء في سوريا عام ١٩٢٠ - كما ذكرناه في الفصل الثالث . فكتب اليه ابن سعود يدعو لزيارته في جدة . فجاء الرجل في أيار ١٩٣١ ، وتعهد لابن سعود بأن يستدعي على نفقته الخاصة المهندس الجيولوجي المشهور كارل تويتشل للبحث عن امكانيات البلاد المعدنية . وقد أنجز المستر كرين وعده ، فوصل المهندس تويتشل الى جدة في صيف ١٩٣١ ، وتجول في أنحاء المملكة السعودية بحثاً عن مكامن الثروات الارضية فيها . وفي ربيع ١٩٣٢ قدم لابن سعود تقريراً ذكر فيه أن هناك علامات تدل على وجود النفط في منطقة الظهران بالقرب من الخليج العربي .

وعلى أثر تقديم هذا التقرير حصل تنافس للحصول على امتياز التنقيب عن النفط في الاراضي السعودية بين شركتين : احدهما أمريكية والاخرى بريطانية . وقد تمكنت الشركة الامريكية أخيراً من الحصول على الامتياز . وفي ٢٩ أيار ١٩٣٣ وقعت الاتفاقية في جدة من قبيل

(٧٨) خيرى حماد (المصدر السابق) - ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

المستر هاملتون ممثل الشركة الامريكية والشيخ عبدالله السليمان ممثل
الحكومة السعودية •

بدأت الشركة الامريكية تبحث عن النفط في المنطقة التي عينها
تويتشل ، غير أنها لم تعثر على شيء • وظلت الشركة دائبة في البحث
طيلة أربع سنوات دون جدوى ، حتى أدركها اليأس ، وكادت تحزم
أمتعتها وتعود الى بلادها خالية الوفاض • وفي شهر آذار من عام ١٩٣٨
بينما كان مهندسو الشركة يقومون بمحاولتهم الاخيرة ، وهم بين اليأس
والرجاء ، انبثق النفط بين أيديهم بشكل أثار دهشتهم وفرحهم
العظيم (٧٩) •

أخذ انتاج النفط في المملكة السعودية يزداد عاماً بعد عام ، وقد
تحولت هذه المملكة به من دولة فقيرة الى دولة تعد من أغنى الدول في
العالم • انها الآن المصدرة الاولى للنفط في العالم ، والمنتجة الثالثة للنفط بعد
الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية ، وهي تحتل الآن المرتبة
الأولى في العالم من حيث كمية النفط الكامن تحت أرضها ، اد تقدر هذه
الكمية بنحو عشرين مليار طن •

زوجاته وأولاده :

كان ابن سعود مزوجاً الى درجة يندر أن يكون له منيل فسي
عصرنا • فقد كان ينزوج ويطلق مرة بعد مرة على أن لا يزيد عدد زوجاته
على الأربع ، وهو العدد الأقصى الذي تجيزه الشريعة الاسلامية • انه
كان يحتفظ دائماً بثلاث زوجات ليكون قادراً على الزواج بالرابعة عند
الحاجة ، وقد سأله أحد البريطانيين في عام ١٩١٧ عن مجموع زوجاته
بما فيهن المطلقات فأجاب : انهن مائة وسوف أتزوج اكثر ان شاء الله (٨٠) •

(79) Howarth (op. cit) - P. 195.

(80) Armstrong (op. cit.) - P. 137.

والمعروف عنه أنه يتزوج ويطلق عدة مرات في السنة الواحدة ، ولكنه قرر في عام ١٩٣٠ أن لا يتزوج أكثر من زوجتين جديدتين في السنة الواحدة (٨١) .

ان كثرة الزواج هذه قد أدت الى كثرة النسل طبعاً • يروي توفيق السويدي في مذكراته : انه عندما قابل ابن سعود في جدة في عام ١٩٢٨ بصحبة السرجلبرت كلايتون ، وجه كلايتون الى ابن سعود سؤالاً عن عدد أولاده الذكور ، فأجابه ابن سعود : « انهم ثمانية عشر » • وهنا اعترض عليه أخوه محمد الذي كان معه قائلاً : « يا محفوظ ، هم أكثر ، والبركة فيهم » • فتناول ابن سعود مسبحته وصار يعد أولاده بها ، وتبين انهم واحد وعشرون • فضحك الحاضرون وضحك ابن سعود معهم (٨٢) .

بلغ مجموع أولاده الذكور أخيراً خمسة وأربعين ولداً ، مات منهم عشرة وبقي خمسة وثلاثون • أما بناته فلا نعلم عن عددهن شيئاً • وكان آخر ولد لابن سعود ولد في عام ١٩٤٧ عندما كان هو في الواحد والسبعين من عمره • ومما يذكر أن عدد أولاده وأحفاده ، بما فيهم البنات ، بلغ عند موته أكثر من ثلاثمائة (٨٣) .

ومن الجدير بالذكر ان ابن سعود لم يكن وحده محباً لكثرة الانسال ، بل كان يشبهه في ذلك بعض أبنائه وإخوته وأبناء عمه • ولهذا تكاثر عدد أفراد الاسرة السعودية بشكل يثير الدهشة ، حتى قيل ان عدد الامراء والاميرات من آل سعود بلغ مؤخراً نحو خمسة آلاف •

ان هذا العدد الكبير من الامراء أصبح ظاهرة اجتماعية لها أثرها الكبير في المملكة السعودية • فهم صاروا طبقة متميزة تعيش فوق القانون • وقد توافر لدى أفراد هذه الطبقة من جراء تدفق النفط مال كثير يكاد

(81) Monroe (op. cit.) - P. 171.

(٨٢) توفيق السويدي (مذكراتي) - بيروت ١٩٦٩ - ص ١٢٧ •
(٨٣) خير الدين الزركلي (المصدر السابق) - ج ٣ ص ٩٥٧ ، ١٠٠٢ ،
ج ٤ ص ١٤٠٠ •

لا يحصى • ولا حاجة بنا الى القول ان اجتماع هذين العاملين - أي التميز الطبقي وتوافر المال - لابد أن يؤدي بطبيعته الى الترف الباذخ والانهماك في الشهوات بلا حدود •

أعطانا المؤلف البريطاني هوارث في كتابه « ملك الصحراء » صورة عجيبة تكاد لا تصدق عن الترف والتبذير اللذين ابتلى بهما الامراء السعوديون • وهو يذكر أن ابن سعود لم يكن يعرف عما كان يفعله أبنائه الا قليلاً ، وكان اذا بلغه شيء عنهم يتملكه الغضب وقد يضربهم بالعصا • ولهذا كان في أواخر ايامه يشعر بالتعاسة العميقة (٨٤) •

يقول فيلبي في هذا الشأن ما نصه :

« كانت المشكلة الكبرى التي واجهها الملك - يقصد ابن سعود - في هذا النضخم الذي طرأ على الاسرة المالكة التي غدت تكون بمفردها طبقة خاصة قائمة بنفسها • وكانت لدى رجال الأمن أوامر شفوية بعدم التعرض للامراء أو المساس بهم مخافة أن تنتشر أخبارهم بين الناس ... أما المشكلة الثانية التي ازدادت نتائجها مع الايام فهي اغراق الملك فسي سخائه وعطاياه ، وهو كرم عُرِف عنه منذ أيامه الاولى ... ولكن مع تكاثر الاموال والموارد وتوقع استمرارها في المستقبل أخذ سخاء الملك يفوق كل حدود الحكمة والعقل ، ويذر بذور الفساد في طريقه • وكان أول المتفعين من هذا السخاء حتماً نساء الحريم والامراء ، ويتلوهم رجال البلاط والحاشية والموظفون • واشتدت الشهوة عند هؤلاء في الحصول على المال كلما زاد الملك اغداقاً عليهم في عطاياه ، وبلغت الهبات حداً لم تعرفه أي بلاد في العصر الحديث • ولكن الملك نفسه لم يبدل طريقته البسيطة في الحياة ، فقد ظلت ملابسه على ما كانت عليه ، وقد ظل على غرامه بانجاب الاطفال حتى اللحظة الاخيرة في حياته ، وان كان آخر أولاده قد ولد في عام ١٩٤٧ » (٨٥) •

(81) Howarth (op - cit.) - P 212 - 229.

(٨٥) خيرى حماد (المصدر السابق) - ص ٢٣٦ •

كان الامراء السعوديون يخشون أباهم في حياته ، ولهذا كانوا يتكتمون في أفعالهم بمقدار جهدهم . فلما مات أبوه في عام ١٩٥٣ انطلقوا في الملذات ينهلون منها كما يشتهون . فلقد ذهب بموته الرادع الذي كانوا يخشونه أو يستحون منه .

يتداول الناس في المملكة السعودية قصصاً مذهلة عن مبلغ الانهماك في الشهوات الذي ابتلى به الامراء بعد موت أبيهم . وربما كان في هذه القصص قسط من المبالغة أو التزويق ، كما هي عادة الرواة في مثل هذه الامور ، انما هي على أي حال قد لا تخلو من الحقيقة قليلاً أو كثيراً . ان الانهماك في الشهوات أمر طبيعي في الانسان حين يغيب عنه الرادع . ولا يشذ عن ذلك الا القليل النادر من الناس .

فيلبي :

لا بد لنا في ختام هذا الفصل من القاء شيء من الضوء على حياة فيلبي ، وهو الرجل الذي ارتبطت حياته بابن سعود ارتباطاً وثيقاً . والواقع ان هذا الرجل عاش غريباً ومات غريباً ، وعده الكثيرون لغزاً من الألغاز .

ولد فيلبي في جزيرة سيلان عام ١٨٨٥ من أبوين بريطانيين . ويروي فيلبي في مذكراته حادثة غريبة وقعت له في طفولته خلاصتها : انه ضاع من أمه وهو رضيع ، وبعد البحث عنه وجدوا امرأة غجرية تحمل رضيعين في عمر واحد وبينهما تشابه عجيب كان هو أحدهما ، فاسترجعوه من الغجرية . ويتساءل فيلبي في مذكراته : هل كان هو الذي استرجعوه ، أم استرجعوا ابن الغجرية ؟ !

في عام ١٩٠٤ دخل فيلبي في جامعة كمبردج ، وأخذ يتجه في حياته الجامعية نحو الاشتراكية والحرية الفكرية . وحين تخرج من الجامعة في ١٩٠٧ دخل في خدمة الحكومة الهندية . وفي ١٩١٠ تزوج من فتاة بريطانية اسمها « دورا » . وفي ١٩١٥ انضم الى الحملة البريطانية في العراق ، وعمل في البصرة والعمارة وبغداد حيث تعلم اللغة العربية . وفي عام ١٩١٧ سافر فيلبي في بعثة سياسية الى الرياض ، فوصلها

في ٣٠ تشرين الثاني ، وقابل ابن سعود ، ثم عبر الصحراء بملاسل عربية قاصداً جدة ، فوصلها في ٣١ كانون الاول ، وقابل الحسين فيها . وكانت سفرته تلك ذات أثر قوي في حياته اذ هو شعر بالتعاطف مع ابن سعود وأحب الصحراء والتغلغل في مجاهلها .

عند عودة فيلبي الى العراق أوعز اليه بالسفر الى الرياض مرة أخرى ، فقابل ابن سعود للمرة الثانية ، وقد سرّ به ابن سعود سروراً كبيراً ، أو تظاهر له بذلك . وقد انتهز فيلبي الفرصة فتجول في الصحاري الجنوبية لاكتشاف مجاهلها وكان معه حرس مؤلف من عشرين رجلاً جهزه بهم ابن سعود . ثم عاد فيلبي من بعد ذلك الى العراق .

في أواخر ١٩١٨ مُنح فيلبي اجازة يقضيها في بلاده ، فوصل السي انكلترا بعد غياب عنها اكثر من عشر سنوات . وبعد انتهاء اجازته قام ببعض المهام التي كلفته بها حكومته . وفي آب ١٩٢٠ أُمّر بالعودة الى العراق في معية المندوب السامي السري كوكس ، ولكنه لم يمكث في العراق طويلاً لأنه اختلف مع كوكس حول السياسة التي انتهجها في العراق ، فقد كان فيلبي يدعو الى انشاء النظام الجمهوري فيه بينما كان كوكس مأموراً بتنصيب فيصل ملكاً . وقد اضطر كوكس أخيراً الى نقل فيلبي الى شرقي الاردن (٨٦) .

أمضى فيلبي سنتين ونصف في وظيفته في شرقي الاردن ، وقد اختلف مع السري هربرت صموئيل المندوب السامي في فلسطين على نحو ما اختلف قبل ذلك مع السري برسي كوكس . فاستقال من وظيفته ، وكتب الى صديق له يذكر سبب استقالته حيث قال : « اني استقلت من هذا العمل لاسباب كثيرة جداً وفي مقدمتها اني لا أقدر أن أواصل العمل مع المندوب السامي الحالي الذي هو يهودي صهيوني والذي لا يستطيع أن يحفظ التوازن بين المصالح الصهيونية والعربية » . أضف الى ذلك ان

(٨٦) انظر تفاصيل ذلك في الجزء السادس من هذا الكتاب - الفصل الثاني .

عبدالله قد خذلني باسرافه الذي وصل الى حد أدى الى تدخل الحكومة البريطانية ، وهذا معناه تدخل النفوذ الصهيوني . ولهذا خرجت ، (٨٧) .

وفي نيسان ١٩٢٤ مُنح فيلبي اجازة طويلة كمقدمة للاستقالة ، فغادر عمان في ١٧ منه ، وبعد أن تجول في تركيا ذهب الى انكلترا . وفي ٢٨ تشرين الأول وصل الى جدة للتوسط في الصلح بين الملك علي وابن سعود - علي نحو ما ذكرناه في الفصل السادس .

بعد استيلاء ابن سعود على جدة عاد فيلبي اليها ، وفتح محلاً تجارياً فيها . وقد حصل على وكالة فورد للسيارات ، كما استورد آلات المسح وأدوات الهندسة والمراوح التي تعمل بالنفط . وفي الوقت نفسه صار فيلبي مستشاراً لابن سعود وصديقاً ، وكان ابن سعود يثق به ويستمع الى نصيحته .

ان التقارير السرية التي كتبها القنصل البريطاني في جدة الى حكومته في تلك الفترة تدل على أن فيلبي كان يبدي نشاطاً ملحوظاً في بث الدعاية المضادة لبريطانيا وفي عرقلة مصالحها . ففي أحد تقاريره يقول القنصل : « ان فيلبي متمسك بكل عناد بديانته التي هي ديانة ثنوية تمثل بريطانيا فيها آله الظلام » (٨٨) . وفي تقرير آخر يقول : « انني أعتقد أن وجود فيلبي في جدة لن يؤدي الى تحسين العلاقات بين بريطانيا وابن سعود » (٨٩) . وفي تقرير ثالث يقول : « ان نشاط المستر فيلبي مستمر . ويبدو أنه لا يضيع أية فرصة لخلق المصاعب لحكومة صاحب الجلالة البريطانية . ولست أدري ما هو قصده من ذلك ، هل هو لتملق المسؤولين هنا من أجل الحصول على امتيازات معينة ، أم من جراء كونه موظفاً سابقاً متدمراً يريد الانتقام من حكومته ... » (٩٠) .

(٨٧) Monroe (op. cit.) - P. 132 .

(٨٨) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١٠٨٠٧) .
(٨٩) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١١٤٣١) .
(٩٠) دائرة الوثائق العامة في لندن - رقم (أف . أو . ٣٧١ - ١١٤٤٢) .

وفي شهر آب ١٩٣٠ أعلن فيلبي اعتناقه للإسلام ، وسمى نفسه « عبدالله » . وقد اختلفت الأقوال في السبب الذي حدا به الى ذلك ، فمنهم من قال ان مناخ جدة لم يلائم فيلبي ، وقد أغمى عليه فيها صيفاً ، فأراد الانتقال منها الى بعض المدن السعودية الأخرى . كما أنه كان يطمح الى تحقيق هدفه الأكبر وهو أن يكون أول من يخترق منطقة الربع الخالي ، وقد وجد ان اعتناقه الاسلام يسهل عليه ذلك (٩١) . وهناك من يقول ان سبب اعتناق فيلبي للإسلام هو حبه للنساء ، ولا سيما الشابات منهن ، وقد وجد في الاسلام وسيلة سهلة للتزوج بهن كما يشتهي .

أما فيلبي فيكذب هذه الأقوال كلها ويقول انه انما اعتنق الاسلام عن اقتناع واخلاص . وقد أشار الى ذلك في مذكراته حيث قال ما نصه : « لقد اجتذبتني الاسلام منذ أيامي الأولى في الهند ، اذ تأثرت بما فيه من بساطة في تناول حقائق الحياة الخالدة وفلسفتها . وكنت قد توقفت منذ أمد طويل عن أكون مسيحياً وأصبحت فيلسوفاً أتطلع الى الحياة بنظرة فلسفية عميقة دون أن تكون لي أية معتقدات أو مشاعر دينية ، على الرغم من اعترافي بان الديانة تؤلف لغالبية الناس ضرورة لا مناص منها . ومع ذلك فقد بدا لي ان الاسلام في الهند قد أصبح محاطاً بسلسلة من الطقوس والمظاهر الغريبة عنه ، وهي طقوس ومظاهر لا يمكن للانسان أن يتقبلها الا بعد تمحيص دقيق . وعندما انتقلت الى العراق وجدت طائفاتها السنية كثيرة التعلق بالرسميات والمظاهر في أداء الفروض الدينية ، بينما وجدت من الصعب أن أؤمن بالنظرية الشيعية التي تستند الى الائمة والأولياء . وعندما نصت الى السعودية اتصلت بما بدا لي الفكرة المبسطة عن الاسلام تستمد وحيها والهامها من القرآن الكريم

(91) Hewarth (op. cit .) - P. 179 .

وسنة الرسول الأعظم ، وتبتعد عن النظريات والعقائد الدينية المتشابهة والمعقدة * وبدأ لي أن المذهب الوهابي هو الدين المثالي ، ولم أجد في تعصب أتباعه ما يسوءني أو ينفرنني ، ورأيت أن مذهبهم يتفق مع حاجات الحياة البشرية والمجتمع في أبسط صورهما • واعتقدت ان الاسلام على هذه الطريقة هو المذهب الذي يستطيع الانسان أن يتقبله قبولاً حسناً ويؤمن به ايماناً صادقاً كوكيل موجه للحياة والسلوك ، وان مقاييسه الدينية تسجّم مع الحاجات الاساسية للبشرية أكثر من أي دين آخر • وإذا كانت فيه بعض الخشونة فانه من الناحية الاخرى يرفض كل زيف وخداع ، كما أنه يرى في تعدد الزوجات خير سبيل لمنع العهر والدعارة من سبيل الوصايا العشر» (٩٢) •

مهما كان الحال فقد أصبح اسلام فيلبي خبراً مثيراً في البلاد العربية والعالم ، وكان معظم الناس في البلاد العربية يظنون ان اسلامه مصطنع لغرض التجسس أو اندس • وقد كتب اليه السر برسي كوكس يقول له : انه قام بحركة سيئة • كما انتقده السر آرنولد ويلسون في جريدة « الاوقات البغدادية » • أما زوجته « دورا » التي كانت حينذاك في انكلترا فقد انزعجت من اسلامه خشية أن يتزوج عليها امرأة اخرى ، ولكنها تظاهرت أمام الناس بالرضا وقالت لهم : « أظن أنكم تعلمون انني الآن مسز عبدالله » (٩٣) •

ومن الجدير بالذكر ان ما كانت تخشاه « دورا » قد حصل فعلاً • وبعد مدة قصيرة من اعتناق فيلبي للاسلام كان جالساً في مجلس ابن سعود ، فتحدث ابن سعود عن عزمه أن لا يتزوج بعد الآن أكثر من زوجتين جديدتين في كل سنة ، فقال له فيلبي معاتباً : « لا تنس أنني ليست

(٩٢) خيرى حماد (المصدر السابق — ص ٢٥٣-٢٥٤ •
(٩٣) Monroe (op. cit.) - P. 169 .

لي سوى زوجة واحدة طيلة حياتي » • فرد عليه ابن سعود قائلاً : « انك الآن بعد دخولك الاسلام سوف تستفيد من حرية اكبر في هذا الشأن » • وعلى أثر ذلك أهدى ابن سعود الى فيلبي جارية صغيرة اسمها « مريم بنت عبدالله الحسن » • وقد كتب فيلبي الى زوجته « دورا » يصف تلك الجارية بقوله : « انها ليست جميلة على أية حال ، ولكنها شابة وحلوة الى درجة كافية » (٩٤) •

مرت بفيلبي خلال الحرب العالمية الثانية فترة عسيرة جداً • فقد اتهمته حكومته بالميل الى المانيا النازية ، وحين ذهب الى الهند اعتقلته ونقلته الى بريطانيا ، وظل هناك طيلة الحرب • ويدعي فيلبي ان نوري السعيد هو الذي وشى به الى الحكومة البريطانية (٩٥) • ولما عاد فيلبي الى المملكة السعودية بعد اطلاق سراحه أهداه ابن سعود جارية جديدة من أصل بلوشي أو فارسي اسمها « روزي العبد العزيز » • وكانت هذه الجارية نحيلة قصيرة في السادسة عشرة من عمرها ولكنها جميلة (٩٦) • أما جاريته الاولى فلا ندري ماذا صنع الدهر بها ، وربما أعتقها فيلبي أو أهداها - والله أعلم !

كانت لفيلبي داران متواضعتان أهداهما له ابن سعود ، احدهما في الرياض والاخرى في مكة • وصار فيلبي يقيم في الرياض تارة وفي مكة تارة أخرى • وقد أنجبت له جاريته الجديدة أربعة أولاد مات اثنان منهم ، وبقي اثنان هما : خالد وفارس • وكان فيلبي حريصاً على تربية هذين الولدين تربية عربية اسلامية •

يحدثنا أمين الميز : انه زار فيلبي في ٢٤ كانون الاول ١٩٥٤ ، في

(94) Ibid , P. 171 .

(٩٥) أمين المميز (المصدر السابق - ص ٢٧٧ •

(96) Monroe (op. cit.) - P. 244 .

داره التي في مكة وكانت مجاورة للحرم ، فوجد الدار بسيطة مكوّنة من طابق واحد ، وكانت غرفة الاستقبال مؤثثة بأبسط الاثاث . وقد جاء اليه ولداه الصغيران خالد وفارس ، فطلب فيلبي من خالد أن يذهب الى أمه يدعوهما للسلام على الضيف ، فذهب خالد الى أمه ثم عاد مكسور المخاطر وهو يقول بلهجة نجدية : « ما تبغي تجي » . ويقول المميز انه صحب فيلبي بعد ذلك للصلاة في الحرم ، فرآه يؤدي الصلاة بكل خشوع وتلو الادعية والآيات القرآنية من أعماق قلبه . ويعلق المميز على ذلك قائلاً : « فهو ، والحق أشهد ، مسلم مؤمن بكل معنى الكلمة » (٩٧) . . .

ظلت علاقة فيلبي بابن سعود حسنة حتى النهاية ، ولما مات ابن سعود أخذت علاقته مع ابنه الملك سعود تسوء تدريجاً . وسبب ذلك ان فيلبي بدأ ينتقد الترف والتفسخ اللذين سادا المملكة في العهد الجديد ، وكتب بعض المقالات حول ذلك في الصحف الاجنبية مما أغضب عليه الملك سعود وحاشيته . وفي أواخر نيسان ١٩٥٥ أخرج فيلبي من البلاد .

ذكرت الحكومة السعودية للقائم بأعمال السفارة البريطانية في جدة الاسباب التي دعتها لاجراج فيلبي من البلاد ، وهي : (١) نشره للشيوعية في داخل المملكة السعودية ، (٢) عمالته للصهيونية ودعواته لليهود ، (٣) دأبه في كتاباته على الانتقاص من منزلة الملك سعود بالمقارنة الى أبيه ، (٤) استمراره على نشر المقالات في الصحف الاجنبية في انتقاد المملكة السعودية وسياستها ، (٥) الفائه أخيراً سلسلة من المحاضرات على موظفي شركة أرامكو في الظهران تتضمن الطعن بالملكة وزجالاتها (٩٨) .

اتخذ فيلبي بعد نفيه بيتاً له في قرية عجلتون في لبنان ، واستدعى

(٩٧) أمين المميز (المصدر السابق) - ص ٢٧٦ .

(٩٨) المصدر السابق - ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

اليه من الرياض زوجته الجديدة وولديه خالد وفارس • وفي ٧ ايلول ١٩٥٥ وصلت الزوجة والولدان الى مطار بيروت ، فطلب منها فيلبي أن تسفر عن وجهها حالاً^(٩٩) ، فأطاعت أمره مرغمة •

أصبح اخراج فيلبي من المملكة السعودية محوراً لدعاية سيئة ضدها ، وأخذت بعض الصحف البريطانية تنشر المقالات حول ما يجري في المملكة السعودية من تفسخ وتبذير • وقد ساهمت اذاعة بغداد في هذه الحملة مما أدى الى توتر شديد في العلاقة بين العراق والمملكة السعودية • واضطر الملك سعود أخيراً الى مصالحة فيلبي والى السماح له بالعودة الى الرياض •

وفي صباح ٣٠ ايلول ١٩٦٠ ، عندما كان فيلبي في بيروت فسي زيارة عابرة لها ، أصيب بهبوط بالقلب ، فنقل الى مستشفى الجامعة الأمريكية • وفي غروب ذلك اليوم لفظ فيلبي أنفاسه الأخيرة ، وكانت آخر كلمة نطق بها هي : « أنا سَمْتُ » • وفي ظهر اليوم التالي نقل جثمانه الى مقبرة « الباشورة » الاسلامية في حي البسطة • ولم يكن في تشييع جنازته سوى عشرة أشخاص كان فيهم ولده الاكبر « كيم » • وقد أسر « -كيم » أن ينقش على قبر أبيه هذه العبارة : « أعظم مكتشفي جزيرة العرب »^(١٠٠) •

مهما اختلفت الآراء في فيلبي وأهدافه في الحياة ، فهناك اتفاق بين الباحثين على أنه كان نزهاً مترفعاً عن الدنيا ، وقد كان في مقدوره أن يكسب الملايين من ابن سعود أو من ابنه سعود ، كما فعل الكثيرون ، ولكنه مات ولم يملك من حطام الدنيا الا القليل • والواقع أنه أفضل من أولئك الذين جمعوا الملايين ، اذ هم تركوها لغيرهم يتمتعون بها وتحملوا هم أوزارها •

(99) Monroe (op. cit.) - P. 284 .

(100) Ibid ' P. 295 .

خاتمة

دروس من التاريخ

عند صدور الاجزاء الاولى من هذا الكتاب أخذ بعض النقاد ينتقدونني على أنني أصبحت مؤرخاً وأهملت الجانب الاجتماعي من التاريخ . مشكلة هؤلاء النقاد أنهم يفهمون علم الاجتماع فهماً محدوداً ، أو مغلوطاً من بعض الوجوه . ان الحقيقة التي أود أن يعرفها هؤلاء النقاد هي أنه لا يوجد فاصل حدي يفصل بين التاريخ والاجتماع . فكلا الأمرين مترابطان ، أو هما وجهان لشيء واحد .

قبل ربع قرن تقريباً كان بعض علماء الاجتماع يسرون فسي دراساتهم على الطريقة التي يريدها هؤلاء النقاد ، اذ هم كانوا اذا أرادوا دراسة مجتمع انكبوا على دراسة حاضره دون الاهتمام بدراسة ماضيه . وقد شاعت هذه الطريقة في الولايات المتحدة شيوعاً كبيراً ، حيث كان العلماء يريدون أن يجعلوا من الاجتماع علماً كعلوم الطبيعة ، ولهذا صاروا يستندون في دراساتهم على مناهج الاحصاء والاستبيان وما أشبه . وقد تبين للكثيرين منهم مؤخراً ان طريقتهم هذه ناقصة وقد لا تصل بهم الى نتيجة مجدية . أنقل فيما يلي قولاً في هذا الشأن لعالم مشهور من علماء الاجتماع الامريكيين ، هو الاستاذ روبرت نيسبت ، ذكره في كتاب له صدر في عام ١٩٧٠ ، حيث قال :

« ان الفجوة بين علم الاجتماع والتاريخ أخذت في السنوات الاخيرة تقلص باستمرار ، وهي الفجوة التي كانت موجودة لمدة طويلة ولا سيما في الولايات المتحدة الامريكية . ففي السنوات العشر أو العشرين الاخيرة صار المؤرخون ينتفعون من مفاهيم علم الاجتماع تدريجاً ، وكذلك صار الاجتماعيون ينتفعون من المعلومات التاريخية . . . ان اكبر منفعة جناها الاجتماعيون من التاريخ هي في موضوع التغير الاجتماعي . . . » (١) .

(1) Robert Nisbet (The Social Bond) — New york 1970 — P. 344—345 .

بين الماضي والحاضر :

الواقع ان الباحث الاجتماعي الذي يتجول في صفحات التاريخ قد يستمد منها دروساً لا تقل أهمية عن تلك التي يستمدّها من التجول في أنحاء المجتمع . وبعبارة أخرى : ان تجول الباحث في الزمان لا يقل نفعاً عن تجوله في المكان ، كلاهما يمدّه بالمعلومات الضرورية لفهم المجتمع البشري وطبيعة الانسان .

خذ مثلاً حركة « الاخوان » التي استفحلت في نجد عقب الحرب العالمية الاولى ، والتي درسناها على شيء من التفصيل في فصول سابقة . فان هذه الحركة قد تعطينا دروساً اجتماعية لا تقل قيمة عن تلك التي نستمدّها من دراسة ظاهرة اجتماعية معاصرة .

ان القاريء حين يرى مظاهر التعصب المفرط لدى الاخوان كتحريمهم للتلفون والتلغراف ، أو للدراجة والطائرة ، قد تملكه الدهشة اذ هو لا يستطيع أن يتصور كيف يمكن للعقل البشري أن يهبط الى مثل هذا المنحدر العجيب . ان القاريء لا يدري أن عقله لا يختلف عن عقل الاخوان في شيء ، فكلاهما من طبيعة واحدة ، ولكن الظروف التي ينشأ فيها العقل هي التي تجعله يفكر على هذا النمط أو ذاك . ولو أن القاريء كان قد نشأ في مثل تلك البيئة الاجتماعية التي نشأ فيها الاخوان لكان مثلهم في تفكيره وسلوكه ، ولربما رأيناه يحمل السيف ليقتل به أمثال كاتب هذه السطور !

اني أدركت في صباي أناساً في العراق كانوا يحرمون قراءة الجريدة ودخول المدرسة وتعلم اللغة الانكليزية ولبس القبة وحلق اللحية واستعمال الملعقة في الأكل . وفي عام ١٩٢٤ صدر في النجف كتاب مطبوع لأحد رجال الدين هو الشيخ عبدالله المامقاني كان عنوانه : « السيف البتار في الرد على من يقول ان الغيم من البخار » . وشهدت في تلك الآونة رجلاً من العامة يعتدي على آخر لأنه سمعه يقول : بأن

المطر من البخار • وقد يعجب القاريء اذا علم أن خمسة كتب صدرت في العراق في موضوع تحريم خلق اللحية وهي : (١) « ارشاد أهل الحجة في حرمه خلق اللحية » لمحمد حسن كبة ، (٢) « تحريم خلق اللحية » لقاسم الجليلي ، (٣) « التقيش في خلق الريش » لهبة الدين الشهرستاني ، (٤) « ذكرى ذوي النهى في حرمة خلق اللحية » لحسن الصدر ، (٥) « زينة الرجال - رسالة في اثبات حرمة خلق اللحية » لمحمد حسين الأديب • وربما كانت هناك كتب أخرى في هذا الموضوع لا نعرفها •

لا يجوز أن نلوم هؤلاء على ما قالوا أو فعلوا ، فهم ليسوا الا نتاج بيئتهم وظروفهم • ومن يدرس تاريخ الشعوب الاوربية يجد أنها لم تكن تختلف عنا من هذه الناحية عندما كانت ظروفها تماثل ظروفنا • ان العقل البشري يخضع في تفكيره للقوالب التي تصبها البيئة الاجتماعية فيه • فلو أن انساناً نشأ في بيئة مليئة بالخرافات ، وظل يعيش في تلك البيئة لا يعرف غيرها ، لرأيناه يعتقد اعتقاداً جازماً بأن تلك الخرافات حقائق واضحة ، وهو يعجب حين يجدنا لا نوافقه على معتقداته ، وقد يحقد علينا ويضمر لنا الشر •

رأيت ذات مرة رجلاً يتحمس لعقيدته التي نشأ عليها تحمساً شديداً ، فسألته : لو أنه كان قد نشأ في البلدة الفلانية ، وهي بلدة مخالفة في عقيدتها لبلدته ، فهل كان يتحمس لتلك العقيدة مثل هذا الحماس ؟ فكان جوابه : « نعم بكل تأكيد لان الحق واضح وضوح الشمس ! » • انه لا يدري انه لو كان قد نشأ في البلدة الاخرى لوجد الحق واضحاً في الجانب الآخر •

طبيعة الانسان :

اني حين أدرس أحداث التاريخ أشعر كأنني أنظر الى أحداث تجري في أيامنا • لا أبكر أن هناك فروقاً كثيرة بين أحداث الماضي والحاضر ،

ولكننا يجب أن لا ننسى ان هذه الفروق ظاهرية ، أما الجوهر فهو واحد لا يتغير ، وأقصد به هذا الحيوان العاقل الذي يدعى « الانسان » .

ان الانسان قد تغير كثيراً في عاداته وأزيائه ، وفي قيمه ومعتقداته ، حسب تغير الزمان والمكان ، انما هو في أساس طبيعته لم يتغير ، حيث بقي هو هو ذلك الحيوان المتعصب الذي عرفناه منذ قديم الزمان . وأرجح الثمن أنه سيبقى كذلك الى ما شاء الله .

اتفق الفلاسفة على أن أهم فرق بين الانسان والحيوان هو العقل ، ولكنهم اختلفوا في تعريف كنه هذا العقل وفي تحديد مجاله . فقد كان الفلاسفة القدماء يعتقدون ان العقل البشري قادر أن يدرك الحقيقة كاملة اذا تخلص من التعصب والانانية والعاطفة وغيرها من معوقات التفكير الصحيح ، وكانوا يتصورون ان التخلص من هذه المعوقات أمر يسير وأنه في مقدور أي انسان أن يفعله اذا أراد .

قل لهؤلاء الفلاسفة : اذا كان في مقدور الانسان أن يتخلص من معوقات التفكير الصحيح كما تزعمون ، فلماذا لم تتخلصوا أنتم منها ؟ ! نحن نراكم تختلفون فيما بينكم وتنازعون كما يختلف العوام ويتنازعون . وهذا معناه أن عقولكم في أساس طبيعتها لا تختلف كثيراً عن عقول العوام . أثبتت الدراسات العلمية الحديثة ان العقل البشري متحيز ومحدود بطبيعته ، وان معوقات التفكير الصحيح كالتعصب والانانية والعاطفة ليست طارئة عليه بل هي دوافع أصيلة فيه .

ان الانسان قادر أن يكون منصفاً وموضوعياً في حكمه على أمر من الأمور اذا كان ذلك الأمر خارجاً عن نطاق تعصبه الاجتماعي أو مصلحته الخاصة أو عاطفته . ولا بكاد الأمر بدخل في نطاق هذه الدوافع ، كلها أو بعضها ، حتى نجد الانصاف والموضوعية بدأتاً تختفيان من ذهن الانسان ، وعند هذا يصبح الانسان كغيره من الناس ظالماً وهو يظن أنه عادل .

تمكن الانسان الحديث من الصعود الى القمر ، ولكنه في الوقت نفسه ظل كما كان أسلافه منذ آلاف السنين يشن الحروب ويقترب الفظائع

ويمارس التمييز العنصري والطائفي • فهو قد تقدم تقدماً عظيماً من ناحية ،
انما هو من الناحية الاخرى ظل يراوح في مكانه •

رأينا الاخوان النجديين يقتربون الفظائع المنكرة وهم يحسبون أنهم
سائرون على سنة الله ورسوله ، فاعتبرنا ذلك منهم همجية تنافي الحضارة
ثم جاءت الحرب العالمية الثانية بعدئذٍ فرأينا بعض المتحضرين لا يقلون
همجية عن الاخوان ، وربما تفوقوا عليهم من بعض الوجوه • فان ما فعلوه
في معسكرات الاعتقال وغرف الغاز والمذابح الجماعية ما يمكن أن يستنكره
حتى الاخوان • يجب أن لا ننسى ان الاخوان كانوا يتيحون فرصة لمن
يقع في أيديهم في أن يتوب من كفره ويستغفر الله عنه ، وهم عند ذلك
يعفون عنه ويقبلونه ويهئونه بالايمان • أما المتحضرون فلم يكونوا يقبلون
توبة ولا استغفاراً !

ان الانسان بوجه عام يكون طيباً بشوشاً نحوك حين تكون منسجماً
مع دوافعه التي ذكرناها • انما هو لا يكاد يراك معارضاً له فيها أو منافساً
له عليها حتى تنقلب ابتسامة الى تكشيرة ، والويل لك حين يسلطه الله
عليك •

نلاحظ هذا في الطفل البشري منذ سنواته الباكرة ، فهو لطيف جداً
معك لانه يجد نفسه ضعيفاً تجاهك وهو يتوقع منك المنفعة والرعاية • غير
أنه لا يكاد يلمح طفلاً أضعف منه ويده لعبة يلهو بها حتى يسرع الى
مهاجمته ، ويلطمه ويتزعزع اللعبة منه قسراً ، ثم يتركه يبكي دون أن يشعر
بأية شفقة عليه •

★ ★ ★

اني اعتذر للقاريء لتكرار هذه الاقوال في كتيبي مرة بعد مرة • فهي
في نظري تتضمن حقيقة كبرى يجب علينا استيعابها لكي نفهم بها أحداث
التاريخ وظواهر المجتمع •

ان الذي أردت قوله في هذه الخاتمة هو أن الدنيا سارت ، وما زالت
تسير ، على وتيرة واحدة لا تتغير ، ومن يريد أن ينجح فيها ينبغي أن يفهمها
كما هي في الواقع لا كما يجب أن تكون •

فهرس المحتويات

الصفحة	رقم الفصل	عنوان الفصل
٣		المقدمة
١٢	الأول	أسراف مكة
٤٧	الثاني	الحسين بن علي
٨٢	الثالث	الحكم الشريف في سوريا
١٧٨	الرابع	الحسين ملكاً
٢١٢	الخامس	عبدالعزیز بن سعود
٢٤١	السادس	أيام الملك عليّ
٢٧٦	السابع	الحسين في سنواته الاخيرة
٢٩٨	الثامن	ابن سعود يعاني المشاكل
٣٦٢		الخاتمة

حول الاخطاء المطبعية

وقعت أخطاء مطبعية في هذا الملحق على الرغم من شدة العناية
بالتصحيح ، وهي أخطاء نأمل أن يفتن القارئ اليها ويصححها بنفسه .

* * *

رقم الايداع في المكتبة الوطنية بمئداد ١٩٥٢ لسنة ١٩٧٩

٣٥٧ / ١٢٠٠٠

١٩٨٠/١/٢٣

كتب المؤلف

- | | | |
|------|---------|---|
| ١٩٥١ | بغداد | (١) شخصية الفرد العراقي |
| ١٩٥٢ | بغداد | (٢) خوارق اللاشعور |
| ١٩٥٤ | بغداد | (٣) وعاظ السلاطين |
| | | (ترجم الى الفارسية في عام ١٩٥٥) |
| ١٩٥٥ | بغداد | (٤) مهزلة العقل البشري |
| ١٩٥٧ | بغداد | (٥) اسطورة الأدب الرفيع |
| ١٩٥٩ | بغداد | (٦) الاحلام بين العلم والعقيدة |
| ١٩٦٢ | القاهرة | (٧) منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته |
| | | (صدرت طبعته الثانية في تونس عام ١٩٧٧) |
| ١٩٦٥ | بغداد | (٨) دراسة في طبيعة المجتمع العراقي |
| | | (ترجم الى الألمانية في عام ١٩٧٢) |
| | | (٩) لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث |
| ١٩٦٩ | بغداد | الجزء الاول |
| ١٩٧١ | بغداد | الجزء الثاني |
| ١٩٧٢ | بغداد | الجزء الثالث |
| ١٩٧٤ | بغداد | الجزء الرابع |
| ١٩٧٧ | بغداد | الجزء الخامس (القسم الاول) |
| ١٩٧٨ | بغداد | الجزء الخامس (القسم الثاني) |
| ١٩٧٦ | بغداد | الجزء السادس |
| ١٩٧٩ | بغداد | الجزء السادس (ملحق) |
| | بغداد | الجزء السابع |

SOCIAL ASPECTS
Of
IRAQI MODERN HISTORY

by

Dr. ALI WARDI

***EMERITUS PROFESSOR OF SOCIOLOGY
IN THE UNIVERSITY OF BAGHDAD***

VOLUME SIX — SUPPLEMENT

SECOND EDITION

To: www.al-mostafa.com